الأمير شكيب أرسلان

خلاصة تاريخ الأندلس

الدار التقدمية

خلاصة تاريخ الأندلس

الأمير شكيب أرسلان

خلاصة تاريخ الأندلس

قدم له
د. عبّاس أبو صالح

الدار التقدمية

الأمير شكيب أرسلان / خلاصة تاريخ الأندلس

قدّم له:

د. عبّاس أبو صالح

الدار التقدمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٩٦١_٥/٣١٠٥٥٥ - ٩٦١_٥/٣١١٥٥٥

E – mail: moukhtarainf@terra.net.lb

http : //www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

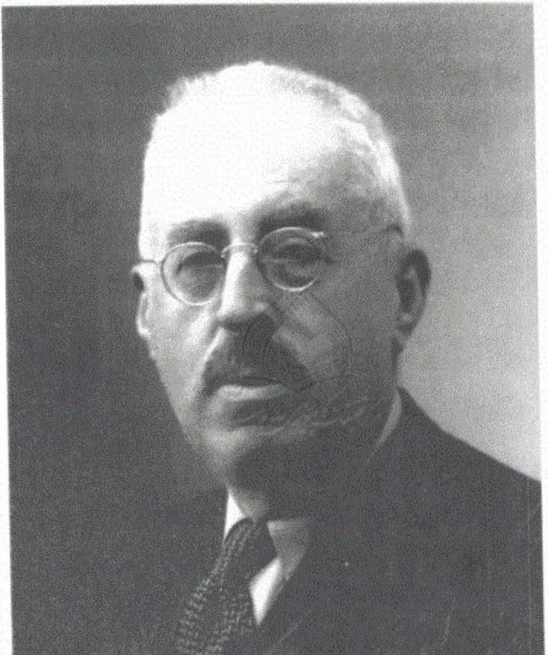
كلمة لا بدَّ منها

إنَّ هذا التراث القيِّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه
إلى الأساتذة:
المرحوم الدكتور يوسف إيبش، والدكتور يوسف خوري،
والمحامي الأستاذ توما عريضه،
الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبُّد العناء
في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية
بحثًا واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم،
لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان،
طيّ النسيان والضياع.
فلهم دائم العرفان لِما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع
هذا التراث ونقله.

الدار التقدمية

الأمير شكيب أرسلان

١٨٦٩ - ١٩٤٦



مقدّمة الناشر

استطاعت حقبة "الأندلس" التي انسحبت على ما يقارب الثمانمائة سنة من الحكم العربي لتلك المنطقة، الأوروبية المنشأ واللغة، من أن تسجّل علامة فارقة في تاريخ العرب، السياسي والثقافي، دون أن نغفل ما قامت به عمليّات النقل والترجمة من تيّار فكري متميّز، رافق تاريخ تطوّر العلوم، لا في الإمبراطورية العربية المترامية الأطراف آنذاك فقط، بل في العالم أجمع، الذي ما لبث أن استفاق من ظلمته على شعاع نور قرطبة ومكتبتها وروّادها.

ومهما يكن من أمر تكسُّر أوصال ذلك الحكم العربي الغابر أيام حكم ملوك الطوائف، والذي انتهى بانهزام العرب وانسلاخهم عن حضارة كان لهم الفضل الأول في تجديد ملامحها، وتهذيب صورها وتطلّعاتها، إلاّ أنَّ نظرةً في خلاصة تاريخ الأندلس تبقى دائمًا مفيدة، على الرغم من مرور قرون وقرون على زمن "الأوج" للعرب، وللمسلمين في أوروبا، القارّة، والحلم المفقود.

هذا التميُّز والتطوّر الهائل الذي لامس كلّ عناصر الحياة الثقافية والفكرية والاجتماعية، استوقف أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان، في أكثر من موقع، وعند ناصية أكثر من محطّة؛ وهو المحلّل والناقد والمتابع لسير الحضارة العربية والإسلامية، والمدافع عن لوائها الذي كان يريده منارة أزلية تفخر به كلّ الشعوب والأمم، وإن لم تكن تنطوي تحته بالولاء والانتماء.

لقد شكّلت السنوات الأخيرة من القرون الثمانية في الأندلس مادّة بحث وتمحيص للأمير العروبي الذي يجيد قراءة التاريخ، ويتقن الغوص في بحور تقلّباته، ليطفو في يمّ المعرفة البنّاءة، مؤرّخًا فذًّا، وناقدًا موضوعيًّا، وسيفًا مسلّطًا على كلّ ما يشوب زوايا التاريخ من هفوات وانحدارات غرق العرب فيها، عن قصد، أو عن إرادة لاواعية منهم. وهو هنا، في هذا المؤلَّف الهامّ "خلاصة تاريخ الأندلس" ـ الذي اعتنى بالتقديم له مشكورًا الدكتور عبّاس أبو صالح ـ يتابع عمله الذي تعرّفنا إلى قسط منه، من خلال ما قمنا بنشره

إلى الآن في الدار التقدّمية، من مدّخرات قيّمة وضعها الأمير أمانة بين أيدينا، تاركًا لنا الإنارة لطريق سار به والتمس خطواته المُصلحة فيه، دون تواكل أو تأفف أو ضِيْقٍ وَجْدٍ، فاستحقّ بحقّ لقب البحّاثة المؤرِّخ الذي يعبّد دروب المعرفة أمام المجدّين من السائرين في درب العلا... لعلّهم يسترشدون.

الدار التقدّمية

في، ١٦ أيلول ٢٠٠٩

❁ ❁ ❁

خلاصة تاريخ الأندلس

تقديم بقلم: د. عباس أبو صالح

لا شكّ أنّ مآثر العرب المسلمين وآثارهم في إسبانيا، هي صفحة مشرقة في تاريخهم تحلو مطالعتها وتقصّي أخبارها لدى كلّ قارئ عربي حتّى يومنا هذا. أمّا اهتمام المؤرّخين الغربيين في هذا الموضوع، فهو يعود لقرون عدّة مضت، نظرًا لأهمّية تراث الأندلس الفكري في قيام النهضة الأوروبية، فضلاً عن كونه، على الصعيد السياسي، جزءًا من تاريخ أوروبا الوسيط والحديث. وعلى صعيد آخر، يُجمع الباحثون على أنّ فتح العرب المسلمين لذلك الجزء من شبه جزيرة إيبيريه هو من الفتوحات الإسلامية الهامّة في العصر الوسيط، والذي تفوق أهمّيته الحضارية النتائج السياسية والعسكرية.

وإذا كان هذا الفتح قد بدأ في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥م)، فقد استمرّ حكم الأمويين في الأندلس نحو ثلاثة قرون كانت كلّها مليئة بالأحداث الجسام. إنّما تميّز عهد عبد الرحمن الناصر الأموي (٩١٢-٩٦١م) هناك، إلى جانب الإنجازات العسكرية، بنهضة فكرية تمثّلت في جعل مدينة قُرْطُبة - عاصمة الأندلس - مدينة ضاهت في ازدهارها يومذاك بغداد، عاصمة الدولة العبّاسية. غير أنّ نهاية الحكم الأموي المزدهر في الأندلس أعقبه ما يسمّى بـ«عهد دول الطوائف» في مطلع القرن الحادي عشر للميلاد، أي العهد الذي يعتبره الباحثون عنوان التجزئة السياسية. والتراجع العسكري، وبداية أفول نجم الحكم العربي الإسلامي في إسبانيا.

وخلال تلك الحقبة من تاريخ دول الطوائف في الأندلس التي امتدّت لأكثر من خمسة قرون، تعرّض العرب المسلمون خلالها لحملات عسكرية شبه متواصلة، شنّتها القوى النصرانية الإسبانية من الشمال، وانتهت بإعادتها هذا القسم من إسبانيا إلى حضن النصرانية. ولكنّ تلك الحملات النصرانية على الأندلس، والتي تزامنت أحيانًا كثيرة مع الحروب الصليبية في الشرق، أسفرت عن مأساة اضطهاد ديني وموجات نزوح متعاقبة لمسلمي الأندلس، آخرها كان جلاء أكثر من نصف مليون مسلم عن شبه جزيرة إيبيريه إلى المغرب العربي بعد منتصف القرن السابع عشر للميلاد.

إنَّ تاريخ هذه الحقبة بالذات يتناولها بالتفصيل الكتاب الذي نحن بصدده، "خلاصة تاريخ الأندلس"، لمؤلِّفه الأمير شكيب أرسلان، أحد كبار روّاد النهضة العربية والإسلامية. ويذكر المؤلِّف في مقدِّمة كتابه أنَّ باعثه الأساسي لوضع هذا الكتاب هو الخوض في دراسة حقبة هامّة من التاريخ العربي الإسلامي " قَلَّ فيها التأليف باللغة العربية ". وهذا صحيح، من حيث أنَّ المؤلِّف يرى بأنَّ تلك الحوادث الجسام في تاريخ العرب المسلمين لم تلقَ يومذاك اهتمامًا كافيًا من المؤرِّخين العرب المعاصرين لها، وكأنَّما "الخمول والعقم الفكري"، على حدّ قوله، أصاب هؤلاء، لا بل تزامن مع فترة التراجع والانحطاط السياسي العامّ لدولة الإسلام. ومع ذلك، يرى الأمير شكيب أنَّ المقري، في كتابه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، هو أفضل مَن كتب عن تاريخ دولة بني الأحمر، أي "دولة غَرناطة". ولكنَّه، أي المقرّي، أضاع قيمة ما كتبه من خلال تضمين مؤلَّفه هذا مواضيع عديدة لا أهمّية لها، بخاصّة تلك الخطابات الشخصيّة أو الشذرات النثرية، كما القصائد الطويلة، وذلك على حساب تدوين أخبار مسلمي الأندلس الهامّة، ووصف نضالهم الطويل للمحافظة على عقيدتهم الدينية، وبالتالي، على بقائهم في الأندلس خلال تلك الحقبة الخطيرة.

ويبدأ المؤلِّف " **خلاصة تاريخ الأندلس**" بوصف جغرافي لمملكة غَرناطة وغناها الطبيعي، ثمَّ يعرض باختصار مجمل تاريخ دول الطوائف الأخرى، مسترسلاً في وصف المعارك الرئيسية التي جرت بين القوى الإسبانية النصرانية وأمراء الطوائف، كواقعة الزلاقة (١٠٨٦م)، والإرك (١١٩٥م)، وواقعة العقاب "التلّ" (١٢١٢م)، مُعقِّبًا على دور دول المغرب (المرابطون والموحِّدون والمرينيون) في دعم دول الطوائف على الصعيد العسكري، للصمود في وجه التقدّم النصراني الزاحف من الشمال. ويرى المؤلِّف عن حقّ، أنَّ معركة العقاب (التلّ ١٢١٢) تشكِّل بداية مرحلة التراجع العسكري الإسلامي الفعلي في بلاد الأندلس.

والواقع أنَّ هذا التراجع العربي الإسلامي بدأ بوضوح منذ سقوط طُلَيْطُلة (١٠٨٥م). وقد أعقب ذلك تجريد حملات صليبية عدّة على المشرق العربي الإسلامي، أسفرت عن سقوط القدس عام(١٠٩٩م). أمَّا هزيمة المسلمين في معركة العقاب، فقد كانت هي الأخرى إشارة إلى نهاية الدعم العسكري الفعّال الذي سبق أن قدَّمه المغرب العربي مرارًا لمسلمي الأندلس. وقد أعقب هذه الهزيمة سقوط العديد من المدن والحصون الإسلامية هناك، وعلى

رأسها مدن قُرْطُبة (١٢٣٦م)، وبلنسيه (١٢٣٨م)، وإشبيلية (١٢٤٨م)، فيما بقيت غَرناطة صامدة بعد ذلك لأكثر من قرنين، ربَّما لدواعي استرتيجية واقتصادية في الجانب الإسباني.

إنَّ تاريخ هذه الحقبة من تاريخ الأندلس ودولة بني الأحمر في غَرناطة، هو الموضوع الأساسي في الكتاب الذي نحن بصدده. وهو تاريخ سياسي بامتياز، يروي بالتفصيل قصّة نضال المسلمين البطولي في ذلك الصقع للمحافظة على بقائهم والاحتفاظ بعقيدتهم الدينية. وهو، بالإضافة إلى ذلك، يعطي صورة مفصَّلة عن واقع الدول النصرانية في شمال إسبانيا، أي خلافاتها، وكذلك محاولات توحيدها للوقوف في وجه المدّ الإسلامي هناك. ولا يغفل الكاتب في هذا المجال ذكر دور البابوية في دعم الدويلات النصرانية وشحنها بالمقاتلين، ناهيك عن تنظيم قوى رهبانية نساءً ورجالاً لقتال المسلمين. ثمَّ يعرض بالتفصيل دور محاكم التفتيش ومشاهد الاضطهاد الديني التي كان يتعرَّض لها المورسكو في الأندلس.

أمَّا في الجانب الإسلامي، فقد أسهب الأمير شكيب أرسلان في وصف واقع مسلمي الأندلس السياسي المزري آنذاك، لا سيَّما الانقسام الحادّ في صفوفهم، ومن ثمَّ النزاع على السلطة بين قادتهم، فيما كان أعداؤهم يتوحَّدون ويتحيَّنون الفرصة للقضاء على آخر معاقل الإسلام هناك. ومن ميزة الكتاب أنَّ المؤلِّف استفاد من تلك القصائد الطوال التي نظمها شعراء ذلك العصر، والتي تصوِّر عن كثب حالة الضعف العامّ لدى المسلمين، لا سيَّما قصائد طلب الإغاثة من إخوانهم في المغرب والمشرق على السواء، والتي تعكس حالة من الإحباط، كما حالة عجز الحكَّام المسلمين عن مساعدة إخوانهم في الدين.

وإذا كان كتاب "نفح الطيب" في أجزائه الأربعة، هو مصدر أساسي اعتمده الأمير شكيب في تأليف كتابه هذا، فقد استند أيضًا إلى مصادر أخرى أساسية لعلَّ أبرزها، مؤلَّفات العالم الشهير لسان الدين الخطيب، وفي مقدِّمها "الإحاطة في أخبار غَرناطة"، ثمَّ تاريخ ابن خلدون "العبر وديوان المبتدإ والخبر"، وابن عذارى[1]، وابن حيَّان[2]، وغيرهم من المؤلِّفين العرب المعاصرين لتلك الحقبة.

وحيث كان المؤلِّف لا يجد ضالّته في المعلومات المتوفِّرة عن حدثٍ ما في تلك المصادر العربية، فإنَّه لم يرَ بدًّا من الاستعانة بأعمال الباحثين الغربيين المعروفين في هذا المضمار، لا

(١) ابن عذارى (ت ١٢٩٥)، أبو عبد الله محمَّد المراكشي، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب.

(٢) ابن حيَّان (أبو مروان حيَّان بن خلف، ت ١٠٧٦)، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس.

سيَّما أولئك الذين تناولوا تاريخ تلك الحقبة بالتفصيل؛ وعلى رأس هؤلاء يرِد اسم المؤرِّخ البريطاني: *Staneley Lane Poole* في كتابه: *The Moors in Spain*. وكذلك *Washington Irving* في كتابه: *Treasures of the Al Hamra*، كما في *Conquest of Granada*، فضلاً عن *Dozy* في كتابه: *Histoires des Musulmans d'Espagne*.

على أنَّ اعتماد المؤلِّف على هذه المؤلَّفات الأجنبية يبدو محدودًا، ويعكس تحفُّظ العالِم الحريص على تحرّي الوقائع بهدف معرفة الحقيقة. ولهذا نراه لا يعتمدها من غير نقد أو تمحيص. وفي معظم الأحيان كان يطرح ما يَرِد فيه من روايات مختلفة للمقارنة مع روايات المصادر العربية، وهو في كلّ هذا، كان حريصًا على اتِّباع نهج المؤرِّخ الرصين والباحث العلمي الموضوعي.

أخيرًا، لا بدَّ من القول إنَّ "**خلاصة تاريخ الأندلس**" الذي هو من أوائل مؤلَّفات الأمير شكيب أرسلان، والذي وضعه ونشره منذ أكثر من قرن في موضوع تراثي عربي إسلامي، انعدم فيه التأليف باللغة العربية، كان عن حقّ فاتحة عصر جديد لاهتمام سائر الباحثين والمؤرِّخين العرب بتراث الأندلس بعد حوالي نصف قرن. لقد مهَّد الأمير شكيب، من خلال نشر كتابه هذا، طريق البحث في هذا الحقل أمام مجموعة من كبار الباحثين العرب الذين اهتمّوا بتَراث الأندلس الفكري، ونشروا بعده مؤلَّفات قيّمة في هذا الباب خلال منتصف القرن العشرين. ونذكر على رأس هؤلاء، الدكاترة: إحسان عبّاس[١]، في مؤلَّفاته العديدة عن الأدب الأندلسي، وحسين مؤنس[٢]، وعبد العزيز سالم[٣]، ومحمَّد عبد الله عنان[٤]، وغيرهم. كما لا بدَّ من التنويه بعمل ترجمة عدد من المؤلَّفات الأجنبية التي وضعها مؤلِّفون غربيّون كبار عن الأندلس، إلى اللغة العربية خلال الفترة نفسها. ونذكر في هذا السياق، وعلى سبيل المثال، مؤلَّفات ستانلي لين بول[٥]، ودوزي[٦]، وليفي بروفنسال[٧]، وغيرهم.

---

(١) عبّاس، إحسان ، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، بيروت: ١٩٧١.

(٢) مؤنس، حسين، فجر الأندلس، القاهرة: ١٩٥٩.

(٣) سالم، عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت: ١٩٦١.

(٤) عنان، محمَّد عبد الله، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، القاهرة: ١٩٦١.

(٥) لين بول، استانلي، العرب في إسبانيا، ترجمة علي الجارم، القاهرة: ١٩٦٠.

(٦) دوزي، ر، تاريخ مسلمي إسبانيا، ترجمة د.حسن حبشي، القاهرة: ١٩٦٣.

(٧) بروفنسال، ليفي، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، (لا ت).

ولا بدَّ في نهاية تقديمنا لهذا الكتاب التراثي الهامّ، الذي تنشره الدار التقدّمية الآن بحلّة جديدة، بعد مضيّ أكثر من قرن على الطبعة الأولى، من القول بأنَّ "**خلاصة تاريخ الأندلس**" يشكّل جزءًا يسيرًا من أبحاث ومؤلّفات الأمير شكيب أرسلان واهتمامه المبكر بتاريخ الأندلس بخاصّة[1]، وتراث العرب والإسلام بعامّة. ولا غرابة في الأمر، إذ إنَّ الأمير شكيب أرسلان هو، في نظر جميع الدارسين لهذا التراث في الشرق، كما في الغرب، ركن من أركان النهضة العربية، وأحد كبار المفكّرين والمجدّدين في التراث العربي الإسلامي في العصر الحديث.

عمّان، تشرين الثاني ٢٠٠٨ — د. عبّاس أبو صالح

(١) هنالك كتاب آخر للأمير شكيب أرسلان في موضوع الأندلس، راجع: شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، (فاس: ١٩٣٦)، وقد أُعيدت طباعته في الدار التقدّمية حديثًا. (المختارة: ٢٠٠٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

لا أقصد بهذا الكتاب استقصاء تاريخ الأندلس الإجمالي، فقد كنتُ منذ نشأتي ممّن لا يحبّون التأليف في ما كثُر فيه التأليف وطال فيه المقال، كأنّما أُعدّه تكرارًا لسابق، أو إعادة لصدى؛ وخلوًّا من كلّ براعة. وأخبار الأندلس مستفيضة في التواريخ شرقًا وغربًا، ومعروفة عند الأدباء بما لا يكون التأليف فيه سوى زيادة في عدد الكتب، وإنّما يستحبّ الإنشاء في ما ندر فيه الكلام، وعزّ البحث وطُمِست الأعلام، فإذا قرأته العامّة، بل الخاصّة، سقطت منه على جديد ذي طلاوة، ولم تسأمه النفوس لعدم تداولها مطالعته المرّة بعد الأخرى مدارسة كتب القواعد التي لا تتغيّر.

فأشدّ الأقسام عوزًا إلى البحث من تاريخ هذه البلاد ـ التي لا نزال نحسبها عربية لكون أحسن أيامها ما كان من أيام العرب فيها ـ إنّما هو القسم الأخير، وأحوج طائفة من أخبارها إلى التدوين ما تعلّق بدور الجلاء وعصر الخروج من بلاد كانت مدّة الضيافة فيها ثمانمائة سنة، لأنّ هذا الحادث الكبير الذي هو من أضخم الحوادث في الإسلام وقع على حين خمول من القرائح العربية، وبعد مرور زمن العلم والفلسفة عند معشر الناطقين بالضاد، ولدى أقحاط [1] البلاد بالأدمغة المتوقّدة، وعقم الأمّة عن الرؤوس المولدة، بحيث فاته من التأليف والكتابة فيه ما لم يكن ليفوته لو وقع قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة، فإنّه لا عطر بعد عروس [2].

نعم لا أنكر أنّ كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" للعلاّمة المقري هو من أوفى الكتب بأخبار الأندلس وآدابها: حقيبة أنباء، وقِمَطْر [3] حوادث وخزانة آداب، وكشكول لطائف وديوان أشعار، وقد كان عهد تصنيفه على إثر النازلة الكبرى بباقي

(١) قلّة الأدمغة اللاّمعة، وندرة المفكّرين.

(٢) مَثَلٌ عربي قديم، يُضرَبُ لِمن لا يُدَّخرُ عنه نفيس، أي لِمَن يستحقّ كلّ كرامة ويعني: ذَهَبَ الجديرُ بكلّ كرامة ولم يبقَ غيرُ الحقير.

(٣) القِمَطْر: ما يُصانُ فيه الكُتُب.

الأندلس، وامتصاص سؤر الكأس وعفاء الأثر الأخير من سلطان المسلمين فيها، بحيث أمكن لصاحبه ذكر سقوط مملكة غَرناطة واستيلاء الإسبانيول على الجميع، وختم الدولة الإسلامية في تلك الديار. ولكنّه ككثير من مؤرّخينا أو مؤلّفينا الذين لا يرعون النسبة بين الأشياء، ولا ينتبهون إلى قاعدة أنّ الحسن إنّما هو تناسب الأعضاء، فقد بحث في هذا الخطب الجلل والحادث العَمَم بحثًا هو دون حقّه بدركات[1]، وأتى عليه كما يأتي على واقعة متوسّطة البال من الوقائع التي أشار إليها في بطن كتابه، واستوعبه في أوراق يسيرة كانت لطافتها في كثافتها، فإنّ التناسب يقضي بإعطاء كلّ مقام من المقال ما يكافيه، ويقوم بحقّه، ويجيء على قدره. ولو فسح الفاضل المقري ـ رحمه الله ـ لواقعة سقوط مملكة غَرناطة، وحادث انقراض أمر الإسلام بالأندلس، ما فسحه في تاريخه للنثر الكثير الذي يغني عن كلّه بعضه من المخاطبات التي صدرت عن لسان الدين بن الخطيب، أو وُجّهت إليه أو إلى غيره، أو الشعر الغزير، الذي كثير منه حقيق بالإسقاط من ذلك المجموع، أو القصص التي يرويها عن بعض المشايخ مع طول أناة غريب في الاستقصاء، مع أنه ليس فيها ما يرفع أقدارهم إلى السماء، لكان ذلك أجزل فائدة وأسنى موقعًا، وكانت الناس قد شفت غليلها من خبر هذه الطامّة التي لكلّ الحوادث سلوان يسهّلها، وليس لها سلوان كما قال أبو البقاء الرندي، ولكفينا مؤونة النقل عن كتب الإفرنج في ما يختصّ بالعرب، وحسبك أنه ذكر جميع وقائع السلطان أبي عبد الله بن الأحمر وعمّه الزغل، وذهاب تلك المملكة، وما جرى في ضمنه من الحروب، وما حصر من المدن في مسافة من التاريخ، استوعبت أطول منها رسالة واحدة صادرة عن ذلك السلطان إلى الشيخ الوطاسي صاحب فاس في موضوعٍ أبرد ما فيه ـ مع طوله ـ أنه اعتذار عن سقوط آخر ممالك المسلمين بالأندلس على يده بأنّ الخطب غير نادر المثال، وأنّ بغداد دار خلافة بني العبّاس قد أصابها ما أصاب غَرناطة. فانظروا هل هذا ممّا يؤثّر على طوله، أو ممّا ترتاح الأنفس إلى قبوله، على فرض صحّة تمثيله؟ وإن كان العذر في ذلك ما يقال من أنّ صاحب النَّفح قد ألّفه وهو نضو[2] أسفار، خالٍ من الأسفار، ليس لديه من العدّة ما يستعين به على الإطالة والأخذ بالأطراف؛ فسبحان الله كم يتلهّى بعض علمائنا بحفظ ما لا ينفع، عن تعليق ما يَنفع؛ وهذا الفاضل المقري قد أملى ـ عن ظهر قلبه ـ أربعة مجلّدات كبار أودعها من التاريخ والجغرافية[3]

(١) تقول صعدت الدرجات ونزلت الدركات، والمقصود بها هنا، أنها لم ترقَ إلى مستوى أهمّية "سقوط غرناطة".

(٢) كثير الأسفار، حتّى انّ كثرتها هزّته وأنحفته.

(٣) (الجغرافيا).

والقصص والنكات، وحشاها من الشعر والنثر والتراجم والتصوّف غثًّا وسمينًا ما لا أظنّ حافظة تتمكَّن من اختزانه بين صدغين[1]، وتركنا في التاريخ المهمّ من تفصيل الوقائع الشداد والمعارك التي سالت فيها أنهر الدماء في دور المنزع الأخير، عيالاً[2] على الإفرنج، مضطرّين إلى الأخذ عن مصنّفاتهم، فكنّا وإيّاهم في أخذ تاريخنا عنهم كما كنّا في أخذ لغتنا عن صحاح الجوهري[3].

ولا نشكّ أنَّ في ديار المغرب من التواريخ عن كائنة الأندلس الأخيرة، ما يستوفي شرحها، ولكنَّه لم يشتهر عندنا في المشرق غير "نفح الطيب"، من متأخّر التآليف وهذه الحال معه، فلا عجب إن ساقنا حبّ الاستقصاء واقتفاء أثر أبناء الجلدة إلى أخذ أخبارنا عن الأجانب وتلونا: ﴿هذه بضاعتُنا رُدَّتْ إلينا﴾.

---

(١) ما كان بين العين والأذن.

(٢) بمعنى معتمدين عليهم.

(٣) يعني أخذ العرب لغتهم عن الجوهري وهو أعجمي النَّسَب، ولكنَّه صار من العرب لغةً وأدبًا ودينًا. وكتابه "الصحاح" أحد معاجم اللغة، وقد ألّف العرب قبله وبعده معاجم تغني عنه، وليس فيه شيء لا يوجد في غيره.

الفصل الأول

في ذكر بني سراج

هذه العشيرة من أشهر عشائر العرب الأندلسيين عند الإفرنج وأبعدهم صيتًا، وقد يتوهّمونهم لعهد دولة بني الأحمر في غَرناطة بمقام العشيرة الثانية للأسرة المالكة، ويَعزون إليهم الوقائع ويبنون عليهم القصص والحكايات، ومن جملتها قصّة الملكة التي من بنات ملوك غَرناطة علقت بحبّ أحد شبّان هذه العشيرة الموصوفين بالجمال، وضربت له موعدًا للّقاء في إحدى خلوات القصر الشهير بالحمراء، فاجتمعا ساعة هي بالعمر أجمع ـ وقد كانت كذلك ـ يتناجيان ويتغازلان، ولكنّهما بُغتا وهما على تلك الحالة، ونمي أمرهما إلى السلطان، فاستشاط غضبًا، واستحضر لديه أكثر رجال بني سراج وأمر بضرب أعناقهم في المكان المسمّى بقاعة الأسود من حمراء غَرناطة فقتلوا جميعًا، ومن خرافات الإسبانيول أنه لم يزل يُسمع لرؤوسهم صدى، عند خفوت الأصوات وانسدال حُجُب الظلام، وهو صدى المقتولين بغيًا وظلمًا[1].

والذي في موسوعات العلوم الفرنسية الكبرى، أنَّ بني سراج عشيرة نبيلة في غَرناطة تُروى لهم قضايا يطول شرحها في المناظرة مع بني الزغري من قبيل الروايات، والتاريخ لا يعرف بني سراج سوى وزراء عند سلاطين بني الأحمر، نصروا محمَّد الأعسر على ابن أخيه محمَّد الصغير فلمّا تولّى هذا منذ سنة ١٤٢٧، فتك بقسم من بني سراج، فذهب رئيس العشيرة ملتجئًا إلى ملك قَشتالة. وقد أشارت إلى واقعة قتلهم، بعض الأغاني المتعلّقة بفتح قلعة الحامَّة التي فتّ ذهابها في أعضاد[2] المغاربة وبكوها طويلاً. اهـ

وأمّا بنو الزغري هؤلاء، فيظنّ أنه تحريف عن بني الزغبي نسبةً إلى قبيلة زغبة، وأنَّ البِنغاس في رواية شاتوبريّان، يريد بهم مِكناسَة لكونها من القبائل الكبار كما تنطبق عليه إشارة صاحب الرواية، وفي التحريف المعتاد في أسماء الأندلس بين عربها وعجمها ما لا يجعل هذا التحريف بعيدًا.

(١) في دائرة المعارف الفرنسية الإسلامية يميل إلى أنَّ هذه الأسرة هي من قرطبة هاجرت إلى غرناطة، ونظنّ أنَّ واقعة هذا القتل حصلت في زمان أبي الحسن علي الذي تولّى من سنة ١٤٦١ إلى ١٤٨٢.

(٢) كَسَر شوكتهم وأضعفهم.

وأمّا الذي بأيدينا من كتب العرب، فلا يشير إلى شيء من هذه القصّة، ونظنّ أنها لو كانت واقعية، لم يسبق إليها أحدٌ صاحبَ «نفح الطيب» الذي ينبغي أن لا تفوته حكاية غرامية كهذه، في كتاب استوفى أمثالها. وهكذا قرر المرحوم ضيا باشا، الأديب الشاعر المشهور، من وزراء الدولة العثمانية في تاريخه للأندلس باللغة التركية، فإنَّه أشار إلى هذه الحكاية المتداولة عند مؤرِّخي الإفرنج، وبيَّن استحالة وقوعها بدون أن يعرفها كتَّاب العرب، وتشتهر عندهم، ورجّح أنها من أوهام الإسبانيول وخيالاتهم.

وأنا أذهب إلى أنها إن كانت ذات أصل، فلا بدّ أن يكون ضعيفًا جدًّا، نظرًا لتعامي المؤرِّخين عنها، ويا ليت شعري! ماذا كان يقول ابن خلدون ـ لو أحياه الله في المائة التاسعة بدل الثامنة ـ إذا وقف على حكاية الفاهمة الأميرة في الحمراء مع الشاب السِّراجي، وما أعقب ذلك من نكبة أبي عبد الله بن الأحمر لبني سراج؟ أفلا يخطر ذلك بباله، قصّة العبّاسة مع جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، ونكبة الرشيد للبرامكة من أجل تلك القصّة[1]؟ لا جرم، أنه كان ينتهج هذه المرّة من الخطّة في البرهان على عدم صحّة الرواية، ما انتهجه في تبرئة شرف العبّاسة، وتنزيه جانبها عن خِرص[2] القصّاصين ووضع المؤلّفين. على أنه إن كانت قصّة أخت هارون عديمة الصحّة ـ مع اشتهارها في كتب العرب ونقل الكثيرين لها الدال على اقتناعهم بها ـ فما ظنّك بهذه وهي غريبة ولم يعرفها العرب، ولا حكاها[3] غير الإفرنج في ما نعلم؟

وبالإجمال فكثير من هذه الأحاديث الغرامية ـ في الشرق وفي الغرب ـ هو من أوضاع أهل القصص، خصوصًا الجانحين منهم لهذه المشارب، لِما هو مركوز في فطرة القرّاء ـ ولا سيّما العشّاق المستهترين ـ، من الميل إلى مطالعة هذه الحكايات وتصديقها تأسّيًا بها، في ما هم عليه من التهتّك والمجون، واسترسالاً بعدها إلى الشهوات. ولو لم تكن قصص العشق أعلَق الكلام بالقلوب، وأميَل الأحاديث بالنفوس، لما كان السواد الأكبر، يُؤثرون مطالعة الأقاصيص الغرامية في هذه الأيام، حال كونهم يعرفونها من أوضاع القرائح، وخيالات الأذهان، والفرق بين هذه وبين تلك ـ في لذّة المطالعة ـ، فرق ما بين الواقع والموهوم.

وأمّا ما نعرفه عن بني سراج من الكتب العربية فقد ورد في «النفح» ـ عند ذكر أنساب

---

(١) أي على القول بأنها سبب النكبة، والصواب أنّ سببها سياسة البرامكة الفارسية المراد بها نزع الملك من العرب.

(٢) كَذِبِهم.

(٣) شابَهَهَا وماثَلَها.

الأندلس، وأصول القبائل التي نزلت بها جالية عن المشرق ـ قوله: "قال ابن غالب: "بنو سراج الأعيان من أهل قُرْطُبة ينتسبون إلى مَذْحِج" ولم يقل أنهم من غَرناطة، فلعلّهم انتقلوا إلى غَرناطة بعد انتقال قُرْطُبة إلى الإسبانيول". وذكر صاحب "مطمح الأنفس"، رجلاً يقال له ابن سِراج، في ترجمة الوزير أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد، قال إنه كان من البلاغة في مدى غاية البيان، ومن الفصاحة في أعلى مراتب التبيان، وروى عنه نكتة لطيفة لصاحب الترجمة لا بأس من إيرادها، وهي "أنه كان له بباب الصومعة من الجامع مَوضع لا يفارقه أكثر نهاره، فجلس فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان في لمّة من إخوانه، وهم يقتطفون من نخب آدابه، وإذا بجارية من أعيان أهل قُرْطُبة معها من جواريها مَن يسترها ويواريها، وأمامها طفل كأنّه غصن آس، وهي مُتَنقِّبة[1]، خائفة ترتاد موضعًا لمناجاة ربّها، وتبتغي مكانًا لاستغفار ذنبها، فلمّا وقعت عينها على أبي عامر ولّت سريعة وتولّت مروّعة، خيفة أن يشبّب بها، أو يشهرها بأسمها، فلم يغنِ عنها تواريها شيئًا لأنه حال ما نظرها، قال قولاً فضحها وشهّرها، وهو:

وناظرةٍ تحتَ طيِّ القناعِ ... دعاها إلى الله للخَير داعِ
سَعت خِفية تَبتغي منزلاً ... لِوَصْلِ التَّبَتُّلِ والإنقطاعِ
وجالتْ بمَوضِعِنا جولةً ... فحلَّ الربيع بتلكَ البقاعِ
أتتنا تَبختَرُ في مَشْيِها ... فحلَّت بوادٍ كثيرِ السباعِ
وريعتْ حَذارًا على طفلِها ... فناديتُ يا هذه لا تُراعي[2]
غزَالُك تَفْرَقُ[3] منهُ اللُّيوثُ ... وتَنصاعُ منهُ كُماةُ[4] المصاعِ
فَوَلَّتْ وللمِسْكِ من ذَيلِها ... على الأرض خطٌّ كظهرِ الشُّجاعِ[5]

وورد في "المطمح" أيضًا في ترجمة الأديب أبي بكر عبد المعطي "أنه كان مرتسمًا في عسكر قُرْطُبة، وكان ابن سِراج يتأتّى له في كلّ ما يبتغي، خيفةً من لسانه، ومحافظةً على

---

(١) تلبس النقاب، نوع من الحجاب.

(٢) لا تخافي.

(٣) تفزع.

(٤) مفردها كميّ، والكمي الفارس الشجاع، المتشح بالدرع والسلاح.

(٥) الشجاع اسم نوعٍ من الحيّات.

إحسانه، فلمّا خرج إلى إقليش خرج معه، وجعل يساير مَن شيَّعه، فلمّا حصلوا بفحص سُرادق، وهو موضع توديع المُفارق للمفارق، قرب منه أبو الحسين بن سِراج لوداعه، وأنشده في تفرُّق الشمل وانصداعه:

هُمُ رحلوا عنّا لأمرٍ لهم عنَّا | فما أحدٌ مِنهم على أحدٍ حنَّا
وما رحلوا حتّى استفادوا نفوسَنا | كأ نَّهم كانوا أحقَّ بها مِنَّا
فيا ساكني نَجْدٍ لتَبعُدْ داركم | ظننَّا بكم ظنًّا فأخلفتُمُ الظَّنّا
غدرتُمْ ولم أَغدُرْ وخنتُم ولم أَخُن | وقلتُم ولم أعتبْ وجُرْتُمْ وما جُرْنا
وأقسمتُم أنْ لا تخونوا أخا الهوى | فَقَد وذِمامِ الحبِّ خُنْتُمْ وما خُنَّا
تُرى تجمعُ الأيّامُ بيني وبينَكُمْ | ويجمعُنا دهرٌ نعودُ كما كُنَّا؟

وممّا ورد أيضًا في «النَّفح» من ذِكر بني سِراج، عند ترجمة الوزير الرئيس العلاّمة ابن عاصم الغرناطي «أنه من جملة مَن أخذ عنهم الإمام القاضي أبو القاسم بن سِراج» وقوله في مكان آخر عند ذكر ابن عاصم أيضًا «وممّا خاطب به شيخه قاضي الجماعة بغَرناطة، أبا القاسم بن سِراج، وقد طلب الاجتماع به زمن فتنة، فظنَّ أنه يستخبره عن سرّ من أسرار السلطان، وهو هذه الأبيات:

فديتُكَ لا تسألْ عنِ السرِّ كاتبًا | فتلقّاه في حالٍ منَ الرُّشدِ عاطلِ
وتضطرُّه إمّا لحالةِ خائنٍ | أمانَتُه، أو خائضٍ في الأباطلِ
فلا فرق عندي بين قاضٍ وكاتبٍ | وَشى ذا بسِرٍّ أو قضى ذا بباطلِ

ورد أيضًا عند ذكر العلاّمة ابن مرزوق «أنَّ من تآليفه العديدة (المعراج، في استمطار فوائد الأستاذ ابن سِراج) في كرّاسة ونصف، أجاب به أبا القاسم بن سِراج الغَرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية».

ويُستَدلّ من تاريخ نشوء هؤلاء العلماء المتعاصرين، أنَّ بني سِراج ـ الذين تُكثِر من التنويه بهم الكتب الإفرنجية ـ هم قوم الأستاذ المذكور لكونه من أهالي المائة التاسعة للهجرة، زمن الجلاء الأخير الذي اشتهروا به عند الإفرنج، على أنني لم أعهد إلاّ ما ندَّ عن محفوظي أثرًا، غير ما ذكرت لبني سِراج الغَرناطيين المتأخّرين، وأنتَ ترى أنهم هناك من

حملة السيف وهنا من حملة القلم، ولا عجب فقد طالما اجتمعا في البيوتات العريقة، وتقارنا في العشائر النبيلة، وبنو سِراج ممَّن قرنوا السيف إلى القلم، وجمعوا الحُكْم إلى الحِكَم، فأحرزوا كغيرهم من هذه العشائر الشرف بطرفيه، والتحفوا المجد بمِطْرَفَيْه[1].

(١) رداء من حرير، مُربَّع ذو أعلام.

في ذكر مملكة غرناطة

قال المقْري: "ومن أشهر بلاد الأندلس غَرناطة ـ وقيل إنَّ الصواب أغَرناطة بالهمز، ومعناه بلغتهم الرمّانة ـ وكفاها شرفًا ولادة لسان الدين بها" (هو لسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور، وزير بني الأحمر، أشهر من أن يُعرَّف به).

وقال القَلْقَشَنْدي: "أمّا غَرناطة فهي دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الأبصار ومطمح الأنفس، ولم تخلُ من أشراف أماثل، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، ولو لم يكن لها إلاّ ما خصّها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شِنيل لكفاها".

وفي بعض كلام لسان الدين ما صوّرته: "وما لمصر تفخر بنيلها، وألف منه في شِنيلها" ولا يخفى أنَّ الشين في جُمَّل[1] المغاربة عددها ألف.

وفي غَرناطة قال الشاعر:

غَرناطةٌ ما لها نظيرُ	ما مصرُ ما الشامُ ما العراقْ
ما هِيَ إلاّ العروسُ تُجلى	وتلك من جملةِ الصَّداقْ

وقال صاحب "منهاج الفكر": "إنَّ كورة البيرة التي منها غَرناطة تسمّى دمشق، قيل لأنَّ جُند دمشق نزلوها عند الفتح، وقيل لشبهها بدمشق في غزارة الأنهار، وكثرة الأشجار". وقال: "لمَّا استولى الفرنج على معظم بلاد الأندلس، انتقل أهلها إليها فصارت المِصْر[2] المقصود، والمَعْقِلَ الذي تنضوي إليه العساكر والجنود".

وقال ابن بطوطة، وهو الأَوْلى لكثرة ترحاله أن لا تزدَهيه بلاد: "فوصلتُ إلى بلاد الأندلس حرسها الله تعالى حيث الأجر موفور للساكن، والثواب مذخور للمقيم

(١) الجمَّل (ويُخفَّف): حساب مبناه على حروف أبجد، كلّ حرفٍ يدلّ على رقمٍ من الأعداد، آحادها وعشراتها ومئاتها. والمقصود هنا ش=١٠٠٠.

(٢) البَلَد أو القُطر.

والظاعن". إلى أن قال عند ذكره غَرناطة ما نصّه: "قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له في الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلاً يخترقه نهر شِنيل المشهور، وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين الجليلة؛ والجنّات والرياضات والقصور والكروم، مُحْدِقة بها من كلّ جهة. ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لا مثل له بسواها".

وقال ابن جزي مرتِّب رحلة ابن بطوطة: "لولا خَشية أن أُنسَب إلى العصبية، لأطلتُ القول في وصف غَرناطة، فقد وجدت مكانه، ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه، ولله دَرّ شيخنا أبي بكر بن محمَّد شيرين السَّبتي نزيل غَرناطة حيث يقول:

رعى الله من غَرناطة مُتبوَّأً[1]	يَسُرُّ حزينًا أو يُجيرُ طريدًا
تبرّأ منها صاحبي عندما رأى	مسارحَها بالثلج عُدْنَ جليدًا
هي الثَّغرُ صانَ الله مَن أَهَلَتْ به	وما خيرُ ثغرٍ لا يكون بَرودًا[2]

كانت ثغرًا في زمان شيخنا أبي بكر، أمّا الآن فوسط من بلاد الإسبانيول".

وقال صاحب "منهاج الفكر": "يشقّها نهر عليه قناطر يجاز عليها، وفي قِبْليّها جبل شُلَير، وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفًا ولا شتاءً، وفيه سائر النبات الهندي، لكن ليس فيه خصائصه".

وقال غيره: "يشقّها نهر حدرة ويطلّ عليها الجبل المسمّى بشُلَيْر الذي لا يزول عنه الثلج شتاءً ولا صيفًا، ويجمد عليه حتّى يصير كالحجر الصلد، وفي أعلاه الأزاهر الكثيرة، وأجناس الأفاويه الرفيعة".

وفي شُلَيْر يقول الشاعر، وأصله من البلاد الحارّة:

يَحِلُّ لنا تركُ الصلاةِ بأرضِهِمْ	وشربُ الحُميّا[3] وهو شيءٌ محرَّمُ
فِرارًا إلى نارِ الجحيمِ فإنَّها	أخفّ علينا من شُلَيْرَ وأرحمُ

---

(١) (مجازًا) مكانة رفيعة. ومقامًا ومنزلا.

(٢) البارد؛ وفي الكلام تورية لا تخفى.

(٣) الخمرة.

وذكر بعض المتأخِّرين: أنَّ قرى غَرناطة مائتان وسبعون قرية[1]، ومن أعمالها قُطْر لَوْشَة، وهو قُطْر عظيم، يحتوي على كثير من الحصون والقرى والمزارع، وقاعدته لَوْشَة، وبينها وبين غَرناطة مرحلة، وهي مبنية على نهر الشنيل أيضًا، وتحفّ بها البساتين والرياض، وإلى لَوْشَة ينتسب سلف الوزير لسان الدين بن الخطيب، الذي يقول ابن خلدون فيه ـ وناهيك به من شاهد ـ : إنَّه كان الصدر المقدَّم في الشعر والكتابة في عصره.

ومن أعمال غَرناطة باغة، وعامّة الأندلس يقولون بيغة، وهي بلدة طيّبة، غزيرة المياه كثيرة الثمار، ومنها وادي آش، ويقال وادي الآشات، وهي مدينة جليلة، قد أحدقت بها البساتين وجرت فيها الأنهار، ولأهلها مِزية في الأدب وحبّ الشعر وفيها يقول أبو الحسن بن نزار:

وادي الآشاتِ يَهيجُ وجدي[2] كلَّما ... أذكَرْتُ ما أفضتْ بكِ النعماءُ
لله ظِلُّك والهجيرُ[3] مسلَّطٌ ... قد بـرَّدتْ لَفَحاتِهِ الأَنْداءُ[4]
والشمسُ ترغبُ أن تفوزَ بلحظةٍ ... منهُ فَتطرِف[5] طَرْفَها الأفياءُ
والنهرُ يَبْسِمُ بالحَبَابِ[6] كأنَّهُ ... سِلْخٌ[7] نَضَتْهُ حيّةٌ رَقْشاءُ[8]
فلذاك تحذرُهُ الغُصونُ فَميلُها ... أبدًا على جَنَباتِهِ إيماءُ

ومن أعمال وادي آش حصن جليانة، وهو مدينة وإليه ينسب التفّاح الجلياني المشهور.

ـ ذكر أجلّ قواعد الأندلس

إنَّ علماء الجغرافية من العرب. قسَّموا تلك البلاد إلى موسّطة، وشرق، وغرب. أمّا

(١) من جملة قرى غرناطة التي ورد ذكرها في الإحاطة للسان الدين بن الخطيب قرية اسمها حارة عمروس وفي طرابلس الغرب قرية اسمها عمروس وفي مصر بلدة اسمها عمروس، وفي الشويفات بغرب لبنان مسقط رأس المؤلّف حارة اسمها العمروسية، فليتأمّل القارئ إلى وحدة العربية شرقًا وغربًا مع تباعد الديار.

(٢) شدّة الحب.

(٣) شدّة الحَرّ ولفحة النار.

(٤) مفردها، نداءوهو الطَّل.

(٥) أصاب طَرْفَهُ (عينه).

(٦) زبدٌ كُروي يعلوه.

(٧) جلد.

(٨) منقّطة بسوادٍ وبياض.

الموسّطة، فهي ذات القواعد المهمّة التي كلّ منها مملكة مستقلّة، مثل قُرْطُبة وطُلَيْطُلة وجيّان وغَرناطة والمَريَّة ومالَقَة، فمن أعمال قُرْطُبة إستِجَّة وبلْكونة وقَبْرة ورُنْدَة وغافِق والمُدَوَّر وأسطُبّة وبيّانة والبسّانة والقَصير وغيرها. ومن أعمال طُلَيْطُلة وادي الحجارة وقلعة رباح وطَلَمَنْكة وغيرها. ومن أعمال جيّان أُبدَّة وبيّاسة وقَسْطَلَة وغيرها، ومن أعمال غَرناطة وادي آش والمُنَكَّب ولَوْشَة وباغة وغيرها، ومن أعمال المَريّة أَنْدراش وغيرها، ومن أعمال مالَقَة بَلِّش والحامَّة وغيرهما.

هذه أواسط الأندلس، فأمّا الشرق ففيه من القواعد مُرسية ودانية وبَلَنْسِية والسهلة والثغر الأعلى. فمن أعمال مُرسية أوريولة ولَقَنْت ولُوْرَقَة وغيرها. ومن أعمال بَلَنْسِية شاطِبة التي يُعْمَل بها الورق الذي لا نظير له، وجزيرة شُقْر. ومن أعمال الثغر الأعلى سَرقُسْطَة وكورة لارِدَة وكورة نطيلة وكورة وَشْقَة وكورة مدينة سالم وكورة قلعة أيّوب وكورة بربطانية وكورة باروشة. وفي كلّ من هذه الكُوَر مدن وحصون وقرى لا تُحصى، ولِدانية والسهلة، أعمال واسعة أيضًا.

وأمّا غرب الأندلس، فهو إشبيلية ومارِدَة وأُشبونة وشِلْب. فمن أعمال إشبيلية شَريش والخضراء ولَبْلَة. ومن أعمال ماردة بَطَلْيَوْس وبابِرَة. ومن أعمال أُشبونة شَنْترين. ومن أعمال شِلْب شَنْتريّة ويلحق بعمل[1] إشبيلية جزيرة قادِس.

هذا وقد انطوى تحت كلّ عمل من الحصون، والقرى، والدساكر، ما نترك وصفه لمؤرّخي الأندلس، ونجتزئ عن تفصيله، بما قرَّروه من أنَّ طول الأندلس نحو ثلاثين يومًا وعرضها تسعة أيام، ويشقّها أربعونَ نهرًا كبارًا، وبها من القواعد الكبار ثمانون، ومن المدن المتوسّطة أزيد من ثلاثمائة، وفيها من الحصون والأبراج والقرى ما لا يدخل تحت الحصر، حتّى قيل إنَّ عدد القرى التي على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية.

وحيث قد ذكرنا هذا على وجه الإجمال نقول، إنَّ المدن التي كانت باقية في يد الإسلام حين الجلاء، أهمّها بعد غَرناطة المَريّة ووادي آش ولَوْشَة ومالَقَة وبَلِّش مالَقَة والحامّة وأندراش وشُلوبانية ورُنْدَة والمُنكَّب، ما عدا الحصون والقِلاع التي تربو[2] على المئين[3].

---

(١) محافظة أو قضاء يشمل عدّة مدن وبلدات.

(٢) تزيد.

(٣) المئات.

ـ المَرِيّة

ولمَّا كنّا قد ذكرنا وصف غَرناطة، كان لا بدّ من وصف المَرِيّة، المدينة الثانية لمملكة ابن الأحمر، فهي على ساحل البحر، وفيها دار الصناعة للمراكب، ولها القلعة العظيمة المنسوبة إلى خيران مولى المنصور بن أبي عامر، الذي كان قد تولاّها، وفي كورتها، معادن الحديد والرخام، وطول واديها أربعون ميلاً، وكلّه جنّات وبساتين. ولم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالاً ولا أوسع تجارة من أهل المَرِيّة وقيل، إنَّه كان بها من الحمّامات والفنادق نحو الألف، وقيل كان بها لنسيج طَرز الحرير، ثمانمائة نَول، وللحُلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نَول، وللثياب الجُرجانيّة والأصفَهانية وللمعاجر[1] البديعة، والستور المكلَّلة ألوف من الأنوال، وكان يصنع بها أنواع آلات الحديد والنُحاس، ويصنع بها الزجاج الأنيق، وبحُصن شَنَش على مرحلة من المَرِيّة، التوت الكثير وهناك الحرير والقرمز. وحَصى المَرِيّة كالدُرّ في رونقه، يُحمل إلى البلاد، وكانوا يضعونه في كِيزان الماء، ولأبي جعفر بن حاتمة تاريخ شامل، سمّاه "مزية المَرِيّة" استوفى فيه أوصافها وخصائصها.

ـ مالَقة

ومن تلك البلاد مالَقَة، وهي من أكبر الثغور، وأوسعِها تجارةً، وأحفلها عمارةً، وقد ورد في رسالة أبي الوليد الشقندي في وصف مالَقَة ما يأتي:

"وأمّا مالَقَة، فإنَّها قد جمعت بين منظر البحر والبرّ، بالكروم المتّصلة التي لا تكاد ترى فيها فرجة لموضع غامر، والبروج التي شابهت نجوم السماء، كثرة عدد وبهجة ضياء، وتخلَّل الوادي الزائر لها في فصلَي الشتاء والربيع، في سُرُرِ بطحائها، وتوشيحه لخصور أرجائها، وممّا اختصّت به من بين سائر البلاد، التّين الربي المنسوب إليها، لأنَّ اسمها في القديم، ربة، ولقد أُخبِرتُ أنه يُباع في بغداد، على جهة الاستطراف. وأمّا ما يُسَفّر منه المسلمون والنصارى، في المراكب البحرية، فأكثر من أن يُعبَّر عنه بما يحصره، ولقد اجتزتُ بها مدّة وأخذتُ على طريق الساحل من سهيل[2] إلى أن بلغت "بَلّش" قدر ثلاثة أيام، متعجّبًا في ما حوته هذه المسافة من شجر التين وأنَّ بعضها ليَجتني جميعها الطفل الصغير،

(١) مفردها "مِعجر": ثوب يَمَنيّ ونسيج تشدّه المرأة على رأسها.

(٢) عمل بغربي مالقة كثير الضياع فيه جبل سهيل الذي لا يرى نجم سهيل بالأندلس إلاّ منه.

من لزوقها بالأرض، وقد حوَت ما يُتعب الجماعة كَثرة. وتين بَلِّش، هو الذي قيل فيه لبربري: كيف رأيته؟ فقال: لا تسَلني عنه وصُبَّ في حلقي بالقفّة.

(قال) وقد خُصّت بطيب الشراب الحلال والحرام، حتّى سار المَثل بالشراب المالَقي، وقيل لأحد الملوك وقد أشرف على الموت: اسأل ربّك المغفرة. فرفع يديه وقال: يا ربّ أسألُك من جميع ما في الجنّة خمر مالَقَة وزبيب إشبيلية. وفيها تُنسج الحُلَل الموشية، التي تجاوز أثمانها الآلاف، ذات الصور العجيبة، المنتخَبة برسم الخلفاء، فمَن دونَهم، وساحلها محطّ تجارة لمراكب المسلمين والنصارى".

وما زال تين مالَقَة، مَضربًا للأمثال، حتّى قيل إنَّه يُجلب إلى الهند والصين وحتّى جعله أبو الحجّاج يوسف البَلَوي المالَقي حياته فقال:

مـالَقَةُ حُيِّيتَ يا تِينَـها	الفُلْكُ من أجلِك يأتينَها
نَهى طبيبي عنه في عِلَّتي	ما لِطبيبي عن حياتي نَهى

وقال ابن بطّوطة: "مالَقَة، إحدى قواعد الأندلس، وبلادها الحِسان، جامعة بين مرافق البَرّ والبحر، كثيرة الخيرات والفواكه. رأيت العنب يُباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير، ورُمّانها المرسيّ الياقوتي لا نظير له في الدنيا، وأمّا التين واللّوز فيُجلبان منها ومن أحوازها(١) إلى بلاد المشرق والمغرب. وبمالَقَة يُصنع الفَخّار المذهَّب العجيب ويُجلب منها إلى أقاصي البلاد. ومسجدها كبير الساحة، كثير البركة شهيرها وصحنه لا نظير له في الحسن وفيه أشجار النارنج البديعة".

وأمّا بَلِّش مالَقَة فعليها مسحة من مالَقَة في طيبها، وهذه أمّهات مدن غَرناطة ودُرَر سلكها، ولو شئنا استقصاء أعمالها، وتقرّي(٢) جهاتها بالوصف والتنويه، وحاولنا تتبُّع كُوَر الصُّقع(٣) وبقاعه، والدخول في ثنايا حصونه وقلاعه، لضاقت علينا الكتب برَحبها، كيف لا، والأندلس جنّة العرب وفردوس نعيمهم ومرمى غايات خيالهم، وقد جرى في وصفها من المِداد، ما لو توزّع لَوَسَع سائر البلاد، ورد من دونها إرَمَ ذات العماد(٤)، وحسبُك، أنَّ

(١) مفردها حوزة: الناحية.

(٢) جَمْعُ.

(٣) الناحية.

(٤) دمشق أو الاسكندرية، الآية [٧] من سورة الفجر.

هذه المدن الأخيرة كانت سُؤْر ما في الكأس، وخَصاصة ما في الكرم، ومع ذلك، فلتعدُّد أسباب دفاعها؛ واستحكام حَلَق أقناعها وغزارة مواد أجلابها، لم يزل أمل الإسلام فيها وطيدًا، والرجاء بثباتها معقودًا.

قال ابن سعيد: "في حصونها ما يبقى في محاربة العدوّ، ما ينيف على عشرين سنه، لامتناع معاقِلها ودِرْبة أهلها على الحرب، واعتيادِهم لمجاورة العدوّ بالطعن والضرب، وكثرة ما تنخزن الغلّة في مطاميرها، فمنها ما يطول صبرها عليها نحوًا من مائة سنة، ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن، وإن كان العدوّ قد نقّصها من أطرافها، وشارك في أوساطها، ففي البقيّة مِنعة عظيمة، فأرضٌ بقيَ فيها مثل إشبيلية وغَرناطة ومالَقَة والمَرِيّة، وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة الرجاء، فيها قويٌّ بحول الله وقُوَّته".

قال المقري: "قلتُ وقد خاب ذلك الرجاء، وصارت تلك الأرجاء للعدوّ معرَجًا، ونسأل الله الذي جعل للهَمِّ فَرَجًا وللضيِّق مخرجًا، أن يُعيد إليها كلمة الإسلام حتّى يستنشق أهله منه فيها أرَجًا"[1].

هذا كان منذ نحو ثلاثمائة سنة، والعهد بالخروج حديث، والدم على أسوار غَرناطة طريء، والعادة المستمرّة راسخة التأثير، ولدنوّ زمن الخروج في أمل الرجوع حقّ كبير، فأمّا الآن ولم يكتفِ العدوّ باسترداد أرضه، حتّى همّ بالتجاوز إلى ما وراء البحر، واعترض من بلاد الإسلام ما بين السحر والنحر[2]، فلو نشر المقري في هذا العصر، ورأى ما رأى من التكالب المحيط، لقنع بحفظ الموجود، ولم تتمادَ به الأماني إلى استحياء ما في اللُّحود؛ ولله الأمر من قبل وبعد[3].

ـ ذكر فتح الأندلس

وأمّا تاريخ فتح غَرناطة فينتهي إلى فتح سائر الأندلس، على يد طارق بن زياد، فإنَّ طارقًا لمَّا هَزَم لَذْريق، ومزَّق جموعه، وحاز أمواله، وتسامع الناس من برِّ العُدْوة، بالفتح الذي تمَّ على يده، أقبلوا إليه من وراء البحر وتكاثفوا حوله، فارتفع الإسبانيول عند ذلك

(١) عبير وطيب.

(٢) الرئة وأسفل العُنق، تُضرب للتقارب بين شيئين.

(٣) إنّنا عندما حرّرنا هذا التاريخ لم يكن المغرب الأقصى سقط في أيدي الفرنسيس والإسبانيول، على أنّ الله تعالى بعث على هؤلاء جنده من بسلاء ريف مراكش بقيادة بطل الإسلام الأمير عبد الكريم فنكّلوا بهم وثأروا لعرب الأندلس منهم، ونسأل الله حسن العاقبة لهم.

إلى الحصون والقلاع، ولحقوا بالجبال، فطرق طارق حصونهم، فاستنزلهم منها قَسرًا، وأرهقهم ذلاً وعسرًا، وأوغل في البلاد فقذف الله الرعب في قلوب الإسبانيول، فلم يثبتوا في موقف، وصمد طارق إلى طُلَيْطُلة قاعدة ملكهم، وأرسل مُغيثًا مولى الوليد بن عبد الملك، إلى قُرْطُبة، وسرَّح جيشًا إلى مالَقَة، وجيشًا آخر إلى غَرناطة مدينة البيرة، فافتتحوا مالَقَة، ولاذ علوجها بجبالهم التي صارت في الدهور التالية، ملجأ للمسلمين، وتوجّهوا إلى البيرة فحصروا مدينتها غَرناطة، فافتتحوها عَنوةً وضمّوا اليهود إلى قصبتها، وكان ذلك لهم سُنَّة في كلّ بلد يفتحونه، أن يضمّوا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين، استنامة [1] إليهم، من دون الإسبانيول، لِما بينهم من العدوان، ثمَّ إنَّ العرب أخذوا بالرحيل إلى الأندلس والوفود على تلك البلاد من كلّ حَدَب، ولا سيّما عرب الشام، فلمّا كانت ولاية أبي الخطّار حسام بن ضرار الكلبي، من قبل حنظلة ابن صفوان، عامل أفريقية سنة خمس وعشرين بعد المائة، كثروا عنده في قُرْطُبة، فلم يحملهم المصر ففرّقهم في البلاد، وكان سديد الرأي وافر الحزم فأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسمّاها دمشق، وأنزل أهل حِمص إشبيلية، وسمّاها حِمص، وأهل قنسرين جيّان وسمّاها قنسرين، وأهل الأردن ريّة ومالَقَة وسمّاها الأردن، وأهل فلسطين شريش، وسمّاها فلسطين، وأهل مصر تُدمير وسمّاها مصر، وقيل إنَّ بها نهرًا له شأنٌ كشأن النيل في الفيضان في فصل مخصوص.

ـ عبد الرحمن الداخل وبنو أمية

ولمَّا أفلت عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي الملقّب بالداخل سنة ثمان وثلاثين ومائة شريدًا من المشرق، واقتطع الأندلس عن المنصور العبّاسي، نزل بساحل المنكب بادئ بدء، وهناك وافاه أحزابه والقائمون بدعوة الأموية من إشبيلية ورية بالبيعة، وأخلصوا المناصحة وانضمّ إليه اليمانية فَنَهَدَ [2] إلى قُرْطُبة مقرّ الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري وكان غازيًا في الجلالقة فأسرع الأوبة [3]، وزحف إليه عبد الرحمن فتلاقى الجمعان بظاهر قُرْطُبة فانكشف يوسف ولجأ إلى غَرناطة، وتحصّن بها، ثمَّ تصالحا على أن يبقى عبد الرحمن في قُرْطُبة أميرًا ثمَّ نكث يوسف العهد واستؤنفت الحرب، فانهزم

---

(١) بمعنى استئناسًا بهم واطمئنانًا إليهم.

(٢) ذَهَب وتوجَّه.

(٣) الرجوع.

الفهري واحتزّ رأسه[1] وجيء به إلى عبد الرحمن واستوسق له الأمر[2]، ودانت لطاعته البلاد ولمَن بعده من أعقابه، على تزايد في صولتهم، وتأثّل[3] من سلطانهم.

ـ المنصور بن أبي عامر

وكانت غَرناطة، كغيرها من الأمصار، يخفق فوقها اللواء الأُموي، حينما لم يكن غيره راية، ولا دونه خلافة، إلى أن اضطرب حبل المروانيين بالأندلس، وانتزى[4] عليهم المنصور بن أبي عامر، كافل الخلافة[5]. وأعقابه وقاموا بالدولة العامرية وعاقدوا صنهاجة من قبائل البربر واتّخذوهم عضدًا في مواقفهم، من دون العرب.

---

(١) فَصَلَهُ عن جسده.

(٢) اجتمع له الأمر.

(٣) عَظُمَ.

(٤) وثَبَ عليهم. نازعه بمعنى: طمع ونازَع.

(٥) هو الملك الأعظم المنصور أبو عامر محمَّد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري من أجَلّ ملوك الإسلام، وأمضى سيوف محمَّد عليه الصلاة والسلام، لم يُرْوَ عن أحد زيادة عمّا رُوِي عنه من الهمّة في الجهاد والأعمال والغزو، وتردّد السرايا إلى العدوّ. ويقال إنّه غزا ستًا وخمسين غزاة لم تُنتكس له فيها راية، ولا فُلّ له جيش، وما أُصيب له بعث، وما هلكت له سريّة. وقيل إنّه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل حتّى اجتمع له منه صرّة ضخمة عهدَ بتصييرها في حنوطه، وكان يحملها معه في أسفاره وغزواته مع أكفانه توقّعًا لحلول الأجَل. وقرأت ما يشبه ذلك عن سيف الدولة بن حمدان العدوى من أنه اجتمع له من هذا الغبار لبنة كبيرة عهدَ بوضعها تحت رأسه في قبره، وجدّ المنصور هو عبد الملك المعافري الوافد على الأندلس بصحبة طارق وأصله من قرية تركش، رحل إلى قرطبة وتأدّب بها، ثمَّ اقتعد دكّانًا عند باب القصر يكتب فيه لمَن يعن له كتب من خدّام القصر، إلى أن احتاجت السيِّدة صبح أمّ المؤيّد الأموي مَن يكتب لها، فعرّفها به مَن يعرفه، فكتب عنها وترقّى في خدمتها، إلى أن رغبت إلى الخليفة في توليته القضاء فولاّه، فظهرت منه نجابة فترقّى إلى ولاية الزكاة والمواريث بأشبيلية، وكانت مبدأ ظهوره. وناصح في خدمة المصحفي حاجب الخليفة وصار ذا شأن، فلمّا توفّي الحكم وتولّى ابنه هشام المؤيّد وهو حدث جاشت له الإفرنج، فرماهم المصحفي بابن أبي عامر فانتصر عليهم. وتمكّن حبّه من القلوب، وأخذ يزداد جاهًا وعلوًّا حتى ناب له رأي بالاستبداد، فمكر بأهل الدولة. وضرب بينهم وقتل بعضهم ببعض، فنكب الصقالبة الخصيان بالقصر المصحفي. ونكب هذا بغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم. ونكب غالبًا بجعفر بن حمدون قائد الشيعة، وبمدوح بن هاني وجعفرًا بممالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون، ثمَّ استعان على أولياء الدولة كلّهم بالجند من زناتة والبربر واصطنعهم، وحجر على هشام المؤيّد. ولم يبقَ له من الأمر إلاّ الاسم وأمر بالدعاء بأسمه على المنابر عقب اسم الخليفة، وصار شأنه معه شأن ابن بويه مع المطيع أو الطائع العبّاسي، بل أعظم من ذلك. وأجاز إلى العدوة، وضرب بين رؤساء البربر، فاستوثق له ملك المغرب وملك العدوتَين وقهر جميع الأعداء. وله الغزاة المشهورة في بلاد غاليسية إلى شنت ياقب (سان جاك) التي وصل بها إلى ما لم تطأه رِجْل مسلم من بلاد الإفرنج وتوفّي سنة ٣٩٤ بمدينة سالم وهو منصرف من الغزو وحُكي أنه مكتوب على قبره هذان البيتان:

آثاره تنبيك عن أخباره ... حتّى كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتي الزمان بمثله ... كلاّ ولا يحمي الثغور سواه

وكان ملكه سبعًا وعشرين سنة.
وأخباره ونوادره تحتمل مجلّدات، وأكثرها مستفيض في التواريخ، وكتب الأدب، وقد أفرد ابن حيّان لآثاره في الحزم والكيد والجلد تأليفًا، وخلفه ولده عبد الملك المظفّر أبو مروان، وكان مقتفيًا أثر أبيه في الجهاد، وملك سبع سنين وخلفه أخوه عبد الرحمن. وكلٌّ منهم حجر على هشام لكنّ هذا الأخير أحبّ أن يستأثر بما بقي من رسوم الخلافة وأجبر هشامًا على أن يوليه عهده لكنّه قُتل وانتهى به ملك العامريين كما أشرنا إليه.

ـ سقوط العامريين ومبايعة بني أميّة

وكان عميد صنهاجة، لوقته، زاوي من بني حيوس، فكان هو وقومه من صنهاجة وزناته، مادّة لأولاد المنصور بن أبي عامر، إلى أن همّت القُرَشِيّة ومَن إليهم من المضريّة، بإعادة الملك إلى نصابه، وتمخّضت الحال بالفتنة، وثار أهل قُرْطُبة على أبي المظفّر عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، وبايعوا محمّدًا بن هشام ابن عبد الجبّار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، من أعقاب الخلفاء، ولقّبوه بالمهدي بالله، وكان عبد الرحمن بن المنصور بالثغر، فقفل إلى الحضرة وانفضّ عنه جمعه، وخذله حزبه، حتّى البربر أنصار دعوتهم، بما نقموا عليه من سوء تدبيره، ثمّ وثب عليه أحد الثائرين واحتزّ رأسه، وحمله إلى المَهدي، وانقرضت دولة العامريين كأن لم تغنَ بالأمس.

وبعد أن أديل [١] ثانية لبني أميّة، تذكّر أشياعهم، من انتصار العامريين بالبربر وتسلّحهم بهم، ما أسخط على هؤلاء القلوب، وأثار بهم الدهماء، فنهبوا دُورهم وانتقموا منهم، فشكَوا ما أصابهم إلى المهدي، وكان واجدًا في نفسه مثلما وجد الناس، فغضّ الطرف عن إساءتهم، فتمشّت رجالاتهم بالتحريك، وأسروا النجوى [٢]، في تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر، ففشا الأمر، وعوجلوا عن قصدهم، وأحضر هشام وأخوه أبو بكر بين يدَيّ المهدي، فضرب أعناقهما، وأزعج [٣] البربر عن قُرْطُبة، فلحق بهم سليمان بن الحكم بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر فبايعوه ولقّبوه بالمستعين بالله، واجتمعوا حوله بظاهر قُرْطُبة. ثمّ نهضوا إلى طُلَيْطُلة واستجاشوا [٤] بابن الأذفونش، ونهضت البرابرة والنصرانية إلبًا [٥] واحدًا إلى قُرْطُبة، فبرز المهدي إلى لقائهم في جمهورها، فانهزم، ودخل المُستعين قُرْطُبة ختام المائة الرابعة. ولحق المهدي بطُلَيْطُلة، واستجاش بابن الأذفونش أيضًا. وكانت القضيّة بالتناوب وكان هذا يمدّ منهم كلّ مَن استجاش به، توسيعًا للنكاية في ما بينهم، وكرّ المهدي على قُرْطُبة، فكشف عنها المُستعين وحزبه، وتفرّقوا في البلاد للعبث والفساد، فخرج المهدي في أثرهم ومعه ابن الأذفونش فاجتمعوا لهما وكرّوا عليهما، فانهزما بمَن معهما من الإسلام والنصرانية، ودخل المهدي قُرْطُبة مدحورًا ويئس

---

(١) أعيد لهم.

(٢) كتموا الأمر في نفوسهم.

(٣) طرد.

(٤) استجاشوا الجيش: جمعوه.

(٥) مُجتمعون.

من الفوز، فأخرج هشام المؤيّد الخليفة كان قبل الفتنة، وأقام في حجابته[1]، ظنًّا بأنّ ذلك يجمع الكلمة ويفُلّ من غرب الفتنة[2]، فلم يفُتّ ذلك بعزم البربر والمستعين صاحبهم، وأداموا الحصار، فقام عامّة قُرْطُبة وقتلوا المَهدي، بحجّة أنه هو سبب الفتنة، فلم يُجْدِهِمْ ذلك في التنفيس عن خناقهم، وبقي المستعين يحصرهم، حتّى دخل قُرْطُبة ومَن معه، وقتل هشام سرًّا، وعاث البربر في الحضرة ونهبوها، وأنزلوا المعرَّة[3] بذوي الصون والستر من بيوتاتها، ثمّ وثب البربر بعد هذا الغلب، على المدن العظيمة فولّوها، ونزل زاوي المقدَّم الذِّكر بغَرناطة من القواعد، وهي محلّ الشاهد، واتّخذها دارًا ومعتصمًا له ولقومه، ثمّ خشي ثورة الأحقاد، ووثوب أهل الأندلس على البربر، فقفل إلى المغرب ولحق بقومه في القيروان، واستخلف على غَرناطة ابنه فحدث بينه وبين الغرناطيين ما أوجب انتقاضهم عليه، فبايعوا حبّوس ابن عمّه، فتأثّل أمره، وصار من أعظم ملوك الطوائف بالأندلس. وبعد وفاته سنة تسع وعشرين وأربعمائة وُلِّيَ ابنه باديس ولُقِّب بالمظفَّر، وزحف إليه العامري صاحب المَرِيّة فلقِيَه باديس بظاهر غَرناطة، فهزمه وقتله، وتمّت شوكته، وعظم سلطانه، حتّى خطب نصرته[4] جميع ملوك عصره، واستنجده محمَّد بن عبد الله البرزالي في دفاع ابن عبّاد، واستمدّه القادر بن ذي النون في مُناصبته أيضًا. وشاد باديس في غَرناطة القصور ومرَّد الصُّروح[5]. وسنة تسع وأربعين عند انقراض بني حمّود أصحاب مالَقَة، أضافها إلى عمله، وتوفّي سنة سبع وستّين، وخلفه حافِدُه عبد الله ابن بلكين بن باديس، وعقد لأخيه تميم على مالَقَة، وكانت ظهرت دولة المُرابطين، وأجاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، ونزل بغَرناطة سنة ثلاث وثمانين، فقبض على عبد الله بن بلكين وأخيه تميم، ونفاهما إلى برِّ العُدْوَة، وأنزلهما السوس الأقصى فهَلكا وانقرضت بهما تلك الإمارة.

رجع إلى أخبار قُرْطُبة:

---

(١) (مجازًا) في ظِلّه ورعايته.

(٢) بمعنى يُميتها.

(٣) يريد العار.

(٤) ناصروه وأيّدوه.

(٥) جعلها عالية حصينة.

ـ بنو حمّود الحسنيّون

لمَّا استقام الأمر للمستعين بوساطة البربر، خرج علي بن حمّود الحسني وأخوه قاسم، من عقب إدريس ملك فاس من المغرب، وأجازا إلى الأندلس، وادَّعيا الخلافة، واعصوصب حولهما البربر، ونصّروهما على المستعين الأُموي صاحبهم الأول، فقتلوه، وثلّوا عرش بني أُميّة سبع سنين، وجرى بينهم أثناء هذه المدّة حروب، ووقائع ليس هنا محلّ شرحها، وتلقّبوا بألقاب الخلفاء، وتغلّبوا على الأمصار، لكن لم تطل مدّتهم فإنّ آخرهم كان الواثق، توفّي سنة خمسين، وكان أهل قُرْطُبة أعادوا الخلافة إلى نِصابها وبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبَّار أخا المهدي، ولقَّبوه بالمُستظهر، وبعد شهرين من خِلافته، ثار عليه محمَّد بن عبد الرَّحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر، واتّبعه العامّة، ففتك بالمُستظهر، وأقام مكانه، ولُقِّب بالمُستكفي وهو والد ولاّدة الأديبة الشهيرة، صاحبة المطارحات مع الوزير ابن زيدون رحمهما الله. وبعد ستّة عشر شهرًا من بيعة المُستكفي، رجع الأمر إلى المُعتلي يحيى بن علي بن حمّود، وكان أهل قُرْطُبة أكثر الناس تشغيبًا، وأقلّهم ثباتًا على الأمور، فخلعوا المُعتلي، وبايع الوزير أبو محمَّد جَهْوَر بن محمَّد ابن جَهْوَر كبير قُرْطُبة، لهشام بن محمَّد الأموي أخي المُرتضي، وكان في «لارِدَة» عند ابن هود، ولُقِّب بالمعتمد بالله، ولم يصبروا عليه فوق ثلاثة أعوام ـ قضى أكثرها متردِّدًا في الثغر ـ حتّى خلعوه سنة ٤٢٢، وانطوى بساط الدولة الأموية، وانتثر سِلك الخلافة، وصار الأمر إلى رؤساء وزراء وقُضاة، استقلّ كلّ منهم بما أمكنته يده، وصار يتظاهر بعضهم على بعض بملوك الإفرنج، ويستجيشون بهم في الأحايين، ويمكّنونهم من حصون المسلمين، طعمة على الاستظهار(١) وإيثارًا لهوى الأنفس على مصلحة المِلّة.

ـ بنو عبّاد اللخميّون

ومن أشهر هؤلاء الملوك الذين تلقَّبوا بملوك الطوائف، بنو عبَّاد من سلالة المُنذر بن ماء السماء اللخْمي، كانوا ملوكًا بإشبيلية وغرب الأندلس، وانتزعوا قُرْطُبة من يد بني جَهْوَر أصحاب الوزارة. وأشهرهم المعتَمِد بن المُعتَضِد الشهير بالأدب والبراعة، والموصوف بالكرم والشجاعة، الذي نكبه في آخر أمره، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وكان قد استفحَل أمره بالأندلس، وعلت يده على بقيّة ملوك الطوائف؛ وخطبوا نصره،

---

(١) الحيطة.

وغلّوا في رضاه، وما زال إقباله في ازدياد، وجَدُّه في صعود، حتّى أسره ابن تاشفين في خبر سيأتي، ونكبه النكبة التي ضنّ بمثلها التاريخ[1] بعد نكبة البرامِكة، وتوفّي مسجونًا بأغمات سنة ٤٨٨.

ـ بنو ذي النون

ومن ملوك الطوائف، بنو ذي النون أصحاب طُلَيْطُلة، وقد بلغت دولتهم غاية قصية من الإستفحال والترف، وجاهدوا في الثغور جهادًا كان الصبر مقامه، وغلبوا المعتمد بن عبَّاد على قُرْطُبة، وقتلوا ولده أبا عمرو، ونزعوا بَلَنْسِية من يد ابن أبي عامر، إلى أن أدرك دولتهم الضعف لعهد القادر بن ذي النون، واستلم ابن الأذفونش منهم طُلَيْطُلة مقرّ مُلكهم، وشرط المظاهرة على أهل بَلَنْسِية فأجابوه، وتغلّب الإسبانيول على الأرض واكتسحوا بسائطها، وقادوا أبيَّها، وأذلّوا عَتيَّها[2]، وفي ذلك قول بعضهم يندب طُلَيْطُلة:

لثُكلِك كيفَ تبتَسمُ الثغورُ ... سُرورًا بعد ما بئِسَتْ ثُغورُ[3]
أما وأبي مصابٌ هُدَّ منه ... ثَبيرُ الدين فاتّصل الثبورُ[4]
لقد قُصِمَتْ ظهورٌ حينَ قالوا ... أميرُ الكاشحينَ له ظُهورُ
ترى في الدهر مسرورًا بعيشٍ ... مضى عنّا لِطيّته السرورُ
أليس بها أبيُّ النفس شهمٌ ... يدورُ على الدوائرِ إذ تدورُ
لقد خضعت رِقابٌ كُنَّ غُلبًا ... وزال عُتوُّها ومضى النفورُ
وهان على عزيز القوم ذلٌّ ... وسامحَ في الحريمِ فتىً غَيورُ
طُلَيْطُلَةٌ أباحَ الضِدُّ منها ... حماها إنَّ ذا نبأٌ كبيرُ
فليس مثالها إيوانُ كِسرى ... ولا منها الخَوَرْنَقُ والسديرُ[5]
مُحَصّنة مُحَسَّنَةٌ بعيدٌ ... تناولُها ومطلَبُها عسيرُ
ألم تكُ معقِلاً للدين صعبًا ... فَذَلّلَهُ كما شاءَ القديرُ

(١) نادرًا ما حصلت في التاريخ.
(٢) أي أنهم غلبوا جميع مَن كان فيها واستولوا عليها.
(٣) الأفواه والثغور ـ هنا ـ مداخل البلاد.
(٤) الوَيل والهلاك.
(٥) الخَوَرْنَقُ والسدير: قصران شهيران للنعمان.

وأُخرِجَ أهلُها منها جميعًا فصاروا حيث شاءَ بهم مصيرُ
وكانتْ دارَ إيمانٍ وعلمٍ معالمُها التي طُمِسَتْ[1] تُنيرُ
مساجدُها كنائسُ! أيُّ قلبٍ على هذا يَقِرُّ ولا يطيرُ؟
فيا أسفاهُ يا أسفاهُ حزنًا يكرَّرُ ما تكرَّرتِ الدهورُ
وينشرُ كلَّ حسنٍ ليس يُطْوَى إلى يومٍ يكونُ به النشورُ [2]
أُديلتْ قاصراتُ الطرْفِ كانتْ مَصوناتٍ مساكِنُها القُصورُ
وأدركها فتورٌ في انتظارٍ لسربٍ في لواحظِهِ فُتورُ
وكان بنا وبالقَيناتِ[3] أولى لو انضمّتْ على الكُلِّ القبور
لقد سَخِنَتْ بحالتهنَّ عَيْنٌ وكيف يصحُّ مغلوبٌ قَريرُ
لَئِن غبنا عن الإخوانِ إنَّا بأحزانٍ وأشجانٍ حُضورُ
نُذورٌ كان للأيّام فيهمْ بمَهْلكهمْ فقد وفَت النذورُ
فإن قُلنا العقوبة أدركتهم وجاءهم من الله النكيرُ
فإنّا مثلهم وأشدُّ منهمْ نَجورُ وكيفَ يَسْلَمُ مَن يجورُ

ومنها

خُذوا ثَأْرَ الديانةِ وانصروها فقد حامتْ على القتلى النسورُ
ولا تهِنوا وسُلُّوا كلّ عضبٍ[4] تهاب، مضاربًا عنه النحورُ
وموتوا كلّكم فالموتُ أَوْلى بكمْ من أن تُجاروا أو تجوروا[5]
أصبرًا بعد سبيٍ وامتحانٍ يُلامُ عليهما القلبُ الصبورُ؟
فأُمُّ الصبرِ مذكارٌ ولودٌ وأمُّ الصقرِ مِقلاةٌ نزورُ[6]

ومنها

---

(١) أُخفيت معالمُها.
(٢) يوم القيامة.
(٣) مفردها (قَيْنة): المغنيّة.
(٤) السيف القاطع.
(٥) تظلِموا.
(٦) هذا البيت مأخوذ من شعر كُثَيِّر عَزّة (المتوفّى سنة ٧٢٣م)، المقلاة: التي لا يحيا لها ولد، والنزور: قليلة الأولاد، والمقصود أن لا قيمة للكمّية والأشكال، وإنّما القيمة للنوعية والأفعال؛ بل، للصبر على الشدائد.

كفى حزنًا بأنَّ الناس قالوا: إلى أينَ التحوُّلُ والمسيرُ
أنتركُ دورَنا ونفرُّ عنها وليسَ لنا وراءَ البحرِ دورُ
ولا ثَمَّ الضياعُ تروق حسنًا نباكرُها فيُعجِبُنا البُكورُ
وظلٌّ وارفٌ وخريرُ ماءٍ فلا قرٌّ[1] هناك ولا حرورُ[2]
ويؤكلُ من فواكهها طريٌّ ويُشْرَبُ من جداولها نَميرُ
يؤدّى مَغرمٌ في كلّ شهرٍ ويؤخذ كلَّ صائفةٍ عُشُورُ
لقد ذهبَ اليقينُ فلا يقينٌ وغرَّ القوم بالله الغَرورُ
رضوا بالرِّقِ يا لله ماذا رأوه وما أشارَ به مُشيرُ
مضى الإسلام فابْكِ دَمًا عليهِ فما ينفي الجَوى الدمعُ الغزيرُ
ونُحْ واندبْ رفاقًا في فلاة حيارى لا تحطُّ ولا تسيرُ
ولا تجنح إلى سِلْمٍ وحاربْ عسى أن يُجبَّرَ العَظمُ الكسيرُ
أنَعْمى عن مَراشِدنا جميعًا وما إن منهمُ إلاّ بَصيرُ
ولو أنّا ثبتْنا كانَ خيرًا ولكن ما لنا كرمٌ وخِيرُ
إذا ما لم يكن صبرٌ جميلٌ فليس بنافعٍ عددٌ كثيرُ

ـ بنو هود

ومن ملوك الطوائف بالأندلس، بنو هود أصحاب سَرَقُسْطة، وأشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف المؤتمن، وكان المؤتمن قائمًا على العلوم الرياضية، وله فيها تصانيف، وابنه المُستعين أحمد، هو الذي هزمه الإفرنج في واقعة "وشقة"، وقتل من المسلمين يومئذٍ نحو عشرة آلاف، واستُشهد المستعين، بظاهر سَرَقُسْطة سنة ٥٠٣، ووُلّيَ ابنه عبد الملك عماد الدولة، وهو الذي أجلاه العدوّ عن سَرَقُسْطة سنة ٥١٢، ووُلّيَ ولده سيف الدولة، وله في الجهاد الموقف الذي لا يخفى.

ـ بنو الأفطس

ومنهم بنو الأفطس، ملوك بَطَلْيوسر الذين منهم المظفّر، صاحب التأليف المسمّى

(١) بَرْدٌ شديد.
(٢) يومٌ حرّ وحرور، شديد الحرّ.

بالمظفّري، في خمسين مجلّدًا، وهم المرثيون برائيّة ابن عبدون المشهورة التي مطلعها:

الدهرُ يفجع بعد العين بالأثرِ   فما البكاءُ على الأشباح والصورِ

وذلك عند فتك البربر بالمتوكّل البطليوسي.

ـ بنو صُمادح

ومنهم بنو صُمادح بالمرَيّة، ومنهم مُجاهد العامري. بدانية والجزائر.

ـ بنو حبّوس

ومنهم بنو حبّوس بغَرناطة مكان الحاجة من الاستشهاد.

ـ تمادي الإسبانيول ورفض ابن عبّاد وتهيّؤه للقتال

هذا ولمّا تكالب الإسبانيول على بلاد المسلمين في الأندلس. واهتبلوا الغُرّة[1] بما كان من افتراق الكلمة، وتشعّب السلطة، وملكوا بَلَنْسِية وطُلَيْطُلة وسَرَقُسْطة وغيرها. وسار طاغيتهم حتّى وقف بفُرضة المجاز من طريف، وضرب على ملوك الطوائف أنواع الجزى. فأدّوها وأعطوه المقادة، وكان أضخمهم ملكًا، المعتمد ابن عبّاد اللّخْمي. صاحب إشبيلية. يؤدّيها وهو صاغر، فلمّا تملّك الأذفونش طُلَيْطُلة، أرسل إليه المعتمد المعتاد. فلم يقبله هاتيك المرّة. وأرسل يطلب منه النزول عن جميع الحصون المنيعة. وتبقى السهول للمسلمين، وإلاّ فهو يزحف إلى قُرْطُبة، وكانت الرسالة مع جمعٍ وافرٍ نحو خمسمائة فارس، فضاق المعتمد ذرعًا، واعتزم القيام، ففرّق الجماعة على قوّاد عسكره، وأمرهم بأن يقتل كلّ مَن عنده، وتولّى هو بنفسه صفع عميدهم، حتّى خرجت عيناه، وأفلت منهم ثلاثة نفر، فعادوا إلى الأذفونش، وأخبروه بالخبر، فرجع عن قُرْطُبة إلى طُلَيْطُلة ليجمع آلات الحصار ويجلب بالقوّة الكافية، وهذه رواية ابن الأثير.

وروى صاحب «الروض المعطار في ذكر المدن والأقطار» ما ملخّصه: «أنَّ المعتمد تأخّر في دفع الضريبة لاشتغاله بغزو ابن صُمادح صاحب المَرِيّة، فلمّا أرسلها، استشاط الأذفونش غَضَبًا، وأرسل يطلب منه بعض الحصون، وأمعن في التجنّي، وسأل في دخول

---

(١) اغتنموا الفرصة.

امرأته الحامل، جامع قُرْطُبة لِتَلد فيه، حسب إشارة القسّيسين والأساقفة، لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظَّمة عندهم، وأن تنزل في قصر الزهراء، غربي مدينة قُرْطُبة والزهراء، هذه هي التي بناها الناصر لدين الله، وأمعن في بنائها، وجلبَ إليها الرخام الملوّن، والمرمر الصافي، والحوض المشهور... إلخ ذلك لِتَلِد الأذفونشة، بين طيب نسيم الزهراء، وفضيلة الكنيسة من الجامع المذكور، وكان صاحب هذه السفارة يهوديًّا، هو وزير الأذفونش، فأبى ابن عبّاد إجابة التماسه، فراجعه وألحَّ عليه حتّى أيأسه بما غلّظ له من القول، فضربه المعتمد بمحبرةٍ كانت بين يديه، فأنزل دماغه في حَلْقه، وأمر به فصُلب منكوسًا بقُرْطُبة، واستفتى في جواز الفِعْلة الفقهاء، فبادر محمَّد بن الطلاع الفقيه، بالفتيا بجواز ذلك، لتعدّي الرسول حدود الرسالة، واحتجَّ بأنه إنَّما بادر بذلك خوفًا من أن يكسل المعتمد عن مُنابذَة العدوّ. وبلغ الخبر الأذفونش، فأقسم بإلهه ليغزونَّه بإشبيلية، وليحصرنّه في عقر داره، وجرّد له جيشين، أحدهما زحف إلى كورة باجَة، فلَبلَة، فإشبيلية، والثاني تولّى قيادته بنفسه، حتّى التقى الجيشان تحت لوائه قبالة قصر ابن عبّاد، على ضفّة النهر الأعظم. وفي أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عبّاد زاريًا: "كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب، واشتدَّ عليَّ الحرّ فاتحفني من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عن وجهي"، فوقَّع له ابن عبّاد بخطِّه في ظهر الرقعة: "قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح الجلود اللمطيَّة(١)، تروّح منك لا تروّح عليك إن شاء الله تعالى". وشاع توقيع ابن عبّاد، وفشا في الناس عزمه على استنفار البربر لمجاهدة العدوّ، فلمّا علم بذلك أقرانه ملوك الطوائف، اهتمّوا وتشاوروا للأمر، ومنهم مَن كاتَبَه، ومنهم مَن شافهه، قائلين إنَّ الملك عقيم، والسيفان، لا يجتمعان في غمد واحد، فأجابهم ابن عبّاد بكلمته السائرة "رَعْيُ الجِمال خيرٌ من رعي الخنازير"، أي أن يكون مأكولاً ليوسف ابن تاشفين، يرعى جِماله في الصحراء، خيرٌ من كونه ممزَّقًا للأذفونش، أسيرًا عنده، يرعى خنازيره في قَشتالة، وقال لِعُذّاله قولاً آخر: "يا قوم إنّي من أمري على حالين: حالة يقين، وحالة شكّ، ولا بدّ لي من إحداهما، أمّا حالة الشكّ، فإنّي إن استندتُ إلى الأذفونش، أو إلى ابن تاشفين، فمن الممكن أن يفي لي ويمكن أن لا يفعل. وأمّا حالة اليقين فإنّني إن استندتُ إلى ابن تاشفين أُرضي الله، وإن استندتُ إلى الأذفونش، أسخطتُ الله وهذه حالة يقين فلماذا أدع ما يُرضي الله إلى ما يُسْخِطه".

---

(١) اللمطية: نسبة إلى لمطة: وهي أرض لقبيلة بالبربر ينسب إليها اللدَّرَق لأنهم ينقعون الجلود في الحليب سنة يتعملونها فينبو عنها السيف القاطع.

ولمّا عزم المعتمد على الاستجاشة، أمر كلاًّ من المتوكِّل بن الأفطس، صاحب بَطَلْيَوس، وعبد الله بن حبّوس صاحب غَرناطة أن يوفدا قاضي الجماعة بحضرته، واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة، أبا بكر عبيد الله بن أدهم، وكان أعقل أهل زمانه فلمّا اجتمع عنده القضاة بإشبيلية، أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون، وأسند إلى القُضاة ما يليق بهم من وعظ ابن تاشفين، وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى وزيره ابن زيدون ما لا بدّ منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية، (وقد وفى يوسف بالأولى ولم يفِ بالثانية).

ـ دعوة ابن تاشفين، واستجابته لداعي الجهاد

وكان ابن تاشفين منذ اعتراء الضعف دول الأندلس، لم تزَلْ تفِد عليه وفود المسلمين من وراء البحر، مستعطفين مُجهشين بالبكاء، فما وفدت رُسُل ابن عبّاد، حتّى أسرع الإجابة، وحشد العساكر، وأنزلها بالجزيرة الخضراء، وأجاز على أثرها وامتلأت الجزيرة بالمجاهدين والمتطوّعة، وعلى رواية ابن خلّكان، أنه أمر بعبور الجِمال فعَبَر منها ما أغصّ الجزيرة وارتفع رُغاؤها[1] إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جَمَلاً قطّ، ولا خيلُهم، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال، ومن رُغائها، وكان ليوسف في عبور الجِمال رأي مصيب فكان يُحدِق[2] بها عسكره عند الحرب، وكانت خيل الفرنج تَجمح منها.

ولمّا نزل يوسف بحشوده في الجزيرة، وبلغ الأذفونش تألُّب أمراء المسلمين لمناهدته[3]، استنفر جميع أهل بلاده وما يليها، وما وراءها، ورفع القسّيسون والأساقفة صلبانهم، واجتمع له من الإفرنجة والجلالقة ما لا يُحصى عدده، وبعث الأذفونش إلى ابن عبّاد "إنّ صاحبكم يوسف تجشّم المشقّة وخاض البحار، وأنا أكفيه العناء، في ما بقي وألقاكم في بلادكم رفقًا بكم" وكان مقصده في الدلوف إلى ديار المسلمين، أنه إن دارت عليه الدائرة، كان له من ورائه من معاقله ومدائنه معتصم، وإن كانت عليهم كان أقدر على النكاية فيهم في عقرتهم[4]. وممّا قيل إنّه كتب إلى يوسف كتابًا أنشأه له بعض غواة المسلمين، ويغلظ له في القول، ويتوعّده، فأمر ابن تاشفين ـ ولم يكن أعلم بالعربية من الأذفونش ـ كاتبه أبا بكر بن القصيرة، أن يجاوبه، وكان كاتبًا مُجيدًا، فكتب وأجاد، فلمّا قرأه يوسف استطاله،

(١) صوتُهُ.

(٢) يُحيط بها.

(٣) ناهده في الحرب: ناهضه وخاصمه.

(٤) وَسَط دارهم.

وأخذ كتاب الأذفونش وكتب على ظهره "الذي يكون ستراه"، وأخذ المعتمد وأمراء الأندلس يجلبون لجيوش المرابطين الأقوات والضيافات.

ولمَّا قرب أمير المسلمين من إشبيلية، خرج ابن عبّاد للقائه في وجوه أصحابه، وعندما تلاقيا تصافحا وتعانقا، ثمَّ شكرا أنعم الله، وتواصيا بالصبر والرحمة، وتوسّلا إلى الله أن يجعل سعيهما خالصًا لوجهه. ووافت الجيوش كلّها بطليوس وجاءهم الخبر بزحف الطاغية، ولمَّا تدانى الفريقان، أذكى المعتمد عيونه في محلاّت الصحراويين، خوفًا عليهم من المكايد لجهلهم المكان، وكان يوسف قد كتب إلى الأذفونش، يدعوه إلى إحدى الثلاث وهي، الإسلام أو الجزية أو السيف، كما هي السنة، فامتلأ الأذفونش غيظًا، وقامت الأساقفة ورفعوا صلبانهم وتبايعوا على الموت، وقام الفقهاء من الجهة المقابلة، ووعظوا وحضّوا على الصبر والثبات، وصدعوا بقوارع الكتاب[1]، وأصبح يوم الخميس، فبعث الأذفونش إلى ابن عبّاد يقول له: "غدًا يوم الجمعة وهو عيدكم والأحد عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت" فأعلم ابن عبّاد السلطان يوسف بذلك، وإنّها خديعة ليفتك بالمسلمين الجمعة، فانتبه الجيش الإسلامي، طول ليلة الجمعة، واستيقظ الفقيه الناسك أبو العبّاس أحمد بن رميلة القرطبي، فَرِحًا مسرورًا يقول: إنَّه رأى النبي (ﷺ) تلك الليلة في النوم فبشّره بالفتح والشهادة، فتأهّب ودعا وتضرّع، ودهن رأسه بالطِّيب، وانتهى ذلك إلى ابن عبّاد، فبعث إلى يوسف يخبره.

ـ واقعة الزلاّقة الشهيرة

وجاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد، يُخبران أنهما أشرفا على محلّة الأذفونش، وسمعا ضوضاء الجيوش وصليل الأسنّة[2]، وجاءت العيون من داخل محلّتهم، يقولون قد استرقنا السمع فسمعنا الطاغية يقول لأصحابه "ابن عبّاد مُسعَّر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا ذوي حفاظ وبصائر في الحرب، فهم جاهلون البلاد، فاقصدوا ابن عبّاد واصدقوه الحملة، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون" فأرسل ابن عبّاد يعرّف أمير المسلمين. وقبل ورود الجواب غشيته[3] جنود الأذفونش من كلّ جهة، وهاجت

(١) ما جاء فيه من وعيد شديد.
(٢) الرّماح، مفردها سِنان.
(٣) بمعنى أتتْهُ.

الحرب، وحميَ الوطيس، وتتابع الناس على الموت، وصبر المعتمد صبرًا لم يُعهد مثله لأحد، واستبطأ يوسف في النجدة، وانكشف بعض أصحابه وأُثخِنَ جراحات، وعُقِرت تحته ثلاثة أفراس. وبينما هو على تلك الحال، أقبل عليه من قوّاد المرابطين داود بن عائشة، وكان من الأبطال فنفّس عن خناقه[1]، وأقبل يوسف بجموعه، وأصوات طبوله قد ملأت الفضاء، فنهد[2] إليه الأذفونش، بمعظم جيشه، فصدَّهم ابن تاشفين بجنده، فردّهم إلى مراكزهم، وانتظم بيوسف شمل ابن عبّاد، وحملوا جميعًا حملة الرجل الواحد، فتزلزلت الأرض بحوافر خيلهم، وأظلم الجوّ من العِثْيَرُ[3]، وتراجع المنكشفون من أصحاب ابن عبّاد، وتجدَّدت الحملة فانكشف الأذفونش، وقيل، بل تصادم الجَمعان وتناوبا الكرّ والفرّ، إلى أن أمر يوسف حَشَمَهُ من السودان، فترجّل منهم نحو أربعة آلاف بدرَق[4] اللمط، وسيوف الهند ومزاريق[5] الزان، وأدرك الأذفونش أسود لصق به، وقبض على عِنانه، وانتضى خنجرًا أثبته في فخذه، فهتك حلق درعه، وهبّت ريح النصر، وأنزل الله السكينة على المسلمين، وانكشف العدوّ من كلّ جانب وقد فشا فيه القتل والأسر، واعتصم الأذفونش بخمسمائة فارس من قومه بربوة عالية، انسابوا منها بعد تخييم الظلام، وقد أباد القتل من الإسبانيول أمّة، وجعل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذّنون عليها، واستُشْهِدَ في ذلك اليوم ابن رميلة كما بشّره النبي (ﷺ)، وقاضي مرّاكش أبو مروان عبد الملك المصمودي وغيرهما من الأعيان.

وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام، حتّى جمعت الغنائم، فتعفَّف عنها أمير المسلمين إيثارًا لأهل الأندلس، وعادوا جميعًا إلى إشبيلية، وحضرت الكتب من برّ العُدوة إلى ابن تاشفين، تقتضي عزمه بالرجوع، فعبر البحر وودّعه المعتمد. وهذه وقعة الزلّاقة الشهيرة، من أشهر ما حملته التواريخ من الوقائع بين الإسلام والنصرانية، وقد استوفينا خبرها بمكانها من صدور الحوادث، ووجدنا اختلافًا في تعيين عامها، فابن خلدون يقول سنة إحدى وثمانين (بعد الأربعمائة) وابن عَلقمة يقول إنَّ طُلَيْطُلة، أخذت يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرّم سنة ٤٧٨، وكانت واقعة الزلّاقة التي نشأت في السنة بعدها.

---

(١) أخرجه من ضيقه.

(٢) نَهَدَ نهدًا لعدوّه: صمد له وشرع في قتاله. ونهد الرجلُ: شخص.

(٣) العِثْيَرُ: التراب: العجاج الساطع. كلّ ما قلّبت من طين أو تراب أو مدر بأصابع رجليك إذا مشيت.

(٤) الدَرَق: مفردها الدرقة: ترس من جلود ليس فيها خشب ولا عقب.

(٥) مفردها مزراق: رمح قصير.

- استيلاء المرابطين على الأندلس ونكبة المعتمد بن عبّاد

ولما قفل ابن تاشفين إلى المغرب. خلّف وراءه بالأندلس الأمير سيري بن أبي بكر أحد قوّاده الكبار. ومعه جيش برسم الجهاد. وابن خلدون يقول إنّه خلف محمّد المعروف بابن الحاج. فزحفت عساكر المرابطين صوب بلاد العدوّ، فأثخنت وسبت وتوغّلت في البلاد. وكتب إلى يوسف قوّاده: إنّ الجيش مقيم على مِراس العدوّ، وهو في أضيق العيش وأنكده. وإنّ ملوك الطوائف متقاعدون يجرّون ذيول الترف والترفّه، وقيل، بل كان ابن تاشفين أنكر عليهم تراكم المغارم. وتلاحق المُكوس[1] على رعيّتهم، فأمر برفع الكثير منها. فانقبضوا عنه إلاّ ابن عبّاد في الأول. فأمر ابن تاشُفين بنقلهم إلى برّ العُدْوة، وقتال مَن عصي منهم. فابتدأ ببني هود. وأنزلهم من قلاعهم واستولى مكانهم، وقتل ابن ذي النون صاحب بَلَنْسِية وملكها. ونازل بني ظاهر بشرق الأندلس، فأجلاهم وألحقهم بالمغرب، وقصد بَطَلْيوس وفيها ابن الأفطس. فانتزع منه جميع أعماله، وأخذ غَرناطة من يد عبد الله ابن بلكين بن باديس. ومالَقَة، من يد أخيه تميم، ولم يبقَ عليه إلاّ المعتمد بن عبّاد في إشبيلية وكان الفقهاء قد أفتوا أمير المسلمين بخلع الجميع، لِما رأوا من فرقتهم وسوء أحوالهم من تشعّب أمور المِلّة وتكالب العدوّ، ووردت الفتاوى على يوسف من أعلام الشرق، مثل الإمام الغزالي، والطُرطوشي بوجوب ذلك.

وكان ابن تاشُفين لما ورد على المعتمد، حضرته إشبيلية بعد الزلاقة، ورأى ما رأى من ترف المعتمد، وسَرَفه في قصوره، واسترساله إلى حظوظ نفسه، ممّا كانت ترغب عنه نفس ابن تاشُفين الناشئ في الصحراء، أنكر ذلك الأمر وقال: "إنَّ هذا الرجل مضيِّع لما بيده" وحكم بأن توفّر هذه الأموال بين يدَيه لا بدّ أن يكون نتيجة المظالم والمغارم. والظلم، وزيادة الرسوم عين الخراب على الرعيّة، فأرسل سيري قائِدَه، يطالبه بالطاعة فلم يُجبْه فنازَله، وحصر إشبيلية واستجاش المعتمد بالطاغية فلم ينفعه، لمّا كان المرابطون قد فلوا من غربه[2]، فدافع المعتمد عند دخول المرابطين بلده دفاعاً مشهورًا، وخرج حاسرًا عن مفاضته[3] والسيف في يده، فرماه أحد الداخلين برمح فأخطأه، فبادره بضربة أزهق بها روحه، ولقي ثانيًا فقسمه شطرين، إلى أن وجد ابنه مالكًا مقتولا، ويئس من الثبات، فطلب

---

(١) الضرائب.

(٢) أضعفوه.

(٣) متخليًا عن درعه.

الأمان، فأجيب إليه، وحُمِل على السفين منفيًا إلى برّ العُدْوَة، فأسكنه يوسف أغمات وبها مات سنة ٤٠٧ ومن قوله عندما خُلِعَ:

إنْ يَسْلُبِ القومُ العدى ... مُلْكي وتسلمني الجموعُ
فالقلبُ بينَ ضلوعِهِ ... لا تسلمِ القلب الضلوعُ
قد رُمْتُ يومَ نِزالِهِمْ ... أن لا تُحَصِّنَني الدروعُ
وبرزتُ ليس سوى القميـ ... صِ على الحشى شيءٌ دفوعُ
أجَلي تأخَّرَ لَمْ يكنْ ... يهواهُ ذلّي والخضوعُ
ما سرتُ قطُّ إلى القتالِ ... وكان من أملي الرجوعُ
شِيَمُ الأُلى أنا مِنهُمُ ... والأصلُ تتبعُه الفُروعُ

والمعتمد بن عبّاد ينتمي إلى المنذر بن ماء السماء اللخمي، وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

من بني منذر وذاك انتسابٌ ... زادَ في فخرِهم بنو عبّادِ
فتية لم تلدْ سواها المعالي[1] ... والمعالي قليلةُ الأولادِ

ولم تعرّفنا كتب الأدب العربي ببيت قيل فيه من الشعر، ودار على أيام أُنسه ثمَّ أدوار نحسه من المحاضرات، مثل هذا البيت اللخمي، ولا بدولة راجت فيها بضاعة الأدب والفصاحة، وتناهت إليها غايات الكرم والسماحة، أكثر من دولة بني عبّاد؛ حتّى قال ابن اللبّانة، إنَّ الدولة العبّادية بالأندلس، أشبه شيء بالدولة العبّاسية ببغداد سعة مكارم، وجمع فضائل، ولذلك ألّف فيها كتابًا مستقلاً سمّاه «الاعتماد في أخبار بني عبّاد»، ولا يُلتَفت لكلب عقور نبح بقوله:

ممّا يُزهدُني في أرضِ أندلسٍ ... ألقابُ مُعتمدٍ فيها ومُعتضدِ
أسماءُ مملكةٍ في غير موضعها ... كالهرِّ يحكي انتفاخًا صورةَ الأسدِ

لأنَّ هذه مقالة متعسِّفٍ، كافرٍ للنعم، ومثل ذلك في حقّهم لا يقدح، وما زالت الأشراف تُهجى وتُمدح انتهى.

---

(١) وإلى هذه الشجرة أيضًا ينتسب محرّر هذا الكتاب ومن بني لخم أقوامٌ كثيرون في الغرب والشرق ولا سيّما بصعيد مصر.

وأخبار المعتمد، وأشعاره وأمداح الشعراء فيه، وفريدات القصائد في مراثيه، ملء كتب المحاضرات، وهي غُرَرُ قصص المسامرات.

غزا يوسف بن تاشُفين الأندلس أربع مرّات آخرهنَّ سنة ٣٩٧، وانتظمت جميع ديار الإسلام فيها بملكه، وانقرضت ملوك الطوائف.

واتّسع سلطانه بالعُدْوَتين، وورد له التقليد من الخليفة المستنصر العبّاسي، وتوفّي على رأس المائة الخامسة. وقام بالأمر بعده ابنه علي بن يوسف، وسلك سنن أبيه في الغزو والجهاد، وأجاز إلى الأندلس سنة ثلاث، ونازل طُلَيْطُلة، وأثخنَ في ديار العدوّ، وعقد لولده تاشُفين على غرب الأندلس، وأجاز معه الزُّبير بن عمر في جيش، وعقد لأبي بكر بن ابراهيم المسوفي على شرق الأندلس، وهو ممدوح ابن خفاجة، أرقّ شعراء الأندلس شعرًا، ومخدوم الحكيم المعروف بابن الصائغ.

ـ ظهور الموحّدين

ووُلّي ابن غانية، الجزائر الشرقية مَيورقة ودانية، ولأربعَ عشرة سنة من ملكه ظهر المهدي بن تومرت، القائم بدعوة الموحّدين، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، والتفَّت عليه المصادمة وتوفّي سنة ٢٤. وقام بالأمر بعده عبد المؤمن بن علي، كبير أصحابه، وانتسبت الدولة إليه، فقيل دولة بني عبد المؤمن، فلم يزَل يسعى في تقويض خيام لمتونة، ومحو آثار المرابطين، حتّى ملك أكثر المغرب منهم. وكان علي بن يوسف، قد مات وخلفه ابنه تاشُفين، فصمد إلى الموحّدين بكهف الضَحّاك، بين الصخرتين من جبل تيطري، فانهزمت صنهاجة وفرَّ تاشُفين إلى وهران، لاجئًا بلبّ ابن ميمون، قائد البحر، ومات سنة ٤١ وبويع في حضرتهم مراكش لابنه ابراهيم، وكان ضعيفًا عن حمل الأمر، فأُديل منه لعمّه اسحق بن علي بن يوسف. وعلى تفيئة ذلك[1] نازل الموحّدون مراكش وملكوها، وقطعوا دابر المرابطين، وانعطفوا نحو الأندلس سنة ٥٥١، فانتزعوها من أيدي عمّالهم: مدينةً مدينة، وحصنًا حصنًا، بعد حروبٍ تساجلت بها فئة المرابطين والموحّدين، وانتهت بالفتح لهؤلاء.

وطلب الثوّار الأمان من عبد المؤمن وتلاحقوا به، فصفح عنهم، ونهض إلى سلا سنة ٤٥، واستدعى أهل الأندلس، فبايعوه جميعًا، وكان ميمون بن بدر اللمتوني في غَرناطة،

---

(١) وفي ظِلِّ ذلك أو: بسبب ذلك (مُطلقًا).

فنزل عنها له ولَحِق بمراكش، ونازل السيِّد أبو سعيد بن عبد المؤمن المَرِيّة ـ وكانت يومئذٍ في يد الإسبانيول ـ فاستنزلهم منها، وتولىّ ابنه الآخر، السيِّد أبو يعقوب إشبيلية، بطلب أشياخها، وزحف صاحب طُلَيْطُلة الإسبانيولي، بجميع الأكفاء لها إلى قُرْطُبة، فسرّح جيوش الموحِّدين إلى مقابلته فارتحل عنها.

وكان الأمير أبو عبد الله محمَّد بن سعد المعروف بأَبن مردنيش، قد ثار عليه بشرق الأندلس، فكتب إلى عُمّاله بالأندلس بما يتيسّر له من فتح أفريقية، وأنه عابر إليهم، وكان ولداه أبو سعيد وأبو يعقوب في الحضرة زائرين، فانتهز الفرصة ابن هَمُشْك، من أشياع اللمتونيين، واستولى على غَرناطة، وانحصر مَن فيها من الموحِّدين بالقصبة، فنهض عبد المؤمن إلى سلا، وأرسل ابنه سعيدًا، وضمَّ إليه ابن أبي حفص عامل إشبيلية من قبله، لأجل استنقاذ غَرناطة، فهزمهما ابن هَمُشْك، ورجع أبو سعيد إلى مالَقَة فأعادهما إلى غَرناطة، وعزَّزهما بثالث، هو ابنه الآخر السيِّد أبو يعقوب في سوادٍ[1] من الموحِّدين، فوصلوا إلى غَرناطة وقد وافاها ابن مردنيش مددًا لابن هَمُشْك، وظاهرهما النصارى، فازدلف[2] الفريقان بعضهم إلى بعض بفحص غَرناطة، فدارت الدائرة على ابن هَمُشْك وأحلافه، ففرَّ ابن مردنيش إلى الشرق مكانه، ولحق ابن هَمُشْك بجيّان، ودخل السيِّدان ولدا عبد المؤمن قُرْطُبة.

وسنة ٥٨٥، توفّي عبد المؤمن بن علي رأس الموحِّدين، وقام بالأمر بعده ولده أبو يعقوب وبايعوه كافّة، وفي أيامه قصد الحاج ابن مردنيش قُرْطُبة، ومعه جموع من زَغْبة وغيرها، فأرسل السيِّد أبا سعيد صاحب غَرناطة والسيِّد أبا حَفْص أخاه في عساكر الموحِّدين لمنازلته، فالتقوا بفحص مُرسية، فانهزم ابن مردنيش وأولياؤه من الإسبانيول، وأقرّ أبو يعقوب أخاه أبا سعيد على غَرناطة، وجعل أخاه السيِّد أبا اسحق على قُرْطُبة، وزحف الإسبانيول على مدن المسلمين، فخرج أبو حفص من مراكش سنة ٦٥، ومعه جموع الموحِّدين، وأخوه أبو سعيد، فوصل إلى إشبيلية، وأرسل أخاه أبا سعيد إلى بَطَلْيوس، وكان موحِّدوها قد دفعوا العدوّ فانعقد الصلح مع الإسبانيول، ونهض الموحِّدون إلى مُرسية لتأديب ابن مردنيش الثائر، ورافقهم ابن هَمُشْك، حليفه بالأمس،

(١) جماعة.

(٢) اقترَب.

لوحشة وقعت بينهما حملت هذا على أن يبعث إلى أبي حفص بطاعته وتوحيده، فحوصر ابن مردنيش في مرسية، وأطاع أهل لورقة، وخضع ابن عمّه صاحب المَرِيّة، فحصّ[1] ذلك جناحه، وتوافت عند الخليفة بمراكش جموع العرب فنهض بها إلى الأندلس، واحتلّ قُرْطُبة سنة ٥٧، ثمَّ إشبيلية، وكان ابن مردنيش، قد هلك أثناء الحصار، فأذعن أولاده للخليفة وقرّبهم إليه، وصهر لهلال بن محمَّد بن مردنيش في ابنته، وأقرّ أخاه أبا سعيد على غَرناطة، وخرج القومس الأحدب بجموع الإسبانيول، فنهد إليهم، وأوقع بهم في قلعة رباح، ورجع إلى إشبيلية فانتقض العدوّ ثانية، فكرّ عليه، وتوغّل في بلاده، وفرّق جموعه، وقفل إلى الحضرة عام ٧١، لخمس سنين من إجازته إلى الأندلس، وتوفّي السيِّد أبو سعيد أخوه بالطاعون، فعقد لأبي يزيد بن أبي حفص على غَرناطة، ولأخيه أبي محمَّد عبد الله على مالَقَة. وسنة ٧٥، عقد لقائم بن محمَّد بن مردنيش الأسطول، وأغزاه أُشبونه، فغَنِم، ورجع، وانتقض الإسبانيول ثالثة، ونازلوا قُرْطُبة، وشنّوا الغارات على جهات غَرناطة ومالَقَة، وصدمهم الموحِّدون من الأندلس وعليهم السيِّد أبو اسحق أخو الخليفة، فكفوهم، وأجاز الخليفة ثانية للجهاد ومعه حشود العرب، وذلك سنة ٨٠، فغزا سنتمرين، وأثناء حصارها أو منصرفه عنها توفّي، قيل من سهم أصابه من جهة العدوّ، وقيل من مرض فجائي، فخلفه ابنه يعقوب، فلم يزل في الجهاد، وأثخن في العدوّ، وأجاز إلى مراكش.

ـ وقعة الأرك

وبعد مدّة، بلغه خروج العدوّ وإيقاعه بالمسلمين وتغلّبه على شِلْب، فاعمل في النفير، وزحف إلى قصر مصمودة، ومنها أجاز إلى طريف، وحصر شِلْب وطُرُّش، وغيرهما من الحصون، فافتتحها، ودانت له البلاد، فقفل إلى المغرب، خصوصًا لما بلغه من ثورة ابن غانية، الذي كان واليًا في مَيورقة، لم تكد قدمه تستقرّ هناك حتّى بلغه من أمر الأندلس، وكَرّة العدوّ ما أقضَّ مضجعه، فاستأنف الإجازة سنة ٩١. وتلاحقت به حشود الموحِّدين من كلّ جهة، فنزل بالأَرْك من نواحي بَطَلْيوس، وقصدته الإسبانيول وعليهم ابن الأذفونش، وملكان آخران، في جيوش وافرة، فكانت واقعة الأَرْك التي هي أخت واقعة الزلاّقة، وقيل أجلُّ منها قدرًا، يُروى أنه قُتل فيها من الإفرنج ثلاثون ألفًا، وحصل في بيت المال من الدروع ستّون ألفًا، ونجا فلُّ[1] الإفرنج وهم خمسة آلاف، فاعتصموا بحصن الأَرْك، فحصرهم واستنزلهم وفدى بهم عددهم من المسلمين.

---

(١) المنهزمون منهم.

وفي السنة التالية، خرج إلى الجهاد أيضًا، فافتتح عدّة حصون، وتوغّل حتّى أشرف على طُلَيْطُلة، فاكتسح بسائطها، وغَنِمَ وسبى، وأبعد النّكاية في العدوّ، وقفل إلى إشبيلية، وهناك اعتقل القاضي أبا الوليد بن رشد، طائر الصيت في الأصقاع الأوربية، والمنسوب إليه مذهب الإشراق في الفلسفة، والذي ألّف عليه وباسمه الفيلسوف رنان الفرنسي كتابًا مستقلاً، وذلك لمقالات رُفِعت إلى السلطان يعقوب المذكور يُستَدلّ بها على رقّة دينه وسلاسة اعتقاده.

وعام ٥٩٣، عاود الجهاد وأثخن في ديار طُلَيْطُلة، وأعيت بالإفرنج الحيلة فهادنوه، وخطبوا عِلمه، فأجابهم لذلك، لما كان بلغه من ثورة ابن غانية وقراقوش مملوك بني أيّوب، وأجاز إلى الحضرة وتوفّي، وذلك ٥٩٥.

ـ السلطان يعقوب بن المنصور وخلفاؤه

وهذا السلطان يعقوب المنصور، هو الذي استجاش به صلاح الدين يوسف ابن أيّوب[1] ليمنع بأساطيلهُ ورود الإفرنج على الشام، وأرسل إليه في هذه المهمّة ابن مُنقِذ، وأصحبه بهديّة، فقيل إنّه ردّه لتجافي سلطانه عن خطابه بلقب أمير المؤمنين، وتقصيره من حقوقه. وقيل، بل جهّز له بعد ذلك أسطولاً عظيمًا، وقطع طريق البحر على الإفرنج، وهو السلطان الذي يُروى أنه زهد في آخر حياته، وترك المُلك وساح في الأرض، حتّى وصل إلى الشام، ومات ودُفِنَ في البقاع، والآن في الشرقي قرية اسمها السلطان يعقوب، واتّفق المحقّقون على أنّ هذه الحكاية لا أصل لها، وجزم ببُطلانها الشريف الغَرناطي، وقال إنّها من أوضاع العامّة لولوعهم بالسلطان المذكور.

ـ وقعة العُقاب

وتولّى الأمر بعد المنصور ابنه محمَّد ولُقِّب بالناصر، وفي أيامه خرج الأذفونش، وعثا في بلاد الإسلام؛ فجمع الناصر جموعًا لا قِبَل بها، لأجل الجهاد، قيل نحو ستّمائة ألف مقاتل، والتقى بالإفرنج فيهم ابن أذفونش وصاحب بَرشلونة، فكانت الوقعة المُسمّاة بالعُقاب التي لم يقُمْ بعدها للمسلمين في تلك البلاد قائمة تُحمد، وهلك فيها أكثر المجاهدين وبالغ بعض المؤرّخين فقيل، لم ينجُ منهم غير الألف، وهو بعيد عن التصديق، وكان

(١) صلاح الدين يوسف بن أيّوب هو صلاح الدين الأيّوبي.

وقوعها في أواخر صفر سنة ٦٠٩. وقد روى ابن خلدون هذه الواقعة فلم يبالغ في مصيبتها ما بالغه غيره، وزعم أنَّ الإفرنج بعد الكائنة، أغاروا على بلاد المسلمين فلقيهم السيِّد أبو زكريّا بن أبي حَفْص بن عبد المؤمن قريبًا من إشبيلية فهزمهم، وانتعش الإسلام.

وتوفّي الناصر وخلفه ابنه يوسف ولُقِّب بالمُستنصر، وكان حديث السنّ، فانصرف عن تدبير الأمور إلى العبث واللهو، وفي أيامه تولّى أبو محمَّد العادل عمّ المُستنصر مُرْسِية بدل غَرناطة.

وتوفّي المُستنصر، فبويع عبد الواحد أخو المنصور، ولم يكن يُحسن التدبير، فانتزى عليه العادل المذكور، وبايعه إخوته الذين كانوا على مدن الأندلس، وتمَّ له الأمر، ولكن زحفت إليه الإفرنج، وأطلقوا الغارة في البلاد، فتصافَّ معهم فانهزم، وأصيب المسلمون فأجاز إلى المغرب، وخلّف على الأندلس أخاه أبا العلاء إدريس.

ثمَّ خُنق العادل بمراكش. وبويع يحيى بن الناصر وهو صغير، فادّعى الخلافة السيّد أبو العلاء المذكور، وبويع بالأندلس ثمَّ في المغرب، لكن انتقض عليه المتوكِّل محمَّد بن يوسف الجذامي، ودعا لبني العبّاس، فمال إليه أهل الأندلس وأجاز أبو العلاء إلى المغرب، ينازع يحيى بن الناصر، وتعاظمت الفتنة بينهما، واستبدّ ابن هود بما وراء البحر، ودخل الوهن[1] دولة الموحِّدين.

ومات أبو العلاء، وكان يُلقَّب بالمأمون سنة ٦٣٠. وتولّى بعده ابنه الرشيد، وفي مدّته ظهر ابن الأحمر صاحب غَرناطة. وأرسل إليه بالبيعة وتوفّي سنة ٤٠. وقام بالأمر أخوه السعيد، فقتله بنو عبد الواد بقرب تِلِمْسان عام ٤٦.

ـ دولة بني مرين

وفي أيام الرشيد والسعيد خرج بنو مرين من بني واسين من زناتة، واعْصَوصَب[2] حولهم البربر، واجتمع العرب على بيعة عمر بن ابراهيم بن يوسف ابن عبد المؤمن ولقّبوه بالمرتضي، ولم تمض مدّة من خلافته، حتّى انتقض عليه ابن عمّه السيِّد أبو العلى ابن السيِّد أبي عبد الله محمَّد ابن السيِّد أبي حَفْص بن عبد المؤمن، لخلافٍ تمكَّن بينهما. وصحبه ابن

---

(١) الضعف.

(٢) اجتمع وآزر والتفّ.

عمّه السيِّد أبو موسى عمران، ولحقا بيعقوب بن عبد الحقّ المَريني، الثائر على دولتهم، وما زال النزاع قائمًا حتّى غلب أبو العلى المذكور ـ وكان يكنّى بأبي دبوس ـ على مراكش. ووقع المرتضي في يده فعفا عنه أولاً ثمَّ قتله، واستقلّ بالأمر وتلقّب بالواثق، ونهض إليه يعقوب ابن عبد الحقّ، ببني مَرين وحزبهم، فخرج أبو دبوس من مراكش لدفاعه[1]، فاصطلت الحرب في وادي أعفر، وانهزم الموحِّدون وقُتِل أبو دبوس، ودخل بنو مَرين مراكش، وانقرض ملك بني عبد المؤمن، وكان ملكًا كبيرًا وذلك عام ٦٦٨، والبقاء لله.

أمّا يعقوب هذا فهو ابن عبد الحقّ، بن محيو، بن محمَّد، بن حمامة بن حمد بن، ورزير، بن فكوس، بن كرماط، بن مَرين من بني واسين. كان جدّه محيو زعيمًا لبني مَرين وحضر وقعة الأَرْك مع الموحِّدين، وأصابته فيها جِراحة توفّي منها، فقام بالرئاسة بعده ابنه عبد الحقّ فوافق ظهوره دخول الضعف على دولة بني عبد المؤمن، فسمت نفسه إلى انتزاع ملكهم، وتأذن الله بنصره في جملة مواطن، إلى أن هلك في إحدى وقائعه معهم. وأمره لمّا يستقِم، وخلفه ابنه يحيى، فملك فاس، في خبر ليس هنا شرحه، ومهّد لأعقابه القواعد، وخلفه أخوه يعقوب المذكور، فدخل مراكش حضرة الموحِّدين، واستأصلهم ومن هناك استقلّ بالأمر بنو مَرين.

وأمّا الأندلس، فعندما التاث[2] أمر الموحِّدين بالمغرب، تمشت فيها رجالات العرب بإخراج السادات الموحِّدين، واستبدّ بالأمور ابن هود وابن مردنيش، وخرج على ابن هود رجل يقال له محمَّد بن يوسف من بني نصر، ويُعرف بابن الأحمر فجاذبه الحبل، وكانت لكلّ منهما دولة أورثها أعقابه، ولكن آلَ الأمْر أخيرًا إلى انحصار تُراث الإسلام بالأندلس في ذرّية ابن الأحمر على ما سيأتي.

---

(١) لصَدِّه.

(٢) وزنٌ في توارث وتداول.

في دولة بني الأحمر أصحاب غَرناطة

قال ابن سعيد: "الضابط في ما يقال، في شأن أهل الأندلس في السلطان، أنهم إذا وجدوا فارسًا يبرع الفرسان، أو جوادًا يبرع الأجواد، تهافتوا في نُصرته، ونصبوه ملكًا من غير تدبير في عاقبة الأمر إلى يوم يؤول. وبعد أن يكون الملك في مملكة قد توورثت وتدوولت[1]، يكون في تلك المملكة قائد من قوّادها، قد شُهِرت عنه وقائع في العدوّ، وظهر منه كرم نفس للأجناد، ومراعاة، قدّموه ملكًا في حصن من الحصون، ورفضوا عيالهم وأولادهم، إن كان لهم ذلك بكرسي الملك، ولم يزالوا في جهاد وتِلاف أنفس، حتّى يظفَر صاحبهم بطَلَبه، وأهل المشرق أصوب رأيًا منهم في مراعاة نظام الملك، والمحافظة على نِصابه، لئلاّ يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وحلّ الأوضاع".

"ونحن نمثّل في ذلك بما شاهدناه لما كانت هذه الفتنة الأخيرة بالأندلس، تمخّضت عن رجل من حُصن يقال له "أرْجونة"، ويُعرف الرجل بأبن الأحمر، كان يكثر مغاورة[2] العدوّ من حِصْنِه، وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة، إلى أن طار اسمه في الأندلس، آل ذلك إلى أن قدّمه أهل حِصْنِه على أنفسهم، ثمَّ نهض فملك قُرْطُبة العظمى، وملك إشبيلية، وقتل ملكها الباجي، وملك جيّان أحصن بلد الأندلس، وأجلّه قدرًا في الإمتناع، وملك غَرناطة، ومالَقَة، وسمّوه بأمير المسلمين فهو الآن المشار إليه بالأندلس والمعتمَد عليه".

"أرْجونة" حِصن من حصون قُرْطُبة، كان فيه قوم يُعرفون ببني نصر، ينتسبون إلى سعد بن عبادة، سيِّد الخزرج رضي الله عنهم، وكان عميدهم لآخر دولة بني عبد المؤمن، محمَّد بن يوسف بن نصر، ويكنّى بأبي دبوس، ويقال له الشيخ، وغلب عليه لقب ابن الأحمر، وكان له أخ اسمه اسماعيل، وكانت لهم وجاهة وكلمة عالية في تلك الجهة، فما زال يتقدّم من حالة إلى حالة حتّى أحسّ من نفسه الكفاءة للاستقلال، فثار على ابن هود

(١) وزنٌ في توارثَ وتداولَ.

(٢) يكثر من الغارات عليهم.

سنة ٦٢٩، وأطاعته جيّان وشَرِيش، واستفحل أمره، ثمَّ أصهر [1] إلى الرؤساء بني أشقَيلولة، فتعزَّز بهم، ثمَّ لمَّا خرج ابن هود من إشبيلية إلى مرسية، ثار بإشبيلية أبو مروان الباجي، فداخَله محمَّد بن الأحمر، على أن يزوِّجه ابنته فأطاعه، ودخل ابن الأحمر إشبيلية، فلمّا تمكَّن فَتَكَ بابن الباجي واستولى مكانه، غير أنَّ أهل إشبيلية، رجعوا إلى طاعة ابن هود وأخرجوه منها، فتغلّب على غَرناطة، إذ كان فيها ابن أبي خالد، الذي ثار بدعوته وأرسل إليه ببيعته، فقدم عليها أولاً ابن أشقيلولة، وجاء على أثره فنزلا بها، وابتنى لنزوله حِصنَ الحمراء، التي لم يُبنَ مثلها في البلاد، وكان غلبه على غَرناطة عام ٦٣٥، وغلب بعدها على مالَقَة، وبايعه أهل لُورَقَة، وتناول المَرِيّة من يد ابن الرميمي، عامل ابن هود، وأخذ يضمّ الأطراف، ويكتب الكتائب ويحصِّن الثغور، ويؤوي المشرَّدين. واتّخذ لقب الغالب بالله، وضرب على سكّته وكتب على رايته "لا غالب إلاّ الله" وصار ذلك عَلَمًا لدولته فيما بعد.

ـ بدء تقلص ظلّ الإسلام عن الأندلس

وفي ذلك الدهر، وهو القرن السابع للهجرة، كان الإسلام أخذ يتقلّص ظلّه عن الأندلس، وأصبح المغرب بما أدرك أموره من الاختلال، وما أصاب أهله من اليأس من نُصرة أندلس، خصوصًا بعد وقعة العُقاب، عاجزًا عن إمدادها بالبعوث الوفيرة التي كانت تجتمع تحت رايات المرابطين والموحِّدين، هاتيك الدول الكبار. فتقدَّم الإسبانيول من كلّ جهة، وملكوا القواعد مثل طُلَيْطُلة وقُرْطُبة وبَلَنْسِية وإشبيلية وجَيَّان وغيرها، وصاروا يقتطعون كلّ يوم كورة، ويحذفون من مملكة الإسلام حِصنًا: إلى أن ألجأوا المسلمين إلى سِيف البحر [2]، من رُنْدَة، من الغرب إلى الشرق، نحو عشر مراحل فقط، وتكلَّم الناس في ذهاب هذه البقيّة وقال شاعرهم:

حُثّوا رَواحِلَكُم [*] يا أهلَ أندلسٍ ... فما المقامُ بها إلاّ من الغَلَطِ
السِلْكُ يُنْثَرُ من أطرافِهِ وأرى ... سِلْكَ الجزيرةِ منثورًا من الوَسَطِ
مَن جاوَرَ الشَّرَّ لا يأمَنْ عواقبَهُ ... كيفَ الحياةُ معَ الحيَّات في سَفَطِ [3]

---

(١) أصبح صُهرَهُم: زوَّجه من بناته أو أخواته.

(٢) ساحله.

(*) حثّوا الرواحل: حركوا خيولهم ومراكبهم، وأعملوا في السفر.

(٣) السفط: الذي يعبّى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء قال ابن سيِّده: كالجواليق أو كالقفّة.

والذي يلحظه القارئ - من كلام ابن خلدون الذي عاش قبل الخروج الأخير بنحو القرن، وكان يشير إلى مآله بمشاهدة مقدّماته، وابن الخطيب، الذي من جملة وصيّته لأولاده عدم الإكثار من تملّك الأرض، واعتقاد العَقار في بلد مثل الأندلس، دار قُلْعة ومنزل غُربة[1] - أنَّ عقلاء المسلمين كانوا مستشعرين هذا الخطب من قبل وقوعه بأزمان، لتكالب الإسبانيول على البلاد من كلّ جهة، وظهور الفرقة بين أمراء الإسلام، وانقطاع مدَد المغرب شيئًا فشيئًا، كما سيتّضح من مجرى الحوادث.

- المدجّنون

وكان بقيّة السيف من المسلمين والذين قد غَلَب على ديارهم العدوّ، صائرين إلى إحدى ثلاث خصال: إمّا أن يلبثوا في ديارهم خانعين لسلطانه، على شروط قرَّرها مع بعضهم في البداية، وقيل لهؤلاء "المدجّنون" من التدجين أي التأليف والتأنيس، وإمّا أن يُجيزوا إلى برّ العُدْوة، فينزلوا بفاس أو وهران أو تونس حيث شاؤوا، وإمّا أن ينحاشوا إلى مملكة غَرناطة، لكونها أندلسية، ومجاورة لمساقط رؤوسهم، ومنابت أسَلِهم*، حيث لم تزل آمالهم بالكرّة منوطة، وعزائمهم على إدراك الأوتار مشدودة، وحبّ الوطن من الإيمان. وقد كان في انحياش[2] المنهزمين إلى أعمال ابن الأحمر، مِنعةٌ لسلطانه وشدٌّ لأزره وبَسْطَة لملكه، فأمكنته الكرّة المنصورة على العدوّ، والإثخان في بلاده. كما يقول صاحب "نفح الطيب" من أنه لمَّا أُخذت القواعد الأندلسية، مثل قُرْطُبة وإشبيلية وطُلَيْطُلة ومُرْسِية انحاز أهل الإسلام إلى مالَقَة وغَرناطة والمَرِيّة ونحوها، وملك هذا النَزْر، ملوك بني الأحمر، فلم يزالوا في تعب وممارسة مع العدوّ كما ذكره ابن عاصم قريبًا، وربّما أثخنوا في العَدو كما عُلِم من أخبارهم، وانتصروا بملوك فاس في بعض الأحايين، وقال: "لمَّا قصد الملوك الإفرنج السبعة، في المائة الثامنة، غَرناطة ليأخذوها، اتّفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب المغرب من بني مَرين يستنجدونه، وعيّنوا للرسالة الشيخ أبا اسحق بن أبي العاصي، والشيخ أبا عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيّات البلشي، ثمَّ بعد سفرهم نازل الإفرنج غَرناطة بخمسة وثلاثين ألف فارس، ومائة ألف راجل، ولم يوافقهم سلطان المغرب، فقضى الله ببركة المشايخ الثلاثة أن كسر الإفرنج في الساعة التي كسر فيها خواطرهم سلطان المغرب، وكانت بذلك كرامة لسيدي أبي عبد الله الطنجالي". انتهى

(١) إنّ اقتناء عقار في الأندلس، كاقتناء دار زائلة، لا ندري متى نتحوّل عنها.

(*) مجازاً رماحهم.

(٢) انحاش إليه: انحاز إليه.

- **أسباب الفشل**

وزعم بعض المؤرّخين، أنّ سبب فشل الريح بالأندلس. تقاطع المسلمين من أهلها. وإقبالهم على اللذّات، وإهمالهم أمور الجهاد في كثير من الأماكن. حتّى يقال إنّ الإفرنج لمّا قصدوا بَلَنْسِية سنة ٤٥٦، خرج للقائهم أهلها بثياب الزينة. فكانت وقعة "بطرنة" التي قال فيها الشاعر لقومه:

لبِسُوا الحديدَ إلى الوغى[1] ولبِسْتُم   حُلَلَ الحريرِ عليكُمْ ألوانا
ما كان أقبحَهُمْ وأحسنَكم بها   لو لم يكنْ ببطرنةَ ما كانا

وقالوا إنّه لمّا تغلّب العدوّ على طُلَيْطُلة. كان من جملة ما غنِمه الفرنج من الجيش الذي حاربهم، ألف غفارة نفيسة[2]، خارجًا عمّا سواها من الحلل. ولمّا ذكر ابن حيّان. تغلّب العدوّ على بَرْبَشْتر القريبة من سَرَقُسْطَة بالثغر الأعلى سنة ٤٥٦. وما جرى فيها من فظائع القتل والسبي والاستباحة، التي تقطر لها القلوب دمًا. وتنبو العيون عن مطالعتها في التواريخ، قال: "قد أشفينا بشرح هذه الحالة الفادحة. مصائب جليلة مُؤْذِنة[3] بوشك القلعة" وقال: "من جملة تغفّل أهل الأندلس أنّ العدوّ أطلّ عليهم يجوس خلال الديار. ويكتسح البسائط، ويقطع كلّ يوم طرفًا، ويبيد أمّة، والباقون منهم صموت[4] عن ذكر إخوانهم، لُهاة عن بثّهم[5]، ما يُسمع بمسجد من مساجدهم مُذكِّر لهم أو داعٍ، فضلاً عن نافرٍ إليهم أو ماش". قال: "حتّى كأنهم لسيوا منّا أو كأنّ بَثْقَهم ليس بمفضٍ إلينا" انتهى.

"بلى والله لقد أفضى بَثْقَهم إلى الجميع" وهذا قول ابن حيّان في القرن الخامس، وما مضى على ذلك قرن، حتّى أفضى البثق إلى قُرْطُبة وطنه، ولله الأمر أجمع. وأخذ الإسبانيول تُطيلة، وأختها طَرَشونة سنة ٥٢٤. ومكّنهم المسلمون أنفُسُهُم بسبب اختلاف ملوك الطوائف، من بَلَنْسِية. المرّة الأولى سنة ٤٨٨، إلى أن استردّها يوسف بن تاشُفين بعد سبع سنين من أخْذِها، وقدم عليها يحيى بن غانية الملثّم، وفي المائة السادسة، صارت إلى يد ابن مردنيش أبي عبد الله، ملك شرق الأندلس فقدم عليها أخاه أبا الحجّاج يوسف بن سعد بن مردنيش.

---

(١) الحرب.
(٢) زردٌ من الدرع يلبسه المحارب تحت غِطاء الرأس.
(٣) مُعلنة قرب سقوطها.
(٤) ساكتون.
(٥) لهاة عن بثّهم؛ أراد بها: فرّقهم اللهو عن التلاقي.

قصائد الاستغاثة

ولَّما تكالب العدوّ على الأندلس في أواخر دولة بني عبد المؤمن، كان المدافع عن بَلَنْسِية، الأمير زيّان بن أبي الحملات بن أبي الحجّاج بن مردنيش، فاضطرّ إلى الاستغاثة بصاحب أفريقية أبي زكريّا بن أبي حَفْص، من دولة الموحِّدين، وأوفد عليه بالرسالة أبا عبد الله بن الأبَّار القضاعي، الحافظ الكاتب الشهير، فقام بين يدَيّ السلطان بتونس وأنشده قصيدته السِينيّة الفريدة.

سينيّة ابن الأنبار القضاعي

أدرِكْ بخَيْلِك خَيْلِ الله أَنْدَلُسا ... إنَّ الطريقَ إلى مَنْجاتِها دَرَسا[1]

وَهَبْ لها مِنْ عزيزِ النصرِ ما التمستْ ... فلمْ يزلْ منكَ عِزُّ النصرِ مُلتَمَسا

وحاش ممّا تعانيه حشاشَتُها ... فطالما ذاقت البلوى صباحَ مَسَا

يا للجزيرةِ أضحى أهلُها جَزَرًا ... للحادثات[2] وأمسى جَدُّها تَعِسا

في كلِّ شارقةٍ إلمامُ بائقةٍ ... يعودُ مأتمُها عند العِدى عُرسَا

وكلُّ غاربةٍ إجحافُ نائبةٍ ... تثني الأمانَ حذارًا والسرورَ أسى

تقاسَمَ الرومُ لا نالت مقاسِمُهم ... إلاّ عقائِلَها المحجوبةَ الأنسا

وفي بَلَنْسية منها وقُرْطُبة ... ما يذهِبُ النفسَ أو ما يُنْزِفُ النفَسَا

مدائنٌ حلَّها الإشراكُ مبتَسمًا ... جذلانَ وارتحلَ الإيمانُ مُبتئِسَا

وصَيَّرتْها العوادي العائثاتُ بها ... يستوحِشُ الطرفُ منها ضعفَ ما أنِسَا

يا للمساجدِ عادتْ للعدى بِيَعًا ... وللنداءِ يُرى أثناءَها جَرَسَا

لهفي عليها إلى استرجاعِ فائتِها ... مدارسًا للمثاني أصبحتْ دَرَسَا

---

(١) ذهب أثرُه وتقادَم.

(٢) طعامًا للحادثات.

وأربُعًا نَمنَمَتْ أيدي الربيع بها ... ما شئت من حُلل مَوْشيةٍ وكسا

كانتْ حدائقَ للأحداقِ مونقَةً ... فَصَوَّحَ[1] النضرَ من أدواحِها وعَسَا

وحالَ ما حولَها من منظرٍ عجب ... يستوقفُ الركبَ أو يستركبُ الجلَسَا

سرعانَ ما عاثَ جيشُ الضدِّ واحربا ... عيث[2] الدُّبى في مغانيها التي كَبَسا

وابتزَّ بِزَّتهَا ممّا تَحَيَّفَها ... تحيفَ الأسَد الضاري لما افترسَا

فأينَ عيشٌ جَنَيناهُ بها نَضرًا ... وأين غِصنٌ حنيناهُ بها سَلِسا

محا محاسنَها طاغٍ أُتيحَ لها ... ما نامَ عن هضمِها حينًا وما نَعَسَا

ورجَّ أرجاءها لمّا أحاطَ بها ... فَغَادرَ الشُّمَّ من أعلامِها خُنُسا[3]

خَلا له الجوُّ وامتدَّتْ يداه إلى ... إدراكِ ما لم تطأ رِجلاهُ مختلِسا

صِلْ حبلَها أيّها المولى الرحيمُ فما ... أبقى المِراسُ لها حَبْلاً ولا مِرَسَا

وأحْيِ ما طمسَتْ منها العُداةُ كما ... أحيَيْتَ من دعوةِ المَهديِّ ما طُمسَا

أيّامَ صِرْتَ لنصرِ الحقِّ مُستَبِقًا ... وبتَّ من نورِ ذاك الهدْي مُقْتَبِسا

وقُمتَ فيها بأمرِ الله منتصرًا ... كالصارم اهتزّ أو كالعارضِ انْبجسا[4]

تمحو الذي كتب التجسيم من ظُلم ... والصبحُ ماحيةٌ أنوارُه الغَلَسَا[5]

وتقتضي الملكَ الجبّار مُهجتَهُ ... يوم الوغى جهرة لا ترقُبُ الخُلَسا

هذه رسائلُها تدعوك منْ كَثَبٍ ... وأنتَ أفضلُ مرجوٍّ لمَن يئِسَا

وافَتْكَ جاريةً بالنُّجحِ راجيةً ... منكَ الأميرَ الرضِي والسيدَ النَدُسا[6]

خاضتْ خِضارةَ يعليها ويُخْفِضها ... عُبابُه فتُعاني اللِّين والشرسا*

وربَّما سبحتْ والريحُ عاتيةٌ ... كما طلبْتَ بأقصى شَدِّهِ الفرَسَا

---

(١) أيبس.

(٢) الفساد والتدمير.

(٣) ترك جبالها العاليات مراتعَ للظباء.

(٤) العارض: السحاب المعترض في الأفق، وانبجس: تفجّر ماؤه.

(٥) ظلمة آخر الليل.

(٦) الفَطِن الكيّس.

(*) يعني خاضت هذه السفن إليك البحر الشامي المتوسط.

تؤمُّ يحيى بن عبدِ الواحدِ بن أبي ... حفص مُقبِّلةً من تربِه القدِسَا
مللكٌ تقلّدت الأيّامُ طاعتَه ... دينًا ودنيا فغشّاها الرضى لبَسَا
من كلّ غادٍ على يُمناه مستلمًا ... وكلّ صادٌّ إلى نعماه مُلتَمِسا
مؤيّدٌ لو رمى نجمًا لأثبتَه ... ولو دعا أُفقًا لبَّى وما احتبسا
إمارةٌ يحملُ المقدارُ رايتَها ... ودولةٌ عِزُّها يستصحِبُ القَعَسا[1]
يُبدي النهارُ لها من ضوئه شَنبًا ... ويُطلع الليل من ظَلمائه لَعَسا[2]
كأنّه البدر والعلياء هالته ... تَحفٌّ من حوله شُهبُ القنا حَرَسَا
تدبيره وسع الدنيا وما وسعت ... وعُرْف معروفه واسَى الورَى وأَسَا[3]
قامتْ على العدل والإحسان دولتهُ ... وأنشرت من وجود الجود ما رُمِسا
مبارك هديُه بادٍ سكينتُه ... ما قام إلاّ إلى حسنى وما جَلَسا
بَرَى العُصاةَ وراشَ الطائعينَ فَقُلْ ... في الليثِ مُفْترسًا والغيثِ مُرْتَجَسا
إلى الملائِك يَنمى والمُلُوك معًا ... في نَبْعَةٍ أثمرَت للمجد ما غرسا
من ساطع النور صاغَ الله جوهرَهُ ... وصان صَيْقَلَهُ[4] أن يَقْرُبَ الدنَسا
له الثَّرى والثُّريّا خطّتان فلا ... أعزّ من خِطّتيهِ ما سَمَا ورسَا
حسْبُ الذي باعَ في الأخطارِ يركبها ... إليهِ محياه أنَّ البيع ما وَكَسا[5]
بشرى لعبدٍ إلى البابِ الكريم حَدا ... آمالَهُ ومِنَ العذب المَعين حَسَا
كأنّما يمتطي واليمن يصحبه ... من البحار طريقًا نحوه يَبَسا
فاستقبل السعدَ وضّاحًا أسرَّتهُ ... من صفحةٍ فاض منها النور وانعكسا
وقبَّل الجود طفّاحًا غواربه ... من راحة غاصَ فيها البحر وانغمسا
يا أيّها الملك المنصور أنت لها ... علياءُ توسع أعداء الهُدى تَعِسا

(١) الثابت من العِزّ، ويعني بها العزم القوي النافذ.
(٢) سواد مستحسن في الشفَة.
(٣) داوَى.
(٤) السيف.
(٥) خسِرَ.

وقَد تـواتـرت الأنبـاءُ أنّك مَنْ | يُحيي بقتلِ مُلوك الصفر أندلُسـا
فأوطئ الفَيـلقَ الجرّارَ أرضَهُـمُ | حتّى يطأطئَ رأسًا كلُّ مَن رَأسـا
وانصر عبيدًا بأقصى شرقها شَرَقت | عيونُهم أدمعًا تبكي زكا[1] وخسا[2]
هم شيعةُ الأمر وهي الدار قد نهكت | داءً متى لم تباشر حَسْمَهُ انتكَسا
فاملأ هنيئًا لكَ التمكينُ ساحتَها | جُرْدًا سلاهِبَ[3] أو خَطِّيَّة[4] دَعَسا[5]
واضرِب لها موعِدًا بالفتح ترقَبُهُ | لعلَّ يوم الأعادي قد أتى وَعَسَى

- سقوط بَلَنسِية وقرطبة في يد الإسبانيول

فهزّت هذه القصيدة من الأمير أبي زكريّا عطف ارتياح، وبادر للإصراخ بالأسطول الثقيل، والسلاح والمال الجزيل، ولكن حالت أساطيل العدوّ، بينه وبين بَلَنْسِية، فبقي في مرسي دانية واشتدّ الحصار على أهل بَلَنْسِية وهلك الناس جوعًا، فسلّموا بلدتهم صلحا سنة ٦٣٦، وتسلّمها جَقوم ملك أراغون، على شروط، وضَرَب لأهل بَلَنْسِية أجلاً مسمّى، لِنَقْلِ أمتعتهم، ثمَّ نكث العهد معهم، وتجشّموا من الذلّ والهَون ما لا يوصف، وعصفت ريح الإسبانيول في أقطار الأندلس وتوافقوا على غزو بلاد المسلمين من كلّ جهة، وأسفّوا إلى القواعد، فكان لهم سنة ٦٣٣، سبع محلاّت لحصار المسلمين، محلّتان على بَلَنْسِية، وجزيرة شُقْر وشاطبة، ومحلّة على جَيّان ومحلّة بلطرية ومحلّة بمُرْسية، ومحلّة بَلْبُلَة، وكان أهل جَنَوة محاصرين سَبْتَة، وألحّ صاحب قَشتالة على مملكة ابن هود، فافتتح ثلاثين حُصنًا، وزحف إلى قُرْطُبة، فلم يجد أهلها في أنفسهم الكفاءة لمدافعته، فسلّموه مدينتهم، وهي بالأندلس قبّة الإسلام، والمناظِرة في الشرق دارَ السلام، وخرجوا لا يحملون شيئًا سوى ثِيابهم التي على أبدانهم، وجلا معهم أهل القرى والحُصون المجاورة بعد أن أفسد الطاغية زروعهم، ودمّر بيوتهم، فعادت بقاع الخير قاعًا صَفْصَفًا[6]، وبدّلت تلك البلاد بالعَمارة الخراب، وبتغريد الهزار، نُعاب الغُراب، ومن الغرائب أنها بعد أن كانت تكفي الملايين من

---

(١) الزوج.
(٢) الفَرد.
(٣) الخيل السبّاقة.
(٤) الرماح.
(٥) طَعَن.
(٦) المُستوي المطمئن.

سكّانها. وتفيض عن ميرتهم خيراتها، صار الإسبانيول يجلبون إليها الميرة والذخيرة، من نفس قشتالة وإلى الله تصاريف الأمور.

ـ سقوط لَوْشة والمريّة واستردادهما

وأخذ العدوّ لَوْشة سنة ٦٢٢، ثمّ استردّها المسلمون، وبقيت في يدهم إلى أن استردّها الإسبانيول ثانية في الكائنة الأخيرة، وكان العدوّ أيضًا استولى على المَرِيّة سنة ٥٤٢، في وقعة شديدة. استُشهد فيها الإمام الرُشاطي، المحدِّث الكبير، وكان لخميًا في النسب، ثمّ استرجعها الموحِّدون. وبقيت في يد المسلمين، إلى أن ذهبت في ما ذهب لآخر المدّة.

ـ سقوط ماردة وبطلْيوس، وفتنة مُرسية وسقوطها

وملك العدوّ ماردة وبَطَلْيوس نحو سنة ٦٢٦، وملك جزيرة مَيورقة سنة ٢٧، وزحف إلى شاطِبة سنة ٣٥، وحصل هنالك وقائع، قُتل فيها شيخ المحدِّثين، أبو الربيع الكلاعي، ثمَّ في السنة التالية كان تسليم بَلَنْسِية، وخرج ابن مردنيش عنها إلى جزيرة شُقْر، فتعقّبه العدوّ إليها، فأخرجه منها، فلحق بدانية، وأخذ هناك البيعة للحَفْصي صاحب أفريقية، ثمَّ داخل أهل مُرسِية، وقتل واليها أبا بكر بن خطّاب، وبعث ببيعتها إلى الحَفْصي أيضًا، ولم يزل في مرسية إلى أن غلبه عليها ابن هود، فخرج عنها إلى لَقَنْت الحُصون سنة ٣٨، وبقي فيها عاملاً لأبي زكريّا الحَفْصي أمير أفريقية، حتّى انتزعها منه ملك برشلونة، فلحق بمولاه في تونس، وانقرض أمره بشرق الأندلس، والله وارثُ الأرض ومَنْ عليها.

❁ ❁ ❁

قصائد استغاثة أخرى

وفي هاتيك الأيام كما لا يخفى كثُرت القصائد في استنهاض الهمم، واستجاشة الحفائظ، لتلافي أمر الإسلام بالأندلس، وسارت أوابد الشعر في العُدْوَتَين، بالاستنفار إلى الجهاد، والإجابة لداعي الله وتسنُّم(*) الجنّة.

داليّة أبي جعفر الوقشي البَلَنْسي

فمن ذلك قول أبي جعفر الوقشي البلنسي نزيل مالَقَة من قصيدة:

ألا ليت شعري هل يُمَدُّ ليَ المدى ... فأُبصرَ شملَ الكاشِحين طَريدا(١)
وهل بعدُ يقضي في العدوّ بنصرةٍ ... تُغادِرُهم للمُرهفات(٢) حَصيدا
ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب* ... يُعيد عميد الخارجين عميدا
ويلقي على إفرنجهم عبْلَ(٣) كَلْكَلٍ(٤) ... فيتركهم فوق الصعيد هُجودا
يغادِرُهم قتلى وجرحى مبرحًا ... ركوعًا على وجه الفلا وسُجودا
ويَفْتَكُّ من أيدي الطغاة نواعِمًا ... تبدَّلنَ من نَظْم الحُجول قيودا*
وأقبلْنَ في خشنِ المسوحِ وطالما ... سَحَبْنَ من الوشيِ الرقيق برودًا
وغيَّرَ منهنَّ الترابُ ترائِبًا ... وخدَّد منهنّ الهجيرُ خُدودًا
فحقّ لدمعي أن يفيضَ لأزرقٍ ... تملكها دُعْجَ المدامعِ سودا(٥)

(*) علا.

(١) الذي يُضمِر العداوة.

(٢) السيوف عمومًا.

(*) موضع بالأندلس.

(٣) (٤) عبل: الضخم من كلّ شيء، الكلكل: الصدر والمراد، ألقى عليهم ثقلاً عظيمًا.

(*) يفتك: يحرّر الأسير من قيده، والنواعم: النساء، وحجول، مفردها حجْل: أي خلخال.

(٥) قوله لأزرق أي لعلج أزرق العينين وتكنّى العرب به عن العدوّ.

ويا لهف نفسي من معاصم طَفْلةٍ — تجاور بالقِدِّ الأليم نهودًا[1]
ويا أسفي ما إن يزال مُرَدَّدًا — على شمل أعيادٍ أُعيدَ بديدًا
وآهًا بمدّ الصوت مُنتحِبًا على — خُلُوِّ ديارٍ لو يكون مُفيدًا

(١) الطفلة بفتح الطاء الغادة الناعمة والقد بكسر القاف السير من الجلد يُربَط به الأسير.

قصيدة «نادتك أندلس»

ومن ذلك القصيدة الطويلة التي خوطب بها أبو زكريّا بن أبي حَفْص صاحب تونس عند أخذ بَلَنْسِية ومطلعها:

«نادَتْكَ أندلسُ فَلَبِّ نِداءَها»

ومنها:

صرخت بدعوتِكَ العليَّةِ فاحبُها	مِنْ عاطفاتِك ما يقي حَوْباءَها[1]
هي دارُكَ القصوى أَوَتْ لإيالةٍ	ضمنتْ لها مع نَصرِها إيواءَها
وبها عبيدُك لا بقاءَ لهمْ سوى	سُبُلِ الضراعةِ يسلكونَ سَواءَها
دُفِعُوا لأبكار الخُطوبِ وعُونِها	فهمُ الغداةَ يصابرون عَناءَها[2]
وتنكّرتْ لهمُ الليالي فاقتضتْ	سرَّاءَها وقضتْهُمُ ضرَّاءَها
تلك الجزيرة لا بقاءَ لها إذا	لم يضمنِ الفتحُ القريبُ بقاءَها
رِشْ أيها المولى الرحيم جناحها	واعقد بأرشية النَجاةِ رِشاءَها
أشفى على طَرفِ الحياة ذماؤها	فاسْتَبقِ للدين الحَنيفِ ذَماءَها
حاشاك أن تفنى حُشاشتَها وقد	قصرتْ عليكَ نِداءَها ورجاءَها
طافَتْ بطائفة الهُدى آمالها	تَرْجو بيَحيى المُرتجى إحياءَها
واستشرفَتْ أمصارُها لإمارةٍ	عقدتْ لنصرِ المُسْتَضام لِواءَها
يا حَسرتي لِعقائلِ مَعقولةٍ	سئمَ الهُدى نحوَ الضَلال هداءَها
إيه بَلَنْسِيةَ وفي ذكراكِ ما	يمري الشؤونَ دِماءَها لا ماءَها
كيف السبيلُ إلى احتلال معاهدٍ	شَبَّ الأعاجمُ دونَها هَيْجاءَها
وإلى رُبَى وأباطحَ لم تَعْرَ منْ	حُلَلِ الربيع مصيفهَا وشتاءَها

---

(١) النفس.

(٢) الحرب الشديدة.

طاب المعرَّسُ والمَقِيلُ خلالَها ... وتطلَّعَتْ غُرَرُ المُنى أثناءَها
بأبي مدارس كالطلول دوارسٌ ... نسخَتْ نواقيسُ الصليب نِداءَها

ومنها:

مولايَ هاكَ معاداةٌ أنباؤها ... لتنيلَ منك سعادةً أبناءَها
جرد ظباك لمحوِ آثار العدى ... تقتلْ ضراغِمَها وتسبِ ظِباءَها
واستدعِ طائفةَ الإمامِ لغزوِها ... تسبقْ إلى أمثالها استدعاءَها
لا غروَ أن يعزى الظهورُ لملَّةٍ ... لم يَبْرحَوا دونَ الورى ظُهراءَها
إنَّ الأعاجمَ للأعاراب نهبةٌ ... مهما أمرت بغَزْوِها أحياءَها
تالله لو دبَّتْ لها دبّابُها ... لَطَوتْ عليها أرضَها وسماءَها
ولو استقلَّتْ عوفها لِقتالِها ... لاستقبلت بالمُقْرَبات عفاءَها
أرسِلْ جوارحها تجئْكَ بصَيْدِها ... صيدًا ونادِ لِطَحنِها أرحاءَها
هُبُّوا لها يا مَعشرَ التوحيدِ قد ... آنَ الهبوبُ وأحرِزوا عَلْياءَها
هي نكتةُ المَحيا فحيَّهَلا بها ... تجدوا سَناها في غدٍ وسناءَها
حاشاكُمُ أن تُضمِروا إلغاءَها ... في أزمة أو تُضمروا إقصاءَها
خوضوا إليها بَحْرَها يُصبحْ لَكُمْ ... رَهْوًا وجُوبوا نحوها بَيْداءَها
دارُ الجهادِ فلا تفتْكمُ ساحةٌ ... ساوت بها أحياؤها شُهداءَها
هذي رسائِلُها تُناجي بالتي ... وَقَفَتْ عليها رَيْثَها ونَجاءَها
وَفَدَتْ على الدار العزيزة تجتني ... آلاءَها أو تجتلي آراءَها
مُستسقيات من غُيوثِ غياثها ... ما وَقْعُهُ يتقدَّم استِسقاءَها
وبِحَسْبِها أنَّ الأمير المُرتضى ... مُترقِّبٌ بفتوحِها آناءَها
بشرى لأندلسٍ تُحِبُّ لقاءَه ... ويحبّ في ذات الإله لِقاءَها
صدق الرُواةُ المُخبرون بأنَّه ... يشفي ضناها أو يُعيد رُواءَها
إن دوَّخ العربُ الصِعابَ مقادةً ... وأبى عليها أن تطيع إباءَها
فكأنْ بِفَيْلَقِهِ العَرَمْرَم فالقًا ... هامَ الأعاجم ناسِفًا أرجاءَها

لا يعدمُ الزمنَ انتصارَ مؤيَّدٍ ... تتسوّغُ الدنيا به سَرَّاءَها
مَلَكٌ أمدَّ النيِّريْن بنوره ... وأفادَهُ لألاؤها لالاءَها
خَضَعت جَبابرةُ الملوك لِعِزِّه ... ونضت بكفٍّ صِغارِها خُيَلاءَها
أبقى أبو حَفْص إمارَته لهُ ... فسما إليها حامِلاً أعباءَها
قبضتْ يداهُ على البسيطةِ قَبضةً ... قادتْ له في قِدِّه أُمراءَها
فعلى المشارقِ والمغاربِ ميسمٌ ... لهداهُ شرَّفَ وَسْمُهُ أسماءَها
تطمو بتونسِها بحارُ جيوشِهِ ... فيزورُ زاخرُ موجِها زَوْراءَها

ومنها:

تَقَعُ الجلائِلُ وهو راسٍ راسخٌ ... فيها يوقع للسعود جلاءَها
كالطود في عصفِ الرياحِ وقصفِها ... لا رهوَها يخشى ولا هوجاءَها

❀ ❀ ❀

نونيّة أبي البقاء الرندي في نكبة الأندلس

ومن مشهور ما قيل في ذلك نونيّة أبي البقاء الرندي من أشهر شعراء الأندلس، وهي متداولة بين الناس، تعد من حفظ العوام فضلاً عن الخواص، وقد أثرناها هنا لكيلا يخلو منها كتاب جررناه على الأندلس:

لـكلِّ شـيء إذا مـا تـمَّ نقصـانُ ... فلا يُغَرَّ بطيـب العَيش إنسـانُ

هي الأمورُ كمـا شاهدتَها دُوَلٌ ... من سَرَّهُ زمنٌ ساءتْهُ أزمـانُ[١]

وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ[٢] ... ولا يـدومُ على حال لـهـا شـانُ

يُمزِّقُ الدهـر حتـمًا كلّ سابغَة[٣] ... إذا نَبَتْ مشرفياتٌ وخُرصـانُ[٤]

وينتضي كُلَّ سيفٍ للفنـاء ولـو ... كان ابن ذي يَزَن[٥] والغمد غمدانُ[٦]

أين الملوك ذَوُو التيجان من يَمن ... وأيـن منهُـم أكـاليـلٌ وتيجـانُ*

وأيـن مـا شـاده شـدَّادُ في إرمٍ[٧] ... وأين ما ساسَهُ في الفرس ساسانُ[٨]

وأين ما حـازه قارونُ من ذَهَبٍ ... وأيـن عـادٌ وشـدّادٌ وقَحطـانُ

أتـى علـى الكُـلِّ أمرٌ لا مردّ لـه ... حتّى قضوا فكأنَّ القوم مـا كانوا

وصار ما كان من مُلكٍ ومن مَلكٍ ... كما حكى عن خيال الطيفِ وَسْنانُ

دار الزمانُ على دارا[٩] وقاتِـلِه ... وأمَّ كِسْرى فمـا آواهُ إيـوانُ[١٠]

---

(١) انقلب من حال إلى حال، ودول ـ هنا ـ جمع دولة: انقلاب الزمان.

(٢) وفي رواية: وهذه الدار لا تبقى محاسنها.

(٣) وفي رواية: يمزّق الدهر منّا كلّ سابغة، ومعنى سابغة: الدرع الكاملة.

(٤) الرمح.

(٥) من ملوك اليمن.

(٦) قصر كان له.

* انظر "أذواء اليمن" للثعالبي، الذّوون: الملوك الملقّبون (بذو) كذا.

(٧) وفي نسخة: من إرم.

(٨) أبو طائفة عظيمة من ملوك اليَمن.

(٩) هو دارا الأصغر، قتله أصحابه في معركته مع الإسكندر.

(١٠) هو إيوان كِسرى الذي بالمدائن.

كأنّما الصعب لم يَسْهُل له سببٌ | يومًا، ولا مَلَكَ[1] الدنيا سُلَيمان
فجائعُ الدهر أنواعٌ منوَّعةٌ | وللزمان مَسرّات وأحزانُ
وللحوادث[2] سُلوانٌ يسهِّلُها | وما لِما حَلَّ بالإسلام سُلوانُ

❀ ❀ ❀

دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ لَهُ | هوى له أُحُدٌ وانهد ثهلانُ[3]
أصابها العينُ في الإسلام فامتُحِنَتْ | حتّى خلَتْ منه أقطارٌ وبلدانُ
فاسألْ بلنسيةَ ما شأنُ مُرْسِيةٍ | وأينَ شاطبةٌ أمْ أينَ جَيَّانُ[4]
وأينَ قُرْطُبةٌ دارُ العلوم فكَمْ | من عالِمٍ قَدْ سما فيها له شانُ
وأينَ حِمصُ وما تحويهِ من نُزَهٍ | ونهرُها العَذْبُ فيَّاضٌ وملآنُ
قواعدٌ كُنَّ أركانَ البلادِ فما | عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ
تبكي الحنيفيّة البيضاءُ منْ أسفٍ | كما بكى لفراق الإلْفِ هَيْمانُ
على ديارٍ من الإسلام ِخاليةٍ | قد أقفرتْ ولها بالكُفرِ عُمرانُ
حيث المساجدُ قد أضحتْ كنائسَ ما | فيهنَّ إلاَّ نواقيسٌ وصُلْبانُ
حتّى المحاريبُ تبكي وهي جَامدةٌ | حتّى المنابرُ تَرثي وهي عِيدانُ

❀ ❀ ❀

يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ | إن كنتُ في سِنَةٍ فالدهر يَقظانُ
وماشيًا مرحًا يُلهيهِ موطِنُهُ | أبعد حِمصٍ تَغُرُّ المرءَ أوطانُ
تلك المُصيبةُ أنستْ ما تقدَّمَها | وما لها مَع طول الدَّهْرِ نِسيانُ
يا راكبين عِتاقَ الخَيلِ ضَامرةً | كأنّها في مجالِ السبْقِ عُقبانُ

---

(١) وفي نسخة "ولم يملك".
(٢) وفي نسخة. وللمصائب.
(٣) جبل باليمن.
(٤) من مدن متوسّطة الأندلس.

وحاملين سيوفَ الهندِ مُرْهَفَةً كأنَّها في ظَلامِ النقْعُ[1] نيران
وراتعينَ وراء البحر في دَعَةٍ لهمْ بأوطانِهمْ عِزٌّ وسلطانُ
أعندكمْ نبأٌ من أهلِ أندلُسٍ فقد سَرى بحديثِ القَومِ رُكبانُ
كم يستغيثُ بنا المُستضعَفون وهُمْ قَتلى وأسرى فما يهتزُّ إنسانُ
ماذا التقاطعُ في الإسلام بينكُمُ وأنتمُ يا عبادَ الله إخوانُ
ألا نُفوسٌ أبيَّاتٌ لها هممٌ أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ

❁ ❁ ❁

يا مَن لِذلّةِ قومٍ بعدَ عزِّهُمُ أحالَ حالَهُمُ جَوْرٌ وطغيانُ
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهِمْ واليومَ همْ في بلادِ الضدِّ عُبدانُ[2]
فلو تَراهم حيَارى لا دليلَ لهمْ عليهمُ من ثيابِ الذُّلِّ ألوانُ
ولو رأيتَ بكاهُم عندَ بيعِهِمُ لهالكَ الأمرُ واستهوتْكَ أحزانُ
يا ربَّ أمٍّ وطفلٍ حِيلَ بينهُما كما تَفَرَّقَ أرواحٌ وأبدانُ
وطفْلة مثل حسن الشمس إذ طلعتْ كأنَّما هي ياقوتٌ ومَرْجانُ
يقودُها العِلْجُ للمكروهِ مُكْرَهَةً والعَينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ
لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كَمَدٍ إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ

ـ سقوط شرق الأندلس في يد الإسبانيول

وكان استخلاص الإسبانيول لشرق الأندلس، قاطبة (شاطِبة) وغيرها، وإجلاؤهم مَن يشاركهم من المسلمين في ما تغلَّبوا عليه هناك، في شهر رمضان سنة ٦٤٥، وتملَّك الإسبانيول مُرْسِية صلحًا عن يد ابن هود، وأقام صاحب قَشتالة يحاصر إشبيلية حولاً كاملاً وخمسة أشهر، حتّى ملكها صلحًا سنة ٦٤٥، وتوفّي بين يدَي منازلتها الشيخ أبو علي الشلوبين إمام النحاة، فكانت المصيبة بهما على المسلمين واحدة، وعلى النُّحاة اثنتين، وأفرغ

(١) الغبار.
(٢) تُجمع عَبد على عبيد وعُبدان، وغيرهما.

الإسبانيول في حصار إشبيلية من الجهد، ما لا يوصف، ووافتهم النجدات من أوربا إلى أن افتتحوها، وخرج أهلها إلاّ القليل، فأجاز بعضهم إلى برّ العُدوة، وانحاز الأكثرون إلى غَرناطة.

وكان ملك البرتغال، قد ضبط بعض الحصون أثناء منازلة إشبيلية، فخاف فرديناند صاحب قَشتالة غائلته، فأخذ يسالم بعض جيرانه من قوّاد المسلمين، مثل صاحب شَرِيش، وصاحب لَبْلَة، ورضي منهم بالأتاوة، واتّخذ كثيرًا من جهات الإسلام تحت حمايته، حتّى صفا له الوقت، واطمأنّ بالُه من جهة قومه، فأعمل في فتح المغرب، وبينما هو يستعدّ لذلك إذ وافاه أجلُهُ فخلف[1] ابنه الأذْفنش الملقّب بألفونس العاشر، المعروف بالصابي، أو السابيو، لاشتغاله بالتنجيم.

ـ صُمود غَرناطة

ولمّا لم يبقَ للإسلام في تلك المدّة بالأندلس، سوى غَرناطة وجوارها، وانحصروا فيها، كثفت هناك جموعُهم، وعزَّ حِماهم، وكان جُلُّهم، بل كلّهم قومًا موتورين، تتأجّج الأحقاد في صدورهم، ولا يريدون إلاّ فرصة لأخذ الثأر، فطالما أعظموا النكاية في العدوّ، وهم تحت رايات بني الأحمر، وكانوا جميعًا أهل فِلاحة وتجارة وصناعة، فعمرت بهم تلك الجهات عمرانًا حافلاً تحدّثت به الركبان، وكان محمَّد بن يوسف بن الأحمر الذي أسّس الدولة النصرية على أنقاض دول الطوائف، وركبها من بقايا أملاك المسلمين بالأندلس، رجلاً داهية منجذًا[2] خبيرًا بالسياسة صالحًا للرئاسة، وكان قَرْمًا[3] ثبتًا في الحروب كما يقول ابن خلدون "فضمّ شمل قومه، وأحسن إدارة أمورهم، وسدَّد الأحكام فيهم، واتّخذ غَرناطة حاضرة مُلْكه وحصّنها، وناهيك أنه ابتنى فيها حمراءها الشهيرة ـ التي لم يبقَ للعرب في تلك الديار ولا في غير تلك الديار ـ أثر أجَلّ منها".

ـ ما قاله ضيا باشا عن الأندلس

قال ضيا باشا في تاريخه للأندلس تحت عنوان "معموريّة غَرناطة" ما معناه: إنّ محمَّد بن الأحمر، الذي غرس دوحة تلك الإمارة، التزم لأجل تمكين سلطانه قاعدة: لا

---

(١) كذا ولعلّ الأصل فخلفه.

(٢) المجرّب.

(٣) السيِّد أو العظيم.

مُلك إلاّ بالرجال، ولا رجال إلاّ بالمال، ولا مال إلاّ بالعَمارة، ولا عمارة إلاّ بالعَدل والسياسة، فأخذ رعيّته بحُسن السياسة، وأقامهم على العدل، واحتفل بتشييد المصانع والمعاقِل، واشتغل بتوطين المسلمين المنهزمين من جَور الإسبانيول، حاملاً إيّاهم على الفِلاحة والتجارة والصناعة، وإحياء مَوات الأرض واستثمارها، وتربية الحيوانات وتكثيرها، فلم تمضِ سنون قلائل، إلاّ وقد اشتبكت عمارة بلاده، وقد التفت نحو علماء الطبيعة والكيمياء فاستخرج بمعونتهم المعادن واستفتح، أرصاد الكنوز الطبيعيّة، ولم يُهمل أمر الصحّة العمومية، فبنى جملة مستشفيات ومنازل للعجزة، وشاد كذلك كثيرًا من المدارس لطلب العلم، وبنى قصر الحمراء الشهير، الذي أنسى ذكر الخَوَرْنَق والسدير، وهو من القصور المعدودة في الدنيا، رونقًا ومتانة واتّساعًا وإحكام بناء. وكانت غَرناطة في أيامه، من أشهر مواقع المعمور عمارة وسعادة وسعة تجارة، وبَسْطَة في العلم والجسم، وكانت منسوجاتها فائقة منسوجات غيرها من جميع الأقطار».

وقال هذا الأديب الراسخ والوزير الجليل، في محلّ آخر من كتابه ما معناه: «إنّه بحسن إدارة محمَّد الخامس (من سلالة محمَّد الشيخ) وجُنوحِه إلى السِّلم، أو بالصدمات الداخلية والخارجية، التي توالت يومئذٍ على مملكة قَشتالة وأراغون، قد مضت لذلك التاريخ عشرون سنة متتابعة على غَرناطة، كانت فيها أسعد الممالك حالاً، وأنعمها بالاً، وهي غُرَر أيام ابن الأحمر وحُجُولُها(١)، بل أيام الأندلس كلّها، منذ غابت شُموس الناصر والحكم، فكانت وقتئذٍ الزراعة في نماء، والصناعة في ارتقاء، ولأهل غَرناطة، علاقات تجارية مع إيطاليا وفرنسا ومصر وبرّ الشام، وكان يتوارد إليها التُجّار والسُيّاح، من جميع الأنحاء، ويسكنونها بكمال الطمأنينة، وفي بعض التواريخ، أنه كان لأهل جنوة، أنبارٌ عظيمة مخصوصة بهم في غَرناطة، وقد كانت المَريّة ميناء غَرناطة، محطّ رجال التجارة من جميع الآفاق وفيها من الحركة ما ليس في ميناء غيرها، لذلك، كان أهالي تلك المملكة في ذلك الدور، من سعة العيش وصفاء الوقت وتوفّر أسباب الرفاهة وإيلام الولائم، بالمكان المحسود والحال المغبوطة، وانتشرت بينهم الفضائل التي يقتضيها العلم والتهذيب، من الحمية وحبّ الوطن، والأمانة والصدق والرأفة وإكرام الغريب. وأخذ كرام الناس وأبناء البيوتات يَفِدون إلى غَرناطة أفواجًا، حتّى أنه عند الاحتفال بنقل كريمة صاحب فاس إلى الأمير يوسف ابن

(١) اليوم المُضيء المُشرق بالسرور والحُبور.

السلطان محمَّد الخامس، وفد لأجْلِ النزهة، وبرسم حضور الزينة الشائقة، عدد لا يُحصى من الأمراء والنبلاء والفرسان، من إسبانيا وإيطاليا وفرنسا، ويقول بعضهم إنَّ غَرناطة كانت وقتئذٍ وطنًا مشتركًا لجميع الأقوام".

ـ محمَّد بن الأحمر، وثورات المدجَّنين

ولنَعُد إلى ذكر محمَّد بن الأحمر فنقول: لم يزل المدجَّنون ينكشفون عن شرق الأندلس وغربها إلى مملكة غَرناطة، وهي تتعزّز بهم، وبعد استيلاء الإسبانيول على شاطِبَة، وتمهيدهم تلك البلاد، شرعوا يهتضمون المسلمين الباقين فيها، فشرع هؤلاء ـ من شدّة الظلم والأخذ بالمخنق واستضعاف أعدائهم لهم بعد أن كانوا هم الأعلَون ـ يرفعون لواء الخروج، فاشتعلت الفتنة وكثُرَ سواد الثوّار، إلى أن قُتِل بعض رؤسائهم، فانطفأت الثائرة في تلك البقعة، ولكن قام بعدها مدجّنو بَلَنْسِية، واستولوا على جملة حُصون وذلك في نواحي سنة ٦٥٢، وكان جقوم صاحب أراغون غائبًا، فبادر بالرجوع إلى مقرّه، وعقد ندوة حضرها أركان مملكته، للمذاكرة في قضيّة حسم الفتنة، وذهب في رأيه الخاصّ إلى وجوب تحصين قِلاع شاطِبَة وطرد المدجَّنين كافّة من مملكته، واستبدالهم، زراع النصارى بهم، فوافق على ذلك القُسوس والخالون من الأراضي، ولكن أصحاب المزارع أبدوا له تعذّر وجود مزارعين مسيحيين، وإنَّه على فرض وجودهم، فلا يقومون مقام المسلمين، فلم يُصغِ لكلامهم وأمر بطرد المدجَّنين كافّة، فخرجوا تاركين جميع أملاكهم، وأشيائهم، وقصدوا غَرناطة، ألوفًا مؤلّفة، وكان مدجّنو مُرْسِية وجوارها قد خرجوا بمكانهم على صاحب قَشتالة ألفونس العاشر، الملقّب بالصابي، واستولوا على عدّة حُصون وقدموا عليهم قائدًا وطالت مدّة انتقاضهم، إلى أن أحال ألفونس أمرهم إلى حميّه جقوم ملك أراغون.

ثمَّ تزايد الجَوْر على مُدجّني بَلَنْسِية الباقين، كانوا منهم ببلادها وسيموا من الخسف والإهانة ما يكلّ عنه الوصف، وفقدوا الأمان على أرواحهم، وعوملوا بخلاف الشروط التي بينهم وبين المستولي، فاستأنفوا الثورة ومدّوا يدهم إلى مَن جاورهم من المسلمين، لأجْلِ مظاهرتهم، واصطلموا[1] الإسبانيول، وتقدّموا نحو بَلَنْسِية، حتّى كادوا يسترجعونها، فوقع الرعب في قلب جقوم، ومات على أثر ذلك، وتولّى بعده ولده بترو أو

(١) استأصل.

بِطْرُه، فعقد مع الثوّار هدنة، وأمهلهم ريثما تفرّقت جموعهم، فنكث معهم وصمد إليهم على غرّة، فانحازوا إلى "مونتزه" في عيالهم وكانوا زهاء ثلاثين ألفًا، فأقام يحاصرهم طويلاً، وأخذ منهم بالمخنق حتّى استأمنوا، فدخل الإسبانيول الحصن وانتهبوا المال والمتاع وأخذوا المسلمين أسارى، وفرّقوهم في داخل البلاد بعيدًا عن الثغور.

وكان تخاذل المسلمين وتودُّد أعقاب ابن هود وابن مَردنيش لملوك النصارى، قد دعا محمَّد بن الأحمر إلى مهادنتهم، ونزل لهم عن بلاد "الغرنتيرة" وكانت هذه المدّة بحسب قول ابن خلدون، فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين، والتهَمَ العدوّ بلادهم وأموالهم نهبًا في الحروب، ووضيعة ومُداراة في السِّلْم، والتزم ابن الأحمر بما ضايقه من تكالب العدوّ على بلاد المسلمين، ومظاهرة بعض أمرائهم له على الاستيلاء، أن يلجأ بالمسلمين إلى جِوار غَرناطة وسِيْف[1] البحر، معتصمين بالجبال وراكنين إلى أوعارها، في أثناء هذا كلّه لم يزل صريخه ينادي بالمسلمين من وراء البحر، ووفود الأندلس تتوالى منه إلى حضرة بني مَرين أصحاب المغرب، تستنصرهم على العدوّ، وتستجيرهم في استباحة الحَرَم والولدان، وبنو مَرين وإن كانوا يؤْثِرون الجهاد، ويسابقون في مضمار الجنّة مسابقة الجياد، فقد كان لهم من مناصبة دولة الموحِّدين، وشغلهم بتدويخ المغرب كلّه وتمهيد قاعدة ملكهم، ما يعترض دون إجابة داعي الجهاد. ولكنّه لمَّا انقضت الوحشة بين أبناء إدريس بن عبد الحقّ، وبين السلطان يعقوب بن عبد الحقّ المَريني، انتدب السلطان الكثير منهم لنجدة الأندلس، ولم تزل هذه البلاد منذ أوائل الفتح ثَغر الإسلام، وموطن الجهاد، ومَدرج الشهادة، وغاية مَن قصد من الآخرة السعادة، فخرجوا في نحو من ثلاثة آلاف مرابط، عليهم عامر بن إدريس، وتقبّلهم ابن الأحمر، ودفع بهم في صدر عدوّه، وتوفّي الشيخ ابن الأحمر لسنة ٦٧١، وقد عهد إلى ولده والقائم بالأمر بعده، محمَّد الشهير بالفقيه، لانتحاله العِلم في أيام أبيه، أن يجعل مُعوَّله على بني مَرين في الاستصراخ، إذا اشتدّ به الأمر، ويدرأ بهم، وكان محمَّد الثاني بعد جلوسه بقليل وهو على مهادنة صاحب قَشتالة، سار إلى إشبيلية، لزيارته وتأكيد سلمه، فلقي من الإعزاز والإدناء ما لم يسبق له مثيل، غير أنَّ زوجة الملك، خاطبته مرّة أثناء إقامته عندهم في شأن بني أشقيلولة، القائمين كانوا على أبيه وعليه من بعده، فاستوحش محمَّد من هذه التوصية، واستنشأ من ورائها رائحة المفسدة والميل إلى إلقاء الفتنة، والفرقة في مملكة الإسلام الباقية، فعند رجوعه، تأمّل في ما يعمل لأجل التخلّص من فتنة بني أشقيلولة، وممّا

---

(١) شاطئ البحر.

كان عليه من الخضوع المعنوي لصاحب قَشتالة، فلم يجد بدًّا من إنفاذ وصيّة أبيه، ومدّ اليد إلى بني مَرين، خاطبًا نَصْرَهُم ومستجيشًا بهم في الدفاع عن المِلّة.

وكان بنو أشقيلولة كما لا يخفى، أنصار ابن الأحمر على أمره، وأبوهم أبو الحسن، هو الذي تولّى كبر الثورة على ابن هود، وداخل أهل إشبيلية في الفتك بابن الباجي، حتّى استوسق[1] الملك لابن الأحمر، وكان هذا من قبيل المكافأة قد أصْهَرَ إليهم، وأشركهم في أمره، ووسمهم من مَياسِم[2] التعظيم، وأشعرهم من شعار التجِلّة[3]، بما لم يختصّ به أحدًا من سواهم، وولّى أبا محمَّد على مالَقَة وأبا اسحق ابراهيم صهرَهُ، على (وادي آش)، وكانت في يدهم (قُمارِش)، فيقال أنَّ قد أبطرتهم النعمة فسَمَوا إلى مشاركة السلطان في ملك غَرناطة، واستأثر الرئيس أبو محمَّد بمالَقَة، وقيل إنَّهم اتّفقوا مع الطاغية وأباحوه حِمى الإسلام. وضيا باشا، ينقل أنهم جاءوا بعساكره يكتسحون البسائط ويعيثون في البلاد، وكانوا سببًا لخروج كثير من المدن والحصون، مثل شريش وأبريجة وسجونة، من يد المسلمين.

ـ استصراخ بني الأحمر السلطان يعقوب بن عبد الحق المَريني، واستجابته

فأوفد ابن الأحمر مشيخة بلاده على السلطان يعقوب بن عبد الحقّ المَريني، فلقوه منصرفًا من فتح سِجِلْماسّة، خاتم الفتوح بالبلاد المغربية، فنهبوا عزائمه واستنفروا حميته، وكان من نفسه إلى ذلك ارتياح، فجهّز خمسة آلاف، عقد عليهم لابنه منديل، وأعطاه الراية، واستدعى الأسطول فأجازوا نازلين بطريف، وبعد أن أراحوا ثلاثًا، دخلوا الحرب فاكتسحوا بسائطها، وأثخنوا فيها بالقتل والأسر والتخريب، ونزلوا بساحة شريش فخامت[4] حاميتها عن اللقاء، وانقلبوا إلى الجزيرة الخضراء، وقد امتلأت أيديهم بالغنائم. ولمَّا بلغ الخبر أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحقّ، أجاز بنفسه على أثر ولده. وحيث كان يخشى عادية (يَغْمُراسُن) بن زيّان أمير تِلِمْسان، بعث إليه في السلم تفرّغًا للجهاد، وتوفّرًا على عدوّ المِلّة، فأوفد عليه (يَغْمُراسُن) شيخة بني عبد الواد بالإجابة، وأسنى الهديّة، وطابت بذلك نفس يعقوب، فاستنفر قبائل المغرب من العرب والموحّدين، ومصمودة

---

(١) اجتمع.

(٢) علامات كالوشم.

(٣) (مجازًا) الإكبار، والعَلاء؛ وهي اسم.

(٤) خام يخيم عن القتال: نكص وجبن.

وصنهاجة ومكناسة، وانضمّ إليه جمع من المطوّعة والمرتزقة، فأجاز بهم لِصَفَر من سنة ٦٧٤، وكان نزل له ابن الأحمر عن رُنْدَة وطريف، فاحتلّ ساحة طريف، وملأت كتائبه الجزيرة الخضراء، وأقبل عليه الفقيه أبو محمَّد بن الأحمر، والرئيس أبو محمَّد بن أشقيلولة، صاحب مالَقَة والغربية، وزال ما بينهما من النفرة، وصارا مع أمير المسلمين يدًا واحدة على الأذفنش.

ـ مواقف السلطان يعقوب في الجهاد

ثمَّ عقد أبو يوسف يعقوب لولده أبي يعقوب على خمسة آلاف، وسرّحهم في بلاد العدوّ، فجاسوا خلال دياره ونسفوا البناء، وحطّموا الزرع، وانتهبوا المال والمتاع، وبالغوا في الإثخان والسبي، واقتحم السلطان حُصون، المدوّر وأبدة وتالسة وبلمة، وغادرها قاعًا صَفْصَفًا[1]، وعاد بالغنائم والسبي فنزل بإستِجّة، وكان الإسبانيول قد أعدّوا عدّتهم، وأكملوا احتشادهم، فزحف الدّون "نونو" أو "ذَنُنَه" بحسب إملاء العرب، وكان محافظًا لأشبيلية ومقدّمًا عندهم، فاصطدم الفريقان، واحتدم بينهما الضراب والطعان، وكانت وقعة من أعظم ما يرويه تاريخ إسبانية، فأنزل الله سكينته على المسلمين، وانهزمت جموع "ذَنُنَه" وقتل هو في المصاف، وتأثر[2] المسلمون قومه بالقتل والأسر، فبلغ عدد قتلاهم بحسب رواية ابن خلدون ستّة آلاف، وخُذِل العدوّ، ووهنت شوكته، وبعث أمير المسلمين برأس ذَنُنَه إلى ابن الأحمر، فقيل إنَّه ردّه إلى أهله سرًّا مداراةً لهم، وقيل انحرافًا عن يعقوب لأمور وجدها في نفسه، وظهرت شواهدها فيما بعد. وقد أصاب المسلمون في هذه الغَزاة من الغنائم ما لا يُحصيه إلاّ الله، وبيعت الشاة بدرهم واحد، وأُخذ سبعة آلاف وثمانمائة أسير، ولم يكمل هذه الغزوة، حتّى رجع إلى بلاد العدوّ، فاكتسح نواحي إشبيلية وأوغل في جهاتها، ونزل بأرض شريش فجاس خلالها، واستقصى بالدمار[3] أعمالها، وقفل إلى الجزيرة الخضراء لشهرَين من غزاته، وعوَّل على اختطاط مدينة بفُرضة المجاز من العُدوة، لنزل أجناده، منتبذًا[4] عن الرعيّة، لما يلحقهم عادةً من ضرر الجند، فابتنى المدينة المعروفة بالبنية، وأجاز البحر إلى المغرب، بعد غيبة ستّة أشهر في الجهاد أعزَّ بها الإسلام،

(١) أرضًا مستوية خالية.

(٢) تأثر القوم: تتبع أثرهم.

(٣) أي دمّر مدنها وقراها.

(٤) مبتعدًا، على انفراد.

وأدال له بعد طُموس الإعلام، حتّى لقد قال بعضهم: «ما نصر المسلمون من العقاب حتّى دخل يعقوب المَريني».

وأمّا ابن الأحمر، فساق عساكره إلى جهة جيّان، وأثخن فيها، فجمع له الدّون «صانشو» بن «جقوم» ملك أراغون، وكان مطرانًا على طُلَيْطُلة وبادر إلى لقائه، فانكشف الإسبانيول وأُسر الدّون صانْشُو ـ أو شانْجُه على رأي العرب ـ وحصل بسببه خلاف، إذ مال بعضهم إلى إرساله إلى السلطان يعقوب بن عبد الحقّ، والآخرون إلى إبقائه عند ابن الأحمر، فوثب عليه أحد الجُند فاحتزّ رأسه، وحُسم الخلاف. وثاني يوم هزيمة الدّون شانْجُه، وأسره، وصل الدّون «لوب» بالمدد الوافر، وتواقَف مع المسلمين وقد امتلأت أيديهم بالغنائم، فتأمّل أن يشتغلوا بها عن القتال وأصلاهم نارًا حامية من مطلع الشمس إلى أن توارت بالحجاب، فلم يفُز منهم بطائل، فراسلهم في رأس شانْجُه، والخاتم الذي بيده، ووقع الفداء بهما على جملة من أسرى المسلمين، ونُقِل الرأس مع الجثّة ودفن في كنيسة طُلَيْطُلة.

❁ ❁ ❁

قصيدة ابن الأحمر في الاستغاثة

وكان لمَّا اعتزم أمير المسلمين، يعقوب، على الإجازة إلى المغرب خاطبه ابن الأحمر، بقصيدة استغاثة من نَظم كاتبه أبي عمر بن المرابط قال فيها:

هل من مُعين فِي الهوى أو مُنْجدِ ... من مُتْهِم فِي الأرض أو من مُنْجِدِ[1]
هذا الهوى داعٍ، فهل من مُسْعف ... بإجابةٍ وإنابةٍ أو مُسْعِدِ؟
هذي سبيل الرشد قد وضَحَته فهل ... بالعُدْوَتين من امرئٍ مُسْتَرْشِدِ
يرجو النجاة بجنّة الفردوس، أو ... يخشى المصير إلى الجحيم المُوْقَدِ
يا آملَ النصر العزيز على العِدى، ... أجبِ الهُدى، تَسعدْ به وتؤيّدِ
يا مَن يقول غدًا أتوب ولا غدٌ، ... ألدَيْك عِلمٌ أن تعيشَ إلى غدِ
لا تَغتَررْ بنسيئة[2] الأجلِ الذي ... إن لم يَحِنْ لك نقدُهُ، فكأنْ قدِ
أو ما عَلِمْتَ بأنّهُ لا بدَّ من ... زادٍ لِكُلِّ مُسافرٍ فتزوَّدِ
هذا الجِهادُ رئيسُ أعمالِ التُّقى ... خُذْ منهُ زادَكَ لارْتحالِكَ تَسْعَدِ
هذا الرِباط بأرضِ أندلسٍ فَرُحْ ... مِنه لما يُرضي إلهَكَ واغْتَدِ
سوّدْتَ وجهكَ بالمعاصي فالْتَمِسْ ... وَجْهًا لِلُقْيا الله غير مسوَّدِ
وامحُ الخطايا بالدموع فربَّما ... محتِ الدموعُ خطيئةَ المُتعمِّدِ[3]
مَن ذا يتوبُ لِربِّه منْ ذَنْبِهِ ... أو يقتدي بنبيِّه أو يهتدي
مَن ذا يُطَهِّرُ نفسَهَ بعزيمةٍ ... مشحوذةٍ في نصرِ دِينِ مُحَمَّدِ

ومنها:

كم جامعٍ فيها، أُعيدَ كَنيسةً ... فاهْلَكْ عليهِ أسىً ولا تتجلَّدِ

---

(١) أتى بلاد نَجْد أو نزل فيها.

(٢) الطيلة في الأجَل، الإنساء: طول العمر.

(٣) قَبِل المعمودية.

أسفًا عليها أقفرت صلواتُها، ... من قانتينَ[١] وراكِعينَ وسجَّدِ
كَمْ من أسيرٍ عندَهُمْ وأسيرةٍ، ... فكلاهما يبغي الفِداءَ فما فُدي
كَمْ من عقيلةِ مَعشرٍ معقولةٍ ... فيهم تَوَدُّ لو أنَّها في مَلْحَدِ[٢]
كَمْ من وليدٍ بينهم قد ودَّ مِن ... ولداهُ ودًّا أنَّه لم يولَدِ
كَمْ من تَقيٍّ بالسلاسلِ مُوْثَقٍ ... يبكي لآخَرَ في الكُبولِ مُقَيَّدِ[٣]
وشهيدِ مُعْتَرِكٍ توزَّعَهُ الرَّدى ... ما بين حَدَّيْ ذابِلٍ ومُهنَّدِ[٤]
ضجَّت ملائكةُ السَّماءِ لحالِهِمْ ... وبكى لهم من قلبه كالجَلْمَدِ[٥]
أفلا تذوب قلوبُكم إخواننا ... مِمّا دهانا مِن ردى أو مِن رَدي
أفلا تُراعون الأذِمَّةَ بيننا، ... مِن حُرمةٍ ومحبَّةٍ وتودُّدِ
أكذا يعيثُ الرومُ في إخوانِكمْ ... وسيوفُكم للثأرِ لمْ تُتَقَلَّدِ[٦]
أين العزائمُ مالَها لا تَقْتَضي، ... هل يقطع الهنديُّ غيرَ مُجَرَّدِ[٧]
أبَنِي مَرينَ أنتُمُ جيرانُنا ... وأحقُّ مَن في صَرْخَةٍ بِهِمُ ابتُدي
فالجارُ، كان به يُوَصِّي المُصطفى ... جبريلُ حقًّا في الصحيحِ المُسْنَدِ[٨]
أبَنِي مَرينَ والقبائلُ كُلُّها ... في المغربِ الأدنى لنا والأبعدِ
كُتِبَ الجهادُ عليكُمُ فتبادروا ... منه إلى الفرضِ الأحقِّ الأوْكَدِ
وارضوا بإحدى الحُسْنَيَيْن[٩] وأقرضوا ... حَسَنًا تفوزوا بالحِسانِ الخُرَّدِ[١٠]
هذي الجِنانُ تفتَّحتْ أبوابُها ... والحُوْرُ قاعدةٌ لكم بالمَرصَدِ
لله في نصرِ الخليفةِ موعدٌ ... صِدْقٌ فثوروا لانْتِجازِ المَوعِدِ

(١) القانت: المُصلّي، الطائع، المتواضع لله.
(٢) لغة في لحد: قبر.
(٣) القيود، على غير القياس في الجمع.
(٤) الرمح والمهنّد: السيف.
(٥) الصخر.
(٦) حَمَلَه.
(٧) السيف.
(٨) إشارة إلى الحديث الشريف "ظلّ جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنه سيورثه".
(٩) إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.
(١٠) مفردها خريدة: عذراء ذات حياء.

هذي الثغورُ بكُم إليكُم تشتكي شكوى العَديمِ إلى الغَنيِّ الأوْجَدِ [1]
ما بالُ شَمْلِ المسلمين مُبدَّدٌ فيها وشَمْلُ الضِدِّ غيرُ مُبَدَّدِ
أنتم جيوشُ الله مِلءَ فضائِهِ تَأسون للدينِ الغريبِ المُفْرَدِ
ماذا اعتذارُكُمُ غدًا لِنَبيِّكم وطريقُ هذا العُذْرِ غيرُ مَمَهَّدِ
إنْ قالَ لِمَ فرَّطْتُمُ في أُمّتي وتركتُموهُم لِلعَدوِّ المُعْتَدي
تَالله لو أنَّ العقوبةَ لَمْ تُخِفْ لَكَفى الحَيا مِن وجْهِ ذاك السيِّدِ
إخواننا صَلُّوا عليه وسَلِّموا وسَلُوا الشَفاعة مِنهُ يومَ المشهَدِ [2]
واسْعَوا لِنُصرةِ دِيْنهِ يَسقيكُمُ مِن حَوضِهِ في الحَشْرِ أعذبَ مَوْرِدِ [3]

فأجابه السلطان يعقوب بن عبد الحقّ، بقصيدةٍ من نَظم عبد العزيز شاعر الحضرة "لبّيك لا تخشَ اعتداء المعتدي"... إلخ، وأجاب عنها أيضًا مالك بن المرحَّل بقوله: "شهد الإله وأنتِ يا أرض اشهدي"... إلخ، فأجابهما أبو عمرو بن المرابط بقوله: "قلْ للبُغاة وللعُداة الحُسَّد".

ـ الجهاد الثاني لأمير المسلمين

وبعد الجهاد الأول بنحو سنتين، ثقَّف [4] فيها أمير المسلمين أطراف المغرب، اعتزم الجهاد ثانيةً فأجاز إلى طريف لسَرار [5] المحرّم، ثمَّ نهض إلى الجزيرة الخضراء فَرُنْدَة، حيث وافاه بنو أشْقَيْلولة ونهضوا جميعًا إلى إشبيلية وكان بها ابن الأذفنش الملقَّب بالصابي، فخام [6] عن اللقاء، واعتصم بساحة البلد، فاكتسح السلطان جوارها، ودكَّ حصونها، وسبى أهلها، ودخل حصن جِليانه وقطيانة وحِصن القُلَيعة عُنوةً، وعاد بالغنائم والأثقال إلى الجزيرة، ثمَّ نهض ثانيةً فنزل بساحة شَريش، وأذاقها نكال الحرب والحرَب [7]، وبعث ولده أبا يعقوب في جيش إلى إشبيلية، وحصون الواد، فبالغ في الإثخان، واجتاح حِصن رُوطة

---

(١) المُعْدَم: الفقير المحتاج.

(٢) يوم القيامة.

(٣) تقول يوم الحَشْر والنشر: كذلك يوم القيامة.

(٤) طوَّع.

(٥) آخر ليلة في الشهر.

(٦) جَبُنَ ونكص.

(٧) الحرب: القتال ـ الحَرَب: السلب.

وشلوقة وغليانة والقناطير، ثمَّ اعتزم الغزو إلى قُرْطُبة، فاستفزَّ به ابن الأحمر فأجابه، وتوافيا على الطريق ودخلا حصن بني بشير عنوةً ودمّراه، وأثخنا في أهله، وتقدّما بالاكتساح والتدمير والأسر والقتل، إلى أن نزلا بساحة قُرْطُبة قُبّة الإسلام في الماضي، وشدَّدا عليها الحصار، وبعثا السرايا في الجوار، فعاثت ودمّرت، ودخلت الحصون، واقتحمت القلاع، واشتدّ الأمر بالطاغية، فخطب السِلم من أمير المسلمين، فأحاله على ابن الأحمر تكرمةً لمشهده، فأجابه محمَّد الفقيه بعد استئذان أمير المسلمين، إراحةً لأجناد الأندلس، والمرابطين فيها، وانعقد الصلح وقفلوا[1]، فعرّج أبو يوسف يعقوب على غَرناطة، نزيلاً على ابن الأحمر، وترك للأندلسيين الغنائم، وقفل إلى الجزيرة، وفي تلك الأثناء توفّي الرئيس أبو محمَّد بن أشْقَيلولة صاحب مالَقَة، فنزل ابنه محمَّد عن البلد، للسلطان يعقوب، فعقد عليها لابنه أبي زيّان منديل، فسار إليه في بمث، وكان الفقيه ابن الأحمر لمَّا بلغه وفاة صهره، طمع في الاستيلاء على مالَقَة، وظنَّ ابن أخته مشايعًا له، فأرسل وزيره أبا سلطان عزيز الداني، فوجد الأمير أبا زيّان قد احتلّ البلد، فقفل خائبًا، ثمَّ قدِم إليها السلطان نفسه من الجزيرة، فبرز إليه أهلها في احتفال شهير، وعقد عليه لعمر بن يحيى بن محلّي، من أركان دولة بني مَرين، وقفل إلى الجزيرة ومنها إلى المغرب سنة ٩٧، وقد أعاد بهجة الأيام الأولى في الجهاد وحسن البلاء، وحاز الإسلام لعهده الغاية من العلاء.

ـ خوف ابن الأحمر، والفِتنة

ولمَّا بلغ السلطان يعقوب ما بلغه من الظهور، ومالت إليه القلوب، واشرأبّت[2] إلى ولايته الأعناق، واكتسب له محمود مقامِه بالأندلس محابَّ الأمّة، تذكّر ابن الأحمر ـ وكان فقيهًا مطَّلِعًا ـ قصّة المعتمد بن عبّاد، مع يوسف بن تاشُفين، فخاف الغيلةُ*، وبرم للعاقبة، وعوَّل على إيصال يده بيد الطاغية خشيةً على سلطانه من أبي يوسف، فنهض الأذْفنش لأخذ الثأر، وأغزى أساطيله مسالح بن مرين بالجزيرة الخضراء، وانقطع مدد المسلمين من وراء البحر، وانتبذ[3] عمر بن يحيى بن محلّي عن قومه بمكانه مالَقَة، وذلك أنه كان بين أخيه طلحة وبين السلطان نفور، بعث طلحة على ممالأة[4] ابن الأحمر، وبمداخلته، نزل له

(١) عادوا ورجعوا.

(٢) تمالت.

* اسم، من الاغتيال.

(٣) ابتَعَدَ.

(٤) مساعدة ومشايعة.

عمر عن مالَقَة وجهة قصده. وأقطعه شلوبانية والمُنكَّب فانتقل إليها ممالئًا لابن الأحمر ومن ثمّة للأذْفنش. ولخوفهم من إجازة السلطان، راسلوا يَغْمْراسُن بن زيّان أمير تِلِمْسان، في الانتقاض عليه. وتثبيط(١) حركته. فأجابهم إلى ذلك وتهادوا وتحابّوا، وتخاذل المسلمون.

ـ ندم ابن الأحمر وعودته إلى الحلف

واشتدّ بأهل الجزيرة المخنق. وبلغ الخبر السلطان بمراكش وهو يطفئ فتنة بني جشم من العرب. فلمّا تمكّن من حسمها. نهض قاصدًا طنجة بقصد الإجازة، فبلغه استئناف جشم الثورة. فكرّ إليهم وتأثرهم في الفلوات. وترك ابنه أبا زيّان لتدويخ السوس الأقصى، وعقد لولده وليّ عهده الأمير أبي يعقوب على الأساطيل التي جمعها من طنجة وسَبْتة وسلا. حتّى بلغت أربعمائة سفينة. وأغزاها الجزيرة، وكان أهلها قد بلغوا من الضيق أن قتلوا صغارهم خوفًا عليهم من السبي. والنشوء على غير الإسلام، فأثّر ذلك في قلب ابن الأحمر. وندم على ما فرط منه من ممالأة العدوّ، وجهّز أساطيله من مالَقَة والمَرِيّة، بدارًا(٢) لنصرة إخوانه في الدين. وغلبت عليه حفيظة الملّة، واجتمعت أساطيل المسلمين بمرفأ جبل طارق. وتبارزوا مع العدوّ، وصدقوه العزّمة فكشفوه، وذُعر الإسبانيول وغشيهم من اليمّ ما غشيهم. وملك المسلمون مرفأ الجزيرة، وهزموهم من كلّ ناحية، لكنّ الأمير أبا يعقوب تلكّأ عن الغزو، خوفًا من ابن الأحمر، وحدّثته نفسه أن يصالح الأذْفنش، ويزحفا معًا إلى غَرناطة انتقامًا من صاحبها، فأجابه هذا إلى ذلك، توسُّلاً إلى موادعته، ولمَّا كان في نفسه على ابن الأحمر من مدده أهل الجزيرة، فبعث أساقفته إلى أبي يعقوب، فأجازهم إلى أبيه، فأنكر ذلك السلطان وغضب من فعلة ابنه، ولم يشأ أن يواطئ على الإسلام أحدًا، وأجاز أبو يعقوب إلى المغرب بوفد أهل الجزيرة، وولّى ابنه الآخر أبا زيّان عليها، فأحكم الصلح مع صاحب قَشتالة، وتفرّغ لمنازلة ابن الأحمر في غَرناطة مع بني أشقيلولة وابن الدليل، ثمَّ رجع ابن الأحمر إلى سلم بني مَرين، وخطبها من أبي زيّان، واجتمعا، ثمَّ في سنة ٧٨، أطلَّ السلطان يعقوب على الأندلس لِما اختلّ من أحوالها، وكان ابن أشقيلولة قد نازل غَرناطة سنة ٧٩، وظاهَرَه الأذْفنش، فلم يفوزوا بطائل، وقُتل جماعة من الإسبانيول، ولمَّا أيقن ابن مَرين بما وقع بين يَغْمْراسن، وملوك إسبانية المسلمين والنصارى من الاتّصال والتعاهد

(١) أعاق.

(٢) أسرع إليه.

تعويقًا لحركاته، عمد إلى غزو يَغْمْراسن، وجرت بينهما حرب، دارت فيها الدائرة على يَغْمْراسن، وقَفَل يعقوب إلى مراكش. وأثناء مقامه بها وافاه صريخ الأَذْفنش على ولده سانشو أو شانْجُه، وذلك أنه لمَّا تمَّ ما تمَّ من العلوّ والظهور لكلمة الإسلام على يد أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحقّ، قام أُمراء إسبانية، وأركان مملكة قَشتالة وخصوصًا رجال الدين، ناقمين على الأَذْفنش عدم الكفاءة، وسوء التدبير، ونَحْس الطالع على قومهم، فكادوا له، وأخرجوه عن ملكه، ونادوا باسم شانْجُه وذلك سنة ٨١، وخرج الوالد طريدًا مخذولاً، قد غدر به أهلُه وخُلاّنه، وخانه زوجته وأولاده، فأخذ يستغيث مُلوك النصرانية، من أراغون والبورتغال، وفرنسا، فلم يجب أحد صريخه، فرفع أمره إلى البابا فلم ينجده بغيرِ النصيحة، والتوصية بالصبر والتحمّل، فلمّا يئس ممَّن شبكته وإيّاهم أواصر الرحم والديانة أو الجوار، حول نظره جهة المغرب، فاستجار بسلطانه يعقوب بن عبد الحقّ بن مرين، فأجاره في الحال، ذهابًا مع هوى الشيمة الأبيّة ومقتضى الفُتوّة، ووافاه إلى مراكش أساقفة الأَذْفنش فصرفهم واعدًا بالإغذاذ[1]. وسار إلى قصر المجاز وركب منها إلى الجزيرة الخضراء، وقد وافته الجنود وسار إلى صخرة عبّاد، حيث وافاه ملك قَشتالة فأكرم نزله[2] وأمدّه لنفقاته بمائة ألف، استَرهَن عليها التاج الملكي، وبقي عند ملوك بني مَرين فخرًا للأعقاب، وزحف السلطان إلى جهة قُرْطُبة وبها شانْجُه، فاكتسح نواحيها رامتنعت عليه، فانتقل إلى طُلَيْطُلة فخرَّب جهاتها، وعاد إلى الجزيرة، وقد ثقَّلت أوقار[3] مطاياه الغنائم.

ورأى ابن الأحمر ذلك، فبدا له أن يُوالى شانْجُه الخارج على أبيه، وتعاهدا فلم يُغْنِهما ذلك. ولمَّا رجع السلطان من غزاته، غزا مالَقَة من أملاك ابن الأحمر، فلم يجد هذا بدا من طلب السلم، والتجأ في ذلك إلى ابنه فأسعفه، وأجاز إلى أبيه رغبةً في الثواب وجمع كلمة المسلمين، فأسعفه في ما رغب فيه إليه، وأقلع عن مالَقَة، وتأكّد السلم مع ابن الأحمر، وانبسط رجاء المسلمين. وأعاد السلطان الغزو في دار الحرب واستأنف الإثخان، وخرج إلى نواحي طُلَيْطُلة في غُرَّة ربيع الثاني سنة ٨٢، فلم يصادف بناءً إلاّ هَدَمه، ولا زرعًا إلاّ حطّمه، ولا سرحًا إلاّ اقتلعه، ولا جمعًا إلاّ صدّعه، وعاق جيشه عن زيادة الإيغال[4] كَثرة الغنائم،

(١) الإسراع.

(٢) قيل إنّه بعد أن سلّم عليه الدون ألفونس طلب يعقوب بلسان زناتة الماء ليغسل يده من قبلة ملك قشتالة وقيل من مصافحته فانظر إلى ما كان من عزّ الإسلام بإزاء الإفرنج.

(٣) مفردها وِقْر: الحِمل الثقيل.

(٤) الدخول، وأراد بها الاستمرار في الحرب.

فرجع وقسَّم السلب بين أجناده، ونقل من الخمس وأجاز إلى المغرب، وبلغه وفاة أذْفنش ملك قَشتالة، واجتماع النصرانية على ولده شانْجُه الخارج كان عليه، فتحرّك للجهاد، وأرسل ولده أبا يعقوب في أثر العرب الخارجين، فاتَّبع أثرهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس، ونهض السلطان مستنفرًا للجهاد، فأجاز بجنوده إلى الجزيرة، ومنها دخل دار الحرب، فخرج وأثخن، ونزل على شريش فضايقها؛ وأخذ بمخنقها، وأغزى ابنه الأمير أبا يعقوب إشبيلية، فنسف ديارها، وعاث في نواحيها، ومرّ في مُنْصَرَفه، بقرمونة فشدَّد عليها وطأته، وأعظم فيها نكايته وسرَّح الوزير محمَّد بن عطوا ومحمَّد بن عبلة جواسيس في أرض العدوّ إليه، فعادا بنبأ ضعف الحامية، فأغزى حافده عمر بن عبد الواحد، جهة وادلكٌّ، وحِصن أرْكُش، فأبادوا عمرانها، وغادروها كجوف العير[1]، وسرَّح ابنه أبا معروف لغزو إشبيلية ثانيةً، فأتمَّ ما كان باقيًا دون خراب، وقصد حِصنًا بقرب معسكره، فسرَّح الجنود والناشبة بالآلات فاقتحموه، وسَبَوا أهله، وقتلوا حاميته، وركب إلى حِصن آخر، فأصابه ما أصاب الأول، ووافاه وليّ عهده أبو يعقوب بمرابطة المغرب، ومُطوّعته، ومرتزقته في واحد وعشرين ألفًا، كلّهم قد باعوا أنفسهم من الآخرة، فعقد له أبوه على جيش كثيف وأغزاه نواحي إشبيلية، فاقتحموا الحصون، ودكّوا القِلاع، وسَبَوا الذراري ودمَّروا قرى الشرف، والغابة الكثيرة العمران، وعادوا بالغنائم فأغزاه ثانيةً قَرَمونة والوادي الكبير، فبرز حامية قَرَمونة للدفاع، فانكشفوا وأحجرهم في الحِصن، وكرَّ على إشبيلية ثانيةً، واقتحم منها برجًا كان هناك عينًا للعدوّ، فأحرقه وقفل. ثمَّ أغزاه والده جزيرة كيوثر، فاقتحمها وأباد أهلها، بالسيف، وأغزى طلحة بن محلي إشبيلية رابعة، فأثخن فيها، حتّى صفّرت تلك البقاع من العمران، وأصبحت بسائط الفُرُنْتيره، وإشبيلية، ولَبْلَة، وقَرَمونة، وإستجَّة، منعقًا للبوم، بعد أن كانت ملأى بالعمارة والنضارة، وهو أثناء هذه الغارات كلّها يُغادي شريش ويراوحها قتالاً ونكالاً، ويبثّ السرايا في أرض العدوّ ليلاً نهارًا، حتّى لم يخلُ يوم منه من غزوة أو غارة.

وقد أصابت جموع الإسلام في هذا الرباط الطويل العريض من الغنائم، وأحرزت من المال الصامت والناطق، ما لا يحصيه إلاّ خالِقه، ولم يرتدّ أمير المسلمين عن الغزو، إلاّ بقدوم فصل الشتاء، وبلغه أنَّ العدوّ أوعز إلى أساطيله بالاعتراض في الزقاق[2]، فأوعز

(١) تركوها خرابًا وطعامًا للنار.

(٢) بحر بساحل الأندلس الغربي، بمكان يُقال له الخضراء.

السلطان إلى أساطيله بالاجتماع من ثغور العُدوتين، فأحجمت أساطيل الإفرنج. ورأى ابن أذْفنش شانْجُه أو صانْشو، ما نزل ببلاده من بأس المسلمين. وضرع إليه كبار دولته في خطبة السلم من يعقوب بن عبد الحقّ، لشدّة ما بلغ بهم البلاء، ونالهم من النكال. ورأوا من شمول الخراب أوطانهم، فعوّل على مخاطبة أمير المسلمين في السلم ضارعا صاغرا. وأوفد إليه الملأ من أساقفته وأعيان مملكته، فردّهم يعقوب اعتزازا عليهم فردّهم شانْجُه وكرّروا الاستعطاف فأجابهم إلى السلم بشرط أن يقبلوا ما شاء من عزّ قومه. وأن يسالموا جميع المسلمين من قومه وغيرهم، وأن يرفعوا الضريبة عن تجّار المسلمين في دار الحرب. ويجتنبوا الفتنة بين أمراء الإسلام، إلى غير ذلك، فأجابوا إلى كلّ ما اشترط.

وفد شانْجُه على السلطان بمكانه من شريش فالتقاه برًّا وترحيبًا. واحتفل للقائه إظهارا لعزّ الملّة وقدّم له ملك الإسبانيول هديّة سنيّة. وخضع له وانقلب قرير العين بمسالمته. وسأله يعقوب أن يبعث إليه بكتب العلم التي حازها النصارى من مدن الإسلام. فأرسل إليه منها ثلاثة عشر حملاً فوقفها في المدرسة التي أسّسها بفاس.

ـ وفاة السلطان ومبايعة وليّ عهده أبي يعقوب

وقفل السلطان من هذا الجهاد بعد أن وفّر للإسلام من العزّ ما لم يعهده منذ أيام ابن تاشُفين، وازدحمت في حضرته الشعراء للتهنئة، واعتلّ بعد ذلك، وتوفّي بالجزيرة قبل وصول وليّ عهده أبي يعقوب، فأخذ البيعة على الناس وزراء أبيه، وأجاز إليهم من المغرب، فجدَّدوا البيعة غُرّة صفر سنة ٦٨٥، وفرّق العطاء وأجزل، ومحا بعض الرسوم ورفع المُكوس، وقبض أيدي العمّال عن الظلم، وأصلح السابلة(١)، وبعث إلى ابن الأحمر بالحضور، فوافاه فاحتفى به، ونزل له عن جميع الأندلس، إلاّ الجزيرة وطُرَيف(٢)، واتّفقا على إخراج أبي الحسن بن أشْقَيْلولة من وادي آش، ففصل إلى المغرب، وأقطعه ابن مَرين فيه، وانفرد ابن الأحمر برئاسة الأندلس.

ـ السلطان أبو يعقوب يقتفي أثر أبيه وسقوط طريف

وسنة تسعين، بلغ أبا يعقوب، انتقاض صاحب قَشتالة وتعطيله ثغور المسلمين، فسرّح

---

(١) الطريق.

(٢) ذكرها "مُعجم البلدان" بضمّ الطاء، وبالفتح، في كتاب "الرّوض المِعطار" في صفة جزيرة الأندلس، فاقتضى ذِكر ذلك.

قائد المسالح علي بن يوسف بن يرناسن، فغزا شريش وأثخن في أرض العدوّ، وأجاز السلطان بنفسه، فالتقته أساطيل الإسبانيول في الزقاق، حجرًا دون النزول[1]، فانكشفت سفن المسلمين، فكرّ السلطان، فأحجمت أساطيل الإسباينول، وأنزل عساكره بطُرَيف، وشرع منها بالغزو، فأذاق شريش وإشبيلية، وبال الحرب، ولم يرجع عنها إلاّ عند قدوم الشتاء. وقفل إلى المغرب سنة ٦٩١، وقد تمّ له من الظهور ما تمّ لأبيه، وعاد الوسواس إلى مخيّلة ابن الأحمر، وتذكّر مرّة ثانية قصّة المعتمد بن عبّاد، ووصل حَبْلَهُ بحبل القشتالي، وأجمعا على افتتاح طُرَيْف أُمّ الثغور وذات المسالح، فنازلها الإسبانيول، واعترضت أساطيلهم ببحر الزقاق، دون مدد المغرب وأرسل ابن الأحمر النجدات إلى حليفه، وتمادى الحصار بأهل طُرَيف أربعة أشهر والمدد منقطع عنهم، فسلّموا بلدتهم للإسبانيول، وطالبهم ابن الأحمر بالخروج عنها له، فأبوا ونكثوا، فندم على اتّصاله بهم وراسل ابن مَرين تائبًا، مستعطفًا، داعيًا إلى اجتماع الكلمة، وأوفد بذلك ابن عمّه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف ووزيره أبا سلطان عزيز الداني، فأحكموا الصلح، وعقد ابن مَرين على مسالحه بالأندلس لابنه وليّ العهد الأمير أبي عامر، ولمّا رجعت رُسُل ابن الأحمر بقبول الصلح، أجاز بنفسه نزيلاً على ابن مَرين معتذرًا، فأعرض عن عذله وأكرم وفادته، وقدّم له ابن الأحمر المصحف الكبير، أحد مصاحف عثمان (رضي الله عنه) الأربعة، المبعوث بها إلى الآفاق، اتّصل إلى صاحب غَرناطة من قُرْطُبة، حيث كان في خزانة بني أميّة، ونزل ابن الأحمر عن الجزيرة ورُنْدَة والغربية، وعشرين حصنًا لأبي يعقوب، وأرسل هذا وزيره عمر بن السعود الجشمي، لمنازلة طُرَيْف، فامتنعت عليه، وقفل ابن الأحمر إلى حاضرة حَمرائه عام ٦٩٢، وقد تأكّدت المُصافاة بينه وبين ابن مَرين.

وتوفّي محمَّد الثاني المعروف بالفقيه ابن محمَّد الأول المعروف بالشيخ، سنة ٧٠١، فقام بالأمر بعده ابنه محمَّد الثالث، ويقال له المخلوع والأعمش لضعف بصره، وكان مع ضعف البصر ضعيف البصيرة فتغلّب عليه كاتبه أبو عبد الله بن الحكيم، ولم يطُلْ الأمر حتّى بدا له الانتقاض على ابن مرين لأمور نقمها ولا جرم لها، فوصل يده بيد ملك الإسبانيول فرديناند الرابع ابن شانْجُه وهو "هرانده" عند العرب وداخل ابن عمّه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل في الاستيلاء على سبتة، فأجاز إليها على غفلة من أهلها واشتغال ابن مرين بحصار تلمسان الكبير بعد التضريب بين أعيان البلدة فاستولى عليها وأرسل

(١) منعته من النزول.

عمّالها بنو العزفي إلى غَرناطة وقامت بها دعوة ابن الأحمر على يد ابن عمّه، وأخذ أبو سعيد في التفريق بين بني مرين والدعوة لعثمان بن أبي العلاء المَريني رئيس الغَزاة المجاهدين بالأندلس، واستقدمه لأجل تمكين الفتنة بينه وبين أولاد عمّه، فخرج ودعا لنفسه، وأجابه كثير من الناقمين، وبايعوه على الموت، وفاز أبو سعيد بن الأحمر بأمنيته، وانتشبت الحرب بين رجال بني مَرين.

ـ وفاة السلطان أبي يعقوب

وتوفّي السلطان أبو يعقوب في أثنائها، فخَلَفَه السلطان أبو ثابت بن أبي عامر، وليّ عهد أبي يعقوب لكون والده توفّي قبل جدّه، ولم يستقم له الأمر إلاّ بعد نزاع هاض جَناح الدولة[1] مع عمّه أبي سالم، فشرع في محاربة عثمان بن أبي العلاء، وحصره أخيرًا بسبتة، وتوفّي قبل أن يتمكّن منه، وخلفه السلطان أبو الربيع، فضايق عُثمان، الخارج عليهم حتّى فرَّ من سبتة إلى الأندلس، لاحقًا بغَرناطة وبعدها أرسل أبو الربيع تاشُفين بن يعقوب الوطاسي، بعسكر فاستولى على سبتة، وقبض على قائد قَصَبَتها، وقائد البحر، وقائد الحرب من قبل ابن الأحمر، وعادت إلى ملكه، ثمَّ توفّي أبو الربيع لسنة عشر بعد السبعمائة، وخلفه السلطان أبو سعيد، فأنشأ الأساطيل للجهاد، وولّى أخاه أبا البقاء ثُغور الأندلس.

وأمّا محمَّد الثالث سلطان غَرناطة فساء أثره في المُلك، واستبدَّ مع وزيره ابن الحكيم، فانتزى عليه أبو الجيوش، نصر أخوه، وقتله ووزيره لسنة ثمان بعد السبعمائة، وفي تلك المدّة نازل ملك الإسبانيول الجزيرة الخضراء وجبل الفتح، فاستولى على الجبل، ولم يُقلع عن الجزيرة إلاّ صلحًا بعد أن أذاقها مُرَّ الحِصار، فقلق ابن الأحمر لأخذ الجبل، ورغب إلى أبي الربيع في الصلح؛ فأسعفه ونزل له عن الجزيرة ورُنْدَة وبعض الحصون، فقبل ذلك منه ثمَّ أصهر إليه في أخته، وأمدّه بالأموال والخيول جنائب، مع عثمان بن عيسى من رجاله، وبقي نصر في الملك إلى أن انتزى عليه اسماعيل أبو الوليد بن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر، فحاصره في الحمراء وآل الأمر أن نزل له عن المُلك سنة ٧١٤، واعتزل ومات، في نواحي سنة ٧٢٢.

---

(١) ضعفت، من قوله: طير مَهيض الجناح، أي مكسور الجناح، بَعد جُبور.

وكان فرديناند ملك قَشتالة، عند نِزال جبل الفتح والجزيرة قد استصرخ صاحب برشلونة، فحاصر المَريّة برًّا وبحرًا، وذلك في مدّة أبي الجيوش نصر، ونصّب عليه الآلات، واحتفر الإسبانيول مسارب تحت الأرض، مقدار ما يسير عشرون راكبًا في الواحد منها، وفطن المسلمون فحفروا قبالتهم، والتقوا تحت الأرض واقتتلوا وهذا كما حصل في حصار مالَقَة في العهد الأخير كما سيأتي وسارع عثمان بن أبي العلاء شيخ الغَزاة بالأندلس من بني مَرين لنجدة أهل المَريّة فالتقى بجيش صاحب قَشتالة فهزمه، ثمَّ صمد إلى عسكره بأسطيونة فأوقع به، فسرّح إليه جيوشًا كثيرة، فظفِر بهم وقتلهم أبرح قتل وقفل بالغنائم، وتوفّي فرديناند، على أثر ذلك عام ٧١٢، ووليّ بعده ابنه المعروف عند العرب بالهَنْشة طفلاً رضيعًا، فجعلوه لنظر عمّه الدّون بِترو أو بِطْرُهُ والدّون جُوان.

وفي أيام كفالتهما، شُغِل أبو سعيد المَريني سلطان المغرب بفتنة ابنه، فانتهز الإسبانيول الفرصة، واعتزموا استئصال المسلمين من الأندلس، وتداعوا للحرب، واستنفروا الأقطار، وأناخ الدّون بِطْرُه على غَرناطة بجموع لا كِفاء لها، وقيل كان معه خمسة وعشرون ملكًا وذلك لسنة ٧١٩، فخرج إليهم شيخ الغَزاة عثمان ابن أبي العلاء يوم الخميس ٢٠ ربيع الأول فاقتطع منهم سريّة واستأصلها، ويوم الأحد ركب أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء في خمسة آلاف من أبطال المسلمين فقيَّض الله لهم نصرًا غريبًا، وعندما شاهدهم الإفرنج وقد ألهاهم تكاثرهم، أخذ منهم العجب لقلّتهم، وهجومهم، فلم يشعروا إلاّ وقد أزاحوهم عن مراكزهم، فانهزموا مذعورين، وأهبَّ الله ريح النصر للغَرناطيين، فتبعوهم، يأسرون ويقتلون ثلاثة أيام، وغنموا من الذهب ثلاثة وأربعين قنطارًا، ومن الفضّة مائة وأربعين قنطارًا وسُبَي سبعة آلاف نفس، وكانت خسائر المسلمين من القِلَّة بحيث لو ذُكِرَت لدفع ذلك العقل. وسُلِخَ الدّون بِطْرُه، وحُشي جلده قطنًا، وعُلِّق على باب غَرناطة، وبقي معلّقًا سنوات، وقال ابن خلدون إنَّ رأسه نُصِب بسور البلدة وإنّه كان باقيًا لعهده، وهذه الوقعة من أشهر وقائع الأندلس، وفيها استنصر الغرناطيّون السلطان أبا سعيد المَريني، فاعتذر لهم بمكان ابن أبي العلاء شيخ الغَزاة، وعدوّه من دولتهم، واشترط عليهم دفعه إليه، ووعدهم بإعادته فلم يمكنهم ذلك، لمكان عثمان ومِنعته من عصابته، وأغناهم الله عن نصرة أبي سعيد بنصرته تعالى.

- مواقف السلطان أبي الحسن المَريني في الجهاد

وفي سنة ٧٣١، توفّي أبو سعيد المَريني، وقام بالأمر بعده وليّ عهده الأمير أبو الحسن، وكان من أَجَلّ سلاطين الإسلام، فاشتغل مدّة بإطفاء فِتَن مملكته، ولمّا خلص له المغرب، وجَّه عنايته إلى الجهاد، وسمت نفسه إلى حال جدّه أبي يوسف يعقوب بن عبد الحقّ، وكان الإسبانيول بما طرأ على المغرب من الفرقة والاختلال، وشجر[1] بين المسلمين، دون التوافي لنُصرة بعضهم بعضًا، وقد تغلّبوا على كثير من حصونهم، ونازلوهم في عقر دارهم غَرناطة، وضربوا الجِزية على أبي الوليد فأدّاها عن يد الذلّ، فاعتزم أبو الحسن الجهاد، وجهّز الأساطيل وسرح بالجيش ابنه الأمير أبا مالك، فغزا أرض العدوّ، وأثخن وغنم، وجمع له العدوّ، فأشير عليه بالخروج من دار الحرب اعتصامًا فأبى إباؤه، وأقام بأرضه، فأدركوه وعسكره وهم في مضاجعهم، وقُتِل أبو مالك قبل أن يستوي على جواده واستلم الإسبانيول أكثر قومه وغنموا ما معهم.

- ظهور أساطيل الإسلام على أساطيل الإفرنج

ووصل النعي أبا الحسن والده، فَفُتّ في عضُدِه، وتفجّع وأعمل في النفير للجهاد، والأخذ بالثأر، واستدعى الأساطيل من مراسي العُدوة، وأنجده الموحّدون من تونس بأسطول بَجاية، عليه زيد بن فَرحون قائد البحر، ووافاه أسطول طرابلس وقابس وجَرْبَة، واجتمعت كلّها بسبتة، معقودًا عليها لمحمّد بن العزفي، وزحفت إلى أساطيل الإفرنج فتحاجزت وتناجزت، وأهبّ الله ريح النصر من جهة بني مَرين، فخالطوا سفن الإفرنج واستلحموا مقاتلتها وقتلوا قائدهم « الملند »، وعادوا بالسفائن مجنوبة[2] إلى مرفأ سَبتة، وطُيّف[3] بالرؤوس، وجلس السلطان للتهنئة وكان يومًا مشهودًا.

- أسباب سقوط طُرَيْف من جديد

ثمَّ أخذ يُجيز العساكر إلى الأندلس، وأجاز على أثرها ختام سنة ٧٤٠، وخيّم بساحة طُرَيْف، ووافاه سلطان غَرناطة بغزاة زناتة وجنود الأندلس، وشدّدوا الحصار على طُرَيْف، وجاء الإسبانيول بأسطول عظيم حالوا به بين العُدوتين، وامتنعت البلد، ففُنيت الأقوات،

---

(١) تنازعوا فيه.

(٢) مَقودة.

(٣) أكثَرَ من الطواف (وردت بصيغة المجهول).

واختلّت أحوال المعسكر، وتكاثرت جموع الإسبانيول، وأصرخهم صاحب أشبونة البرتغال، فجاء بقومه ودخلوا البلد ليلاً على حين غفلة، وكمنوا في مكان، وفي الغد تزاحف الجَمعان، فبرز الجيش الكمين من البلد، وخالفوا إلى معسكر السلطان، وعمدوا إلى فِسْطاطه، فدافعهم الحرّاس فقتلوهم، وفتكوا بحظايا السلطان عائشة بنت عمّه وفاطمة بنت السلطان أبي يحيى صاحب أفريقية، وغيرهما، وسلبوا الفِسْطاط، وأحرقوا المعسكر، فلمّا رأى المسلمون ما حلّ وراءهم بالمعسكر، اختلّ مصافّهم[1]، وأُخِذ ابن السلطان أسيرًا لمخالطته العدوّ في تقدّمه، وانحاز أبو الحسن مع فئة من أبطاله، فدافع، ونجا، ووصل الطاغية إلى محلّة السلطان، فأنكر على قومه قتل النساء والأولاد، وانهزم ابن الأحمر إلى حمرائه، وخلص أبو الحسن إلى الجزيرة فجبل طارق ومنها إلى سبتة، وكانت وقعة مشؤومة على المسلمين، عَظُمَ فيها البلاء وفدحتِ الرزيئة[2] وجلّ الخطب، وقد بالغ بعض مؤرّخي الإفرنج في تقدير خسائر المسلمين، فزعم بعضهم أنه قُتِل مائتا ألف، وأنَّ خسائر الإسبانيول كانت نحو ٢٠ قتيلاً فقط، وهذا أشبه بقول بعض مؤرّخي الإسلام، أنَّ خسائر الإفرنج في وقعة الدّون بِطْرُه، بلغت خمسين ألفًا، ولم يُستشهد من المسلمين إلاّ ثلاثة عشر فارسًا، وقيل عشرة فقط، ممّا يدلّ على تأخُّر فنّ النَّقد في تلك الأعصار، وقبول الأخبار على عِلاّتها، بدون عرضها على العقل ولا سيرها بمعيار الحكمة والنظر. على أنَّ هاتين الوقعتين تتشابهان في قضيّة أسر نساء الملوك، ففي الأولى أُسِرت امرأة الطاغية بحسب قول العرب، وفي الثانية أُسِرت بعض نساء السلطان أبي الحسن، عدا مَن قُتِل منهنّ.

ـ هزيمة الأسطول الإسلامي في بحر الزقاق

وبعد هذه الوقعة، اشتدّت وطأة الإسبانيول على المسلمين، وطمعوا في التهام بقيّة الأندلس، ونازلوا قلعة بني سعيد وأخذوها بعد حصار شديد، فأعاد أبو الحسن ابن مَرين الكَرَّة وجهّز الأساطيل، وسرَّب البُعوث إلى الجزيرة الخضراء وتلاقت الأساطيل الإسلامية والنصرانية فقضى بهزيمة المسلمين، وملَكَ أسطول الطاغية بحر الزقاق، وسما له شوق إلى استخلاص الأندلس، فبعث بالنفير، ووافته النجدات وحضرت الأوامر من البابا بوجوب القيام يدًا واحدة لطرد مسلمي الأندلس، وانضمّ إلى ألفونس ملك قَشتالة، كثير من الملوك،

---

(١) جمع مَصَفّ؛ والمَصَفّ: الموقف في الحرب، وموضع الصفّ.

(٢) عَظُمَ المُصاب، رزيئة، من رُزء وهو المُصاب الكبير.

ووافاه من أنسباء مَلِك إنكلترة، الكونت دربي، والكونت سالسبري، وغاستون، وكونت دوفوا، وكونت دو بيارن وغيرهم، وزحف الجميع، فنازلوا الجزيرة الخضراء ليلحقوها بطُرَيْف ويستولوا على فُرضة مجاز المسلمين[1]، وحشروا إليها الفَعَلة والصنّاع للنقب والحفر، وأطالوا حصارها واتّخذوا للمعسكر بيوتًا من الخشب، بقصد المطاولة كما اتّخذوا لمعسكرهم في القرن التالي بيوتًا من الحجر وهم على غَرناطة، وجاء سلطان غَرناطة لمدد الجزيرة، فنزل بظاهر جبل طارق، وطال الحَصْر، وأصاب أهل ا لجزيرة الجهد، فسألوا الأمان فبذلوه لهم، وخرجوا إلى المغرب وذلك سنة ٧٤٣ فأنزلهم أبو الحسن خير نُزُل.

وإلى هذه الوقعة، يشير كتاب شهير بعث به السلطان أبو الحسن بن مَرين إلى الملك الصالح ابن الملك الناصر محمَّد بن قلاوون صاحب مصر، يقول فيه عند ذكر الصلح: "إلاّ أنَّ المطاولة بحصرها في البحر مدّة ثلاثة أعوام ونصف، ومنازلتها في البرّ نحو عامين معقودًا عليها الصفّ بالصفّ، أدّى إلى فناء الأقوات في البلد، حتّى لم يبقَ لأهله قوت شهر، مع انقطاع المدد، وبه من الخلق ما يَربي علىعشرة آلاف دون الحرم والولد، فكتب إلينا سلطان الأندلس في الإذن له في عقد الصلح، ووقَّع الاتّفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح"[2] ... إلخ.

وردّ الجواب من السلطان ابن قلاوون، وفيه عند ذكر الوقعة قوله: "ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا إليكم عِقبان الجياد المُسوَّمة[3]، وسالت على عدوّكم أباطحهم[4] بقسيّنا[5] المعوجّة وسهامنا المقوَّمة، وكحَّلنا عيون النجوم بمراود[6] الرماح، وجعلنا ليل العجاج[7] ممزَّقًا ببروق الصِفاح[8]، واتّخذنا رؤوسهم لصوالج[9] القوائم كُرات، وفرّجنا مضايق الحرب بتوالي الكرّات، وعطفنا عليهم الأعنّة[10]، وخضنا جداول السيوف ودُسنا

(١) أي المرفأ الذي يعبر منه المسلمون.
(٢) النجاح.
(٣) المرعيّة، والمُرسَلَة مُطْلَقَة والمُعلَمَة.
(٤) جمعٌ نادر الاستعمال للبَطح، أي المَسيل الواسع فيه رملٌ ودُقاق الحَصى.
(٥) القِسِيّ: الرماح.
(٦) مفردها مِروَد: وهو المِيل يُكتَحَلُ به.
(٧) العجاج: الغُبار والدخان، وعند "الزجاج" هو غبار الحرب.
(٨) مُفردها صَفْح: وهو من السيف عرضُهُ.
(٩) جمع نادر لصَولجان، أي عَصا المُلك، وأرادها هنا، العصا تُقذَف بها الكُرات، كلعبة الغولف الشهيرة.
(١٠) مقاوِد الجياد، مفردها عِنان، وهو سَيْر اللجام الذي يُمسك به الجواد، وأراد القول: أدرنا خَيلنا نَحوهم.

شوك الأسنّة[1]، وفلقنا الصخرات بالصرخات، وأسلنا العَبَرات بالرعبات، ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول، وأين الثُريّا من يد المتناول»...إلخ.

ليت شعري ما كان أغناه عن حرب الكلام، والإعتياض عن السيوف بالأقلام، إن كانت الغاية بعيدة عليه إلى هذا الحدّ، والظاهر أنَّ كاتبه صلاح الدين الصفدي المشهور بحبّ التجنيس[2]، عزَّ عليه أن لا يفلق الصخرات بالصرخات، حرمةً لهذا الجِناس، ولو كان في فضلة القول عن العمل، ما فيها من الهِجْنة.

ولنعد إلى الكلام على بني الأحمر أصحاب هذا المقام فنقول: لمَّا توفّي أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد المتغلّب على مملكة غَرناطة من يد ابن عمّه أبي الجيوش، بويع ولده محمَّد الرابع طفلاً صغيرًا لكفالة الوزير محمَّد بن المحروق، فاستبدّ هذا بالأمر وأمعن في الظلم، فلمّا بلغ محمَّد الرابع سنّ الحلم اغتاله، وشمَّر لتأييد الملك وجهاد العدوّ، ووفد على أبي الحسن ابن مَرين في فاس، فأعظم قدومه، وتفاوضا في شأن المسلمين وراء البحر، واعتزما الجهاد، ويومئذٍ أرسل أبو الحسن ابنه الشهيد، فيما بعد، الأمير أبا مالك في خمسة آلاف مُثاغِر[3] من آل مَرين، وانضمّوا إلى محمَّد بن اسماعيل بن الأحمر المذكور، ونازلوا جبل الفتح، وزحف إليهم الإسبانيول، فوقعت بين الفئتين حروب ومناجزات لم يظفر فيها الإسبانيول بطائل، ودخل المسلمون الجبل عنوةً، وبقي أمر الجزيرة الخضراء لنظر أبي مالك، إلى أن قُتِل كما سبق به الخبر، وتوالت الهزائم على المسلمين، وكان صاحب قَشتالة قد حاول استرداد الجبل، ونزل عليه قبل المرّة الأخيرة، فأسرع محمَّد الرابع إلى إنقاذه، فرحل ملك النصارى، وعاد محمَّد إلى غَرناطة ظافرًا. ونقم على جند أفريقية، في ما قيل، قعودهم، وهزئ بهم فعتبوه، وربا ذلك في قلوبهم فقتلوه. وقيل إنَّ ذرّية عثمان بن أبي العلاء شيخ الغَزاة من زناتة، والبربر، وابن سلطان المغرب، كانوا قد خلفوا شيخهم في الجهاد ببرّ الأندلس، وكانوا يرجعون في رئاستهم إلى الأمير أبي ثابت عامر، وقويت عِصابتهم، وعَلَت كلمتهم، حتّى استبدّوا على السلطان، وكان ذلك قبل إجازته نحو أبي الحسن بن مَرين، فلمّا أجاز إليه، ظنّوا فيه الظنون، وأضمروا السوء، لما بينهم وبين أولاد عمّهم من المنافسة والعداوة، فعندْ أوبته التقوه بقرب حصن أصطبونة، وأغلظوا له القول

(١) مُفردها سِنان: رمح.

(٢) مِن جناس، وهو من علوم البلاغة عند العرب، (باب البديع).

(٣) مدافع عن الثغور.

وقتلوا عاصمًا صاحب ديوان العطاء من مواليه، فلمّا أنكرها السلطان تناولوه قعصًا[1] بالرماح إلى أن قتلوه، وانقلبوا فجاؤا بأخيه أبي الحجّاج يوسف بن أبي الوليد فأجلسوه مكانه، واستبدّوا عليه، وخشي غائلتهم وأُسِرَ لهم، فلمّا اتّفق مع ابن مَرين، قبض عليهم واعتقلهم جميعًا، وأجازهم إلى تونس، وكان أبو الحجّاج يوسف من أفاضل الملوك في عدله ونزاهته وحبّه للعلم والعلماء، عقد مع النصارى المهادنات إراحةً لرعيّته وتفرّغًا للإعداد والأهبة، ولم يهمل وقته، ولا ضيّع الفرصة، وأنشأ المساجد والمدارس، وجرّ المياه ومهّد السوابل، إلى أن توفّي عام ٧٥٥، وسبب وفاته أنَّ بعض الزعانف، وقيل إنَّ رَجُلاً به مس، قد طعنه يوم الفطر وهو ساجد في الصلاة فقضى عليه لحينه.

ـ أيام محمّد الخامس من بني الأحمر، ونكبته، والتجاؤه إلى السطان أبي سالم المَريني

فقام بالأمر بعده محمَّد الخامس، وكان بعضهم رشّح ابنه الأصغر اسماعيل، فلمّا عدلوا عنه حجروه ببعض القصور، وكان له صهر من ابن عمّه محمَّد بن اسماعيل بن الرئيس أبي سعيد، فكان يغريه سرًّا بالوثوب، إلى أن أمكنته الفرصة، وذلك أنَّ محمَّدًا خرج مرّة إلى التنزّه، فدخل محمَّد بن اسماعيل في زمرة من الأوشاب لفهَّم حواليه، واقتحم دار الحاجب رضوان، فقتله بين حرمه وبناته، وقرّبوا إلى اسماعيل فرسه فركب، ودخل القصر وقُرِعَتْ الطبول بسور الحمراء، وفرَّ محمَّد إلى وادي آش، فبايعه أهلها على الموت، واتّصل خبر هذه الواقعة بالسلطان أبي سالم المَريني خلف أبي الحسن، فأرسل لحينه أبا القاسم الشريف لإجازة محمَّد، المغصوب مُلْكُه، إلى المغرب، لما بينهما من العهد، وعقد مع السلطان المغصوب تسريح الوزير الكاتب أبي عبد الله بن الخطيب، المشهور بلسان الدين لمكانه من دولة محمَّد فأُجيزوا جميعًا، واحتفل أبو سالم لقدومهم بفاس دار ملكه، وغصَّ المجلس بالمشيخة والأعيان وقام ابن الخطيب فأنشد بين يدَيّ السلطان قصيدته الرائية يستعطفه لسلطانه، ويستنجده لإعادته، حتّى أبكى الحاضرين ومطلعها:

سـلا هلْ لديْهـا من مُخَبِّرة ذكـرُ   وهل أعشبَ الوادي ونمَّ به الزهرُ

---

(١) أي صَرعوه بها في مكانه.

ومنها:

بلادي التي عاطيتُ مشمولة الهوى ... بأكنافِها والعيشُ فَينان مُخْضَرُ
وجَوي الذي ربّى جناحيَ وكرُهُ ... فها أنا ذا مالي جناحٌ ولا وكرُ
نَبَت بيَ لا عن جفوةٍ وملالة ... ولا نَسَخ الوصلَ الهنيء بها هجرُ
ولكنّها الدنيا قليلٌ مَتاعُها ... ولذّاتُها دأبًا تزور وتَزْوَرُّ
فمَن لي بنيل القربِ منها ودونَنا ... مدًى طالَ حتّى يومه عندنا شهرُ
ولله عينا مَنْ رآنا وللأسى ... ضرامٌ له في كلّ جانحة جَمرُ
بكَينا على النهرِ السرورَ عشيّةً ... فعاد أجاجًا[1] بعدنا ذلك النهرُ

ومنها:

زجرنا بابراهيمَ ملءَ هُمومِنا ... فلمّا رأينا وجهَهَ صدق الزجرُ
بمنتجب من آل يعقوبَ كلّما ... دجا الخطبُ لم يكذِبْ لِعَزْمَته فجرُ
أطاعتْهُ حتّى العُصْمُ[2] في قُنن[3] الربى ... وهشّت إلى تأميله الأنجُمُ الزُّهْرُ

ومنها:

قصدناك يا مولى الملوك على النوى ... لتنصفنا ممّا جنى عبدُك الدهرُ
وأنتَ الذي تُدعى إذا دهم الردى ... وأنتَ الذي تُرجى إذا أخلفَ القطرُ
وهذا ابن نصرٍ قد أتى وجناحُهُ ... كسيرٌ، ومن علياك يُلتمسُ النصرُ
غريبٌ يُرجّي منكَ ما أنتَ أهلُه ... فإن كنتَ تبغي الفخرَ قد جاءك الفخرُ
فعُدْ يا أميرَ المؤمنين لبيعةٍ ... موثّقةٍ قد حَلَّ عِقدتَها الغَدْرُ
أعِدْه إلى أوطانه عنكَ راضيًا ... وقلّدْهُ نُعماك التي ما لها حَصْرُ
وعاجِلْ قلوب الناسِ فيه بجبرِها ... فقد صدَّهم مِنَ التغلُّبُ والقهرُ
وهم يرقبون الفعلَ منكَ وصفقةً ... تحاولُها يمناك ما بعدها خُسْرُ

---

(١) الأجاج: المَلحُ المُرُّ من الماء.

(٢) ما امتنع على الطالب وبات منيعًا.

(٣) مفردها قُنّة: قِمّة الجبل.

وبقي ابن الأحمر محمَّد، ووزيره ابن الخطيب على الرحب والسعة والإجلال والكرامة، في حاضرة ابن مَرين إلى أن كان ارتجاع محمَّد مُلكه لسنة ٧٦٣.

ـ خبر لسان الدين بن الخطيب ووزير غرناطة

ولنذكر هنا قول الوزير ابن الخطيب عن هذه الحادثة في تأليفه المسمّى بـ"اللمحة البدرية بالدول النصرية"، وهو "إنَّه كان السلطان أبو عبد الله عند تصيُّر الأمر إليه، قد ألزم أخاه اسماعيل قصرًا من قصور أبيه بجوار داره، مرفَّهًا عليه، متمِّمةً وظائفه، وأسكن معه أمّه وأخواته منها، وقد استأثرت يوم وفاة والده بمالٍ جمٍّ، فوجدت به السبيل إلى السعي لولدها، فجعلت تواصل زيارة ابنتها، التي عقد لها الوالد مع ابن عمّه الرئيس أبي عبد الله ابن الرئيس أبي الوليد، ابن الرئيس أبي عبد الله، المُبايَع له بأندرش ابن الرئيس أبي سعيد جدّهم الذي تجمعهم جرثومته[1]، وشمَّر الصهر المذكور عن ساعد عزمه، وهو على ما هو عليه من الإقدام، ومُداخلة ذؤبان الرجال، واستعان بمَن أسفَّته الدولة، وهفت به الأطماع، فتألَّف منهم زهاء مائة قصدوا جهة من جهات القلعة متسنّمين[2] شفًا[3] صعب المرتقى، واتّخذوا آلة تدرك ذروته لقعود بنية كانت به، عن التمام، وكبسوا[4] حرسيًّا[5] بأعلاه بما اقتضى صماته[6]، ونزلوا إلى القلعة، سحر الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان، عام ستّين وسبعمائة، فاستظهروا بالمشاعل والصراخ، وعالجوا دار الحاجب رضوان، ففضّوا إغلاقها، ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده، وانتهبوا ما اشتملت عليه، وأسرعت طائفة مع الرئيس فاستخرجت الأمير المعتقل اسماعيل، وقُرِعَتْ الطبول ونودي بدعوته.

وقد كان أخوه السلطان متحوِّلاً إلى سكنى الجنّة، المنسوبة للعريف، لصق داره، فما راعه إلاّ النداء والعجيج وقرع الطبول، وهبّ إلى الدخول إلى القلعة، فألفاها قد أخذت دونه شعابها، ورشقته السهام فرجع، وسدَّده الله في محل الخَيْرة، ودسَّ له عِرْق الفحول

(١) أصل؛ والمقصود بها هنا الدم والأصل والعِرق.

(٢) تسنَّم الشيء: عَلاه.

(٣) حرف كلّ شيء وحدّه، وفي التنزيل الحكيم ﴿وكنتم على شفا حُفرة من النار﴾.

(٤) هَجَمَ ـ عامّية ـ

(٥) الحرسيّ: حارس السلطان خاصّة.

(٦) سكوته.

من قومه[1]، فامتطى صهوة فرس كان مرتبطًا عنده، وصبح مدينة وادي آش، وقد أعيا متبعه[2]، فلم يشعر حافظ قصبتها إلاّ وهو فيها، فأعطاه أهلها صفقتهم، وتجهّزت الحشود لمنازلته، وجدَّد أخوه المتغلِّب، عقد السلم مع طاغية قَشتالة، باحتياجه إلى سلم المسلمين، لجرّاء فِتنةٍ بينه وبين البرجلونيين.

واغتبط به أهل المدينة فذبّوا عنه[3]، ورضوا بهلاك نعمتهم دونه، واستمرّت الحال إلى يوم عيد النحر من عام التاريخ، ووصله رسول صاحب المغرب، مستنزلاً عنها، ومستدعيًا إلى حضرته، لما عجز عن إمساكها، وراسل ملك الروم فلم يجد عنده من مُعَوَّل، فانصرف ثاني النحر، وتبعه جمع وافر إلى مَرْبَلَّة من ساحل إجازته، وكان وصوله إلى مدينة فاس مصحوبًا من البرِّ والكرامة بما لا مزيد عليه، في السادس من المحرّم فاتح عام ٧٦١، وركب السلطان للقائه، ونزل إليه عندما سلّم عليه، وكنت قد لحقت به مفلتًا من شرك النكبة التي استأصلت المال، وأوهمت سوء الحال، بشفاعة السلطان أبي سالم، فقمت بين يديه منشدًا في المحفل المذكور (وذكر القصيدة الرائية حتّى أتى على آخرها ثمَّ قال): وفي صبيحة يوم السبت، السابع عشر من شوّال عام اثنين وستّين وسبعمائة، كان انصرافه إلى الأندلس، وقد ألحّ صاحب قَشتالة في طلبه، فعقد السلطان بقُبّة العرض من جنّة المصارة، وبرز الناس، واستُحضرت البنود والطبول والآلة، وأُلبس خلعة الملك وقُيِّدت له مراكبه، فاستقلّ، وقد التفّ عليه كلّ مَن جلا عن الأندلس من لَدُن الكائنة[4]، ورأى من رقّة الناس وإجهاشهم وعلوّ أصواتهم بالدعاء ما قدّم به العهد، إذ كان مظنّة[5] ذلك سكونًا وعفافًا وقربًا، قد ظلَّله الله برُواق الرحمة، وعطف عليه وشائج المحبّة، إلى كونه مظلوم العقد، منتزَع الحقّ، فتبعته الخواطر، وحميت عليه الأنفس، وانصرف لوجهته، وهو الآن برُندة، مستقلّ بها وبجهاتها، ومقتنع برسم سلطنتها، وقد قام له برسم الوزارة، الشيخ القائد علي بن يوسف بن كُماشة الحَضْرمي، وبكتابة الفقيه أبو عبد الله بن زَمْرك (تلميذ ابن الخطيب صاحب هذا القول)، وقد استفاض عنه من الحزم والتدرّب والتيقّظ والمعرفة بوجوه المصالح، ما لا ينكر » انتهى ببعض تصرّف.

---

(١) أراد بها ـ هنا ـ خصّه بقوم اتصلت بهم بطولة أجدادهم.

(٢) لاحقه.

(٣) دافعوا عنه.

(٤) كلّ من جَلا من بَشَر.

(٥) مَعْلَم، وقصد بها: علامة ذلك.

ثمَّ استرجع السلطان المذكور حاضرة مُلكه حمراء غَرناطة، وقتل له ملك قَشتالة، المنتزي على مُلكه من أبناء عمّه، وقد استوفى القصّة، كتاب من إنشاء الوزير لسان الدين بن الخطيب، عن سلطانه الغني بالله محمَّد المذكور، إلى الملك المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون، نقتطف منه بعض ما يناسب المقام، لصدوره عن شاهد للحوادث بجملتها، وواقف على دخيلتها(١)، وشريك في أسبابها، وبحر(٢) في معرفة أنسابها وهو قوله: "إنَّ بعضًا ممَّن ينسب إلينا بوشائج الأعراق، لا بمكارم الأخلاق، ويمتُّ إلينا بالقرابة البعيدة، لا بالنصبة السعيدة، ممَّن كفلناه يتيمًا، وصنّاه ذميمًا شتيمًا، وبوَّأناه مُبوّأً كريمًا، بعد أن نشأ حرفوشًا دميمًا، وملعونًا لئيمًا، ونوّهناه من خموله بالولاية، ونسخنا حكم نسجه بآية العناية، داخل أخًا لنا كنّا ألزمناه الاقتصار على قصره، ولم نجعل أداة تدلّ عل حصره، وسامحناه في كثير من أمره، ولم نرتّب بزَيْده ولا عَمْره، واغتررنا برماد علا على جمره، فاستدعى له من الصعاليك شيعة من كلّ درب بفكّ الأغلاق، وتسرّب أنفاق النفاق، وخارق للإجماع والإصفاق(٣)، وخبير بمكان الخراب ومذاهب الفسّاق(٤)، وتسوَّر بهم القلعة من ثلم شرع في سدِّه، بعد هدِّه ولم تكمل الأقدار المميّزة في ليلة آثرنا بيتنا ببعض البساتين خارج قصورنا، واستنبنا مَن يضلع بأمورنا، فاستتمّ الحيلة التي شرعها، واقتحم القلعة وافترعها، وجدَّل حرس النوبة وصَرَعها، وكبس محلّ النائب عنّا وجدَّ له(٥)، ولم ينشب أن جدله، واستخرج الأخ البائس فنصبه، وشدّ به تاج الولاية وعصبه، وابتزّ أمرنا وغصبه، وتوهَّم الناس أنَّ الحادثة على ذاتنا قد تمّت، والدائرة بنا قد ألمّت، ولقد همّت، فخذل الناصر، وانقطعت الأواصر، وأقدم المُتقاصر، واقتُحمت الأبهاء والمقاصر، وتفرّقت الأجزاء وتحلَّلت العناصر، وفُقِد من عين الأعيان النور الباصر، فأعطوه طاعة معروفة، وأصبحت الوجوه إليه مصروفة، وركضنا، وسرعان الخيل تقفو أثر منجاتنا والظلام يخفيها، وتكفي علينا السماء والله يكفيها، إلى أن خلصنا إلى مدينة وادي آش خلوص القمر من السرار، لا نملك إلاّ نفسًا مسلِّمة لحكم الأقدار".

إلى أن يقول: "ولم ينشب الشقيّ الخزيّ أن قتل البائس الذي موَّه بزيفه، وطوَّقه

---

(١) عارفًا بما فيها.

(٢) مُتعمِّق.

(٣) الإطباق بمعنى الاتفاق على أمر واحد.

(٤) الفجور والخروج عن الحقّ.

(٥) صَلَبه وصَرَعَهُ.

بسيفه، ودلَّ ركب المخافة على خيفة إذ أمن المضعوف من كيده، وجعل ضِرغامه بازيًّا لصيده، واستقلّ على أريكته، استقلال الظليم على تريكته[١]، حاسر الهامة، متنفِّقًا[٢] بالشجاعة والشهامة".

إلى أن يقول: "وطلعت شمس دعوتنا من المغرب، فقامت عليها الساعة، وركبنا البحر تكاد جهتاه تتقارب تيسيرًا، ورياحه لا تعرف غير وجهتنا مسيرًا، وأخذت الخائن الصيحة فاختبل[٣]، وظهر تهوّره الذي عليه جُبِل، فجمَع أوباشه السفلة وأوشابه[٤]، وبَهْرَجه[٥] الذي غشّ به المحض وشابه، وعمد إلى الذخيرة التي صانتها الأغلاق الحريزة، والمعاقل العزيزة، فملأ بها المناطق، واستوعب الصامت والناطق، والوُشُح القُراطق[٦]، واحتمل عدد الحرب والزينة، وخرج ليلاً عن المدينة، واقتضت آراؤه الفائلة، ونعامته الشائلة، ودولة بغيه الزائلة، أن يقصد طاغية الروم من غير عهد اقتضى وثيقته، ولا أمر عرف حقيقته، إلاّ ما أمل اشتراطه من تبديل الكلمة، واستئصال الأمّة المسلمة، فلم يكن إلاّ أن تحصَّل في قبضته، ودنا من مضجع ربضته، واستشار نصحاءه في أمره، وحكّم الحيلة في جناية غدره، وشهره ببلده، وتولّى قتله بيده، وألحق به جميع مَن أمدّه في غيّه، وظاهره على سوء سعْيه، وبعث إلينا برؤوسهم، فنُصبت بمسور غدرها، وقلّدت لبّة[٧] تلك البُنَيّة بشذرها[٨]" إلى آخر ما قال.

وفي هذه الواقعة، نَظَم لسان الدين قصيدته اللاميّة المشهورة، ووجَّه بها، إلى سلطانه المذكور، فيقال إنَّه لشدّة إعجابه بها أمر بكتابتها على جدران الحمراء ومطلعها:

الحقُّ يعلو والأباطلُ تسفلُ ... والحقُّ عن أحكامه لا يسألُ
وإذا استحالتْ حالةٌ وتبدَّلتْ ... فالله عزَّ وجلَّ لا يتبدَّلُ
واليُسْرُ بعد العسر موعودٌ به ... والصبرُ بالفرج القريبِ موكَّلُ
أمحمَّدٌ والحمد منك سجيّةٌ ... بحُلِيِّها دون الورى تتجمَّلُ

---

(١) امرأة تُترك لا تتزوّج.
(٢) تنفّق بالشيء، ادّعاه وتظاهر به.
(٣) جُنّ.
(٤) أخلاط متفرّقة.
(٥) الباطل والرديء.
(٦) من جموع وشاح، وهنا، الثوب المطرّز بالجواهر، والقَراطق، جمع قُرطَق: لفظٌ فارسي مُعَرّب: ثوبٌ ذو طاق واحد، يُلبَسُ فوق الثياب.
(٧) أسفل العُنق.
(٨) اللؤلؤ والجواهر الصغار.

أمّا سعودُك فهو دون مُنازعٍ ... عقدٌ بأحكامِ القضاءِ مُسجَّلُ

ومنها:

عوِّذ كمالَكَ ما استطعْتَ فإنَّهُ ... قد تنقُصُ الأشياءُ مِمّا تَكْمُلُ
تابَ الزمانُ إليكَ ممّا قد جنى ... والله يأمُرُ بالمتابِ ويَقْبَلُ
إن كان ماضٍ من زمانك قد مضى ... بإساءةٍ قد سرَّكَ المستقبَلُ
هذا بذاك فشفِّعِ الجاني الذي ... أرضاكَ في ما قد جناهُ الأوَّلُ
و الله قد وَلاّك أمرَ عِبادِهِ ... لَمّا ارْتَضاكَ ولايةً لا تُعزَلُ
وإذا تغمَّدك الإلهُ بنصرِه ... وقضى لكَ الحُسنَى فَمَنْ ذا يخذلُ
وظعنت[1] عن أوطانِ مُلْكِكَ راكبًا ... مَتْنَ العُبابِ فأيُّ صبرٍ يَجْمُلُ
والبحرُ قد حُنِيتْ علَيْك ضُلوعُهُ ... والريحُ تَقْطَعُ للزفيرِ وتَرْسِلُ
وللكَ الجواري المنشآت وقد اغتدَتْ ... تختالُ في بُرْدِ الشبابِ وتَرْفُلُ
جوفاءُ يحمِلُها وَمَنْ حملتْ بهِ ... مَنْ يَعلَمِ الأنثى وماذا تَحْمِلُ؟

ومنها:

صَبَحَتْهُمُ غُرَرُ الجيادِ كأنّما ... سَدَّ الثَّنِيَّةَ[2] عارضٌ مُتَهلِّلُ
من كلِّ منجردٍ أغرَّ مُحَجَّلٍ[3] ... يرمي الجِلادَ[4] بهِ أغرُّ محجَّلُ
زَجِلُ الجناحِ إذا أجَدَّ لغايةٍ ... وإذا تَغَنّى للصهيلِ فَبُلْبُلُ

ومنها:

وبكلِّ أزرقَ إن شَكَتْ ألحاظُهُ ... مَرَهَ[5] العيون فبالعَجاجةِ يُكْحَلُ
متأوِّدٌ أعطافُهُ في نَشْوةٍ ... ممّا يعلُّ[6] من الدماءِ وينهَلُ

---

(١) ارتحلت.

(٢) العَقَبَة أو طريقها، والجبل.

(٣) كناية عن الخَيل.

(٤) الشدّة والصبر (قاله الكِسائي).

(٥) مَرِهَ (مَرِهت ـ مَرَهًا) عينه: فسدت وابيضّت بواطن أجفانه لترك الكحل.

(٦) علّ يعِلُّ ويعُلُّ: شرب ثانية أو تباعًا.

عجبًا لـه إنَّ النجيـعَ بطرَفـِهِ　　رمدٌ ولا يـخفـى عليه مقتـلُ

ومنها:

لـلَّهِ موقـفُكَ الـذي وثـبَـاتُـهُ　　وثـبـاتـهُ مَـثَـلٌ بـه يُـتَـمَـثَّـلُ
والخيلُ خطٌّ والمجال صحيفةٌ　　والسمرُ تَنقُطُ والأسِنَّةُ تشْكُلُ
والبِيْضُ قد كُسِرتَ حروفُ جُفونِها　　وعواملُ الأسَلِ[1] المثقَّفِ تُعمَلُ
لـلَّهِ قومُكَ عندَ مُشتَجَرِ القنـا　　إذْ ثوَّبَ الداعي[2] المهيبُ وأقبلوا
قُرُمٌ إذا لَفَحَ الهَجيرُ وجوهَهُـمَ　　حُجِبوا براياتِ الجهـادِ وظُلِّلـوا

وقد كافأ محمَّد الخامس ملك قَشتالة على غدره بخصمه ابن عمّه، بمضافرته إيَّاه على أخيه، المنتزي عليه أيضًا، ولكن دارت الدائرة أخيرًا على الملك، وتمكَّن أخوه من قتله، وفي خلال هذه الفتنة بقيت ثغورهم ممّا يلي أرض المسلمين عورة، وتشوَّف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة، وكان صاحب المغرب في شغل عن ذلك بانتقاض ابن أخيه، وعامر بن محمَّد، فراسل صاحب الأندلس على أن يزحف بعساكره، على أنَّ عليه الإمداد بالمال والأساطيل، فزحف ابن الأحمر بعساكره المسلمين، وأقلعت أساطيل صاحب المغرب من مرسى سبتة، وأحيط بالجزيرة، وضُيِّق على حاميتها، ويئسوا من المدد فنزلوا عنها بالأمان، ودخلها المسلمون وذلك سنة ٧٧٠. وبعد ذلك رأى المسلمون هدمها، خشية ارتجاع الإسبانيول لها كما هدم صلاح الدين الأيّوبي عسقلان لمثل هذه الغاية، فهدمت في سنة ٧٨٠، وأصبحت خاوية على عُروشها.

واستمرّت أحوال غَرناطة في مدّة الغني بالله محمَّد الخامس على ما كانت عليه من الغبطة والسعادة، وأومضت تلك الدول إيماض الخمود، إذ لم تقم لها بعد هذا السلطان قائمة تُشكَر، إلى أن قُبِضَ[3] في عام ٧٩٨. وقام بالأمر بعده ابنه أبو عبد الله يوسف، والسلطان محمَّد هذا هو الذي استوزر لسان الدين بن الخطيب، أشهر وزراء الأندلس على الإطلاق، بل من أشهر رجال الأدب والسياسة في الآفاق، الذي بنى المقريُّ أكثر "نفح الطيب" على سيرته وأخباره ونَثْره ونَظْمه وأشياخه وتلامذته، بما لا أظنّه جُمِعَ عن أحد

---

(١) الرماح.
(٢) لوَّح بثوبه ليُرى.
(٣) تُوفِّي.

مثله، وحيث كان المقام تاريخ غَرناطة في هذا الكتاب، وكان الوزير المذكور، مفخر ذلك البلد، وواسطة عِقد ذلك الصقع، فلا بأس في إيراد زبدة خَبره، بما أمكنَ من الإيجاز:

- زُبدة ترجمة لسان الدين الخطيب

ترجمه سليلُ السلطان الأمير العلاّمة أبو الوليد اسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بأمر الله محمَّد بن الأحمر، نزيل فاس في كتابه المسمّى « فرائد الجمان فيمَن نظمني وإيّاه الزمان » فقال: « ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمَّد بن الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببلدة لَوْشَة عبد الله بن الفقيه الكاتب سعيد بن عبد الله بن الفقيه الصالح وليّ الله الخطيب سعيد السلماني اللوشي المعروف بأبن الخطيب ».

وقال في منشأه: « نشأ على حالة حسنة، سالكًا سبيل أسلافه، فقرأ القرآن على المكتب الصالح أبي عبد الله بن عبد المولى العوّاد تكتُّبًا[1]، ثمَّ حفظًا ثمَّ تجويدًا، ثمَّ قرأ القرآن أيضًا على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي، وقرأ عليه العربية، وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جزي، ولازم قراءة العربية والفقه على الشيخ الإمام ابن الفخار البيري، وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر، وتأدّب بالرئيس أبي الحسن بن الجيّاب »، إلى آخر مَن ذكر من أشياخ الرجل الأعلام. ثمَّ ذكر أخذه الطبّ وصناعة التعديل، عن الإمام يحيى بن هُذَيل حكيم وقته.

وقال ابن خلدون، بنسقه المعروف، في شأن لسان الدين وكان معاصره وصاحبه[2]:

---

(١) خطّه بيده.

ترجمة ابن خلدون:

(٢) كما ترجم ابن خلدون لسان الدين ترجمة لسان الدين في "الإحاطة بأخبار غرناطة" بما نصّه "عبد الرحمن بن محمَّد بن محمَّد بن الحسن بن محمَّد بن جابر بن محمَّد بن ابراهيم بن محمَّد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي من ذرّية عثمان لَخي كريب المذكور في نبهاء ثوّار الأندلس، ويُنسَب سلفهم إلى وائل بن حجر، وحاله في القدوم على رسول الله (ﷺ)، معروفة انتقل سلفه من مدينة أشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك، فاستقرّ بتونس منهم ثاني المحمَّدين محمَّد بن الحسن وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة، وتصرّف جدّ المترجم به في القيادة، وأمّا المترجم به فهو رجل فاضل، حسن الخلق جمّ الفضائل، باهر الخصال رفيع القدر، ظاهر الحياء أصيل المجد، وقور المجلس خاصّيّ الزيّ عالي الهمّة، عزوف عن الضيم صعب المقادة، قويّ الجأش طامح لقنن الرئاسة خاطب للحظّ، بارع الخطّ مغرى بالتجلة، جوّاد حسن العشرة، مبذول المشاركة مقيم لرسم التعين، عاكف على رعي خلال الأصالة، مفخر من مفاخر التخوم المغربية. قرأ القرآن ببلده على المكتب ابن برال، والعربية على المقري الزواوي وغيره، وتأدّب بأبيه، وأخذ عن المحدث أبي عبد الله بن جابر الوادي آشي، وحضر مجلس القاضي أبي عبد الله بن عبد السلام، وروى عن الحافظ أبي عبد الله السطي، والرئيس أبي محمَّد عبد المهيمن الحضرمي، ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الإبلي وانتفع به. =

« أصل هذا الرجل من لَوْشَة، على مرحلة من غَرناطة، في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمّى بالمرج، على وادي سنجيل ويقال شنيل، المنحرف فيه ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال، كان له بها سلف معروفون بوزارتها، وانتقل أبو عبد الله إلى غَرناطة واستُخدم لملوك بني الأحمر، واستُعمل على مخازن الطعام. ونشأ ابنه محمَّد هذا بغَرناطة، وقرأ وتأدَّب على مشيختها. واختصّ بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هُذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطبّ، وانتحل الأدب، وأخذ عن أشياخه، وامتلأ حوضُ السلطانِ من نَظمه ونثره، مع انتقاء الجيد منه، وبلغ في الشعر والترسيل حيث لا يُجارى فيهما، وامتدح السلطان أبا الحجّاج من ملوك بني الأحمر، وملأ الدولة بمدائحه، وانتشرت في الآفاق. فرقّاه السلطان إلى خدمته، وأثبته في ديوان الكتّاب ببابه مرؤوسًا بأبي الحسن بن الجيّاب، شيخ العُدوَتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية، إلى أن هَلَكَ في الطاعون الجارفِ، سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فولّى السلطان أبو الحجّاج يومئذٍ محمَّد بن الخطيب

= انصرف من أفريقية منشأه بعد أن تعلّق بالخدمة السلطانية على الحداثة وإقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، وعرف فضله وخطبه السلطان منفق سوق العلم والأدب أبو عنان فارس بن علي بن عثمان، واستحضره بمجلس المذاكرة، فعرف حقّه، وأوجب فضله، واستعمله على الكتابة أوائل عام ستّة وخمسين. ثمّ عظم عليه حمل الخاصّة من طلبة الحضرة لبعده عن حسن التأنّي. وشفوفه بتحوب الفهم وجود الإدراك. فأغرّوا به السلطان إغراء عضده ما جبل عليه عهدئذٍ من إغفال التحفّظ ممّا يريب لديه فأصابته شدّة".

إلى أن يقول: "ودالت الدولة إلى السلطان أبي سالم، وكان له به الاتّصال قبل تسوّغ المحنة بما أكّد حظوته، فقلّده ديوان الإنشاء مطلق الجرايات محرّر السهام نبيه الرتبة إلى آخر أيامه، ولمّا ألقت للدولة مقادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد الله مدبّر الأمر، وله إليه وسيلة، وفي حليه شركة، وعنده حقّ، رابه تقصيره عمّا ارتمى إليه أمله، فساء ما بينهما بما آل انفصاله عن الباب المريني. وورد على الأندلس في أول ربيع الأول عام أربعة وستّين وسبعمائة، واهتزّ له السلطان، وأركب خاصّته لتلقيه، وأكرم وفادته، وخلع عليه، وأجلسه بمجلسه، ولم يدّخر عنه برًّا ومواكلة ومراكبة ومطايبة وفكاهة (قال) وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجاهة والحظوة، قد استعمل في السفارة إلى ملك قشتالة، فراقه وعرف حقّه، مولده بتونس بلده في شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة".

ووصفه في الكتابة فقال: "وأمّا نثره وسلطانيّاته السجعيّة فخلج بلاغة ورياض فنون ومعادن إبداع، يفرع منها يراعه الجري، شبيهة الندامات بالخواتم في نداوة الحروف، وقرب العهد بحريّة المداد، ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع. وأمّا نظمه فنهض لهذا العهد قدمًا في ميدان الشعر، ونقده باعتبار أساليبه، فانثال عليه جوُّهُ وهان عليه صعبه". إلخ...

وإنّما قال لهذا العهد لأنّ ابن خلدون في البداية كان يستصعب النظم، وينسب ذلك لكثرة ما يحفظ من المتون وكتب الأصول. وقد ذكر في مقدّمته إنّه ذاكر في ذلك صاحبه الوزير ابن الخطيب، وشكا إليه ضعف ملَكته في النظم، بما ظنَّ من السبب، فأجابه و: "لله أنتَ وهل يقول هذا إلاّ مثلك"...

هذا وقد ذكر ابن خلدون في تعريفه بنفسه آخر التاريخ أنه في آخر مقامه بغرناطة اشتمّ من الوزير ابن الخطيب رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة. فاستأذن السلطان ابن الأحمر في الارتحال، وعمى عليه ذلك الشأن إبقاءً للمودّة، وارتحل مكرّمًا، ولقد صحّ بذلك ما قاله ابن الخطيب في حقّه من أنه صعب المقادة عزوف عن الضيم، إلخ... رحم الله الاثنين فقد كان كلٌّ خبيرًا بصاحبه.

هذا، رئاسة الكتّاب ببابه، وثنّاه بالوزارة ولقّبه بها، فاستقلّ بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العُدْوة، ثمَّ داخله السلطان في تولية العمّال على يدَيه بالمشارطات، فجمع بها أموالا، وبلغ به المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد من قبله" (إلى أن قال):

"ثمَّ هَلَكَ السلطان أبو الحجّاج سنة خمس وخمسين؛ عدا عليه بعض الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة وطعنه، فأثواه لوقته، وتعاورت سيوف الموالي المعلوجي [1] هذا القاتل، فمزّقوه أشلاء، وبويع ابنه محمَّد بالأمر لوقته، وقام بأمره مولاهم رضوان، الراسخ القدم في قيادة عساكرهم، وكفالة الأصاغر من ملوكهم، واستبدّ بالدولة، وأفرد ابن الخطيب بوزارته، كما كان لأبيه، واتّخذ لكتابته غيره، وجعل ابن الخطيب رديفًا له في أمره، وتشاركا في الاستبداد معًا، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوَم طريقة، ثمَّ بعثوا الوزير بن الخطيب سفيرًا إلى السلطان أبي عنان، مستمدّين له على عدوّهم الطاغية، على عادتهم مع سَلَفه، فلمّا قدم على السلطان، ومثل بين يدَيه، تقدّم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها، واستأذنه في إنشاد شيء من الشعر، يقدّمه بين يديّ نجواه، فأذن له وأنشد وهو قائم:

خليفة الله ساعدَ القدَرُ ... عُلاكَ ما لاحَ في الدُّجى قَمَرُ
ودافعتْ عنك كفُّ قدرتهِ ... ما ليسَ يَسْطيعُ دَفْعَهُ البشرُ
وجهُك في النائبات بدرُ دجى ... لنا وفي المحل كفُّكَ المطرُ
والناسُ طُرًّا بأرضِ أندلسٍ ... لولاك ما أوْطَنوا ولا عَمَروا
ومن بهِ مُذْ وصَلْتَ حبلَهمُ ... ما جَحَدوا نعمةً ولا كفروا
وقدْ أهَمَّتْهُمْ نفوسُهُمُ ... فَوَجَّهُوني إليكَ وانتظَرُوا

فاهتزَّ السلطان لهذه الأبيات، وأذن له في الجلوس، وقال له قبل أن يجلس: "ما ترجع إليهم إلاّ بجميع عطائهم" ثمَّ أثقل كاهلهم بالإحسان، وردّهم بجميع ما طلبوه، ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين، ثمَّ نازلهم محمَّد الرئيس ابن عمّ السلطان". وذكر القصّة السالفة من إجازة ابن الأحمر، ووزيره ابن الخطيب إلى المغرب إلى أن قال:

(١) يجمع علج على علوج وإعلاج ومعلوجي والظاهر أنَّ الأخير مختار أهل المغرب لتداوله في كتاباتهم.

"واستأذن أي ابن الخطيب في التحوّل إلى جهات مراكش، والوقوف على آثار الملك بها، فأذن له وكتب إلى العمّال بإتحافه، فتبادروا في ذلك، وحصل منه على حظّ، وعندما مرّ (بسلا) عند قفوله من سفره، دخل مقبرة الملوك بشالة، ووقف على قبر السلطان أبي الحسن، وأنشد قصيدته على رويّ الراء الموصولة يرثيه، ويستثير به إلى استرجاع ضياعه بغَرناطة مطلعها:

إن بان منزله وشطَّتْ[1] دارُهُ — قامت مقامَ عِيانِهِ أخبارُهُ
قَسّمْ زَمانَكَ عَبْرةً أو عِبرةً — هذا ثراهُ وهذه آثارُهُ"

إلى آخر ما ذكر من ترجمته.

ولا بأس في نقل شيء ممّا ترجم به ابن الخطيب نفسه، نرويه ببعض تصرّف حبًّا بالاختصار قال: "محمَّد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، قرطبيُّ الأصل ثمَّ طُليطُليّه، ثمَّ لوشِيّه، ثمَّ غَرناطيّة، يكنّى أبا عبد الله، ويلقَّب من الألقاب المشرقيّة، لسان الدين، انتقلوا مع أعلام الجالية القُرْطُبية كيحيى بن يحيى الليثي في واقعة الربض[2] الشهيرة إلى طُلَيْطُلة، ثمَّ تسرّبوا مُحَوَّمين إلى وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليه، فاستقرّ منهم بالموسّطة الأندلسيّة جملة من النبهاء، كعبد الرحمن قاضي كورة باغة، وسعيد المستوطن بلَوْشه، وكان سعيد هذا من أهل العلم والدين، وخلفه ولده عبد الله سالكًا مسلك أبيه في التزيّي بالانقباض والتحلّي بالنزاهة، وخلفه ولده سعيد جدّنا الأقرب، وكان صدرًا خيِّرًا مستوليًا على خِلال حميدة، من خطّ وتلاوة وفقه وحساب وأدب، تحوّل إلى غَرناطة عند ثورة جيرته بني الطنجالي الهاشميين، وصاهر بها الأعيان من بني أضحى بن عبد اللطيف الهمذاني أشراف جند حمص، الداخلين إلى الجزيرة في طلعة بلج بن بشر القُشَيْري، توفّي سنة ثلاث وثمانين وستّمائة. وتخلّف والدي نابتًا في الترف، نبت العلّيق، يكنفه رعيُ أُم تجرُّ ذيل نِعمة، وتحنو منه على واحد تحذر عليه النسيم إذا سرى، ففاته لترفه حظٌّ كبير من الاجتهاد، وعلى ذلك فقرأ على بعض الجلّة[3]، وانتقل إلى لَوْشَة بلد سلفه، مخصوصًا

---

(١) بَعُدَ.

(٢) ملخّص هذه الواقعة أنَّ أهل ربض قرطبة ثاروا على الحكم الأموي، وفيهم علماء أكابر مثل يحيى بن يحيى الليثي وغيرهم فهزمهم الحكم، وقتل مَن قتله منهم، وأجلى الباقين إلى الإسكندرية، فلم يَئُل الأمر أن حصلت فتنة أجلتهم إلى أقريطش ـ أو كريد ـ في الأيام فعمّروها، واختطّوا بها مدينة قنديا التي يقال إنَّ اسمها بالعربي الخندق لكونهم أداروا عليها خندقًا، وكانت لهم بها إمارة استمرّت نحو سبعين سنة. ثمَّ رجعت الجزيرة للروم في ذلك الوقت.

(٣) سادة عِظام ذَوو جَلال.

بلقب الوزارة، إلى أن قصدها أبو الوليد متخطّيًا إلى الحضرة[1]، فعضد أمره وأدخله بلده لدواعٍ يطول استقصاؤها. ولمَّا تمَّ له الأمر صحب ركابه إلى دار مُلكه، مستأثرًا بشِقْص[2] عريضٍ من دنياه، وكان من رجال الكمال طلق الوجه، وتضمّن كتاب المحلّى والإحاطة، رائقًا من شعره، وفُقِدَ في الكائنة العظمى، بطريف، يوم الاثنين، سابع جَمادى الأولى، سنة واحد وأربعين وسبعمائة، ثابت الجأش غير جزوع ولا هيّابة.

حدّثني الخطيب أبو عبد الله بن اللوشي قال: "كبا بأخيك الطرْف[3]، وقد غَشِيَ[4] العدوّ، وجنحت إلى أردافه،[5] فانحدر إليه والدك وصرفني وقال: (أنا أَوْلى به فكان آخر العهد بهما)" قال: "وخلّفني - أي عبد الله - عالي الدرجة، شهير الخِطّة، مشمولاً بالقبول، فقلّدني السلطان سرّه ولما يُستكمل الشباب، معزّزة بالقيادة، ورسوم الوزارة، واستعملني في السفارة إلى الملوك، واستنابني بدار مُلكه، ورمى إلى يدَي بخاتمه وسيفه، وائتمنني على صوان حضرته، وبيت ماله، وسجوف[6] حَرَمِه، ومعقِل امتناعه. ولمَّا هلك السلطان ضاعف ولدُه حظوتي، وقصر المشورة على نُصحي، إلى أن كانت عليه الكائنة، فاقتدى فيّ أخوه المتغلّب على الأمر به، فسجّل الاختصاص وعقد القِلادة.

ثمَّ حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته، على القبض عليَّ فَتُقُبِّضَ عليَّ، ونُكث ما أُبرم من أماني، واعتُقلت بحال ترفيه. وبعد أن كُبست المنازل والدُّور، واستُكثر من الحرس، وخُتم على الأعلاق، واستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر، في تبحّر الغلّة وفراهة الحيوان وغِبطة العقار واستجادة العُدّة ووفور الكتب،... إلخ. فأخذ ذلك البيع، وتناهبتها الأسواق، وصاحبها البَخْس وشمل الخاصّة والأقارب الطلب، واستخلصت القرى، وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى، وطبقت نكبة مصحفيّة مطلوبها الذات وسببها المال حسبما قلت:

تخلّصت منها نكبة مصحفيّة   لفقداني المنصور من آل عامر

(يشير إلى نكبة المصحفي أيام المنصور بن أبي عامر) ووصلت الشفاعة فيَّ، مُكْتَتبة

---

(١) غَرناطة.

(٢) نصيب.

(٣) أخذَه النعاس.

(٤) أتى.

(٥) ملْتُ إلى اتباعه.

(٦) مفردها سِجاف: السِّتر.

بخطِّ ملك المغرب، وجعل خلاصي شرطًا في حلِّ العُقدة، ومسالمة الدولة، فانتقلت صُحبة سلطاني المكفور الحقِّ إلى المغرب، وبالغ ملكُه في برِّي، منزلاً رحبًا، وعيشًا خفضًا، وإقطاعًا جمًّا، وجراية ما وراءها مرمى، ثمَّ أسعف قصدي في تهيُّؤ الخلوة، بمدينة سلا: مُنوَّه الصكوك، مهنّأ القرار، متفقّدًا باللهى، موفور الحاشية، مُخْلًى بيني وبين إصلاح مَعادي، إلى أن ردّ الله تعالى على السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله (محمَّد الخامس) ابن أمير المسلمين أبي الحجّاج مُلْكَه، فطالبني بوعد ضربتُه؛ ولم يوسعني عذرًا، ولا فسح في الترك مجالاً. فقدِمْتُ عليه بولده على حال مِن التقشّف والزهد في ما بيده، فرمى إليّ بمقاليد رأيه، وغطّى من جفاء لي بحلمه، وحَثَا[1] في وجوه شهواته تراب زَجْري، وصرف هواي في التحوُّل ثانيًا، فاستعنت الله تعالى وعاملت وجهه فيه، من غير تلبُّس بجراية[2]، ولا تشبّث بولاية، مقتصرًا على الكفاية، خامل المركب، هاجر الزخرف، صادعًا بالحقّ في أسواق الباطل، كافًّا عن السخال[3] براثن[4] السباع... إلخ» انتهى.

وبقي ابن الخطيب في وزارة أبي عبد الله محمَّد، إلى أن غصّت بأمره حاشية السلطان، فدبَّت في حقّه عقارب السعاية[5]، وتوهَّم ابن الخطيب، مَيْل سلطانه إلى قَبولها، فأجمع التحوّل عن الأندلس إلى المغرب، واستأذن مولاه في تفقّد الثغور الغربية، وسار إليها في لمَّة من فرسانه، ومعه ابنه علي، فلمّا حاذى جبل طارق مال إليه، ومنه أجاز إلى سبتة ومنها قصد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المَريني، وكان مكينًا لديه لسابق عهد، فأنزله خيرَ نزل؛ وبعث كاتبه أبا يحيى ابن أبي مَدين سفيرًا إلى الأندلس في طلب أهله وولده، فجاء بهم على أكمل الحالات. فلمّا خلا الجوّ لأعدائه أخذوا تتبُّع سقطاته وإغراء سلطانه محمَّد به؛ ورموه بالزندقة، ونسبوا إليه في ذلك كلمات، رُفِعَت إلى قاضي غَرناطة أبي الحسن ابنِ الحسن فسجّلها عليه، وبعثه ابن الأحمر إلى سلطان المغرب يطلب الانتقام منه بتلك الكلمات. فأبى ذلك عبد العزيز أنفة لذِمَّته أن تُخْفر، ونَزْلِه[6] أن يُهان وقال: «هلاّ انتقمتم منه وهو عندكم، وأنتم عالمون بما كان عليه؟!».

(١) قبضه ورماه.

(٢) وظيفة جارية.

(٣) مفردها سخلة: ولد الشاة.

(٤) مَخالب.

(٥) النميمة والوشاية.

(٦) ضيفِهِ.

ولبث في جوار عبد العزيز إلى أن توفّي سنة ٧٧٤. ورجع بنو مَرين من تِلِمْسان إلى فاس، فصحب لسان الدين الوزير أبا بكر بن غازي، القائم بالدولة يومئذٍ. فأرسل ابن الأحمر يطلب من ابن غازي إسلام ابن الخطيب، فأبى واستنكف. وكان ابن الأحمر قد أعان أحمد بن سالم المَريني على سَلطنة المغربُ، وأمدَّه. وبويع هذا، وجرت بينه وبين ابن غازي حروب، انتهت بانهزام ابن غازي وخضوعه، واستلم ابن الأحمر طعمة(١) على ذلك جبل الفتح، وإلى ذلك يشير الأمير الفاضل الرئيس أبو الوليد بن الأحمر بقوله: "حتَّى خيَّم مولانا جدُّنا، بظاهرِ جبل الفتح، وكان إذ ذاك راجعًا إلى إيالة المغرب فأناخ عليه كَلْكَلَ(٢) الجيش، وأهمّهم ثقل الوطأة، ولم يُبال مولانا جدُّنا بما أرسلت آناء الليل وأطراف النهار، من شآبيب الأنفاط(٣)، ولم يبقَ بغَرناطة مَن له خلوص، ولا مَن تترامى به هِمّة، إلاّ وأعمل السير الحثيث، ولَحِقَ بمولانا جدِّنا لحاق المحبّ بالحبيب" ... إلخ.

وقال ابن خلدون: "إنَّ ابن الأحمر يومئذٍ محا دولة بني مَرين من وراء البحر، وكان من جُملة شروط ابن الأحمر على السلطان أبي العبّاس أحمد بن أبي سالم، عدا جبل الفتح، تسليم لسان الدين بن الخطيب لما كان موغَرًا صدرُه منه، ولا سيَّما بعد أن بلغه أنه كان يُغري عبد العزيز بافتتاح الأندلس. فلمّا استولى السلطان أبو العبّاس أحمد، قبض على ابن الخطيب وكان سليمان بن داود شديد العداوة للسان الدين، لمنعه ابن الأحمر أيام وزارته، من تقليده مشيخة الغَزاة بالأندلس. فلمّا قبض عليه، طار الخبر إلى سلطان غَرناطة فأرسل وزيره، بعد ابن الخطيب، أبا عبد الله ابن زمرك، وهو تلميذ لسان الدين وخرّيجه، فأحضر ابن الخطيب في مجلس الخاصّة، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في المحبّة، فعظَّم فيها النكير ووبّخ وعزّر بمشهد الملأ، ثمَّ نُقِلَ إلى محبسه، حيث دَسّ عليه سليمان بن داود مَن قَتَلَه، وأُخرج شِلْوه من الغد، فدُفِنَ بمقبرة باب المحروق، ثمَّ أُخرج من قبره، وأُحرق ثمَّ أُعيد إلى الحفرة. وعُزِيَ ذلك إلى سليمان". ولهذا سُمِّي لسان الدين بذي القَبْرَيْن، كما كان يلقَّب بذي الوزارتين، وكما جاء في كثير من الأمور على اثنين.

وكان صدر زمانه في الكتابة والشعر، بحيث أنَّ المغرب ليفتخر بخاتِمَيّ ابن الخطيب وابن خلدون، كما يفتخر الشرق بصادَيّ الصابي والصاحب(٤).

---

(١) مكافأة.

(٢) صدرُ البعير؛ والمقصود بها، ألقى عليه بثقل جيشه.

(٣) أي الأمطار الغزيرة، كالسَّيل الجارف.

(٤) الصاحب ابن عبّاد.

ولابن الخطيب تآليف جمّة أشهرها: كتاب "التعريف بالحبّ الشريف"، و"الإحاطة بتاريخ غَرناطة" في مجلّدات ستّة، و"الإشارة إلى آداب الوزارة"، و"التاج المحلّى"، و"الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة"، و"الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر" و"رَقم الحلل في نظم الدول"، و"طُرفة العصر في دولة بني نصر"، و"بستان الدول"، قسّمه إلى شجرات، أشبه بالنظارات في هذه الأيام، فقال مثلاً: شجرة السلطان، وشجرة الوزارة، وشجرة الكتابة، وشجرة الجهاد، وقسّم هذه فرعين خيول وأسطول، كلّ ذلك على وضع غريب لم يُسبق إليه. وكتاب "تخليص الذهب"، و"جيش التوشيح"، و"عائد الصلة"، و"نفاضة الجراب"، و"الزبدة الممخوضة"، و"كُناسة الدكّان، بعد انتقال السكّان"، و"الدرر الفاخرة"، و"سدُّ الذريعة"، و"أعمال الأعلام، فيمَن بويع قبل الإحتلام، من ملوك الإسلام"، وبضعة تآليف في الطبّ، وعدّة رسائل منها: "خلع الرسن، في أمر القاضي أبي الحسن"، ترجم بها القاضي أبا الحسن بن الحسن عدوّه، و"ديوان كبير"، وقد استوفى صاحب النفح[1] في شأنه ما لم يُبق في القوس منزِعًا[2].

ولنعُد إلى ذكر بني الأحمر أصحاب غَرناطة فنقول: بعد وفاة أبي عبد الله محمَّد الخامس، الذي كان واسطة عِقْدِ هذا البيت، تولّى الأمر، ابنه أبو الحجّاج يوسف، فجدَّد عقد السلم مع ملوك قَشتالة، وهادن الإسبانيول طمعًا في راحة رعيّته، واعتنى بإصلاح شؤون قومه، إلاّ أنَّ ابنه الثاني محمَّدًا قام عليه، وحدَّثته نفسه بالإمارة، وقضى مدّته في مدافعة ابنه إلى أن توفّاه الله في سنة ٧٩٩.

وكانت القاعدة أن يخلفه ولده البكر يوسف، لكن حيث كان أخوه محمَّد[3] هو المنتزي على الملك، وقد التفَّ حوله جماعة من رجال الدولة، فقد أجلسوه على كرسي الإمارة وهو السادس بأسم محمَّد من سلاطين غَرناطة، وفي مُدَّته لم تفتر المناوشات مع الإسبانيول على حدود المملكة، وفي عام ٨١١ أتمّ أنفاسه، وجيء بأخيه البكر يوسف الثالث

---

(١) العلاّمة المَقري.

(٢) عبارة تُقال لِمن استوفى الأمر كلّه، ولم يُبق منه شيئًا.

(٣) أمّا ما يفهم من قول الأمير الفاضل المؤلّف اسماعيل بن يوسف بن محمَّد الغني بالله بن الأحمر في ترجمة الوزير الكاتب أبي عبد الله بن زمرك خلف ابن الخطيب في وزارة دولتهم فهو أنَّ وفاة يوسف وقعت قبل هذا التاريخ لقوله "إلى أن منَّ الله بسراحه وأعاده إلى الحضرة في أول شهر رمضان المعظّم من عام أربعة وتسعين وسبعمائة فكان ما كان من وفاة مولانا الوالد رحمه الله تعالى وقيام أخينا محمَّد مقامه بالأمر".

من اعتقاله، فبويع بالمُلك وهادن العدوّ ما استطاع، إلاّ أنه اضطرّ أخيرًا إلى ركوب الأسنّة[1]، ولم ينعقد الصلح إلاّ في نحو سنة ٨١٣.

ـ اضطهاد إسبانية لمسلمي الأندلس ويهودها

وفي تلك المدّة كلّها، كانت دولتا قَشتالة وأراغون، تتسابقان في تعذيب المدجَّنين الذين ذكرنا أنهم المسلمون الخاضعون لحكومة الإسبانيول، وملوك الدولتين يتبارون في الانتقام منهم والنكال بهم، استزادة للمَثوبة واستعلاء في درجات الآخرة، حسبما كانت عليه حالة ذلك العصر من التحمّس الديني والتأخّر المدني.

ففي قَشتالة كان هنري أخو بِطْرُه قد جعل للمدجّنِين والإسرائيليين علامة فارقة اسمها "المشيرة"، وأمر بمنع اختلاطهم وأخذهم وعطائهم مع الإسبانيول، وأن لا يُقْبَل أحد منهم في خدمة الدولة.

وفي أيام جان الأول ملك قَشتالة، صدرت الأوامر بأنَّ كلّ مسيحي يربّي في بيته مدجَّنًا أو إسرائيليًّا فله الحقّ كلّ الحقّ، أن يؤدِّبه بالسياط، وأنه لا يجوز لمدجّن ولا ليهودي أن يستخدم عنده مسيحيًا، وأنَّ مَن خالف ذلك يُضرَب وتُضبَط أملاكه، كما أنه لا يجوز دخول مسلم ولا يهودي بيت أحد من الإسبانيول، إلاّ إذا كان طبيبًا، وثبت لزومه، ومَن خالف ذلك يغرَّم بدفع ستّة آلاف مراويد (نوع من السكّة).

ـ خبر المدجّنين

وسنة ٨١١ هجرية، جدَّد جان الثاني أمر سلفه في رفض المدجَّنين واليهود في خدمة الدولة، وضمَّ إليه أنَّ جزاء المخالفة دفع ثلاثة آلاف مراويد، وأنَّ كلّ مَن يسافر من المسلمين أواليهود مع أحد الإسبانيول أو يؤاكله أو يستخدمه في عملٍ له، يُجلَد مائة، وإذا تكرَّر الفعل يؤخذ منه ألف مراويد ويكون ثلثاها للمُخبر، وإذا وُجِد أحد من هؤلاء في وليمة إسبانيولي يُغرَّم بدفع ثلاثة آلاف، وإن عاد صاحبًا له من الإسبانيول أثناء مرض، يدفع ثلاثمائة، وإن عاملهم بأخذٍ أو عطاءٍ فيدفع الثلاثمائة ويُضرَب ويُعزَّر[2].

---

(١) مفردها سِنان، وهو الرمح.
(٢) وبّخ ولامَ.

وكانت في بادئ الأمر محاكم مخصوصة بالمدجَّنين، فأُلغيَت في التالي وأُحيلَت دعاويهم إلى محاكم الإسبانيول، وصدرت الأوامر أيضًا بأنَّ كلَّ مَن يُخرِج مدجَّنًا من مزارعه، ويستخدم لحرثه مدجَّنًا بدلاً عنه، يغرَّم بخمسة آلاف مراويد، وإن تكرَّر فعله فبمائة ألف، وإن تكرَّر أيضًا فتضع الدولة يدها على جميع عقاراته، وإذا فرَّ مدجَّن إلى غَرناطة، ووقع أثناء فراره في يد الإسبانيول عُدَّ أسير حرب، وضُبطَت جميع أمواله، وصار ملكًا لمَن يمسكه.

وسنة ٨٢٦ أضيف إلى هذا الشرط أنَّ مَن منع من المدجَّنين ابنه من التنصّر عُذِّب شديدًا، ومَن أسر من مسلمي غَرناطة أحدًا كان له ملكًا خالصًا.

وسنة ٨٣٠ صدرت الأوامر بعدم اعتبار إمضاء الإسبانيول في ما عليهم للمدجَّنين واليهود، وباعتبار إمضاء هؤلاء في ما عليهم للإسبانيول.

وسنة ٨٣٣ صدرت الأوامر أنَّ المسلم أو الإسرائيلي المدّعى عليه بدَين لأحد الإسبانيول إذا أنكره لا يُقبل منه اليمين، ولكن حيث كان بعض المدجَّنين واليهود يضمنون الأراضي الأميريّة، ففي هذه الحالة يُقبل منهم اليمين عند الإنكار لعدم إلحاق الضرر بخزينة الدولة.

وسنة ٨٨٠ صدّقت الملكة إيزابيلا جميع عهود جان الصغير، وأضافت عليها حظر لِباس الحرير وحلية الذهب والفضّة على المسلمين واليهود (عاملت المسلمين في ذلك بحكم شريعتهم لكن في الرجال فقط)، ووضعت لهم علامات فارقة في الملبس، ومن جملتها رقعة زرقاء عرضها أربع أصابع، لتمييز المسلمات والإسرائيليّات.

وما كفى كلّ هذا حتّى نشرت حكومة قَشتالة أمرًا لجميع عمَّال النواحي، بأنه بلغ الملكة وقوع إهمال في إنفاذ بعض الشروط بتمامها في حقّ المدجَّنين واليهود، وأنه إن حصل فيما بعد أقلّ تقاعس من أحد في تنفيذها بحرفها، يُعزَل من منصبه ويُحرَم معاشه.

وأمّا في مملكة أراغون، فكان بطْرُه الثالث قد أعلن في نحو سنة ٦٨٠ هجرية أنَّ كلّ شخص، مسيحيًا كان أو مسلمًا أو إسرائيليًّا، يمكنه استيطان مملكته والإقامة بها حيث شاء، لكن يُنفى المسلمون واليهود من الخدمة العسكرية والمالية في الحكومة، ويحظّر عليهم أن يُدَيِّنوا الإسبانيول مالاً بأكثر من فائدة عشرين في المائة، وأنَّ دعاويهم تُنظر عند الحكّام ويُقبل فيها اليمين، على أنه إن كان لمسلم أو يهودي دَين عند أحد الإسبانيول بدون سند

أو بيّنة خطّية، فيُقبل قوله من تاريخ الدَّين إلى خمسة عشر يومًا، ومن ثمّة لا يعود مقبولاً. والسند الذي للمسلم أو الإسرائيلي على الإسبانيولي إن لم يُسجّل عند حكّام الإسبانيول، فبعد مضي ستّ سنوات يسقط اعتباره ويُلغى كلّ حكم له.

وسنة ٧٧٠ أصدر الدّون جان أمرًا بأنَّ مَن تنصّر من أبناء المدجَّنين ومات أبوه، فله نصيبه من الإرث كما لو بقيَ مُسلمًا.

وسنة ٧٨٠ صدرت الأوامر بأنَّ كلّ مدجَّن يفرّ إلى أرض غَرناطة ويقع في اليد يُعتبر أسير حرب، وتُضبط أملاكه وتُقسم إلى ثلاثة أقسام الأول للملك والثاني لمَن يكون قد قبض عليه، والثالث مناصفة بين صاحب الأرض التي أَبِقَ(١) منها وصاحب الأرض التي تهيّأ وقوعه فيها.

ثمَّ منع المدجَّنون من الجَهر بالشهادتين واستعمال النفير، لما فيه من تحريك الجامعة وجوزيَ مَن يجاهر بشيء من ذلك بالقتل.

وسنة ٨٩٠، أصدر الملك فرديناند صاحب أراغون، أمرًا بمنع المدجَّنين من الخروج من مملكته، وأنه إذا استصحب أحد الإسبانيول أحدًا منهم في خدمته لضرورة قضت، فيؤذن، بشرط أن لا يكون مع المدجَّن ولد دون الأربع عشرة من عمره، ذلك خوفًا من الفرار إلى بلاد الإسلام. إلى غير ذلك من آيات العدل (!) التي تواترت في كتب الإفرنج، فلخّصنا منها ما قرأت، ولا عجب، فلولا هذه الغرائب، ولولا الإمعان في الظلم إلى هذه الدرجة، لما تأخّرت إسبانية إلى الحدّ الذي وصلت إليه، بعد أن كان لها من مركزها في أوروبا وافتتاح أميركا على يدها، وانبساط أيديها في مستعمرات الخافِقَين، ما يضمن لها المقام الأول بين الدول.

ـ عَود إلى ابن الأحمر

ومن أخبار يوسف الثالث أنه كان في محبسه من شلوبانية، واشتدّت علّة أخيه محمَّد السادس، وقطع حبال الرجاء من هذه الحياة، طمع في تحويل المُلك إلى ابنه فكتب إلى قائد القلعة التي كان أخوه معتقلاً فيها، يأمره بضرب عنقه عند وصول كتابه لكيلا ينازع ابنه في المُلك، واتّفق عند وصول الكتاب أنَّ يوسف كان يلعب بالشطرنج مع القائد، فلمّا دفع

(١) ذَهَب مُستَخفيًا.

الرسول إليه مرسوم السلطان استأذن الأمير يوسف في قراءته وما عَتم أن إمتقع لونه، فاستشفّ يوسف الأمر، وسأل القائد هل فيه أمرٌ بضرب عنقي؟ فتحيّر في الجواب فأخذ يوسف الكتاب وقرأه بدون أن يعلو وجهه أقلّ تغيُّر، ولمَّا أتى على آخره تبسّم قائلاً للقائد: "لنُكملِ لَعِبنا"، فلم يدرِ القائد كيف يلعب بعد ما شاهد من ربط جأش الأمير وسكينته، ويقال إنَّهما كانا لم يزالا في اللعِب حينما أقبل فارس ينعي محمَّدًا السادس ويبشِّره بانتظار الناس حضوره لتبوّء تخت الملك، وكانت أيام يوسف هذا موسومة بالخير لأهل غَرناطة، وكان مّما بلا[1] من حلو الدنيا ومُرِّها، وحَلَبَ من شطْرَي[2] عُرفها ونُكرها، قد أصبح على جانب من الحنان في قومه والرأفة برعيّته، فساس أمورهم سياسة الأب الشفيق، إلى أن وافاه أجَلَه لخمس عشرة سنة من ملكه.

فقام بالأمر بعده ابنه محمَّد اليساري أو الأيسر، فأكَّد عهود المصافاة مع مَن جاوره من الملوك، لكنّه لم يُحسِن الاضطلاع بالأعباء، فثار عليه أهل غَرناطة وبايعوا محمَّد الصغير من أبناء عمّه، وانسلّ محمَّد الأيسر أو الأعسر، خفية من غَرناطة في هيعة[3] ذلك، فلحق بساحل البحر ومنه تزيّا بثياب بحري، وأجاز في فُلْكٍ[4] صغير إلى تونس، نزيلاً عند محمَّد الناصر، ملكها مستغيثًا به، فأكرم نزله ووعده خيرًا.

وأمّا محمَّد الصغير فأخذ ينتقم ممَّن شايعوا ابن عمّه، وقد ورد في تواريخ الإفرنج أنه حاول لأجل ذلك نكبة يوسف بن سِراج، من رؤساء غَرناطة، ففرّ ابن سراج بأربعين فارسًا من أهله وصَحْبه إلى ملك قَشتالة، وداخله في أمر إعادة محمَّد الأعسر. فكتب صاحب قَشتالة إلى صاحب تونس، يسأله إرسال نزيله الأعسر وهو يظاهره على أمره[5]، فأنفذه بألف وخمسمائة من رجاله، ولمَّا وطأ أرض الأندلس، انحاز إليه الكثيرون، وأخرج محمَّد الصغير عسكرًا للقائه، فانضمّ أكثرهم إليه ودخل غَرناطة، فاعتصم محمَّد الصغير بالحمراء، وبقي محصورًا إلى أن أسلَمته حاميتُه بعد أن نال منهم جهد الحصار، فقُتِل، وكانت مدّة إمارته سنتين وبضعة أشهر.

واستقرّ الأعسر في ملكه، وعضده في ذلك ملك قَشتالة، أملاً بوهن عزيمته وسوء تدبيره، لكنّه رمى بآماله أبعد ما يمكن للأعسر قبوله، وطمح إلى إدخال سلطنة غَرناطة تحت

(١) جرّبه.

(٢) جرّبهما وعَرَفَهما.

(٣) كلّ ما أفزعك.

(٤) زَوْرَق.

(٥) يعاونه عليه.

جناح حمايته، فنشأ عن ذلك خلاف انتهى بالحرب، وماجت الثغور بالبعوث. وفي أثناء ذلك فرَّ يوسف بن الأحمر، الذي يقال إنَّه حفيد أبي سعيد المُنتزي على الغنيّ بالله، إلى صاحب قَشتالة، ووعده إن أعانه على ملك غَرناطة، بقبول الطاعة له وأداء الجزية. فسرح معه جيشًا، وانضمَّ إليه أحزاب يوسف، فأجلسوه مكان الأعسر، وفرَّ هذا واستقرّ بمالَقَة، لكن لم يمضِ على ذلك ستّة أشهر حتَّى توفّي يوسف هذا وأُعيد محمَّد الأعسر إلى مكانه ثانيةً وذلك في سنة ٨٣٥.

وكانت بين ملوك الإسبانيول لذلك العهد محاربات شَغَلَتهم عن غَرناطة زمنًا، إلاّ أنَّ الأيسر لم يعرف الاستفادة من هذه الفرصة؛ واختلّت أمور الدولة في أيامه، فأسف لذلك الخواص، ووقع الخلاف بين رؤساء البلد وقُوّاد المِصْر، واتّسع الشرّ، وانحاز محمَّد بن اسماعيل من أنسباء السلطان، وقيل ابن أخيه بلُمّةٍ من فرسانه إلى ملك قَشتالة، وانتزى محمَّد بن عثمان الأحنف من ذوي القرابة أيضًا وكان قائدًا بالمَرِيّة، وجاء بجماعة من خاصّته فدخل الحمراء، وتبوّأ الملك عنوةً، وقصر الأيسر في قلعة، وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ٨٤٩.

ولمَّا كان ملك قَشتالة، ذا هوى مع نزيله محمَّد بن اسماعيل، زحف ابن الأحنف إلى بلاده، واكتسح البسائط، وأثخن، وغنم، وهزم الإسبانيول مرارًا، إلاّ أنَّ سَريّة له انهزمت في ١٨ المحرّم سنة ٨٥٦، وفي الشهر التالي انهزمت له سَريّة ثانية يقودها ابن عبد البار، وكان هذا منفصلاً عن أبيه، حليف محمَّد الأعسر للاتّصال بخدمة الأحنف، وله أمامه مواقف محمودة، فمع هذا قتله جزاء هزيمته، وكان مولعًا بسفك الدم فانتقض عليه الأعيان لكثرة موبِقاته(١)، وانسلّ الرؤساء من غَرناطة طالبين رجوع الأعسر، لكنَّهم خافوا أن تكون الوسيلة إلى قتله، فولّوا وجوههم شَطْر إمارة محمَّد بن اسماعيل، نزيل صاحب قَشتالة، وأمدَّه هذا بجيوشه، فانهزم الأحنف، ودخل غَرناطة ليجمع فَلَّ قومه(٢)، فوجد الأغلب منتقضين عليه، فعندها، وقد أيقن بظفر ابن اسماعيل ـ قصد قبل انقضاء أمره الانتقام من أعيان البلد الذين داخلوا خصمه وشايعوه، فاستدعاهم إلى الحمراء ووضع فيهم السيف. ثمَّ فرَّ الأحنف من الحمراء قبل وصول ابن اسماعيل، ولحق ببعض الجبال مع بعض خواصه من شركاء رأيه الفائل(٣) وعمله الموبِق، ودخل خصمه قصور الحمراء سنة ٨٥٩.

---

(١) السيئات من الأعمال.

(٢) انهزموا وتفرّقوا.

(٣) الضعيف.

ولمَّا كان استيلاء ابن اسماعيل قد تمَّ بمظاهرة ملك قَشتالة، لم يألُ جهدًا في التوّع بشروط إذلاله وإدخاله في طاعته؛ حتَّى عاد كأنَّه قائد من قوّاده. وفي تلك الأثناء وصل إلى الأندلس خبر الفتح الأكبر الذي تضاءلت من دونه الفتوح، وتفتّحت أبواب السماء فأطلّت منها الملائكة والروح، ألا وهو استيلاء السلطان محمَّد الفاتح قدَّس الله روحه على القسطنطينية العظمى، فاشتدّ بهذه البشرى أزْرُ الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ونال سكان الأطراف منها أضعاف ما نال سكان الأوساط، ومنهم أهل الأندلس المنقطعين وراء البحر، ووجودهم من العدو بين الناب والظفر[1]، فقد استبشرت بذلك نفوسهم، وتجدَّدت عزائمهم، وافق هذا الفتح العظيم بالشرق وفاة الطاغية جان الثاني عندهم، فلمّا قام بعده ابنه هنريك نزع محمَّد بن اسماعيل إلى طلب الاستقلال، فتجدَّد القتال وشُنَّت الغارات وزحف صاحب قَشتالة بجيوش جرّارة، فطلب المسلمون الصلح فأجابهم إليه على شرط جزية يؤدّونها وإطلاق ستّمائة أسير إسبانيولي، وانعقدت المهادنة.

وفي خلال هذه الهُدنة، عادت العلائق التجارية بين غَرناطة وجيرتها إلى ما كانت عليه، وكانت هذه البلدة ملجأ لكثير من فرسان الإسبانيول الذين قضت عليهم الفتن الداخلية، بالفرار من أوطانهم حتَّى يُروى أنَّ من هؤلاء رئيسًا يقال له (دياغو) دخل في ذمّة ملك غَرناطة وخدمه، وعظمت ثقة هذا فيه حتَّى رمى أهل مالَقَة به في عسكر عندما انتقضوا مرّة عليه. على أنه قيل، إنَّ من جُملة غرائب تلك الهُدنة أن تضع الحرب أوزارها عن جميع البلاد، إلاّ ثغر جيَّان بين الفريقين، فإنَّه يبقى ميدانًا للغارات، ولم تنشب الموادعة أن بطلت من الجهتين، وأغار مولاي أبو الحسن على، بِكر أولاد السلطان بحسب أقوال مؤرّخي الإفرنجة، على أطراف شاطِبة فانتقم الإسبانيول بالاستيلاء على جبل الفَتح، وأُعجب الدّون هنريك جدًّا بهذا الفتح، حتَّى أضاف إلى ألقاب ملكه، ملك جبل طارق، وجمع جيوشه ونَهَدَ[2] إلى ناحية غَرناطة، فاستكفى المسلمون شرّه بالهدايا وضروب التحف، ورجع عنهم بعقد الصلح، واستمرّت دعة البلاد إلى أن ودّع محمَّد بن اسماعيل هذه الدنيا الفانية، في ١٠ شعبان سنة ٨٦٩ وذلك في مدينة المَرِيّة، وخلفه مولاي علي أبو الحسن كما سيأتي.

---

(١) قوله: "وجودهم بين الناب والظفر"، أي في خطر مُحْدِق.

(٢) نَهَضَ.

في دول إسبانية المعاصرة
لدولة بني الأحمر

قد تكلّمنا عن غَرناطة، لكونها آخر مدن الإسلام بالأندلس، وعن دولة بني نصر فيها، لكونها ذماء[1] المسلمين، وآخر أنفاس حياتهم بتلك الديار. ونتكلّم الآن مجملاً عن تاريخ الدول الإسبانية المعاصرة لدولة بني الأحمر، لما بين التاريخين من المداخلات والمناسبات، بحيث يستعين القارئ بفهم هذا على فهم ذاك، وتكون الفائدة أعمّ وأوفى.

فإسبانية كانت لعهد القرن الثالث عشر للمسيح، منقسمة إلى خمس ممالك: نافار وأَراغون وقَشتالة وغَرناطة والبرتغال.

ـ مملكة نافار

أمّا في الشمال، فمملكة نافار الصغيرة على منحدرَي جبال البيرانه، وكان ملوكها من آل أزيز، فلمّا انقرضت سلالتهم عام ١٢٣٤م ورثهم بسبب زواج بيت كونت شمبانيه، وذلك أنَّ أخت الدّون شانْجُه آخر ملوكهم، كانت متزوّجة بالكونت تيبولت دو شمبانيه، فلمّا توفّي الدّون بلا عقب، كان الحقّ في إرثه لأبن أخته من كونت شمبانيه.

إلاّ أنه لمّا كان ابن أخته هذا، قد لجَّ في طلب الملك قبل وفاة خاله، وأثار عليه لأجل تنزيله ممّا أحفظه وأحقده، عهد بملكه بعد الوفاة لصاحب أراغون، فلمّا توفّي، كاد يقع الخلاف بين جقوم وبين تيبولت، لكنَّ أهل نافار طلبوا من جقوم النزول لتيبولت عن الملك، حبًّا بالسلام فآل الأمر إليه.

وبعد أن استوى على كرسي الإمارة بمدّة، انتظم في سلك الصليبية وانزعج[2] إلى المشرق يحارب مسلمي الشام، والمسلمون منه بالأندلس بالمكان الأدنى، ويقال إنّه كان محبًّا

(١) بقيّة الروح وبقيّة النفس.

(٢) خرج وشخص إلى المشرق.

للعلوم والفنون، وإنّه كان يقول الشعر ويلحّنه على القيثار، ويعرض أشعاره في قصره مستهدفًا لانتقادها، وقد تزوّج ثلاث مرّات الأولى بأبنة كونت لوران، فلم يولد له منها أحد، والثانية بأبنة كونت فلاندره، فولد له منها ابنته بلانش، والثالثة بأبنة كونت فواكس، فولد له منها ولدان تيبولت وهنري وابنة اسمها ليونوره، ومات في ٨ تموز سنة ١٢٥٣م، تاركًا إرثه لولده تيبولت الثاني، وهو الذي تزوّج بإيزابلاّ ابنة مارلويس أو لويس التاسع، وكان من جملة هدايا الزفاف التي أهداه إيّاها الملك المذكور شوكة، يقال إنّها من إكليل الشوك الذي كُلِّل به السيِّد المسيح، وقد صحب حماه إلى الأراضي المقدّسة، حتّى إذا مات مارلويس في غزاة تونس في ٢٥ أغسطس (آب) سنة ١٢٧٠. انقلب تيبولت إلى صقليّة، وبها توفّي في ٥ كانون الأول من السنة المذكورة. وإذ لم يكن له ولد، قام بالأمر بعده أخوه هنري، وتزوّج هنري ببلانش ابنة روبرت كونت أرتوا، وتوفّي في ٢٧ أغسطس (آب) سنة ١٢٧٤ عن بنت واحدة اسمها الدّونة جويانه، وهي التي ورثت ملك نافار، وحيث كانت عند وفاة والدها في الثالثة من عمرها، تولّت المملكة والدتها بالكفالة، إلى أن ترشد الصغيرة. وفي تلك الأثناء أخذ الملوك من الجوار يتسابقون في مرضاة كافلة الملك، طامحًا كلّ منهم إلى التزوّج بالفتاة، أو تزويج أحد أولاده بها، وانقسم أهالي نافار إلى شطرين، منهم مَن يميل إلى ملك قَشتالي، ومنهم إلى ملك أراغوني، ولم تلبث الفتنة أن اتّقدت بين الفئتين فعمّت البلاد، واضطرّت بلانش أن تلتجئ إلى ملك فرنسا، فيليب الملقَّب بالجريء، فانحازت إلى قصره بابنتها. وأرسل الملك من خواصه "أوستاش دو بومارشه" واليًا على بلاد " نافار"، فلم تمضِ مدّة حتّى قامت الفئة القشتالية هناك على العامل الفرنسي، فحصروه في القلعة من " بمبَلونة" حاضرة الملك، ووصل الصريخ إلى الملك فيليب، فسرَح جيشًا إلى بمبلونة واقتصّ من رؤساء الثورة بعد أن أفرج عن العامل.

هذا ولمّا بلغت الملكة "جويانة" النافارية سنّ البلوغ، تزوّجت بـ"فيليب لوبل" ملك فرنسا، وولد لجويانة "لويس هوتن" ملك فرنسا، وعند وفاة هذا الملك بويعت ابنته ملكة على نافار، كما بويع أخوه فيليب الطويل، ملكًا على فرنسا، وتزوّجت ابنته هذه، وكان اسمها جويانه أيضًا، بفيليب كونت أفرو من آل كابت، وتناسلوا في ملك نافار، وكان منهم شارل الرديء، الذي احترق في فراشه من شمعة أوقدت بجانبه، واتّصل لهيبها بالفراش، وابنه شارل النبيل، الذي مات عن ابنة واحدة، اتّصل الملك منها إلى آل أراغون، فوقع النزاع عليه، بين أب وابنه وذلك نحو السنة ١٤٥١.

ـ مملكة أراغون

ثمَّ مملكة أراغون حذاء[1] جبال البيرانه اعتمدت في أوائل أمرها على لصوصيّة البحر، واشتهر بين أمرائها "جقوم" وهو الذي استولى على جزائر الباليار: ميورقة، ومينورقة، ويابسة، وقيل إنَّ السبب في الاستيلاء عليها، تعرّض أهل ميورقة لمراكب الإسبانيول، ويفهم من قول المخزومي في تاريخ ميورقة، أنَّ سبب أخذها من المسلمين "أنَّ أميرها في ذلك الوقت محمَّد بن علي بن موسى احتاج إلى الخشب، فأنفذ طريدة[2] بحرية، وقطعة حربية إلى يابسة بأخذه، فعلم بذلك والي طُرطوشة فجهَّز إليها مَن أخذها، فترصَّد محمَّد بعض مراكبهم وأخذها، فأجمع الروم على قتاله في عشرين ألفًا، وجهَّزوا ستّة عشر ألفًا في البحر، وكان لدى وصول الروم قد أمر الوالي صاحب شرطته، أن يأتيه بأربعة من كبراء المصر، فضرب أعناقهم، فاجتمعت الرعيّة إلى أبي حفص بن سيري، وأخبروه بما نزل، وعزّوه فيمَن قُتِل، وقالوا له هذا أمرٌ لا يطاق. وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوّال، والناس من خوفه في أهوال، ومن أمر العدوّ في إهمال، فأمر صاحب شرطته بإحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة فأحضرهم، وإذا بفارس على هيئة النذير، دخل إلى الوالي وأخبره بأنَّ الروم قد أقبلت وأنه عدَّ فوق الأربعين من القلوع. وما فرغ من إعلامه، حتَّى ورد آخر وقال، إنَّ أسطول العدوّ قد تظاهر، وأنه عدَّ سبعين شراعًا، فصحَّ الأمر عند الوالي وأطلقهم، واستنفرهم، ثمَّ ورد الخبر بأنَّ العدوّ قرب من البلد، فإنَّهم عدّوا مائة وخمسين قلعًا، فأخرج الوالي جماعة تمنعهم من النزول. وفي الثامن عشر من شوّال، وقع المصاف[3] وانهزم المسلمون، وارتحل النصارى إلى المدينة، ونزلوا منها على الحربية الحزنيّة من جهة باب الكحل، ولمَّا رأى ابن سيري أنَّ العدوّ قد استولى على البلد، خرج إلى البادية. ولمَّا كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر، قاتلوا البلد قتالاً شديدًا، ولمَّا كان يوم الأحد أُخذ البلد، وقُتِل فيه أربعة وعشرون ألفًا وأُخذ الوالي وعذِّب، وعاش خمسة وأربعين يومًا تحت العذاب ومات، وأمّا ابن سيري فتحصّن بالجبال وجمع حوله ستّة عشر ألفًا وما زال يقاتل، حتَّى قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستّمائة، وجدّه من آل جبلة بن الأيهم الغسّاني، وأمّا الحصون، فأُخذت في آخر رَجَب من تلك السنة وفي شهر شعبان، لحق مَن نجا من المسلمين ببلاد الإسلام" انتهى ما ذكره ابن عميرة المخزومي ملخَّصًا.

---

(١) اشتقاق، يعني مُحاذاة.

(٢) سفينة صغيرة، سريعة. لفظٌ مُولَّد على التأنيث، من "طرّاد".

(٣) مفردها، المَصَف: موضع الصَّف (من الجُند هنا).

- ثورة مينورقة

وبعد استيلاء القوم على ميورقة، ثار بمينورقة الجواد العادل العالم الذي، أُلفت بأسمه التآليف الشهيرة أبو عثمان سعيد بن حكم القرشي، ثمَّ تصالح مع النصارى على ضريبة معلومة، وضبط الجزيرة أحسن ضبط، وبقيت مينورقة مدّة في يد المغاربة بعد أختها ميورقة.

وفي مدّة جقوم هذا، أُخذت بَلَنْسِية من المسلمين وقد سبق ذكرها، وبعد ذلك بمدّة اجتمع مسلمو مملكة أراغون وثاروا وأثخنوا في عدوّهم، إلاّ أنَّ جقوم طردهم أخيرًا، فانحاز أكثرهم إلى مملكة ابن الأحمر، وأجاز بعضهم إلى أفريقية، وقد اشتهر جقوم هذا، بحبّ الطلاق والزواج واتّخاذ الحظايا والتهتّك في المنكر، وبينما كان مطران جيرونه يوبّخه على استهتاره مرّة، استشاط منه غضبًا وأمر بقطع لسانه. واغتصب مرّة امرأة أحد رعيّته وكانت وفاته في ٢٧ تموز سنة ١٢٧٦، وخلفه الدّون بِطْرُه. وفي مدتة انضمّت مملكة صقليّة إلى مملكة أراغون، وطرد بِطْرُه منها شارل دانجو، أخا مارلويس ملك فرنسا، بالرغم من إرادة البابا، وقصدوا استعادتها، فانهزموا فأصدر البابا حرمًا على بِطْرُه، وأخيرًا أقطع البابا مملكته شارل دو فالوا بن فيليب الجريء ملك فرنسا. فزحف فيليب بعساكره على مملكة أراغون وكان له من جقوم أخي بِطْرُه نفسه، عضد لإحنة[1] كانت مستحكمة بين الأخوين، فانهزم جند بِطْرُه، واستولى الفرنسيس على جيرونه، إلاّ أنَّ العِلّة تفشّت فيهم من رائحة جثث القتلى، فهلك منهم خلق كثير، وأصيب فيليب الملك نفسه وحُمِل ومات في الطريق، وبعد انصراف الفرنسيس استعاد بِطْرُه جيرونه، وحوّل نظره صوب أخيه جقوم، الذي ضافر عليه الغريب، فأرسل ولده أَلفونس إلىٰ ميورقة بأسطول ليأخذها من يده، وتوفّي بِطْرُه وابنه في حصارها، فلم يقلع حتّى دخلت في حَوزته وقام بأمر أراغون بعد أبيه.

ومات هذا، وخلفه أخوه جقوم ملك صقليّة، فترك أمورها لوالدته وجاء إلى أراغون مستلمًا زمامها، وأعاد ميورقة على عمّه جقوم، ثمَّ تولّى صقليّة أخوه فريدريك، وتزوّج بأبنة شارل دو نابل، وولد له منها خمسة ذكور: جقوم وألفونس وجويان وبِطْرُه ورامون، وخطب لأبنه البكر، جقوم، الدّونة ليونوره القَشتالية، وبينما كانوا يعقدون له عليها، إذ عدل عن الزواج، زعمًا أنَّ أباه أجبره عليه، وأنه يريد الترهُّب والتبتُّل، وأسقط حقّه من وراثة الملك ودخل في سلك الرهبان، وقضى الناس من ذلك العجب لما كان عليه من

(١) الحِقد.

الانغماس في اللذّات والاسترسال إلى الشهوات، فوُلّيَ العهد أخوه ألفونس، وصار جويان أخوهما مطرانًا على طُلَيْطُلة، وأخذ كلّ من الأخوين الباقيَين إقطاعًا باسمه.

ـ الحرب بين قشتالة وأراغون

ثمّ مات جقوم الثاني في برشلونة في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٣٢٧، وخلفه وليّ عهده ألفونس الرابع، وتزوّج هذا مرّتين، وولد له من إحدى امرأتيه الدّون بِطْرُه وليّ عهده، فلمّا مات ألفونس سنة ١٣٣٦، وقع النزاع بين بِطْرُه وبين خالته أخت ملك قَشتالة، وادَّعت أنه يريد انتزاع أملاك إخوته أولادها، فكاد الخلاف يتّسع بين قَشتالة وأراغون، لولا ما جمعهما من كلمة الحرب المقدّسة ضدّ السلطان أبي الحسن ابن مَرين صاحب المغرب. وبعد وقعة طريف وانتقاض بِطْرُه من عوارض تلك الحرب، أخذ يحاول انتزاع مَيورقة من يد صهره جقوم. قيل إنّ السبب في ذلك أنّ الدّون بِطْرُه، كان متوجّهًا إلى أفينيون لزيارة البابا ومعه الدّون جقوم راكبًا بجانبه، فلمَّا صارا على مقربة من البلدة وقد حفَّت بهما حاشيتهما، رأى سائس حصان الدّون جقوم، أنَّ سائس حصان الدّون بِطْرُه يحثّ مسير حصان مولاه، فلطمه ليتّئد[1] ويمكنه اللحاق به، فأبصر ذلك الملك واغتاظ من ابن عمّه لسكوته وإغضائه على حركة سائسه، فوقرت[2] في صدره، وانتهز الفرصة لتجريده من مملكته ميورقة، وذلك أنه وقع خلف بين صاحب جزر الباليار، وبين ملك فرنسا من أجل مونبليه، وزحفت عساكر فرنسا لأخذها، فبعث جقوم إلى ابن عمّه بالصريخ فلم يجبه، ثمّ نقم عليه أمورًا، منها إنّه يحاول الاستقلال، وإنّه ضرب السكّة باسمه، وأعلن خلعه من ولاية الجُزُر، فاستغاث هذا بالبابا فأرسله البابا إلى بَرشلونة نزيلاً عند بِطْرُه، ومستميحًا عَفْوَه، فعندما حصل عنده ضبط عليه امرأته، التي هي أخته وسرَّحه فلحق جقوم بميورقة، وقد نادى بحرب بِطْرُه، والانفصال عنه، فاسترجع بِطْرُه أسطوله من الجزيرة، حيث كان في رباط المسلمين، ونزل به على ميورقة، ففرّ جقوم إلى فرنسا، وبقي في نزاع مع ابن عمّه حتَّى باع أخيرًا بعض أملاكه من ملك فرنسا، وجهَّز بثمنها ثلاثة آلاف ماش وثلاثمائة فارس وركب بها البحر طامعًا في الاستيلاء على جزيرته مَيورقة، فقابله واليها بجيوش أوفر مرارًا من قوَّته، وغلبه فهلك في القتال، ولم تنتهِ مسألة بِطْرُه مع جقوم ابن عمّه حتَّى

---

(١) ليتمهّل ويتأنّى.

(٢) أوغرت صدره: ملأته غيظًا وغضبًا.

ثارت مسألة أخرى مع أخيه جقوم. بسب انتقال المُلك، لأنَّ بطْرُه كان يريد العهد لابنته، لأنّه لم يولد له ذُكور. ولأنَّ أخاه كان يطالب بهذا الحقّ. فانشقّت المملكة بهذا السبب إلى قسمين. وانتشبت الحرب بينهما. وقام جمهور من الرؤساء على الملك، وفي أثنائها توفّي أخوه. فاتُّهم بكونه سمّه(١) فازدادت الثورة ، وزحف الملك إلى الرعيّة الثائرة، فجرت عدّة مواقع وسالت الدماء الغزيرة وغدر بِطْرُه بالرؤساء الذين استسلموا إليه، وأرهق مدن مملكته حصرًا وعسرًا، إلى أن تمّت له الغَلَبة. ثمّ بسبب مراكب استولى عليها أمير البحر عنده رغم إرادة بِطْرُه ملك قَشتالة، انتشبت الحرب بينهما، وانضمّ إلى أراغون جميع الأمراء والرؤساء الذين كان بِطْرُه القَشتالي قد آسفهم، وما وضعت تلك الحرب أوزارها حتّى اصطلت(٢) الثانية ثمّ الثالثة.

وهلك بِطْرُه الأراغوني سنة ١٣٨٧ وملك نيّفًا وخمسين سنة. وكان سفّاكًا للدماء، غدر بأهله وإخوته، وأهرق سيولاً من الدم، حتّى لُقِّب بالخِنجري وتزوّج بأربع نساء **الأولى** ابنة ملك نافار دونة ماريه ماتت سنة ١٣٤٦ ، **والثانية** دونّة ليونيوره ابنة ملك البرتغال، وماتت سنة ١٣٤٨ ، بالطاعون، الذي عمّ جنوبي أوربا، وهو الذي يشير إليه ابن خلدون ويسمّونه بالطاعون الجارف، خرّب كثيرًا من ديار الشرق والغرب. ثمّ اقترن الدّون بِطْرُه بليونوره أخت ملك صقليّة، وماتت سنة ١٣٧٤ ، وقد ولدت منه ثلاثة ذكور وابنة واحدة. فاقترن بأمرأته الرابعة سيبيلا فورسيا، أرملة شهيرة بالجمال، وكان أوانئذٍ قد بلغ الحادية والستّين فملكت قلبه وأعطاها قيادة(٣) وأقطعها من أملاك التاج الملكي، فاعترض وليّ عهده جويان من امرأته الثالثة ووقع النزاع وانتهى بتحكيم أحد القضاة.

وفي أواخر مدّة هذا الملك، وقع النزاع الشهير بين البابا أوربان السادس، والبابا كليمان السابع، وأخذ كلّ منهما يحرم الآخر! وانقسمت ممالك أوربا في شأنهما إلى شطرين: فإنَّ فرنسا، وقَشتالة، ونافار، ونابولي، قامت بدعوة كليمان وإنكلترة والبرتغال وأراغون قامت بدعوة أوربان، إلاّ أنَّ أراغون مالت فيما بعد إلى كليمان.

وبعد وفاة بِطْرُه، قام ابنه جويان الأول، وفي الحال تقبّض على امرأة أبيه، سيبيليا، وعلى أخيها وأعوانها، وابتزّها الأملاك التي كان أبوه وهبها إيّاها، وسلّمها إلى امرأته دونّة

(١) دسّ له السمّ.

(٢) اشتعلت (الحرب).

(٣) سلّم لها أمره.

فيولانته، واعتنى بتزويج ابن أخيه دون مارتين بأبنة عمّه فريدريك ملك صقليّة، التي كان آل إليها إرث تلك الإمارة، بعد وفاة والدها، وكان جويان مولعًا بالشعر والموسيقى والصيد مهملاً الجِدّ من الأمور، حتّى أصبح قصره عبارة عن عكاظ شعراء ومجتمع مغنّين، لا يُسمع فيه إلاّ إيقاع أو إنشاد، فقام أعيان البلاد وطلبوا منه إقصاء حظيّته دونّة كاروزه، لاتّهامهم إيّاها بترغيبه في ما هو فيه من العبَث، فانقاد إلى إرادتهم خوف الإنتقاض.

وتوفّي في الصيد بكبوة جواد تردّى[1] في غابة، وهو يطلب ذئبًا[2]، فخلفه أخوه الدّون مارتين، إذ لم يعِش له غُلام من صلبه، فنازعه في المُلك آل فواكس، فغلبهم عليه، واستوثق له الأمر، وتزوّج هذا بالدونّة ماريه، كما تقدَّم، فوُلِدَ له منها أربعة أولاد توفّي منهم ثلاثة دون البلوغ، وبقي الواحد وهو الدّون مارتين متوَّج صقليّة، فمات هذا في غزاة بسِردانية عام ١٤٠٩، ولم يعِش له ولد على كونه تزوّج مرّتين، بل كان له أولاد من حظاياه، فعند وفاته انقرضت ذرّية الذكور من صلب البيت المالك وتنازع حقوق الوراثة خمسة أمراء: الدّون فادويك ولد مارتين من إحدى حظاياه، وكونت أورجِل ابن عمّ مارتين في الدرجة الخامسة أيضًا، ودوق كالابْرَه ابن الدّونة فيولانته بنت جويان الأول، ثمَّ فرديناند القَشتالي الملقَّب عندهم بالرشيد، كان ابن جويان الأول القَشتالي والدّونة ليونوره، أخت الدّون مارتين ملك صقلية الذي انقطعت به السلالة، وبذلك فهو ابن أخته وكان أقرب المتنازعين إلى بلوغ الغاية فرديناند المذكور وكونت أورجِل، وربَّما كان لهذا في مملكة أراغون الشيعة الكبرى، إلاّ أنه لم يحسن طلب حقّه، وجمع العساكر يعيثون في البلاد، ممّا أمال عنه القلوب إلى فرديناند فانتخبوه ملكًا في ٣ أيلول سنة ١٤١٢، وتقبَّض على كونت أورجِل وسجنه، واستتبّ له الأمر، إلاّ أنه مات في سنة ١٤١٦، وخلفه بِكر أولاده ألفونس الخامس، الذي افتتح نابولي ثمَّ مات هذا (١٤٥٨)، عن غير ولد. فانتقل المُلك إلى أخيه جويان الذي كان تزوّج بابنة شارل النبيل، وبواسطتها ملك بلاد نافار، ووُلد لهذا فرديناند الملقَّب بالكاثوليكي، فملك أراغون ونافار، وتزوّج بايزابلاّ ملكة قَشتالة، فصارت الممالك الثلاث واحدة، وعادت في حالة من اجتماع الكلمة ووفرة العديد والمادّة، بحيث قضت على الملك الأخير الباقي كان بالأندلس للمسلمين.

---

(١) سقط

(٢) يريد اصطياد ذئب.

ـ مملكة قشتالة

أمّا مملكة قَشتالة، أجَلُّ ممالك النصرانية في الأندلس، فإنَّ رافع منارها فرديناند الأول، الملقَّب بالكبير الذي انتزع كثيرًا من أملاك المسلمين، وكان معاصرًا لابن عبّاد، وقسّم ممالكه بين أولاده الثلاثة، فأعطى شانْجُه مملكة قَشتالة، وألفونس أو أذفُنش مملكة ليوق، وغارسيا الصغير مملكة غاليسيا أو جِلّيقية، إلاّ أنَّ ألفونس تمكَّن في الآخر من ضمّ الجميع إلى ملكه، وصار خلفًا لأبيه، وهو الذي استولى على طُلَيْطُلة قلب إسبانية، وجعلها مقرّ سُلطانه.

ـ خبر السّيد Le Cid

وفي أيامه ظهر السّيد [1] بطل الإسبانيول الذي تُنسب إلى ذرّيته عروس رواية شاتوبريان، وقد رأينا أن نلمّح إلى شيء من أخبار السّيد حسبما ذكر المحقّقون فنقول: هو السّيد لُذَريق دياز بن دياغو بن لاين نوناز بن لاين كالفو من كبار قضاة قَشتالة، تزوّج السّيد بشيمانة، وولد دياغو لُذَريق الذي مات في حياة والده وابنتَين إحداهما تزوّجت بابن ملك نافار والأخرى بابن ملك أراغون.

وشيمانة هذه هي ابنة الكونت لوزانو دو غورماز، من فحول قوّاد الملك فرديناند، وسبب اقتران السّيد بها، أنَّ والدها كان قد صفع دياغو والد السّيد، وهو بالغ من الكِبَر عُتيًّا، فلم يمكنه أخذ ثاره بيده، لكنَّ ولده لُذْريق * أخذ السيف ودعا غورماز إلى البراز فقتله، ولمّا لم يكن في قتل البراز جُناح [2]، جاءت ابنته شيمانة، تشكو إلى الملك فرديناند كون لُذَريق يأتي كلّ يوم، وبازُهُ على يده، فيطلقه في بيت حمامها فيفتُك بالحمام، ويُذيق فراخَها كؤوس الحمام، وقد بعثت تقول له في ذلك، فجاوبها بالوعيد، فالملك الذي يسمح بقهر اليتيم ولا يقتصّ ممَّن اعتدى عليه لا يليق أن يسمّى ملكًا. فتحيّر فرديناند في أمره لأنَّ لُذريق كان أقوى عَضد له في مواقفه مع المسلمين، والإسبانيول يزعمون أنَّ السّيد أسر خمسة من ملوك الإسلام، وبعد أن قادهم بخزائم [3] الإستكانة، مَنَّ عليهم بإطلاق سبيلهم ودعوه سيّدهم، فلم يجد فرديناند مخرجًا من الأمر إلاّ بتزويج السّيد بشيمانة.

---

(١) السّيد (LE CID) رواية للشاعر الفرنسي كورنيل.

(*) آخر ملوك القوط (الروم).

(٢) إثم.

(٣) مفردها خزَام: شجر يُفتل من لحائه الحَبْل، (مجازًا) خزائم، حبال.

وأمّا نسبة السِّيد إلى بيفار فلولادته في ذلك القصر، وهي كما لا يخفى عادة الإفرنج في ألقاب الشرف. ومن شهير أفعال السِّيد أنّه لمَّا اصطلت الحرب بين قَشتالة وأراغون لعهد فرديناند، وقع الاتّفاق بين هذا الملك، وبين أخيه على تحكيم السيف وإبراز قِرنين[1] بالنيابة عنهما من أبطالهما، وإعطاء الحقّ لمَن منهما حقّت له الغَلَبة فكان السِّيد نائبًا عن ملك قَشتالة، وكان مارتين غوماز، نائبًا عن صاحب أراغون أخيه، فعند اللقاء فتك السِّيد بخصمه وبِرَدِّ الحقّ لفرديناند دون أخيه، وفي هاتيك الأيام كان هنري الثاني إمبراطورًا لألمانيا، فسَمَت نفسُه إلى إدخال إسبانية في طاعته لكونها من ولايات سلطنة المغرب، ويقال إنَّ البابا فيكتور الثاني مالأه[2] على مقصده، فلمّا أبلغ ذلك الإمبراطور والبابا إلى فرديناند، مال إلى الخضوع خوفًا منهما، لكنَّ السِّيد عارض في الأمر وجمع عسكرًا وزحف به إلى طلوزة قاصدًا لقاء العدوّ، فلمَّا علم البابا به خاف العواقب وصرف إمبراطور ألمانيا عن دعواه.

ـ وفاة فرديناند

ولمَّا مات فرديناند، لم يكن لشانجه، ولده ساعد أشدّ من السِّيد، وهو الذي نصره في وقعة غولبيجاره، وكان بجانبه عندما قُتل في زامورة، وفي مدّة ألفونس أخيه، انصرف السِّيد إلى مرابطة المغاربة، ووالى عليهم الهزائم حتَّى لُقِّب بالكمبيادور ومعناه بلُغتهم قائد المعسكر، إلاّ أنَّ ما حازه من الشهرة، أثار عليه حسد الأقران وضغائن الأنظار، فانقبض بنفسه عن الحضرة، وسكن البادية، وبلغه أثناء ذلك أنَّ مسلمي سَرَقُسْطة والثغر الأعلى، اجتاحوا أراضي قَشتالة وأثخنوا في الإسبانيول، فنهد إليهم، وساق منهم سبعة آلاف أسير واكتسح بسائط طُلَيْطُلة، وكانت في يد المأمون صاحبِها، فشكا إلى الأذفونش خرق الصلح بدون موجِب، فاستشار الملك خاصّته، وأجمعوا على نفي السِّيد، وضربوا له أمدًا تسعة أيام لأجل الخروج، فأطاع ولكنَّه لم يكن يملك من المال ما يكفي لميرة الثلاثمائة فارس التي هي في صُحبته، فأعمل في الحيلة وأرسل صندوقين مفعمين رملاً إلى بعض اليهود مؤكِّدًا لهم أنهما مملوآن حليًا. وأخذ عليهما مبلغًا من الذهب، ثمَّ وفى دينه بعد ذلك، بما حازه من الغنائم أثناء غزواته في بلاد الإسلام، وبقي مدّة بعيدًا عن الحضرة، إلى أن رضي عنه الملك

---

(١) شبيه ومثيل في الشجاعة.

(٢) ساعَدَهُ.

وأعاده، وأذن له في الغزو وحده، فابتنى لنفسه قصرًا بقرب أراغون لم يزل معروفًا باسم "صخرة السِّيد" إلى الآن، وجعلها لنفسه وكرًا يأوي إليه وينطلق منه للغزو. وكان أكثر ما يغزو مملكة ابن عبّاد، لكونه هو الذي دعا يوسف بن تاشُفين إلى الأندلس، على أنه لمَّا أراد ابن تاشُفين استخلاص ملك إشبيلية من يد ابن عبّاد واستنجد الطاغية، أرسل إليه عشرين ألفًا، قيل أنه عقَد عليهم للسِّيد، لكن لم ينالوا له وَطَرًا إذ كان في المرابطين سادات بدل السِّيد، ثمَّ زحف السِّيد بعساكره نحو بَلَنْسِية، وضيَّق عليها الحصار وكان فيها القاضي أحمد بن جعفر المعافري، بحسب رواية بعض مؤرِّخي الإفرنج ومنهم لافاله، والذي في كتب العرب، أنَّ الذي كان فيها هو القاضي أبو أحمد بن حجاف، واتّفقت روايات العرب والإفرنج أنَّ لَذريق دخلها صُلحًا وعاهد القاضي، لكنَّه لم ينشب أن أحرقه بالنار، بعد الاستيلاء، قيل، لكَون السِّيد طلب منه أن يدلّه على ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون، فأقسم أنها ليست عنده، فأحرقه وعاث في بَلَنْسِية. وفي ذلك يقول، ابن خفاجة الشاعر المشهور:

عاثت بساحَتكِ الظُّبى[1] يا دارُ ... ومحا محاسِنكَ البِلى والنارُ

فإذا تردَّد في جِنابِك ناظرٌ ... طال اعتبارٌ فيكِ واستِعبارُ[2]

أرضٌ تقاذفتِ الخطوبُ بأهلها ... وتمخَّضت بخرابها الأقدارُ

كتبت يد الحَدَثان في عرصاتها[3] ... لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديارُ

وورد في "نفح الطيب" ما نصّه بالحرف: "وكان استيلاء القنبطور (تحريف القمبدورا والكمبدور لقب السِّيد) سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وقيل في التي قبلها، وبه جزم ابن الأبّار، قائلاً، فتمّ حصار القنبطور إيّاها عشرين شهرًا، وذكر أنه دخلها صُلحًا، وقال غيره، إنَّه دخلها وحرقها وعاث فيها، وممَّن أحرق فيها الأديب أبوجعفر بن البناء الشاعر المشهور رحمه الله تعالى، وعفا عنه، فوجَّه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، الأمير أبا محمَّد مرزلي ففتحها الله على يدَيه سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وتوالى عليها أمراء الملثمين" انتهى.

وفي حرق قاضي بَلَنْسِية قد أتى لافاله بجميع أصناف المعاذير، تغطية لعمل القنبطور،

---

(١) مفردها ظُبة: حدّ السيف.

(٢) حزن ترافقه العَبَرات: الدموع.

(٣) مفردها، عَرْصة: ساحة الدار.

واتّهم القاضي بالخيانة، وأنكر أن يكون السِّيد فعل ذلك بسبب الذخيرة، بل لمكيدة لا بدّ أن يكون اطّلع عليها، ورمى مؤرِّخي العرب بتشنيع سيرة السِّيد، تعصّبًا منهم وكراهية لإسمه لما كان عليه من الغيرة على النصرانية.

وذهب غير واحد من المؤرِّخين الأوربيين إلى غير ذلك، ومنهم ستانلي لانبول الإنكليزي، وزعموا أنَّ مسألة فضائل السِّيد من وضع قصّاصي الإسبانيول، وهاك بعض ما يقوله المؤرِّخ المذكور ممّا يرتبط بهذا المقام وهو:

«إنَّ من الغلط البيّن، والخطأ المُتَعيّن أن يظنّ أنَّ مقاتلة قَشتالة وليون، كانوا على ما يُرام تخيُّله، من الشهامة والشرف وآداب الفروسيّة، وأن يتصوّر كونهم على شيء من دماثة الأخلاق والتهذيب، والصحيح أنَّ مسيحيي الجهة الشمالية كانوا على نقيض ما كان عليه أقرانهم المغاربة، فإنَّ العرب الأجلاف لأول نزولهم بإسبانية، قد تهذَّبوا وتمدَّنوا بالأندلس، فيما بعد، وباستعدادهم الفطري، مالوا إلى التأنّق والرفاهية والتحقّق بالحضارة العالية، وعكفوا على طلب العلم وقرض الشعر وحفظ الأدب، فكانت أذواقهم في أسمى مكانات السلامة، وإحساساتهم في أقصى مظانِّ الرقّة، كما هو شأن مَن تحقّق بالمدنيّة وذاق حُسن المعيشة وغلب عليهم التأمُّل والشعر، فكانوا يؤدّون من الجوائز على منظومة واحدة، ما يكفي لميرة كتيبة كاملة، ولم يكن الأمير الظالم منهم والملك الغاشم السفّاح، يأنف من الآداب والمعارف، فالفصاحة والموسيقى، وسائر فروع العلم والأدب من الأمور الطبيعية عند هذه الأمّة، وأوتوا مَلَكة الانتقاد، والتمييز، ولطف الذوق في نقد أجزاء الكلام وتفاصيل القول ممّا نعرفه في زماننا لأمّة الفرنسيس.

وأمّا نصارى الشمال، فعلى خلاف ذلك كلّه، فإنَّهم وإن كانوا سلائل أمّة قديمة فحالتهم حالة أمّة حادثة[1]، أجلاف جُفاة أجانب عن العلم، منقطعو السبب في العِرفان، نعم كان عند بعض أمرائهم مَسكة من التربية، لكنَّهم في هذا الأمر مساكين في جانب أمراء العرب، وإنَّما كان المسيحيّون هناك أنجاد حرب وأحلاس نِزال[2]، يحبّون الهيجاء[3]، مثل أقرانهم المسلمين لكنَّهم أقوَمُ منهم عليها وأصبر على تحمّل مشاقّها، ولم يكن عندهم ما

(١) جديثة.

(٢) أي أعوان حرب، وشجعان أكفاء في خوَض المعارك والقتال.

(٣) الحرب.

تصوّره لنا هذه الخيالات الشعرية من أخلاق الفروسية، بل إنّما كانوا ضرّابي سيف" انتهى الحديث، وقد يحملهم فقرهم على المحاربة بالأجرة، وتقديم مَن يزيد لهم على غيره في الخدمة، وقد رأينا كيف أنّ الوزير المنصور استخدم جمًّا منهم في حرب ليون وفتح سانت ياغو. وتاريخ شمالي إسبانية، مملوء بشواهد ذلك من استخدام أمراء المسلمين لفرسان النصارى في الجيش.

وممّا يؤيّد قول هذا المؤرّخ الإنكليزي ما ورد في تاريخ المنصور بن أبي عامر من أنه "في انكفائه عن باب، شَنْت ياقب، بتلك الغزوة التي لم يبلغ مثلها أحد، وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره، فأمر بالكفّ عنها، ومرّ مجتازًا حتّى خرج على حصن بيليقية من افتتاحه، فأجاز هنالك القوامس[1] بجملتهم على أقدارهم" انتهى. ويظهر أنهم لم يقتصروا في الخدمة على ملوك الأندلس، بل ربّما أجازوا إلى المغرب أجنادًا عند ملوكه، وابن خلدون يروي أنه كان يَغْمُراسِن بن زيّان صاحب تِلِمْسان، قد استخدم طائفة منهم، مستكثرًا بهم، معتدًّا بمكانهم، مباهيًا بهم في المواقف والمشاهد.

ولنعد إلى كلام ستانلي لانبول قال: "لكن لم يوجد من هؤلاء مَن بلغ شهرة السِّيد بطل إسبانية، واسمه لَذريق دياز البيفاري، ولُقِّب بالسِّيد لكون ذلك هو اللَّقب الذي كان يدعوه به المغاربة وهو مخفَّف عن سيِّد بالتشديد"[2] إلى أن قال: "وهو محارب شهير كان يتقدَّم الصفوف مثل جلياد أمام جيوش بني اسرائيل، ولم يُعرف أحد طار له من الشهرة في الغزو أكثر من "سيِّدي القمبدور"، كما كانوا يدعونه، كما أنه ليس من السهل أن يقرِّر الإنسان الحقيقة ويمحِّص الواقع ممّا يحاط به اسم السِّيد من الوقائع، لأنَّ مؤرِّخي النصارى يقولون إنّه يستحيل الإحاطة بوصفه، وأنَّ الأناشيد الإسبانيولية تتوِّج السِّيد بالفضائل والكمالات، وتنسى أنَّ تلك الفضائل كانت مجهولة، أو غير مُعتبرة عند نفس السِّيد ومعاصريه، وكتّاب العرب الذين هم غالبًا أحسن إنصافًا للحقوق، تجدهم شدَّدوا الحكم على ذلك النصراني الذي أذاق مسلمي بَلَنْسِية ما أذاقهم من الوبال"[3]، قلت وأيّ تشديد فإنَّك ترى كيف جاء اسم القنبطور مردوفًا باللعنة في "نفح الطيب" وبأيِّ شِعرٍ، نظم ابن خفاجة نَثْرَ عُمران تلك البلدة.

---

(١) الدواهي.

(٢) بل هو على أصله فالسِّيد بكسر السين وسكون الياء الذئب والتشبيه به عند العرب ذمّ لأنه مفترس غادر حقير بخلاف التشبيه بالأسد فإنّه مدح.

(٣) الشدّة.

قال ستانلي لانبول: "ونحن في عصر انتقاد، مضطرّون إلى طرح المفرح من أقاصيص مؤرِّخينا التي تليق بالأحداث، والسِّيد لم يُستثنَ من الانتقاد، بل إنَّ أحد المستشرقين الراسخين ألَّف عنه كتابًا مستقلاً، قرَّر فيه أنَّ السِّيد لم يكن ذلك البطل الذي قُدِّر أنه كان، بل رجلاً غدّارًا سفّاكًا نهّابًا فتّاكًا، ناكث العهد، ناقض الزمام. كذلك الأستاذ دوزي (مؤرِّخ إسبانية الجليل)، ذهب إلى أنَّ قصّة السِّيد هذه اختراعية، وكتب عن السِّيد الحقيقي نقيض، ما ورد في تلك الأقاصيص" إلى أن قال: "وغير صحيح أنه كان حامي الدين، فإنّه قاتل في مصافّ المسلمين، كما قاتل في مصافّ النصارى". وذكر أنه استولى على بَلَنسِية بسبب التحريك والفرقة، بإعانة ملك سَرَقُسْطة ودخلها صلحًا. وهذا طِبقَ ما ذكر مؤرِّخو العرب، من أنَّ الذي أنهضه هو يوسف بن أحمد بن هود صاحب سَرَقُسْطَة.

وأمّا لافاله فيقول في شأنه: "أنه هو بطل الإسبانيول المُقدَّم، حبيب الشعب الذي يُحَلّونه بجميع فضائل الأبطال ويتغنّون بوقائعه في الأشعار والأزجال، فإذا شاء المؤرِّخ معرفة الحقيقة من الوهم، أشكل عليه الأمر بما يَعرِض له من الاختلاط، فقد يقع أنَّ المؤرِّخ لأجل الخروج من حَيرته، ينتهي إلى إنكار وجود المؤرَّخ عنه أصلاً، كما أنكر ماسدو، وجود السِّيد قمبدور، ولم يبلغ الشكّ من غيره درجة إنكار وجوده، بل أنكروا عليه المأثور من الفضائل وتخيّلوه زعيم أشقياء ورئيس عصابة شرّ، بعد أن جعلته القصص مثالاً تامًّا للفضل والشهامة والنبل".

فأنت تجد أنَّ السِّيد، ككثيرمن الرجال الذين ولعت بذكرهم العامّة منهم، مَن جعله سيِّدًا غِطْريفًا(١) بالتشديد، ومنهم مَن جعله سيِّدًا عَمَلَّسا(٢) بالتخفيف، ومات السِّيد سنة ١٠٩٩ وهي التي فتح الصليبية فيها بيت المقدس، وبعد موته عادت بَلَنسِية إلى الإسلام، وبقيت زمانًا، حتّى استولى عليها جقوم كما ذكرنا سابقًا، وحُمِلَتْ جثّة السِّيد محنّطة على جواده المشهور، وبيده أحد سيفَيه المسمّى تيزونة، وقُدِّم نعشُه في الجمع كما كان هو مقدَّمًا في الحروب، ودُفِنَ في كنيسة مار بطرس دو كردنه، وماتت شيمانة امرأته بعده بسنتين، وبقيت رايته وسيوفه في ذلك الدير يحملها ملوك قَشتالة في حروبهم تيمُّنًا بالنصر، ورواية كورنيل المسمّاة بالسِّيد اشهر من قفا نبك.

---

(١) السيِّد الشريف.

(٢) أراد بها (هُنا) الذئب الخبيث.

ـ الحرب الثانية بين قشتالة وأراغون

ولنعد إلى ذكر مملكة قَشتالة فنقول: إنَّ الأذْفُنش أو ألفونس السادس، استفحل أمره إلى أن لُقِّب بإمبراطور إسبانية، لكنّ المرابطين هزموه مرارًا، وفي المرّة الأخيرة انهزمت جيوشه في وقعة أقليش، وقُتل ولده فمات من الغمّ، وترك الملك لابنته أوراك، فتزوّجت بألفونس الأول ملك أراغون ونافار، وكادت تتَّحد الممالك الثلاث، إلاّ أنّ أوراك أرادت الاستقلال بملك قَشتالة وأساءت معاملة زوجها، ووقع الشقاق بينهما فحبسها في قصر قسطلار، فأفلتت، وجمعت عساكرها ووقعت الحرب بين أراغون وقَشتالة، ودخل البابا في الصلح فلم ينتهِ الخلاف إلاّ بفسخ الزواج بين ألفونس وامرأته، بعد أن أهرج[1] خصامهما البلاد، ولكن لم يستوثق الأمر لأوراك في مملكتها بما كانت العامّة نقمت عليها من مجاهرتها بالخلاعة، وتجريرها أذيال العهر[2]، وقد اشتهر بين عشّاقها الدّون غونسالز دو لاره والدّون غوميز دو كاندسبينا، وحكي أنَّ لها من هذا الأخير ولدا اسمه فرناندو ولقبه هرتادو، ويقال إنَّ آل هرتادو الأعيان ينتسبون إليه، وكانت قد تزوّجت في الأول بالكونت ريموند الجيليقي، فولد له منها ألفونس السابع، فلمّا بلغ أشدّه وشاهد أحوال أمّه ثار عليها، وشاطرها المُلك، وانحازت إليه كثير من البلاد ولمّا ماتت في سنة ١١٢٦، استقلّ بمُلك قَشتالة، واستفحل أمره وأخذ قلعة رباح من المسلمين، وهو الذي تناول منهم المَريّة وبقيت في حوزة الإسبانيول مدّة، ثمَّ استرجعها المسلمون إلى أن انطوت مع ما انطوى من بساط الأندلس، وتلقَّب هذا الملك أيضًا بإمبراطور إسبانية، إلاّ أنَّ دولة بني عبد المؤمن، ظهرت في أيامه فأصابه من الموحِّدين ما أصاب جدّه من المرابطين، ومات غمًّا، وقسم مملكته بين ولديه الواحد على ليون، والثاني على قَشتالة، فبقيت هذه القسمة ثلاثًا وستّين سنة، فتولّى شانْجُه البِكر قَشتالة وفرديناند الثاني، ليون وجِلِيّقية. وخلف شانْجُه ابنه ألفونس الثامن، وهو في الرابعة من عمره، فكفله الدّون دو غاسترو إلى أن بلغ سنّ الرشد، وخلف فرديناند ابنه ألفونس التاسع، وفي تلك المدّة زحف الموحِّدون إلى إسبانية، وهزموا ألفونس الثامن وجيوش الإسبانيول، في وقعة الأَرَك الشهيرة التي روى مؤرِّخو الإفرنج أنه هلك فيها ثلاثون ألفًا من المسيحيين، أكثرهم من فرسان نظام قلعة رباح ومار يعقوب ومار يليان، وبعد النصرة جيء بألوف من الأسارى إلى يعقوب المنصور فمنّ بإطلاقهم، وترتّب على هذه الوقعة استرجاع

---

(١) جعلها في اختلاط وفوضى وضوضاء.

(٢) عَمَلُ المنكر والفجور.

المسلمين كثيرًا من المواقع والمدن، ثمَّ انعقدت الموادعة[1] لعشر سنين، في أثنائها تقاتل ألفونس الثامن مع ابن عمّه ملك ليون، فأجمع رأي الأساقفة على تزويج ملك ليون بأبنة ملك قَشتالة، تأييدًا للصلح على ما بينهما من درجة القرابة الحائلة دون ذلك ومع كون ملك ليون تزوَّج بأبنة ملك برتغال ففسخت الكنيسة الزواج لمثل تلك العلّة، إلاّ أنَّ الزواج الثاني أُمضيَ في سبيله، بالرغم من حرم الدين، وجاء عنه الملك فرديناند المعدود في القدّيسين، ومن غريب الإتّفاق أنَّ البنت الثانية لألفونس الثامن، ولدت قدّيسًا أيضًا وهو مار لويس، فيكون الإذفونش المذكور جَدًّا لقدّيسَين من جهة الدم.

وفي أيام ألفونس أيضًا، حصلت هزيمة العقاب[2] على المسلمين، وقُتل منهم مائتا ألف، وفرَّ الناصر محمَّد أمير الموحّدين شريدًا، وقد بالغ بعض مؤرِّخي العرب في عدد قتلى تلك المعركة فقالوا: «إنَّه لم ينجُ من الستّمائة ألف التي جمعها الناصر إلاّ ألف فقط» ونسبوا ذلك إلى سوء تدبير الناصر، وقتله الرجال العارفين بقتال الإفرنج، وجعل بعض محقّقي الإفرنج السبب في هذه الهزيمة البعيدة عن التصديق التفاوت العظيم في السلاح بين الفريقَين، لأنَّ أكثر المسلمين كانوا كأنَّهم بدون سلاح، والجلالقة كان معظمهم تحت المغافر والدروع. وقيل في كتاب ألفونس إلى البابا أنَّ عدد المسيحيين الذين جراحاتهم تُنذر بالخطر على أثر الواقعة، هم مائتان وخمسة وعشرون فقط، وقد انتقد كثير من المدقّقين هذا القول، ونسبوه إلى ضعف مَلَكة النقد في ذلك العصر، ووافق يوم العقاب الرابع عشر من صفر سنة ٦٠٩ وفق ١٦ تموز سنة ١٢١٢، واشترك فيه جميع ملوك الإسبانيول، لذلك تقاسموا أسلاب المسلمين ووسّع كلٌّ منهم بَسْطَة إمارته في أملاكهم.

ـ وحدة تاجي ليون، وقشتالة

ولمَّا مات ليون، قام بالأمر بعده ابنه فرديناند القدّيس، ولمَّا كانت أمّه ابنة ملك قَشتالة، وكان أخوها الدّون أنريك قد مات يافعًا، انحصر إرث التاجين في فرديناند، على أنه في حياة أبيه كان قد وقع النزاع بينهما، فلم يخلُ له الجوّ إلاّ بعد موته. وفي أيامه أُخذت قُرْطُبَة من يد الإسلام وانتثر سلك الجزيرة من الوسط، وتلا أخذ قُرْطُبَة ذهاب إشبيلية بعد حصار سنتين، وجلاءِ ثلاثمائة ألف من أهلها إلى غَرناطة، وفي أيامه استفحل أمر محمَّد بن

(١) المُسالَمة، الهُدنة (في ألفاظ هذا العَصر).

(٢) في الأندلس، بين جيّان وقلعة رَباح. وقد وَرَد هذا اللفظ بضمّ العين كما ورَدَ بكَسرها، وهذا لا يؤثّر على مجرى التاريخ.

الأحمر، وحالفه، وأدّى له الجزية، وعصفت ريح قشتالة في إسبانية، وعَلَتْ كلمة الصليب في تلك الأرض، لذلك جُعِلَ فرديناند في صفّ القدّيسين وعُدَّ من أعاظم الملوك. إلاّ أنه مع تسميته قدّيسًا، روى عنه بعض مؤرّخي الإفرنجة أنه في سنة ١٢٣٦، بينما كان يحرق أحد الخوارج في الدين، أخذ يؤرِّث[1] النار بيده، ويضع الحطب، لعلّ ذلك من زيادة الحماسة والله أعلم.

وخَلَفَ فرديناند ابنه ألفونس الفلكي الملقَّب بالصابي، وكان فريد وقته في الملوك في طلب العلم، وألّف في الفلك التآليف، وكانت له فيها آراء نازعة إلى مذاهب الأعصر التي بعده، فقيل إنَّهم بينما كانوا يتذاكرون أمامه في الهيئة على المذهب الذي كان لعهده قال لهم: "إن كان ما تقولون حقًّا فيا ليت الله استشارني قبل ترتيب الأفلاك" فأنكروها عليه وعدّوها كفرًا، وإنَّما كان يريد بها التهكّم بآراء العلماء في ذلك العصر، على أنَّ مكانه في السياسة لم يكن في درجة مكانته في العلم، فإنَّ مؤرِّخي الإفرنج ينسبون إليه الاشتغال بالأفلاك عن الأملاك، ومعرفة ما في السماء مع جهل ما تحت قدميه.

وفي أيامه استصرخ المسلمون يعقوب بن عبد الحقّ سلطان المغرب من بني مرين، فأجاز إلى الأندلس ونصر الإسلام نصرًا عزيزًا وأثخن في بلاد العدوّ، بما أعاد ذكر الأيام الأول، وخيّل رجوع الأمويّة والملثّمين وتلك الدول، وهذا الملك ألفونس هو الذي عقّه ولده شانْجُه، وطرده بمساعدة الرؤساء والأعيان، فاستغاث بالمسلمين ونصروه وعزَّزوه. وعند وفاته كتب وصيّة، حرمه فيها من ولاية عهده، وعهد لألفونس حفيده ابن فرديناند بكره المتوفّى، وذلك لكونه عقّه ونشز[2] عليه، وأثار الرؤساء والدّون فيليب أخاه الذي ذهب مع جماعة من الأمراء إلى غَرناطة، وأقاموا عند سلطانها، لكنَّ وصيّة الصَّابي لم تُغنِ عن الملك شيئًا، فإنَّه ما أغمض عينيه حتَّى قام شانْجُه بالأمر ونازعه أخوه جويان قليلاً، لكنَّه اضطرّ إلى الإذعان، وفي مدّة شانْجُه أُخِذَت طريف من يد ابن مرين، فأَعْمَل[3] في الجهاد، وسرّب البعوث لاسترجاعها، وأجاز إليه الدّون جويان أخو شانْجُه، بحسب رواية بعض مؤرِّخي الإفرنجة، وحضر حصار طريف مع المسلمين. وممّا يُحكى في هذا الحصار والعهدة فيه على الراوي، أنَّ جويان جاء بأحد أولاد دو غوزمان قائد طريف من قِبَل

(١) يُوقدها.

(٢) عصاه وخرج عن طاعته.

(٣) قام به.

شانْجُه، ووقف به على شفير الخندق، ونادى القائد قائلاً له أنْ سلِّم البلد أو لأقْذِفَنَّ بالولد، فلم يجاوبه دو غوزمان ببنتِ شفة[1]، بل شهر سيفه ورمى به نحوه، فرمى المحاصرون الولد في الحفرة. وهذه من حكايات الإسبانيول التي يطاولون بها الجميع في المفاخرة، وعلى بقائها مثلاً نادرًا في الأمانة والوفاء، لو صحّت فهي دون رواية السموآل* الذي لم يسلِّم الدروع ولم يخفر ذمّته ولو بهلاك ولده، فإن كان عند الإسبانيول شيء من هذه الأخلاق العظيمة، فهي من رشح التربية العربية في تلك البلاد كما يقرّر ذلك أرباب التحقيق من مؤرِّخي أوربا أنفسهم.

ومات شانْجُه في ٢٥ نيسان سنة ١٢٥٩ تاركًا الملك لولده فرديناند وهو شاب غضّ الاهاب[2]، فاستلم الزمام والمُلك جمرة تضطرم، والفتنة من كلّ ناحية تحتدم. وفي أيامه ألغي نظام الفرسان الهيكليين، وسببه أنَّ هؤلاء الفرسان كانوا قد بلغوا درجة من القوّة والثروة أعيت على سواهم، ووقفت بالأماني من دون مبلغهم فنفَّسوا[3] عليهم أمرهم، وأغروا بهم الملك وزيّنوا له ما شاؤوا من خبرهم، حَمْلاً له على الإيقاع بهم، وتذرّعوا إلى ذلك بمقالات لفَّقوها عنهم، ورموهم بالإلحاد والتعطيل، والناس في أمرهم بين مصدِّق ومكذِّب فصدرت الأوامر باستئصالهم، فأُحرِق منهم جماعة، ومات فرديناند هذا، لسبع عشرة سنة من ولايته. وقيل في كيفيّة موته إنَّ أميرين من جهة مارتوس، اتُّهما ظلمًا بقتل جويان ألونزو دو بونافيدز، وهو منصرف من قصر الملك، فقُبِض عليهما وأُمر بقتلهما بدون أن يُسمع لهما دفاع، فقيل إنَّهما لمَّا كانا يُساقان إلى الموت، انظرا[4] الملك ثلاثين يومًا لكي يحضر في محكمة الديان تعالى، فلم يمضِ ثلاثون يومًا إلاّ ووُجِدَ فرديناند ميّتًا في فراشه بدون سابق عِلّة ولا سبب سوى الأَجَل.

وخلف فرديناند ابنه ألفونس الحادي عشر، وكان طفلاً، فقامت بكفالته أمّه ثمَّ عمّاه دون بطْرُه وجويان، إلى أن قُتِلا في مرج غَرناطة لعهد اسماعيل بن الأحمر. وفي مدّته أجاز أبو الحسن المريني ابن أبا مالك برسم الجهاد في الأندلس، فقُتِل في إحدى الوقعات واستُلْحِم[5]

---

(١) كلمة.

(*) شاعر جاهلي، يُضرب به المَثَل في الوفاء، عاصَرَه امرؤ القيس، توفّي سنة ٥٦٠م.

(٢) طريّ الجلد، كناية عن أنه لا زال في خصب شبابه.

(٣) حقدوا عنهم ضيقهم.

(٤) أخّرا.

(٥) أُرهِقَ في القتال.

مَن معه من المسلمين، واستنفر أبوه السلطان أبو الحسن قبائل المغرب للإجازة، وكانت المعركة البحرية بين أساطيل المسلمين والنصارى في بحر الزقاق، فتكسّرت أساطيل الإسبانيول، وقُتِلَ أمير البحر جوفر تنوريو، واستُلْحِم أكثر مقاتلته، وذلك في ٣ أغسطس (آب) سنة ١٣١٠، فالتزم ألفونس أن يهادن جميع ملوك إسبانية، ويؤكّد معهم السلم جمعًا لكلمة النصرانية، وحصَّن مواقعه وشحنها بالمقاتلة[1]، وأجاز ابن مرين بجيوشه، وغنم كثيرًا من أسطول الإسبانيول، إلى أن كانت الوقعة المشؤومة على المسلمين في حصار طريف. وقد بالغ الإفرنج في تقدير قتلاهم ذلك اليوم، فقالوا مائتا ألف، وليس هذا من الغرابة بمكان تقدير قتلى الإسبانيول فيه بعشرين رجلاً، ووقعت قلعة ابن زيد و زوطة[2] وغيرها من المواقع، في أيدي الإسبانيول، وانتصروا في بعض المواقع البحرية، فجمع ألفونس حشوده، ونازل الجزيرة، وسرّب إليها ابن مرين المدد، ويقال إنَّ العرب استعملوا في الدفاع عنها الآلات النارية، لأول مرّة عرفها الأوربيّون. وقد مضى بعض وصف هذا الحصار الطويل، في الشقّ المتعلّق بأخبار المغاربة من هذا الكتاب، وأفاضت كتب الإفرنج في ذكر المعارك التي وقعت على أسوار الجزيرة، والدفاع والهجوم، ممّا استمرّ نحو عامين حتَّى بنى ألفونس لجيشه معسكرًا ثابتًا، جعل فيه الأسواق والدكاكين، وقفل كثير من الملوك والأمراء الذين معه إلى بلادهم، مثل كونت بيارون وقسطيلبون وكونت دربي، وساليسبري، من أمراء الإنكليز. ومات ملك نافار وآل الأمر إلى الصلح عن يد ابن الأحمر بتسليم الجزيرة وخروج أهلها بالأمان. وتسلّمها الإفرنج في ٢٧ آذار سنة ١٣٤٤ وانعقدت الهدنة لمدّة عشر سنين، غير أنه لمَّا رأى ألفونس اشتغال أبي الحسن بن مَرين ببعض الفتن في المغرب، اهتبل هذه الغرّة[3]، ونازل جبل الفتح، لكنَّه مات في هذا الحصار لستّة وعشرين من آذار سنة ١٣٥٠ وفق ١٦ المحرّم سنة ٧٥١.

ـ ملوك إسبانيا الجائرون

وقام بالأمر بعده الدّون بِطْرُه الملقَّب بالعاتي، ومن غريب الاتّفاق، أنَّ إسبانية كان يليها في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أربعة ملوك جائرين، لكلّ منهم سيرة فريدة في بابها: فكان الدّون بِطْرُه الملقَّب بالخنجري في أراغون، وشارل الملقَّب بالرديء في نافار

---

(١) المقاتلون.

(٢) موضع في الأندلس، شهير بحُصنه.

(٣) انتهزَ هذه الفُرصة.

والدّون بِطْرُه الملقَّب بالقاسط في البرتغال، والدّون بِطْرُه هذا المعروف بالعاتي أو الجاسي بقَشتالة. وكان عند ارتقائه كرسي الملك لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، فعهد بتهذيبه إلى دون جويان ألونزو دو البوكرك، الذي يقال إنَّه كان تزلّفًا إلى مرضاته، يزيّن له شهواته[1]، ويسوّغ له أفعاله، وكانت فاتحة أعماله قتله الدّونة ليونوره دو غوزمان، امرأة أبيه، ثمَّ قتل غارسيلازو، من أمراء بورغوس، لتهمته إيّاه بالانحياز إلى بني لاره أعدائه، وأمر بطرح جثّته في الأسواق، وعقب ذلك ضربه مالاً معلومًا على أهل بورغوس، فعارض في دفعه بعض أعيانها، فشُنِق منهم ثلاثة، ثمَّ غضب على الدّون ألونزو فرناندز كورونل، لكونه زوج ابنته جويان دو لاسردا، من أعداء الملك، ولمَّا نسب إليه أثناء مرض ألفونس من القيام بدعوة جويان نونز دو لاره، فزحف إليه في مدنه أغيلار وبور غيليوس ومونتلفان، وعاث فيها، وتقبَّض على الدّون ألونزو وقتله، ثمَّ اتّخذ الملك الدّونة ماريه دوباد، يليه حظيَّة له، وكان ذلك بتشويق كافله، البوكرك الذي كان يرجو أن تكون عَضُدًا له، ويستولي بها على قلب الملك، فخاب ظنّه وناصبته العداوة، فأراد أن يجعل لها ضرّة، وصار يسعى في تزويج الملك، فخطب له بلانشة، ابنة دوق دو بوربون من فرنسا، وزُفَّت إليه وكانت بارعة الجمال، متوقّدة الذهن، في السادسة عشرة من السنّ، فبعد يومين من دخوله بها، تركها ورجع إلى حظيّته. فخاف البوكرك أن يبطش به، وفرّ إلى البرتغال واجتهدت والدة الملك أن تحوّل ميله فلم تُفلح في سعيها، وأمر أخيرًا باعتقال امرأته بلانشة في قصر أريفالو، بدون أن يأذن لأحد أن يراها. ثمَّ اقترن بالدّونة جويانة دو كاسترو وكانت على جانب من الحسن والذكاء، واستفتى في فسخ نكاحه[2] الأول الأساقفة، فأفتوه على الرغم منهم، لكنَّه لم تطُل مدّته أيضًا مع هذه العروس الجديدة وهجرها، فارتحلت إلى دويناس، وولدت ابنها جويان وانضمّ أهلها بنو كاسترو إلى الفئة الناقمة، وعمّت حركة الانتقاض مملكة قَشتالة، وثارت طُلَيْطُلة، وفي أثناء ذلك، أغرى الملك طبيبًا إيطاليًا فسمَّ البوكرك مهذّبه، فازدادت الحركة وتقوّت العُصبة وحاول القبض على امرأته الأولى بلانشة، فنصرها الشعب وانضمّت والدته إلى الثوّار، فقبضوا عليه أخيرًا وحجروه، وأبعدوا عن داره مَن كانوا ممالئيه على مقاصده، لكن لم تطُل المدّة، أن انقسم رؤساء الثورة، وفرَّ الملك من معتقله، واستنفر أشياعه وقاتل بهم أعداءه، فظفر بهم، واستمال جماعة منهم، وأمر بضرب أعناق رؤساء طُلَيْطُلة،

(١) يُغريه.

(٢) زواجه.

فقيل إنَّه كان منهم رجل صائغ قد ذَرَّفَ على الثمانين[1]، وكان له ولد في سنّ الثمانية عشرة جاشت به الحمية على أبيه، فالتمس أن يُقتل مكان أبيه، فلم تأخذ الملك رأفة بشبابه ولا بشيخوخة أبيه، فقبل البدل وقتل الولد محلّ الوالد.

ـ الحرب من جديد بين قشتالة وأراغون

وبعد أن استراح بِطْرُه من ثوّار الداخل، وشرّدهم إلى فرنسا وغيرها، نشب في حرب مع أراغون، سببها أنَّ فرنسيس بيرلوس قائد البحر، عند بِطْرُه ملك أراغون، كان ذاهبًا ببعض أسطوله يساعد فرنسا على إنكلترة في حرب ببحر المانش، فلمّا وصل إلى ثَغر سان لوكاردو براميدا في فم الوادي الكبير، صادف مراكب جَنَوِيّة فضبطها، لوقوع الحرب يومئذٍ بين أراغون وجنوى بسبب سردانية، فسأله بِطْرُه الجاسي الإفراج عن تلك المراكب وكان هناك يتنزَّه، فأبى، فامتعض منه وأرسل إلى رصيفه[2] في الرتبة والخصال بِطْرُه الملقَّب بالخِنجري، يسأله تسليم فرنسيس المذكور فأجابه أنَّ فرنسيس لم يزل غائبًا، وعند رجوعه تجري محاكمته بما يرضي ملك قَشتالة، لكن لا يمكن تسليمه، فشهر بِطْرُه الحرب على جاره وسميه وانضمّ إلى ملك أراغون جميع الناقمين من إخوة ملك قَشتالة وأعيان مملكته، وخفّ الدُّون أنريك من فرنسا إلى أراغون، وكما كان في جانب بِطْرُه الأراغوني كثير من أمراء قَشتالة، كان في جانب بِطْرُه القَشتالي كثير من أمراء أراغون، مثل الدّون جويان والدّون فرناند، ولكنَّ شراسة أخلاق مولاهم وسوء عشرته، آلا بكثير منهم إلى الانحياز عنه، فابتدأ بذلك الدّون فرناندو وفارقه، وقيل إنَّ منهم الدّون ألفار بيريز دو غوزمان، وكانت له امرأة حسناء اسمها الدّونة الدونزة، أعجبت الملك فحدّثته نفسه باغتصابها من زوجها، ففرّ إلى أراغون وانحاز ابن عمّه الدّون جويان دو لا سردا إلى الأندلس، فجمع عسكرًا من مقاطعته واجتاح البلاد، لكنَّه لم يساعده القدر إذ وقع أسيرًا في أيدي جند الملك، وسيق إلى إشبيلية فأرسل بِطْرُه في الحال من بطانته لُذَريق دو كاسترو، لقتله، وبلغ امرأته الدّونة مارية ما حلّ بزوجها، فجاءت إلى الملك تبكي وتلطم خدّها، وضرعت إليه جاثية على رجلها أن يعفو عن بعلها، فأعطاها أمرًا بالعفو على يقينه بأنَّ الأمر قد قُضي، فلمّا وصلت إلى إشبيلية وجدت أنَّ قد سبق السيف العذل.

---

(١) زاد عُمره على الثمانين سنة.

(٢) ألِيفُهُ.

ثمَّ وفدت عليه الدّونة الدونزه كورونل بعد انعقاد الهدنة بينه وبين أراغون، واستماحت منه العفو عن الدّون الفار بيريز دو غوزمان، وكان الملك قد حاول سابقًا اغتصابها فامتنعت منه، فسبحان مُقَلِّب القلوب، إذ مالت إليه هذه المرّة وحظيت عنده، فأسكنها في برج الذهب، على ضفّة الوادي الكبير، وتمتّعت زمنًا بالأمر، إلى أن ملّها وعاد على حظيّته الأولى ماريه دو باديليه، كأنّه لا حبَّ إلاّ للحبيب الأوّل، ثمَّ لسبب ضعيف أو لغير سبب، قتل بِطْرُه أخاه الدّون فادريك رئيس نظام مار يعقوب، وارتكبها فيه شنعاء، إذ أجرى ذلك بحضوره، واسترجع فيه الحرس مرارًا، حتّى تناولوه ضربًا بالدبابيس، فأثووه [1] لوقته، وذهب الملك يسأل عن رفاق أخيه في القصر، فلم يعثر إلاّ على رجل يقال له سانشو، فقتله بيده وهوماسك بأذيال ابنة الملك طلبًا للنجاة. وعاد فتناول الغداء في القاعة التي كانت مطروحة فيها جثّة أخيه، وبعد أن فتك بفادريك، دعا أخاه الثاني جويان ووعده بولاية بيسكاي، واستصحبه إليها لقتل مُتَولّيها أخيه الدّون تلو، وقاطعه إيّاها، ففرّ تلو إلى فرنسا واستنجز الدّون جويان وَعْدَ أخيه، فبعث إليه بالحضور، فقدم ومعه ثلاثة بقوا خارجًا، ودخل جويان ليس معه سوى خنجر صغير، فجاء بعض حاشية الملك وألهوه وعلى غفلة منه سلبوه الخنجر، وما حصل في قبضتهم حتّى صرعوه وانثالوا عليه بالدبابيس على أمّ رأسه فمات لحينه، وقذف به الملك من غرفته إلى الساحة، وبعد ذلك تُقُبِّض على خالته الملكة ليونوره وإيزابيلا دو لاره، امرأة الدّون جويان، ولمّا طالت الحرب بينه وبين أراغون وأبى الملك أراغون قبول مطالب بِطْرُه، نَسَبَ هذا رفضه، إلى دسائس الدّون أنريك دو تراستامار، والدّون تلو، والدّون فرناند مركيز طُرطوشة، فانتقم منهم، بقتل أمّهم خالته، ثمَّ اعتقل امرأة الدّون تلو الباقية كانت في البلاد، ثمَّ قتلها، ثمَّ قتل أخويه الصغيرين الدّون جويان الذي كان في التاسعة عشرة من العمر، والدّون بِطْرُه، الذي كان في الرابعة عشرة، بدون ذنب اقترفاه، وكانت الحرب لا تزال قائمة على قدم وساق بين أراغون وقَشتالة، فحضر لدى الملك مرّة كاهن من سان دومينيك دو لاشوسه، وطلب أن يقابل الملك، فمكّنوه من ذلك فقال له مولاي، رأيت في النوم مار دومينيك الكبير فأمرني أن أجيء إليك، وأُنذرك لكي تأخذ حذرك لأنك ستموت مقتولاً بيد الكونت أنريك أخيك، فراجعه الملك إن كان بعثه أحد ليقول له هذا القول فأصرّعلى أنَّ هذه هي رسالة سان دومينيك، فاستعاد حديثه بملأ من الناس فأعاده، فأمر بحرقه حيًا ولم يبال بمرسله، ثمَّ قتل

---

(١) أرْدوه قتيلاً.

أمين صندوقه صموئيل لاوي اليهودي، الذي كان ملأ خزائنه ذهبًا، واستصفى جميع أمواله ثمَّ بعد عقد الصلح مع أراغون قتل امرأته الملكة بلانشة التي كانت قد قضت معظم حياتها بإسبانية رهن الاعتقال، وكانت كاسمها نقيّة البياض بديعة الحسن جذّابة الملامح فَسُقِيَت كأس حتفها في الخامسة والعشرين من سنّها، ومضت طاهرة الإزار[1]، حتَّى قيل على لسانها في أغاني العامّة ما معناه: "أموت بدون أن يعرفني الملك وأذهب بين العذارى" مع هذا لم تنجُ هذه الملكة من أوهام القصّاصين الذين رموها بمعاشقة الدّون فادريك أخي الملك، ودافع عنها كثير من المؤرِّخين، بكون زواجها وقع أثناء غياب فادريك، وأنها بعد ذلك لم تجتمع به فأين تمكّن من رؤيتها؟ وهذا الملك هو الذي التجأ إليه أبو سعيد بن الأحمر المنتزي على محمَّد الخامس، فقتله قيل مع سبعة وثلاثين فارسًا من بطانته، وتولّى قتله بيده قائلاً له: "هذا من أجل المعاهدة المذمومة التي اضطرّتني أن أعقدها مع أراغون" فعنَّفه ابن الأحمر وسبّه ولكنَّه بادله كلمًا بكلم، ولمَّا قتل مع جماعته أُرسِل برؤوسهم إلى سلطان الأندلس، وتصافيا ولمَّا أمِّن من جهة المسلمين، خاف أن يناقشه ملك فرنسا الحساب على قتل الملكة بلانشة، فأكّد العهد مع صاحب إنكلترة ومدّ يده إلى ملك البرتغال وملك نافار، وزحف معه نحو ملك أراغون فانهزمت جيوشه، وآل الأمر إلى الصلح، على شرط أن يتزوّج دون بِطْرُه ملك قَشتالة ابنة دون بِطْرُه ملك أراغون، وأن ولي عهد أراغون يقترن بابنة ملك قَشتالة من حظيّته ماريه دو باديليه، وأن ملك أراغون يسلِّم إليه الدّون أنريك دوتر استامار والدّون فرناند مركيز طُرطوشة، فقبل بذلك رصيفه، وقتل فرناند وحاول اغتيال الثاني، ففرَّ واعصوصب[2] حوله القَشتاليّون.

ـ الخلاف في قشتالة

وذهب أنريك إلى فرنسا واستجاشها[3] على أخيه، وكان لهم ثأر في قتل بلانشة، فأرسلوا ثلاثين ألف مقاتل معقودًا عليهم لبرتران دو غوكلين، فدخل مع أنريك مملكة قَشتالة ونودي بهذا ملكًا في كثير من مدائنها التي كان أهلها ينتظرون الفرصة لخلع طاعة الظالم، ففرّ بِطْرُه إلى البرتغال فأبى ملكها قبوله، فعاد وأفلت إلى جِلِّيقيَة حيث لقي فرناند دو كاسترو ومطران سان جاك، فوعداه بالنصرة، وجهَّز له المطران كتيبة مؤلَّفة من ١٢٠٠

(١) بمعنى، شريفة.
(٢) اجتمع حوله، والتفّ حوله.
(٣) جمّعه.

مقاتل، لكنَّه جوزيَ جزاء سنمار، وغدر به بِطْرُه واستصفى أمواله وذهب بها بحرًا إلى بيون، وكانت في يد الإنكليز، واستتبّ الأمر لأخيه الدّون أنريك في قَشتالة، إلاّ أنَّ الإنكليز أجازوا بِطْرُه، وأصحبوه بجحفل جرّار[1] لافتتاح مملكته، وكان أنريك قد أعاد أكثر الفرنسيس الذين معه إلى بلادهم، فضعفت قوَّته، وانهزم أمام البرنس دو غال في واقعة نافاريت، فلحق بفرنسا، ودخل بِطْرُه الجاسي مع البرنس دو غال إلى البلاد، وحاول قتل الأسارى الذين أُخذوا في الوقعة، فوبَّخه البرنس ومنعه، ثمَّ طالبه بنفقات الحرب، فأخذ يطوف في البلاد ويقتل أعيانها ليأخذ أموالهم، وأهلك في تلك الجولة خلقًا كثيرًا حتَّى فرَّ كثير منهم إلى أخيه المنهزم وشدّوا أزره، وأقلع البرنس دو غال غير راضٍ عن أعماله، وعاد الدّون أنريك إلى البلاد ومعه جماعة من الفرنسيس، فقامت أكثر المدن بدعوته، وحصر طُلَيْطُلة، فدافعه عنها الدّون فرناند الفارز أو الفارس من قوّاد الملك بِطْرُه، وجاء هذا مع حليفه ابن الأحمر يحاصر قُرْطُبة، التي كانت تقبَّلت دعوة أخيه، فضيّقا عليها وهجم المسلمون على الأسوار، فاحتلّوا منها برجًا، لكنَّ القُرطُبيين كَرّوا على المحاصرين فكشفوهم فأزمعا العودة، واهتبل محمَّد سلطان غَرناطة هذه الغُرّة، فعاث في بلادهم، واسترجع بعض الحُصون، واكتسح جيّان وأُبَذّة، وغيرهما من المدن المخالِفة للدّون أنريك.

وفي ١٤ آذار سنة ١٣٦٩، انتشبت بين الأخوين معركة بقرب مونتيل، وانكشف الدّون بِطْرُه واعتصم بقصر مونتيل، فبنى أخوه أنريك جدارًا بحجارة يابسة، أعجل بناءه حول القصر ليقطع رجاء بِطْرُه في الخروج، فلمّا شاهد ذلك أخوه وأعوانه وفد منهم معرفة[2] لبرتران دو غوكلين، فداخله في غضّ الطَّرْف عن فرار الدّون بِطْرُه، لقاء جائزة سنية، فرفض برتران، وأخبر بذلك الدّون أنريك، فأشار إليه بأن يقبل هذه المداخلة ويسمح للدّون بِطْرُه بالحضور عنده، وفي ليلة ٢٣ آذار المذكور، انسلّ الملك قاصدًا خيمة القائد دو غوكلين، فلمّا استقرّ بها، دخل عليه أخوه الدّون أنريك بالشكة[*] الكاملة ولأول وهلة لم يعرف أخاه لطول عهده به، فقال له أحد فرسان الفرنسيس ها هوذا خصمك ـ وأشار إلى الدّون بِطْرُه ـ فأجابه نعم ها أناذا، فوثب عليه أنريك ونفحه بشفرة قصيرة في وجهه، فتلقّاه بِطْرُه بذراعيه، وتصارعا فسقط الاثنان على الأرض فوجأه[3] أنريك بخنجره جملة طعنات

(١) جيش عظيم.

(٢) أي أنه أخبروه بالأمر.

(*) السلاح.

(٣) وجأه: ضربه، لكزه.

حتَّى أثواه[١]، وقيل، بل عندما سقط الملكان على الأرض جاء بِطْرُه فوق أنريك، لكنَّ القائد دو غوكلين قلب الثاني فوق الأول، حتَّى مكَّنه من قتله، وكان عمره يومئذٍ أربعًا وثلاثين سنة وسبعة أشهر، وخلفه الدّون أنريك قاتله.

وقد أطَلْنا قليلاً في قصّة هذا الملك الجاسي لغرابة أحواله، وشذوذ مبادئه، وهاك ما لخَّصه ابن خلدون من خبره قال:

"قد تقدَّم ذكر تغلُّب الطاغية ابن الهنشة، على الجزيرة سنة ثلاث وأربعين، وأنه نازل بعدها جبل الفتح سنة إحدى وخمسين، ومات بالطاعون وهو محاصر له، عندما استفحل أمره، واشتدّت شوكته، وكُفي الله شأنه، ووُلّيَ أمر الخلافة بعده ابنه بِطْرُه، وعدا على سائر إخوته، وفرَّ أخوه القِمْط، ابن حظيّة أبيه، المسمّاة بلغتهم ألريق "بهمزة" إلى قِمْط بَرشلونة، فأجاره، وأنزله خير نزل، ولحق به من الزعماء المريكس ابن خالته، وغيره من أقماطهم، وبعث إليه بِطْرُه ملك قَشتالة في إسلام أخيه[٢]، فأبى من أخفاره جواره، وحدثت بينهما بذلك الفتنة الطويلة افتتح فيها بِطْرُه كثيرًا من معاقل صاحب بَرْشِلونة، وأوطأ عساكره نواحي أرضه، وحاصر بَلَنْسِية قاعدة شرق الأندلس مرارًا، وأوجف[٣] عليها بعساكره، وملأ البحر إليها بأساطيله، إلى أن ثقلت على النصرانية وطأته، وساءت فيها ملكته، فانتقضوا عليه ودعوا القِمْط أخاه، فزحف إلى قُرْطُبة، وثار على بِطْرُه أهل إشبيلية وتيقّن صاغية النصارى إليه ففرَّ عن ممالكه، ولحق بملك الإفرنج، وراء جيلِّيقية في الجوف[٤] عنها، وهو صاحب إنكلترة، واسمه الفلس غالس، ووفد عليه صريخًا* سنة سبع وستّين، فجمع قومه، وخرج في صريخه إلى أن استولى على ممالكه، ورجع ملك الإفرنج فعاد النصارى إلى شأنهم مع بِطْرُه، وغلب القِمْط على سائر الممالك، فتحيّز بِطْرُه إلى ثغوره، ممّا يلي بلاد المسلمين، ونادى صريخًا بابن الأحمر، فانتهز الفرصة ودخل بعساكر المسلمين فأثخن في أرض النصرانية، وخرّب معاقلهم ومدنهم، مثل أُبَذَّة وجيّان وغيرهما من أمّهات أمصارهم، ثمَّ رجع إلى غَرناطة ولم تزل الفتنة قائمة بين بِطْرُه وأخيه القِمْط إلى أن غلب عليه القِمْط وقتله" انتهى.

---

(١) أرداه قتيلاً.

(٢) أي إسلامه إليه.

(٣) أسرع.

(٤) الوادي.

(*) الاستغاثة، وخرج في صريخه: خرج مُغيثًا.

وقال ابن خلدون في سفارته عن السلطان ابن الأحمر إلى إشبيلية ما نصَّه: «وسفرت عنه سنة خمس وستّين إلى الطاغية ملك قَشتالة يومئذٍ بِطْرُه بن الهَنْشَة بن أذفونش، لإتمام عقد الصلح بينه وبين ملوك العُدْوة بهديّة فاخرة من ثياب الحرير والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة[1]، فلقيت الطاغية بإشبيلية، وعاينت آثار سلفي بها، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه، وأظهر الاغتباط بمكاني وعلم أوليَّة سلفنا بإشبيلية وأثنى عليَّ عنده، طبيبه ابراهيم بن زرزور اليهودي المقدّم في الطبّ والنجامة*، وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان، وقد استدعاه يستطبّه، وهو يومئذٍ بدار ابن الأحمر بالأندلس، ثمَّ نزع بعد مهلك رضوان القائم بدولتهم إلى الطاغية فأقام عنده، ونظمه في أطبّائه، فلمّا قدمتُ أنا عليه أثنى علي عنده، فطلب الطاغية حينئذٍ المقام عنده، وأن يردّ علي تراث سلفي بإشبيلية، وكان بيد زعماء دولته فتفاديت من ذلك بما قبله، ولم يزل على اغتباطه إلى أن انصرفتُ عنه فزوّدني، وأحمَلني[2]، واختصَّني ببغلة فارهة، بمركب ثقيل ولجام ذهبيين، أهديتهما إلى السلطان فاقطعني قرية البيرة من أراضي السقي بمرج غَرناطة» انتهى.

❁ ❁ ❁

وبعد أن أُديل الدّون أنريك؛ قام ملك البرتغال يطالب بالخلافة، بحجّة أنه هو الوارث الشرعي الوحيد لتخت[3] قَشتالة، لأنَّ والده بِطْرُه القاسط، هو ابن بنت شانْجُه الرابع ملك قَشتالة، ولأنَّ الدّون أنريك ابن الحظيّة، فقد نشبت الحرب، واستولى أنريك على كثير من معاقل البرتغال وحاصر أشبونة عاصمتهم، ثمَّ انعقد السلم بتوسُّط وكيل البابا، وكان أولاد الدّون بِطْرُه الملك السابق مع خزائنه في قَرْمونة، فحاصرها الدّون أنريك ودافعه قائدها مَرْتين لويز دو قُرْطُبة، إلى أن نفذت الأقوات[4]، واضطرّ مع حاميته إلى التسليم على شرط الأمان، فأمَّنهم رئيس مار يعقوب من قوّاد أنريك، لكن هذا أبى تصديق عهد القائد، وقتل مَرْتين صبرًا، واستولى على الخزائن وأرسل أولاد أخيه إلى طُلَيْطُلة حيث أودعهم السجن.

---

(١) اللابسة سُروج الذهب على ظهورها، وقوله: مُقربات، كأنها تلبَسُ الذهب، كما يتلبّس السيف قِرابه، فهو مُقْتَرَب.

(*) لفظ قياس: العِلم بالنجوم وسيارات الفَلَك.

(٢) حمّلني من هداياه وأعطياته.

(٣) عرش.

(٤) مفردها، قُوت: طعام.

وسنة ١٣٧٢، وقعت الحرب بين الإنكليز والفرنسيس، فأرسل الدّون أنريك قائد بحره أمبروسيوبو كانغره لمساعدة الفرنسيس؛ فهزم أسطول الإنكليز، ثمَّ تحارب مع ملك أراغون من أجل مُرْسية، وانتهت الفتنة بتزويج جويان ولي عهده بأبنة صاحب أراغون، وكان الدوق دولنكاستر، رابع أولاد أدوار ملك إنكلترة قد تزوَّج في بيون بالدونّة قِسطَنسه ابنة بِطْرُه الجاسي، وكان والدها قد عهد لها بالملك، فخال هذا الدوق أنه صار صاحب الحقّ في خلافته، فجمع عسكرًا جرّارًا وزحف صوب إسبانية فناوَشه الفرنسيس القتال في طريقه، ومات أكثر جيشه، فعاد بخُفَّي حُنين[1]، ثمَّ لعهد، وقع بين شارل الرديء ملك نافار والإنكليز، زحف إليه الفرنسيس من جهة والقَشتاليّون من أخرى فالتزم أن يصْرُم[2] ذلك الحبل، ومات الدّون أنريك في ٢٩ أيّار ١٣٧٩.

وجلس على كرسي الإمارة ابنه جويان، ووُلِدَ له في أوائل ملكه ولد سمّاه أنريك، وكان فرديناند صاحب البرتغال لم يُرزق غلامًا، وإنَّما ولد ابنة يُخشى بعد موته ضَياع حقّها، فخطر له أن يجعلها حليلة[3] لابن الدّون جويان، فيتمكَّن من حفظ حقّها؛ فخاف الإنكليز عاقبة هذا الزواج وكان الدوق دو لنكاستر لم ينزل عن دعواه، فداخلوا البرتغال في فسخ ذلك العقد، وحملوهم على الحرب، فاصطلت بين المملكتين عوانًا[4]، وطالت زمانًا، ووفد الإنكليز بالمدد على أشبونة، وفي تلك المدّة توفّيت ليونورة امرأة الدّون جويان، فرأى صاحب البرتغال أن يزوِّجه ابنته التي كان يريد إعطاءها لابنه، وهي المسمّاة بالدونّة بياتريزة ويختم بذلك الحرب، فانصاع عنه الإنكليز، وعقد للدون جويان على ابنته المذكورة، وبعد زفافها عليه بأربعة أشهر، مات الدّون فرديناند ونودي بكريمته ملكة على البرتغال، فأسف رعيّة هذه المملكة أن يروا عليهم أجنبيًّا، ولم يقبلوا بالدّون جويان، فزحف إلى عاصمتهم أشبونة وحاصرها برًّا وبحرًا حتَّى هلك كثير من أهلها ومن عساكره، فانكفأ عنها وطمع فيه البرتغال فقاتلوا مَن أطاعه منهم، واجتمعوا وقرَّروا تحت رئاسة قائد أشبونة أنَّ بياتريزة ليست ولدًا شرعيًّا لفرديناند، لأنَّ أمّها كانت متزوِّجة بالدّون جوان لورانسو دوا كونها، حينما نقلت إلى الملك فرْديناند، فبايع البرتغال الدّون جويان بن بِطْرُه القاسط، وانضمّوا إليه، وكان متولّي الدفاع عن أشبونة، فزحف ملك قَشتالة لقتاله

---

(١) مثلٌ يُضرب لمن عاد خاليًا خاسرًا، صِفْرَ اليَدين.

(٢) يقطع.

(٣) زوجة.

(٤) التي قوتِلَ فيها كرّة بعد مرّة.

فالتقيا في ١٤ آب سنة ٨٤ بعد الثلاثمائة والألف، بقرب قرية الجبروته، فانهزم ملك قَشتالة وهلك من جيشه عشرة آلاف، ومن البرتغال ألف، وهي وقعة مذكورة في التاريخ بقي البرتغال يحتفلون بتذكارها أزمانًا، فتوطَّد بذلك أمر الدّون جوان البرتغالي، وجاء الدوق دو لنكاستر الإنكليزي فدخل قَشتالة بجيش، واستولى على بعض البلاد ومدَّ يده إلى يد ملك البرتغال وهيّأ قسمة بلاد عدوّهما، لكنَّ هذا استجاش بالفرنسيس فأمدّوه بالمال والرجال، ولم يفُزْ أعداؤه بطائل، فانتهت الفتنة كغيرها من الفتن التي تضمَّنها هذا التاريخ بزواج أنريك ابن ملك قَشتالة بكاتالانه بنت الدَوق دو لنكاستر من امرأته ابنة بِطْرُه الجاسي، وفي ٩ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ٣٩٠ بعد الألف، بينما كان الملك يجري فرسه في ميدان مع بعض فرسان النصارى الجالين من أفريقية، وكانوا موصوفين بالفروسيّة، إذ كبا به جواده فخرَّ صريعًا، وحُمِلَ بدون حراك، فخلفه ابنه الدّون أنريك في الثانية عشرة من العمر، وكفله مجلس مؤلَّف من الدّون فادريك ابن الدّون أنريك جَدّ الملك من حظيّته، ومن الدّون بِطْرُه، حفيد فادريك رئيس نظام مار يعقوب، الذي قتله أخوه بِطْرُه، ومن أساقفة طُلَيْطُلَة وسان جاك وغيرهم من القوّاد، فانتشرت السلطة وتمخَّضَت الحال بالفتنة، وصارت الناس فوضى، وفي هيعة[1] ذلك، هجمت العامّة في قُرْطُبة على اليهود، فقتلوا منهم خَلقًا، وانتهبوا أموالهم، وفي مُدَّته قام محمَّد ثاني أولاد يوسف بن الأحمر على أبيه ورماه بالضعف عن الجهاد، وأثار عليه العامّة، فالتزم يوسف أن يخرج بعساكره ويجتاح بلاد النصارى لينفي تُهمة ابنه الذي اتّخذها حجّة للخروج، إلاّ أنه لمَّا كان ميّالاً بطبعه إلى السلم لم يلبث أن هادنهم وقفل.

وفي تلك المدّة ظهر رجل عند الإسبانيول يُدعى سيو، معروف بالنسك والزهادة وقبول الدعاء، وصار لعامّتهم فيه اعتقاد كبير، فأنبأ رئيس فرسان القنطرة بأنه يفتح غَرناطة، كما فتح السيِّد بَلَنْسِية فصدَّقه، وأرسل اثنين من أعوانه إلى سلطان غَرناطة برسالة تضمَّنت قذفًا وطعنًا في دينه، وتهديدًا وإنذارًا من بطشه، وهو يدعوه إلى النِّزال، ويعده أن احجِمْ من الأنذال[2]، ويقاتله بفئة قليلة، له أن يجمع بإزائها أضعافها، فلم يكترث صاحب الأندلس بكلامه إلاّ كما يكترث بهذَيان الممسوسين، وطرد الرُّسُل من حضرته مذمومين مدحورين، فلمَّا بلغ ذلك مارتين يانس أستاذ القنطرة، جهَّز خمسة آلاف مقاتل وسار بهم

(١) كلّ ما أفزعك من صوت، ومجازًا، الضوضاء.

(٢) كفَّ عن مصاحَبتهم. وفعل الأمر مُسوغ في هذا السياق.

نحو غَرناطة، وقيل إنَّ الدّون أنريك نهاه عن المسير لما فيه من النكث بالمعاهدات، فلم ينتهِ قائلاً إنَّها مسألة دينية لا سياسية، يلزم فيها الخضوع للملك، ولمَّا مرَّ بجيشه بقَرطبة، حاول بعضهم أن يمنعه من جواز [1] الجسر، فثارت العامّة واعترضت على تلك الممانعة، فأذن له وفي ٢٦ نيسان سنة ٣٩٤ بعد الألف وصل إلى ثغور غَرناطة وحاصر بُرجًا اسمه برج إيجة وبعث إلى الحامية يعرض عليهم التسليم والنصرانية، وإلاّ فالسيف، فهزئوا به وجاوبوه بالنشّاب والحجارة، فَجُرِح الأستاذ وقُتل معه ثلاثة من أبطاله، فدعا الناسك سيو وقال له، أكّدت لنا أنه لا يهلك منّا أحد وهوذا ثلاثة قد سقطوا صرعى فقال له الناسك، نعم قلت ولا أزال أقول، لكن إنَّما أردت بذلك الحرب في السهل لا الحصار أمام الحصون، فأخذ يجمع أكداسًا من الحطب بقصد إحراق البرج، وإذا بعساكر المسلمين قد أقبلت، فذعر أصحاب يانس من كثرتها، وصاروا ينسلّون هاربين، فوضع رايته والصليب في الوسط، وأحاط بهما في نخبة رجاله، إلاّ أنَّ العدوّ أحاط بالجميع، فلم ينجُ من الخمسة آلاف سوى ألف وخمسمائة، وأمّا معلّم القنطرة، فسقط مع جميع الرجال الذين انتخبهم ليكونوا في موطنه، وانتشر خبر هذه الهزيمة في إسبانية، فخاف النصارى أن يستأسد المسلمون ويوقعوا بهم، لكنَّ السلطان يوسف، حصر القتال في مكانه مع هذا الرجل المتحمِّس، ولم ينكث بعهده معهم، إلاّ أنه لمَّا مات وخلفه ولده محمَّد استؤنفت الحرب، وأخذ كلٌّ من الفريقين ينحي باللائمة على الآخر في إخفار الذمّة.

وعام أربعة بعد الأربعمائة والألف، خرج محمَّد بن يوسف غازيًا في جيش كثيف، فاكتسح البسائط وعاث في بلاد الإسبانيول، وفي السنة التالية، غزا جيّان وأذاقها مُرَّ القتال، وقفل بالغنائم، فأخذ الدّون أنريك يُحَصِّن ثغوره دَفْعًا لعادية المغاربة.

وسنة ١٤٠٦، قضى نَحبه تاركًا من الولد طفلاً وابنتين، فأوصى بتربية أولاده أخاه الدّون فرناند الملقَّب بالرشيد وامرأته الملكة كاترينه، وكان من فواتح أعمالها التجهيز لحرب غَرناطة، فشنَّت الغارات وعطَّلت الثغور، ومات أثناءها محمَّد بن يوسف، وخلفه أخوه البكر يوسف فتجدَّد القتال في مدّته، وتزاحف الفريقان في سنة عشر بعد الأربعمائة والألف، وحاصر الإسبانيول النقيرة وأخذوها، واستفحل بذلك شأن فرناند.

وفي هاتيك الآونة، مات صاحب أراغون عن غير ولد شرعي كما قدّمنا في أخبار أراغون، فأجمع رأي نوّاب تلك الأمّة على انتخاب فرناند، الرشيد، ملكًا عليهم لمكانه من

(١) اجتياز.

القرابة وما عُرف من ذمّته وأمانته وعفّته عن اغتصاب ملك ابن أخيه، الذي استودعه طفلاً رضيعًا، فتوّج فرناند ملكًا على أراغون، وبقي كافلاً لابن أخيه في قَشتالة، وبينما كان سائرًا لغزو المسلمين سنة ١٤١٦، وافاه أجَلُه، فاستقلّ بكفالة ملك قَشتالة أمّه كاترينة بنت دوق لنكاستر الإنكليزي، وكانت ممدوحة السيرة إلاّ أنها كانت مغرمة بالخمرة، ونقم عليها الإسبانيول عدم كراهيّتها الشديدة للإسلام، فماتت حتْفَ أنْفِها[1] في غرّة حزيران سنة ١٨، فتسلّم ابنها ملك جويان أزمّة المُلك وهو في نحو الثالثة عشرة من العمر، فتنازع الرئاسة الأمراء والقوّاد، وانتشبت الفتن، وتوالتِ المحن، إلى أن تمكّن من رأب الصدع[2].

وفي تلك الأيام حدثت في غَرناطة حوادث جمّة من وفاة يوسف بن الأحمر، وقيام ولده محمَّد الأعسر مقامه، وخلع هذا، وقيام محمَّد الصغير، وخلعه، ورجوع الأعسر، وانتزاء يوسف ابن عمّه عليه، وجلوسه على تخت الإمارة، وموته ورجوع الأعسر ثالثة، ممّا استوفيناه في أخبار غَرناطة. وامتدّت لجويان في قضايا المسلمين، بعضهم مع بعض، يد طولى، واستفاد من انقسامهم، فهزمهم وأثخن في بلادهم. وممّا سوّد صحيفته، نكبته لأمير الجيوش الدّون ألفارو دو لونة، الذي حضنه وربّاه ونصره على أعدائه وأخلص في مناصحته مدّة ثلاثين سنة، فجزاه شرّ الجزاء بسبب اختياره ابنة ملك البرتغال لزواجه بعد وفاة زوجته الدّونة مارية، حال كَون، جويان يهوى رادغوند ابنة شارل السابع ملك فرنسا، والصحيح أنَّ الدّون ألفارو كان في دولة قَشتالة لعهد جويان أشبه بيحيى ابن خالد البرمكي في دولة الرشيد، لا يُقطع أمر بدونه ولا تُمضى قضيّة إلاّ على مقتضى إرادته، حتَّى انصرفت إليه الناس من دون الملك؛ وازدحمت في بابه الأقدام، وثقل على جويان احتمال هذا الأمر أكثر ممّا احتمله، إلاّ أنه لم يعمّر زمانًا بعد وفاة ألفارو، ومضى لسبيله في ٢١ تمّوز سنة ١٤٥٤ وكان ملكه مشوبًا بالفتن، ورأيه نسيبًا للعجز، إلاّ أنه كان ممّن يحبّ العلم خصوصًا التاريخ والأدب.

وخلفه ابنه الدّون أنريك الرابع فأوّل ما فكّر فيه عند استوائه على الكرسي، أن ينسل ولدًا يورثه الملك. فاقترن بالدونّة جويانة البرتغالية، لكن لم يلبث أن اتّخذ من دونها الحظايا، فاختار كاتالينه دو صندوفال، مدّة، ثمَّ تركها، ولمّا علم أنها علقت بفارس غيره، أمر بضرب عنقه، ثمَّ بلغه أنَّ دير راهبات مار بطرس دولاس دويناس محتاج إلى

(١) ماتَ على فراشه ولم يُقتل.
(٢) إصلاح الحال.

الإصلاح، فعيَّن معشوقته هذه رئيسة للراهبات، واتّخذ الدّونة غيومار دو كاسترو عشيقة، فحكّمها في إرادته، وانقطع إليها دون العالمين، فثار عليها حسد الملكة واشتدّت الفتنة بينهما، حتَّى أنهما مرّة تعاركتا وتضاربتا وفتل من ساعد[1] الملكة ما في صدرها من الغيظ ممّن اغتصبها حقَّها، فأمسكت بذوائب[2] الحظيّة وصرعتها في الأرض، فحضر الملك مسرعًا، ورفس الملكة فأنامها لوقتها مغشيًّا عليها. قال المؤرّخ لا فاله: "وهذه الوقائع المخجلة لم تكن إلاّ مقدّمة لحوادث أعظم فضيحة وأظهر عارًا، وروى من عشق الملكة لبرتران دو لاكوفا، ومن تهتّكها وولادتها، ودعوة الملك أمراء البلاد لحلف يمين الأمانة لابنته الجديدة، وإبائهم ذلك اشتباهًا في صحّة نسَبها للملك، إلى غير هذا من الأمور الفاضحة، ما أمسكنا عن تفصيله ضنًّا بشأن التيجان، وحرمةً لمقام الصولجان، خصوصًا وإنَّ لهذا الملك فيه السهم الأوفر من العار". وبالإجمال فنقول إنَّ أمراء قَشتالة خرجوا على أميرهم أنريك، ولاشتهار عجزه عن الزواج عندهم، رفضوا أن يقبلوا عليهم وليّ عهد من سلالته، إذ ليس عندهم ممَّن له سلالة، فولّوا عهد الإمارة أخاه ألفونس، وطوَّح ببعض الثّوار بغض الملك واحتقاره، حتَّى نصبوا له علمًا في محفل غاصّ، ووضعوا عليه جميع شارات الملك، وعصبوه بالتاج وقام واحد فقرأ على الملأ فاضحًا سيرته فأخذوا عند كلّ نبذة ينزعون قطعة حتَّى جرَّدوا النصب[3]، ثمَّ لم ينتهوا حتَّى حطوّه للأرض، وبايعوا ألفونس ملكًا، وجمهروا حوله، وحصروا بعض المدن، فزحف إليهم أنريك وناصره من الأمراء والأعيان، مَن أحفظه عمل الثوّار، ولم يحطب في حبال الفوضى[4]، فالتقى الجمعان في ظاهر أولميدو وتناجزوا[5] مناجزة الأضداد، إذا ملأت صدورهم الأحقاد، وفصل كلٌّ من الفريقين مدّعيًا لنفسه النصر، والصحيح أنه لم يتعيَّن لأحد. ولم تزل الثائرة حتَّى جاء ما لم يكن في الحسبان، وهو وفاة الدّون ألفونس في ٥ تمّوز من أشهر عام ٦٨ بعد الأربعمائة والألف، فلمّا لم يجد الخوارج مَن يقدّمونه عليهم، جاؤوا مبايعين الدّونة إيزابيلا أخت الملك أنريك، فأبت مزاحمة أخيها وذكَّرتهم بما عليهم من فروض الطاعة لمليكهم، إلاّ أنها طالبت بحقّ الوراثة، فلمَّا عرض ذلك على الملك، عدَّه مغنمًا بشرط دخول القوم في الطاعة، وسكن الثّوار على

(١) جعله قويًّا.
(٢) ذوابة: ناصية أو منبتها من الرأس (الشّعر).
(٣) العَلَم المنصوب.
(٤) لم ينصر الفوضى، ورفضها.
(٥) تقاتلوا وتبارزوا.

وثيقة استخلاف الدّونة إيزابيلا، والعفو العام عنهم، ورضي الملك بذلك واعترضت الملكة، داعية لابنتها التي تقدّم خبرها، فلم يسمع لها، وحلّ وكيل البابا الأمراء الذين أقسموا يمين الأمانة لتلك البنت من عقدة اليمين.

ـ فرديناند ملك أراغون، وإيزابيلا ملكة قشتالة

وكانت إيزابيلا، جامعة بين جمال المنظر وجودة الإدراك، وأحسن منهما أنها وارثة ملك قَشتالة، فأخذ جميع ملوك عصرها يتسابقون على خطبتها، إلاّ أنَّ اختيارها وقع على فرديناند ملك أراغون، ومضت إليه رغمًا عن إرادة الكثيرين من أعيان المملكة، فالتقيا في وادي الوليد وتمَّ عقد النكاح بينهما في سنة ١٤٦٩.

فأحفظ[1] ذلك، المركيز دو فيلنه مستشار الملك، فقام يسعى في إيجاد خطيب من الملوك لابنة الملك، أملاً بمنازعة إيزابيلا الوراثة، فمالوا إلى ملك البرتغال، ثمَّ أبرزوا الدوق دو غويان واحتفلوا بالخطبة، لكنَّ سفراء الدوق اشترطوا على الملكة أن تحلف على رؤوس الأشهاد، بأنَّ هذه الفتاة هي ابنة الملك أنريك، وعليه أيضًا أن يحلف بأنه أبوها، ففعلا ومع ذلك بقي الخطيب مشتبهًا، حتَّى أنه لم يهجم على النكاح. وأخطبوها لأمير آخر اسمه الدّون أنريك، ثمَّ لسوء مَلَكَتِه كره الملك تزويجها منه، فبقيت بدون عرس، إلى ما بعد مهلك الدّون أنريك الذي وقع في ١٢ كانون الأول سنة ١٤٧٤.

فانتقل المُلك إلى إيزابيلا زوجة فرديناند، وفي أوائل الأمر كاد يقع بين الزوجين الشِقاق، لكون فرديناند يزعم أنه هو الملك الوحيد، لأنه لا يوجد رجل سواه من سلالة الدّون أنريك دو تراستامار، وإيزابيلا تزعم أنَّ انتقال الأمر إلى النساء معروف في عادات مملكة قَشتالة، وهي أقرب وارث إلى آخر ملك، فلها الحقّ وحدها في المُلك، وحكم الزوجان من يفصل الخطاب، فحكموا على الملك فرديناند، فأجمع الرحلة عائدًا إلى أراغون فحينئذٍ أخذت إيزابيلا تقدّم له البراهين، مقرونة بالرجاء بأنَّ دعواها هذه ضرورية لمصلحة ابنتهما، إذ لو فُرض أنهما لم يُرزقا ذَكَرًا، وكان حقّ المرأة ساقطًا في الإمارة، لزم أن ينتقل ذلك إلى زوجها الذي يكون أجنبيًّا، فيكون قد أسقط ابنته من حقّها، ثمَّ وعدته بأنها تحكم وإيّاه بدون أن تخالفه إلى شيء، وأنها تقدّم اسمه على اسمها في الأوامر، لكن لها

---

(١) أغاظ وأثار.

وحدها الحقّ في نصب الحكّام والولاة، وهكذا مضى الأمر، وطال الرفاء بينهما، وتمّ ما تمَّ على يدهما، فكانت شدّة التحامهما سببًا لانسلاخ الأندلس عن بلاد الإسلام.

وكان المركيز دو فيلنه قد مات وخلفه ابنه، وارثًا عداوة إيزابيلا من أبيه فتحرّك مع الدّون ألفونس كاريلو رئيس أساقفة طُلَيْطُلة لأجل مناصبة الملكة وزوجها، وأغريا ملك البرتغال بالاقتران بالدونّة جويانة المشكوك في نسَبها، فأطاعهما ومع كونها ابنة شقيقته، أقدم على ذلك، ملتمسًا من البابا الإسعاف في سُؤْلِه[1]، وخطبها، ودخل مملكة قَشتالة داعيًا لنفسه، فاعصَوصَب حوله أضداد الملَكَين، وكثُرت الفِتنة عن نابها، وكَثُر العيث وحوصرت المدن، وضيَّق فرديناند على قلعة زامورة، ونهَدَ إلى صاحب البرتغال بقرب (ثورو) فانكشف البرتغال، وقتل منهم جمٌّ وافر، وسلمت قلعة زامورة وذهب ملك البرتغال مستصرخًا لويس الحادي عشر صاحب فرنسا فلم يصرخه[2] وخذله أحزاب خطيبته، وراجع البابا نفسه في الرخصة التي أعطاها في شأن زواجه بابَنة أختِه، وقال إنَّها كانت على غير ترو، فنسخها[3] بمنع لاحق، ورأت تلك المسكينة أنَّ زواجها من أحد أصبح عسيرًا، وأنَّ نسبها إلى الملك أنريك أصبح مسألة خلافية، والقائمون بنُصرتها قليلون، فتبتّلت راهبة في دير سانت كلير دو قويمبرة وكانت تُلقَّب بالبلترانيجه.

وكان يكثر في ممالك إسبانية لذلك العهد اللصوص وقطّاع السوابل[4]، وقلَّما تخلو كورة من عيثهم وفسادهم، وربَّما كان لبعض أمراء البلاد يد في إمدادهم، فوجَّه فرديناند وإيزابيلا عزمهم لاستئصال اللصوص ونظَّما عسكرًا خاصًّا لتأثّرهم وقَطْع دابرهم، وسمّياه هرمانداد، وخصَّصا له مالاً معيّنًا، وعقدا عليه للدون ألفونس أخي فرديناند من حظيّة أبيه، فجرى في أثر اللصوص ونكَّل بهم في كلّ سهل وجبل حتَّى لم يبقَ من هذه الدعارة إلاّ القليل.

وفي هاتيك المدّة، هلك الدّون جويان الثاني ملك أراغون، وتولّى مكانه ابنه فرديناند الكاثوليكي، فضمَّ أراغون وبَلَنْسِية وكاتالونة وصِقِلِّية وميورقة إلى قَشتالة، فبينما كانت ممالك النصرانية العظيمة تتَّحد في تلك الأقطار، كانت مملكة الإسلام الوحيدة فيها، تزداد فتقًا على فتق ليقضيَ الله أمرًا كان مفعولاً.

---

(١) السؤال والتساؤل.

(٢) لم يُغِثه ولم يساعده.

(٣) أزالها "ألغاها".

(٤) الطرقات السالكة.

في ذكر مشيخة المرابطين والغزاة من الإسلام والنصرانية

كانت الثغور منذ القديم مواطِن الأمم المتناظرة، ومواقف الأقران من حُماة الأقوام المتبارزة، وكماة[1] الشعوب المتحاجزة، ومقامات صدق المجاهدين، ومظان[2] النخوة الجائشة بالرؤوس للذبّ[3] عن العِرْض والدين، ومنذ ظهرت دولة الإسلام بما شرع فيها من الجهاد لم تبرح مرابطة الثغور، ومحافظة الدروب، وبعوث الصوائف[4]، من أركان الملّة وقواعد الدولة وأعمدة سُرادق الخلافة، يتنافس في الوفاء بها والقيام عليها الأطول يدًا، والأبعد همًّا، والأشدّ عزمة، والأرخى في المجد غاية، من خلائف الإسلام وسلاطينه[5] وأمراء التوحيد وأساطينه، ممَّن رفعوا في تعزيز الملّة، وإجابة داعي الجنّة شأن الجهاد، ولم تزل آثار مساعيهم ظاهرة بهذه البقيّة من البلاد، فإن كان للإسلام لواء خافق فوق رؤوس بنيه، فهو بقيّة ما عقد بأيدي الغَزاة والمجاهدين، وإن كان تحت أقدامهم مواقع للإمتناع، فهي نتيجة مواقع السيوف من رقاب المناهدين[6]. ولمّا كانت الجزيرة الأندلسية ـ بموقعها من الاتّصال ببرّ العُدْوة الأوروبية، والموازاة لبرّ العُدْوة المغربية، غير منفصلة عنه، إلاّ ببحر الزقاق الذي يتراءى الساحل من ورائه ـ تُعَدُّ ثغر الثغور بين البرَّين الكبيرَين، وموطن الرباط، ومعترك الثقاف من العنصرين العظيمين، استمرَّ الجهاد فيها ثمانمائة سنة ونيّفًا، بين حُماة الحنيفية والنصرانية، منازعة الأرض بالشبر، إذ كان الإسلام هناك في عُنْجهيّته[7]، والعرب تترامى إلى الأندلس للاعتمار من جميع الأقطار، قد عصفت ريحهم بأمم الفرنج، وأجفلت هذه بين أيديهم، وانهزمت من أوجههم، وانتظمت دولة بني أميّة في ذلك الصقع أعظم ما كان

(١) مفردها كميّ: الشجاع.
(٢) النخوة: مكان وجودها.
(٣) ذَبَّ: دفع ومنع.
(٤) الجيوش التي تحارب في الصيف، وهو لفظ خاصّ بأهل المغرب، وقد أنكره عليهم منظم اللّغويين.
(٥) (مجازًا) المُفلحون في كلّ عِلم.
(٦) الصامد بوجه العدوّ.
(٧) الحمق والكِبْر.

العرب نضارة، وأكمل عزًّا وأبعد في العدوّ مُغارًا[1]، مضت على الإسلام في الأندلس قرون، كفت فيها نفسها مؤونة الجهاد، وقامت وحدها في وجه العدوّ، الذي كان قد انضمّ بعد التخاذل واستمسك بعد الاسترسال، إلى أن انقرض حبل الخلافة المروانية، وتشعّبت الكلمة، وصار الأمر إلى ملوك الطوائف، فاستأسد الفرنج، واقتحموا ثغور المسلمين، وأجلوهم عن كثير من القواعد والضواحي، فاستصرخ هؤلاء إخوانهم من وراء البحر، بحسب الانقطاع في تلك الجزيرة، فوافاهم مدد المرابطين من بني لمتونة، واستجاش يوسف بن تاشُفين المغرب، فرمى إليه بأفلاذ أكباده، من زناتة وصنهاجة وغيرهما، وأجاز إلى الأندلس بجحافله، فردّ عادية النصارى، واسترجع كثيرًا من القواعد، ولم يلبث أن تأذّن[2] الله بانقراض أمد تلك الدولة وقيام دولة الموحِّدين بني عبد المؤمن، فاقتدوا بسلفهم في الجهاد، وأجازوا إلى الأندلس على ظمأ من أهلها لنجدتهم، فصدموا تقدّم العدوّ، وفلّوا غرْبَه، ولم يسعد الإسلام الحظّ بطول انتظامهم، وامتداد التئامهم، فخامر دولتهم الضعف، واستولى عليها الانقسام، وظهر في عقبها الفشل، وجاءت وقعة العقاب، لعهد الناصر من أمرائهم، الطامّة الكبرى على الإسلام فلم تقُمْ له بعدها قائمة تُحمد فيما وراء البحر، وانجلى أهله أمام العدوّ المتقدِّم إلى سيف البحر، وحشروا في مملكة ابن نصر، الذي ضمّ شملهم في غَرناطة وجوارها، ورأى المسلمون أنَّ الأمر كاد يُفلت من أيديهم، وأنَّ منزلهم هناك أصبح قلعة، وأنَّ زيالهم لتلك الديار أضحى قريب الأجل[3]، كما يُستَدلّ على ذلك من كلام علمائهم وشعرائهم كقول أبي البقاء الرندي:

قواعدٌ كُنَّ أركـانَ البـلادِ فمـا ... عسى البَقـاءُ إذا لم تَبْقَ أركـانُ

وكقول غيره:

حُثّوا رواحِلَكُمْ يـا أهلَ أندلـسٍ ... فمـا المقـامُ بهـا إلاّ مِنَ الغَلَـطِ

الثَّـوبُ يُنْسَلُّ مِنْ أطرافِهِ وأرى ... ثـوبَ الجزيرةِ منسولاً من الوَسَطِ

وقول لسان الدين بن الخطيب وزير غَرناطة الكبير، من جملة نصيحته لأولاده:

«ومَن رُزِقَ منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد[4]، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا

---

(١) قاتَلَ العدوّ بشدّة، مخترقًا صفوفَه.

(٢) أذِنَ.

(٣) الأجَل: الموت، والزيال: الخروج، لغة في زَوال.

(٤) المضطرب الأوضاع.

يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للذلّة والاحتقار، وساعيًا لنفسه إن تغلّب العدوّ على بلده في الإفتضاح والإفتقار، ومعوَّقًا عن الانتقال أمام النُّوب[1] الثقال».

ـ عامر بن إدريس، والأعياص من بني مَرين

ولمَّا ضعفت حامية الأندلس بعد ذهاب بني عبد المؤمن، وضاقت مسالك المسلمين في الجزيرة، وتسامع بذلك أهل المغرب، نفروا للجهاد، وسابق إلى ذلك الأمير أبو زكريّا بن أبي حَفْص صاحب أفريقية، فأمدَّهم بالمال والرجال، وأعطوه بيعتهم، ولمَّا قامت دولة بني مَرين، واستفحل أمر يعقوب بن عبد الحقّ، واستبدّ بسلطنة المغرب، وكان عظيم الاستعداد في نفسه لإحراز تلك المثوبة، وبلوغ هاتيك الرتبة؛ وأهمَّه شأن ابن أخيه إدريس بن عبد الحقّ لمل وقع بينهما من المنافسة، واستأذنه عامر بن إدريس في الجهاد، اغتنم هذه الفرصة وعقد له على ثلاثة آلاف من مُطوَّعة زناتة[2]، وأجاز معه رحو ابن عمّه ابن عبد الله بن عبد الحقّ، فكان لهم في الأندلس مقام كريم في الجهاد، ثمَّ صارت الإجازة والجهاد شأن ذوي القرابة من ملوك المغرب، المنافسين في المُلك والمزاحمين في الدولة، اغتنامًا للأجر والذكر، وتوسُّلاً إلى قطع أسباب المنافسة بالغربة والانقطاع وهؤلاء مثل أبناء عمّ الملوك من بني مرين الملقَّبين بالأعياص[3] ومثل عبد الملك يغمراسن بن زيّان، وعامر بن منديل بن عبد الرحمن، وزيّان بن محمَّد بن عبد القوي، فامتلأت الأندلس بأقيال[4] (زناتة) وأعياصهم، وكان ممَّن أجاز معهم بنو عيسى بن يحيى بن وسناف بن عبّو بن أبي بكر بن حمامة، ومنهم سليمان وابراهيم اللذان كُرِّم مقامهما في الرباط، ثمَّ أجاز موسى بن رحّو بن عبد الله مع أولاد عمّه أبي عيّاد بن عبد الحقّ، فولاّه السلطان ابن الأحمر رئاسة الغَزاة والمجاهدين، ثمَّ انصرف إلى المغرب، فولّى مكانه أخاه عبد الحقّ، ثمَّ انصرف، فولّى مكانه ابراهيم بن عيسى بن يحيى بن وسناف، ثمَّ رجعا فرجعت إمارة الغَزاة إلى موسى، وبقي فيها إلى أن هلك، فَوَليها[5] أخوه عبد الحقّ إلى أن هلك سنة ٦٧٩، فَوَليها ابنه حمو بن عبد الحقّ بن رحّو. وفي تلك المدّة، خرج عبد الحقّ بن عثمان من ولد محمَّد بن عبد الحقّ، ثاني الأمراء على بني مَرين،

---

(١) مفردها نائبة: المصيبة الشديدة.

(٢) ناحية بسرقسطة من جزيرة الأندلس.

(٣) أعياص مفردها عيص: الأصل والشجر الكثير الملتفّ الأصول أو جماعة الشجر ذي الشوك أو ما اجتمع وتدانى والتفّ من العضاة لو عالي الشجر أو منبت خيار الشجر أو أصوله. والأعياص في قريش: أولاد أميّة بن عبد شمس الأربعة.

(٤) ملوك.

(٥) تولاّها.

على السلطان أبي الربيع المريني، وأجاز إلى الأندلس لعهد سلطانها أبي الجيوش بن محمَّد الفقيه، وخاطب ملك المغرب سلطان غَرناطة في اعتقاله، فقبض هذا عليه، ففرَّ من السجن لاحقًا بالطاغية، وعندما ثار أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد، ودعا لنفسه، وبويع بمالَقَة، ووقعت الحرب بينه وبين ابن عمّه سلطان غَرناطة، وأخذ فيها حمو بن عبد الحقّ أسيرًا، وسيق إلى أبي الوليد أطلق سراحه إكرامًا لعمّه أبي العبّاس بن رحّو، فرجع إلى سلطانه، فأرتاب به وولّي مشيخة الغَزاة عبد الحقّ بن عثمان، فاستدعاه من دار الحرب ثمَّ ارتحل هذا إلى أفريقية، إلى أن قُتل في تِلِمْسان.

ـ عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة

ولمَّا انتزى أبو الوليد بن الرئيس أبي سَعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر، على ابن عمّه صاحب غَرناطة كان شيخ زناتة بمالَقَة عثمان بن أبي العلاء من آل عبد الحقّ، فانتصر به أبو الوليد على ابن عمّه، ولمَّا استتبّ له الأمر عقد له على الغَزاة من زناتة، وصرف عن تلك الرئاسة عثمان بن عبد الحقّ بن عثمان، فلحق بوادي آش مع السلطان أبي الجيوش، وصار حمو بن عبد الحقّ بن رحّو، من جملة عثمان بن أبي العلاء بعد أن كانت الرئاسة له، وبَعُدَ صيت ابن أبي العلاء، واستفحل أمره، وعَلَتْ رايته، وأتاح الله للمسلمين من النصر على يده ما لم يتوقّعوه، ولمَّا مات أبو الوليد سلطان غَرناطة وبويع ابنه، صبيا لنظر[1] الوزير ابن المحروق، استبدّ عليه ابن أبي العلاء شيخ الغَزاة، فوقعت الفتنة بينه وبين الوزير، ونصب الوزير له كفؤًا من ذوي قرباه، يحيى بن عمر بن رحّو، وارتحل عثمان، وبقي إلى أن استبدّ بالأمر السلطان محمَّد بن الأحمر، ونكب ابن المحروق، فاستدعى عثمان ثانية لمشيخة المجاهدين، وبات لسبع وثلاثين سنة من إمارته عليهم وكان مكتوبًا على قبره هكذا:

"هذا قبر شيخ الحُماة، وصدر الأبطال والكُماة، واحد الجلالة، ليث الإقدام والبسالة، عَلَم الأعلام، حامي ذمار الإسلام، صاحب الكتائب المنصورة، والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة، إمام الصفوف القائم بباب الجنَّة تحت ظلال السيوف، سيف الجهاد، قاصم الأعاد، وأسد الآساد، العالي الهمم، الثابت القَدَم، الهمّام المجاهد، البطل الأرضى، الباسل الأمضى، المقدَّس المرحوم أبي سعيد عثمان، ابن الشيخ الجليل، الإمام الكبير،

(١) بؤبؤًا لعينه، كأنما هو عين ينظر الوزير بها. واصطلاحًا: فهو متروك لرأي الوزير، وتحت إشرافه.

الأصيل الشهير، المقدَّس المرحوم، أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحقّ. كان عمره ثمانيًا وثمانين سنة، أنفقه ما بين رَوحة في سبيل الله وغَدوة، حتَّى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة» إلى آخر ما هنالك.

ـ رئاسة الغزاة بعد عثمان بن أبي العلاء

وقام برئاسة الغَزاة بعد عثمان الغازي هذا، ابنه أبو ثابت عامر، وكثرت عصابته، واشتدَّت وطأته، حتَّى استبدّ على ابن الأحمر هو وقومه، وهم الذين قتلوه، بعد رجوعه فائزًا من جبل الفتح، بعد أن قتلوا عاصمًا خادمه، وبايعوا أخاه يوسف، فقبلها منهم، لكن على حذر في الباطن، فلمَّا وجّه السلطان أبو الحسن ابن مرين عزائمه إلى الجهاد، داخل ابن الأحمر في إزاحة الغَزاة هؤلاء عن الأندلس، فأجابه، وقبض على أبي ثابت أميرهم وإخوته إدريس، ومنصور، وسلطان، وفرَّ أخوهم سليمان، فلحق بالطاغية، ثمَّ غرَّبهم سلطان الأندلس إلى أفريقية، وأعاد إمارة الغَزاة إلى يحيى بن عمر بن رحو، فكُرِّم في الجهاد مقامُه، وحُمِدت آثاره، وبقي فيها إلى أن هلك السلطان أبو الحجّاج بن الأحمر، وقام بالأمر ولده محمَّد، وأخذ له البيعة الحاجب رضوان، فقاسم يحيى بن عمر هذا، في الشأن، وشارك في الدولة، فلمَّا انتزى الرئيس أبو سعيد قائمًا بدعوة ابن عمّه اسماعيل أخي السلطان، واغتصبوا منه المُلك حسبما تقدَّم، وأجاز إلى المغرب، مستجيرًا بالسلطان أبي سالم بن مَرين ومعه وزيره ابن الخطيب، وقتلوا الحاجب رضوان، ولم يثقوا بيحيى بن عمر، فاستدعوا لإمارة الغَزاة إدريس بن عثمان بن أبي العلاء، وكان ببرشلونة، فخفَّ وانهزم يحيى إلى دار الحرب، ثمَّ ترك فيها ابنه، وأجاز إلى سلطان المغرب لاحقًا بالسلطان محمَّد المخلوع، فبقي في صحبته إلى أن قيّض الله له الرجوع على يد أبي سالم والطاغية، فرجع يحيى إلى إمارة الغَزاة وخلطه[1] السلطان بنفسه، وبقي على حاله إلى أن وقعت المنافسة بينه وبين ابن الخطيب الوزير، فأغرى السلطان به وبقومه، فأشخصهم[2] إلى المشرق، فركب يحيى إلى الإسكندرية، ثمَّ عاد إلى المغرب، وعاد بعض ولده إلى الأندلس غُزاة على عادتهم.

---

(١) بمعنى، جَعَله قريبًا منه.

(٢) أشخَصَه إلى المكان: أذهَبَه إليه.

وأمّا إدريس ففرَّ بعد رجوع المخلوع مع الرئيس أبي سعيد إلى الطاغية بإشبيلية، فلمّا غدر الطاغية بأبي سعيد حسبما تقدَّم الخبر، أودِع إدريس السجن، فلم يزل فيه حتّى تحيل[1] للخلاص بمداخلة أسير مسلم، فلحق بأرض الإسلام، واتّبعوه فلم يدركوه، وجاء إلى السلطان محمَّد المخلوع، فأكرمه واستأذنه في اللحاق بالمغرب، فأسعفه، وآل أمره إلى الاعتقال في أيام السلطان عبد العزيز بن مَرين، وقُتل خنقًا بمحبسه، وتولّى إمارة الغَزاة بالأندلس علي بن بدر الدين بن موسى بن رحّو بن عبد الله بن عبد الحقّ، وآثره ابن الأحمر أبو الحجّاج، لممانعته دونه ليلة لحاقه بوادي آش مفلتًا من شرك النكبة بالحمراء كما سبق به النبأ، فاستمرّ في رئاسته هذه إلى أن توفّي حتف أنفه سنة ٧٦٨.

ـ سلطان الأندلس يباشر الغزو بنفسه، بعد انتهاء أمر الغَزاة فيها

وقام برئاسة الغَزاة بعده، الأمير عبد الرحمن بن علي بن يَغلوسِن ابن السلطان أبي علي، قلّده إيّاها سلطان الأندلس، لقرب نسَبه من سلطان المغرب، وكون هذه الخطّة مخصوصة بأعياص بن مَرين كما قدَّمنا، فأهمَّ ذلك صاحب المغرب لمَّا خشي من عاقبة الترشيح، وكانت بينه وبين لسان الدين بن الخطيب مراسلات سرّية، فأفضى إليه بميله إلى الإفساد ما بين سلطان غَرناطة وأمير زناتة في الأندلس، فاشتغل ابن الخطيب ذلك طِبقَ خاطره، حتّى حمل سلطانه على اعتقال الأمير عبد الرحمن وبطانته، فألقاهم في السجن، واسترضى بذلك سلطان المغرب، فلمّا نزع ابن الخطيب إلى هذا السلطان، وتبيَّن لابن الأحمر احتياله في شأنهم، أطلق سبيلهم وجهَّز لهم الأسطول، فأجازوا إلى العُدْوَة منازعين في المُلك، واستبدّ الأمير عبد الرحمن بقسم من أعمالها، وعفا رسْم[2] هذه الخطّة من الأندلس، وصار سلطانها يباشر أمور الغزو بنفسه، وربَّما عقد على الغَزاة لأحد أولاده، وكان محو هذه الخطّة من الجزيرة لسنة ٧٨٣، وأكثر السبب استبداد أمراء الغَزاة أبناء عمّ الملوك، على سلاطين بني الأحمر، ومقاسمتهم إيّاهم الجبايات للتفريق على الجند، ومع هذا فقد احتملوا دالتهم مدّة مديدة لمقامهم في الجهاد، وأثرهم في دفع العدوّ، وأخيرًا لمَّا ضاقوا بهم ذرعًا، رأوا الأحزم تحويل هذا الرسم إلى أبنائهم، فقلَّد محمَّد الغنيّ بالله بن الأحمر، ولده الأمير يوسف مشيخة الغَزاة.

---

(١) توسّل حيلة للخلاص والفرار.

(٢) إمّحى، ولم يبقَ منه إلاّ الأثر.

وفي هذا التقليد يقول لسان الدين بن الخطيب: "هذا ظهير[1] كريم، فاتح بنشر الألويّة والبنود، وقَود العساكر والجنود، وأجال في ميدان الوجود، جياد البأس والجود، وأضفى سْتر الحماية والوقاية بالتهائم[2] والنجود، على الطائفين والعاكفين والركّع السجود، عقد للمعتمد به عِقْد التشريف، والقَدْر المنيف زاكي الشهود، وأَوْجَبَ المنافسة بين مجالس السروج ومضاجع المهود، وبشَّرَ السيوف في الغمود، وأنشأ ريح النصر آمنة من الخمود، أمضى أحكامه، وأنهد العزّ أمامه، وفتح عن زهر السرور والحبور أكمامه، أمير المسلمين عبد الله محمَّد بن مولانا أمير المسلمين أبي الحجّاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر، أيّد الله تعالى أمره، وخلَّد ذكره، لكبير ولده، وسابق أمده وريحانة خلده، وياقوتة الملك على يده الأمير الكبير، الطاهر الظاهر الأعلى؛ واسطة السلك وهلال سماء المُلك، ومصباح الظُلَم الحلك، ومظنّة العناية الإلهيّة، من مدير الفلك ومُجري الفُلْك، عنوان سعده، وحسام نصره وعضده، وسميّ جدّه وسلالة فضله ومجده، السعيد المظفّر الهمّام الأعلى الأمضى، العالم العامل الأرضى، المجاهد المؤمل المعظَّم أبي الحجّاج يوسف ألبسه الله تعالى من رضاه عنه حللاً لا تخلق جدَّتها الأيام، ولا تبلغ كنهها الأفهام، وبلَّغه في خدمته المبالغ التي يسرُّ بها الإسلام".

إلى أن يقول: "رأى ـ والله الكفيل لنجح رأيه، وشكر سعيه، وصلة حفظه ورعيه ـ أن يجهد لهم اختياره، ويحسن لديهم آثاره، ويستنيب في ما بينه وبين سيوف جهاده، وأبطال جلاده، وحماة أحوازه، وآلات اعتزازه، مَن يجري مجرى نفسه النفيسة في كلّ مبنى، ويكون له لفظ الولاية وله ـ أيّده الله تعالى ـ المعنى، فقدّمه على الجماعة الأولى كبرى الكتائب، ومقادة الجنائب، وأجمة الأبطال، ومُزنة[3] الوَدْق[4] الهطّال، المشتملة من الغَزاة على مشيخة آل يعقوب نسباء الملوك الكرام، وأعلام الإسلام، وسائر قبائل بني مَرين، ليوث العَرين، وغيرهم من أصناف القبائل؛ وأُولي الوسائل، ليحوط جماعتهم، ويستخلص لله تعالى ولأبيه ـ أيّده الله تعالى ـ طاعتهم، ويشرِّف بإمارته مواكبهم، ويزيّن بهلاله الناهض إلى الإبدار على فلك سعادة الأقدار كواكبهم، تقديمًا أشرق له وجه الدين

(١) أظهر الكتاب: قرأه على ظهر لسانه، والظهير ها هنا بمعنى الرسالة أو الكتاب، يتلوه ناقِلُه للمُرسل إليه، بنفسه.

(٢) مفردها التهم: الأرض المنصوبة إلى البحر.

(٣) السحابة المطرة.

(٤) قَطْرُ المطر.

الحنيف وتهلَّل، وأحسّ باقتراب ما أمَّل، فللخيل اختيال ومَراح، وللأسل السمر اهتزاز وارتياح، وللصدور انشراح، وللآمال مَغْدى في فضل الله تعالى ورواح، فليتولَّ ذلك ـ أسعده الله تعالى ـ تولّي مثله ممَّن أسرّة الملك أسِرّته، وأُسْوَة النبي صلوات الله تعالى عليه أُسْوَته، والملك الكريم أصل لفرعه، والنسب العربي مَحْتِدٌ لطيب طبعه» ...إلخ.

وقال في تقليد الأمير سعد أخي الأمير يوسف: «هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة ظهيرًا[1]»، وعقد منه في سبيل الله تعالى، لواء منصورًا، وأعطى المعتمد به باليُمن كتابًا منشورًا، ﴿وما كانَ عطاءُ ربِّك محظورًا﴾ وأطلع صبح العناية المبصرة الآية يبهر سُفورًا ويسطع نورًا، وأقرّ عيونًا للمسلمين وشرح صدورًا، ووعد الأهلّة[2] أن تصير بإمداد شمس الهدى إيّاها بدورًا، وبشّر الإسلام بالنصر المنتظر، والفتح الرائق الغرر، مواسط وثغورًا؛ واتّبع حُماة الدين لواء الإمارة السعيدة النصرية، فأسعد بها آمرًا وأكرم بها مأمورًا، أمر به، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه، أمير المسلمين عبد الله محمَّد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رَبِّ العالمين أبي الحجّاج ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رَبِّ العالمين أبي الوليد بن فرج بن نصر، أعلى الله رايته وسدَّد رأيه، وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه، لقُرّة عينه، ومقتضي حقِّه من العدوّ ودينه، وغصن دوحه، وآية لوْحِه، ودرّة قلادته، ودرّيّ أفلاك مجادته، وسيف نصره، وهلال قصره، ولده الأسعد، وسليل ملكه المؤيَّد:

إلى أن يقول:

«حامي الحِمى تحت ظلّ طاعته، وكافي الإسلام الذي يأمن من إضاعته، المحرز مزايا الأعمار الطويلة، حظَّ الشهر في يومه، وحظَّ اليوم في ساعته، الموقَّر المهيب المؤمل المعظَّم أبي النصر سعد، عرَّفه الله تعالى ببركة سعد بن عبّادة جدّه، خال رسول الله (ﷺ) وأعْظِم بمجده، ووزيره في حلّه وعقده، وأجناه ثمرة النصر الذي كنّاه به، ووصل سببه بسببه، فما النصر إلاّ من عنده».

إلى أن يقول: «اختار لقيادة مغانيه المنصورة، وإمارة غَزَواته المبرورة، أقرب الناس إلى نفسه نسبًا، وأوصلهم به سببًا، وأحقّهم بالرتَب المنيفة، والمظاهر الشريفة ذاتًا وأبًا، وصرف إليه آماله، واستعمل في أسنّته يمينه وفي أعنّته شماله، وعقد عليه ألْوِيَته الخافقة لعزَّة نصره،

(١) سَنَدًا.

(٢) مفردها هلال.

ورأى الظهور على أعداء الله تعالى جنى فهيّأه لهصره، وأدار هالة قتام الجهاد عن قرب بالولادة على بدره، ونبَّه نفوس المسلمين على جلالة قدره، وقدّمه على الكتيبة الثانية من عسكر الغَزاة، المشتملة على الأشياخ من أولاد يعقوب كبار بني مرين، وسائر قبائلهم المكرّمين»... إلخ.

ـ رسائل لسان الدين بن الخطيب إلى ملوك العُدْوة

وكانت رسائل بني الأحمر إلى ملوك العدوة تترى بالنفير والاستنجاد كلَّما بدأ للعدو كرّة، وأجلها ما كتب بقلم لسان الدين بن الخطيب أيام وزارته ننقل منها بعض الجمل إجمالاً لمعنى الحالة، ونأثر بعض الفقر الدالّة على فقر الأندلس إلى المغرب كلَّما أمعن العدوّ في الاستطالة، فمن ذلك ما كتبه من كتّاب على لسان سلطانه إلى ابن مرين:

«ونحن نرتقب ما يخلق الله تعالى من مهادنة تحصّل بها الأقوات المهيّأة للانتساف[1]، وتُسَكِّن ما ساء البلاد المسلمة من هذا الإرجاف[2]، ونفرّغ الوقت لمطاردة هذه الآمال العجاف، أو حرب يبلغ الاستبصار فيه غايته، حتَّى يظهر الله تعالى في نصر الفئة القليلة آيته، ولم نجعل سبب الاعتزاز في ما أردناه، وشموخ الأنف في ما أصدرناه، إلاّ ما أشْعَرْنا من عزمكم على نُصرة الإسلام، وارتقاب خفوق الأعلام، والنهوض إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأنَّ الأرض حمِيَّة لله تعالى قد اهتزّت، والنفرة قد غلبت النفوس واستفزّت، واستظهرنا بكتبكم التي تضمَّنت ضرب المواعد، وشمَّرت عن السواعد، وأنَّ الخيل قد أطلقت إلى الجهاد في سبيل الله الأعِنّة، والثنايا سدّتها بروق الأسِنّة، وفرض الجهاد قد قام به المؤمنون، والأموال قد سمح بها المسلمون، وهذه الأمور التي تمشّت بقريبها أو بعيدها أحوال الإسلام، والأماني المعدَّة لتزجية الأيام، ثمَّ اتّصل بنا الخبر الكارث بما كان من حَوْر العزائم المؤمنة بعد كَوْرها، وتسويف مواعد النصرة بعد استشعار فَوْرها، وأنَّ الحركة مُعْمَلة إلى مرّاكش الجهة التي في يدَيكم زمامها، وإليكم وإن تراخى الطَول ترجع أحكامها، والقطر الذي لا يفوتكم مع الغفلة، ولا يعجزكُمْ عن الصولة، ولا يطلبكم إن تركتموه، ولا يمنعكم إن طرقتموه وعركتموه، فسقط في الأيدي الممدودة، واختلفت المواعد المحدودة، وخسئت الأبصار المرتقبة، ورجفت المعاقل الأشِبَة، وساءت الظنون، وذرفت

---

(١) (مجازًا) نفاد الأقوات.

(٢) الخوض في الأخبار السيّئة، والفِتن.

العيون، وأكذب الفضلاء الخبر، ونفوا أن يُعتبر، وقالوا هذا لا يمكن حيث الدين الحنيف، والمُلك المنيف، والعلماء الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم، وحمَّل النصيحة أعناقهم، هذا المفترض الذي يبعد، والقائم الذي يقعد، يأباه الله تعالى والإسلام، وتأباه العلماء الأعلام، وتأباه المآذن والمنابر، وتأباه الهمم والأكابر، فبادرنا نستطلع طلع هذا النبأ الذي إذا كان باطلاً فهو الظنّ، ولله المنّ، وإن كان خلافه لرأي ترجّح، وتنفّق بقرب الملك وتبجّح، فنحن نوفد كلّ مَن يقدم إلى الله تعالى بهذا القطر في شفاعة، ويمدّ إليه كفّ ضراعة، ومَن يُوسَم بصلاح وعبادة، ويقصد في الدين بثّ إفادة، يتطرّحون عليكم في نقض ما أُبرم، ونسخ ما أُحكم، فإنَّكم تجنون به على مَن استنصركم عكس ما قصد، وتحلّون عليه ما عقد، وهَب العذر يُقبل في عدم الإعانة، وضرورة الإستعانة والإستكانة، أيُّ عذر يُقبل الإطّراح، والإعراض الصراح؟ كأنَّ الدين غير واحد، كأنَّ هذا القطر لكلمة الإسلام جاحد، كأنَّ ذِمام الإسلام غير جامع، كأنَّ الله غير راءٍ ولا سامع" ...إلخ.

ومن كتاب آخر في وصف ضيق المسلمين بالأندلس قوله "وإن تشوَّفتم إلى أحوال هذا القُطر ومَن به من المسلمين، بمقتضى الدين المتين والفضل المُبين، فاعلموا إنَّنا في هذه الأيام نُدافع من العدوّ تيّارًا، ونكابر بحرًا زخّارًا، ونتوقَّع ـ إلاّ آن وقى الله تعالى ـ خطوبًا كبارًا، ونمدّ اليد إلى الله تعالى انتصارًا، ونلجأ إليه اضطرارًا ونستمدّ دعاء المسلمين بكلّ قطر استعدادًا به واستظهارًا، ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ أخطارًا، وينشئ ريح رَوْح الله طيّبة مِعطارًا، فإنَّ القومِس الأعظم قَيّوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع، ومخالَفَته لا تستطيع، رمى هذه الأمّة الغريبة المنقطعة منهم بجراد لا يسُدّ طريقها، ولا يُحصى فريقها، التفت على أخي صاحب قَشتالة وعزمها أن تملكه بدله، وتبلغه أمله، ويكون الكلّ يدًا واحدة على المسلمين، ومُناصبة هذا الدين، واستئصال شأْفة[1] المؤمنين، وهي شدّة ليس لأهل هذا الوطن بها عهد، ولا عرفها نجد ولا وَهْد، وقد اقتحموا الحدود القريبة، والله تعالى وليّ هذه الأمّة الغريبة، وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد مَن يُقوّي الضعيف، ويدرأ الخطب المخيف، ورجونا أن نكون ممَّن قال الله تعالى فيهم ﴿الذينَ قالَ لهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جمعوا لَكمْ فاَخْشَوْهُم فزادَهُم إيماناً وقالوا: حسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل﴾ إلى آخر ما قال.

وله من جملة كتاب عن سلطانه إلى سلطان المغرب في ذلك المقصد: "وليعلم

(١) الأصل، واستأصل شأفته: أزاله من أصله.

مقامكم، وهو من أصالة النظر غنيّ عن الإعلام، ولكن لا بدّ من الاستراحة بالكلام، والتنفّث بنفثات الأقلام، إنّنا إنّما نجري أمورنا مع هذا العدوّ الذي رُمينا بجواره، وبُلينا والحمد لله بمصادمة تيّاره، على تعداد أقطاره، واتّساع براريه وبحاره، بأن تكون الأمّة المحمَّدية بالعُدْوَتين تحت وفاق، وأسواق النفاق غير ذات نَفَاق، والجماهير تحت عهد من الله تعالى وميثاق، فمهما تعرّفنا أنّ اثنين اختلف منهما بالعُدْوَتين عقد، ووقع بينهما في قبول الطاعة ردّ، ساءنا واقعه، وعَظُمت لدينا مواقعه، وسألنا بأن يتدارك الخرْق راقعه، لما نتوقّعه من التشاغل عن نصرنا، وتفرّغ العدوّ إلى ضرّنا". إلى آخر ما قال وأنعم في المقال.

وله في مثل ذلك عن سلطانه إلى أحد أولاد السلطان أبي الحسن المريني قيل إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز وهو قوله:

"إنّ هذا القطر الذي تعدَّدت فيه المحاريب والمنابر، والراكع والساجد، والذاكر والعابد، والعالم واللفيف، والأرملة والضعيف، قد انقطع عنه إرفاد الإسلام، وشحّت الأيدي به منذ أعوام، وقوبلت ضرائره بالأعذار، والمواعيد المستغرقة للأعمار، وإن عرضت شواغل وفتن، وشواغب وإحن، فقد كانت بحيث لا يقطع السبب بجملته ولا يذهب المعروف بكلّيته.

ولا بُدَّ مِنْ شَكْوى إلى ذي مُروءَةٍ يُؤاسِيك أو يُسْليكَ أو يتوجَّعُ

ولو كانت الأشغاب تقطع المعروف، وتصرف عن الواجب، لم يفتح المقدّس والدكم جبل الفتح، وهو منازل أخاه بسجلماسة، ولا أمدّه ولده السلطان أبو عنان وهو بمرّاكش (إلى أن يقول) ولا كالحسرة في الجبل باب الأندلس، وركاب الجهاد، وحسنة بني مَرين، ومآثر آل يعقوب، وكرامة الله للسلطان المقدّس أبي الحسن والد الملوك، وكبير الخلفاء والمجاهدين والدكم الذي تَرِد على قبره مع الساعات والأنفاس وفود الرحمة، وهدايا الزلفة وريحان الجنّة، فلولا أنكم على علم من أحواله لشرحنا المجمل، وشكلنا المهمل، إنّما هو اليوم شبح مائد وطلل بائد، لولا أنّ الله تعالى شغل العدوّ عنه بفتنة، لم يصرف وجهه إلاّ إليه، ولا حوّم طيره إلاّ عليه، ولكان بصدد أن يتّخذه الصليب دارًا، وأن يقرَّ به عينًا، والعُدْوة فضلاً عن الأندلس، قد أوسعها شرًّا، وأرهق ما يجاوره عُسْرًا، نسأل الله أن لا يُسَوّد الوجوه بالفجع فيه، ولا يسمع المسلمين الثكلة"، إلى أن يقول:

"فمَن يُستدعى لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيّه إلاّ أهل ذلك الوطن؟ حيث المآذن بذكر الله تملأ الآفاق، وكلمة الإسلام قد عمّت الربى والوهاد، إنّما الإسلام غريق قد تشبّث

بأهدابكم، يناشدكم الله في بقيّة الرمق، وقبل الرمي تُراش[1] السهام، وهذا أوان الاعتناء، واختبار الحماة، وأعداد الأقوات، قبل أن يضيق المجال، وتمنع الموانع، وقد وجَّهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يدَيكم، مقرِّرًا الضرورة منهيًا الرغبة، مذكِّرًا بما يقرب عند الله، مذكِّرًا لذمام الإسلام، جالبًا على مَن وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التي تشرح الصدور، وتُنْسي الآمال، وتستدعي الدعاء والثناء، فالمؤمن كثير بأخيه، ويد الله مع الجماعة، والمسلمون يد على سواهم، والمؤمن للمؤمن كالبُنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا، والتعاون على البرِّ والتقوى مشروع، وفي الذكر الحكيم مذكور، وحقّ الجار مشهور، وما كان جبريل يوصي به في الصحيح مكتوب"... إلخ.

ـ تخاذُل المسلمين عن إنجاد إخوانهم في الأندلس

وما زالت الأندلس تستجيش بالمغرب أَوَانَ الضعف، وملوك بني الأحمر يستصرخون بني مَرين من وراء البحر، إلى المائة التاسعة، حيث صار السائل لا يجد مجيبًا، والصارخ لا يسمع ملبِّيًا، وتخاذل المسلمون عن النصرة، وشُغلوا في المغرب بشؤونهم الخاصّة، وفَتَنَهُم الناجمة[2] عن مدّ اليد إلى إخوانهم في إسبانية، بل انصرمت حبال آمالهم ببقاء ذلك القطر على الكلمة، وأيقنوا أنَّ سوف لا يبقى أحد في ذلك البرّ من الأمّة المسلمة، فصارت ترِدُ عليهم الأخبار وهم ساهون، وتحدّثهم الجالية والركبان، بما خلَّفوا وراءهم من الفجائع والفظائع، وهم لاهون، وإذا ثار بأحدهم ثائر للجهاد، لم يجد عَلَمًا ينضوي إليه، ولا سندًا يُعوّل عليه، ولا جماعة ينتظم فيها. ذلك بما أصاب المغرب من افتراق الكلمة وانحطاط الدول، وتحوُّل الأحوال الأول، فلمّا سقطت الأندلس كانت أختُها العُدْوة ناظرة إليها وهي تنشد:

ألا ربَّ يوم ٍلو رَمَتْني رَميْتُها ... ولكنَّ عهدي بالنضال ِقديمُ

ـ أوروبا تنجد الإسبانيول، وإنشاء أنظمة الفرسان لمحاربة المسلمين

وأمّا النصارى، ففي بداية برازهم مع المسلمين في الجزيرة الأندلسية، كانوا يستنجدون إخوانهم وراء جبال البيرانة، فتخف إلى صريخهم[3] أمم الفرنج والألمان والإنكليز، وربَّما

(١) راش يريش ريشًا السهم: ركب عليه الريش.

(٢) لفظ قياسي، يريد به النجّامون، ومن الخطأ قولهم: المنجّمين.

(٣) بمعنى استغاثتهم، والصريخ: الاستغاثة.

نهض معهم أمم أخرى من جميع أقطار النصرانية، ولولا نجدات البرّ الكبير لأهل إسبانية لتحوّلت الجزيرة بأسرها إلى الإسلام، وكان الفاصل بين الفريقين جبال البيرانة، بدل أن يكون بحر الزقاق، كما أنه لولا شارل مارتل، المعروف عند العرب بـ قارْلُه، لسَخَّر المسلمون قسمًا من أوربا، وربَّما كانوا وصلوا إلى القسطنطينية العظمى من طريقها، حسبما كان يتخيَّل موسى بن نصير، ولكن دول أوربا خصوصًا ما جاور منها إسبانية كانت، لا تضَن على هذه البلاد بدم، ولا مال في مدافعة المسلمين، تخلّصًا من غاراتهم إلى ما وراء الجبال. وحصولهم في قلب أوربا، وكان نصارى إسبانية أنفسهم أهل شدّة ومراس على الحرب، وكان أمراؤهم عند القتال يجمعون مَن في أقطاعهم من المقاتِلة، وينضمّون إلى الملك، وبقي هذا شأنهم، إلى أن علقت آمالهم بإجلاء المسلمين عن البلاد، ووجدوا في حالة الجند من جهة المؤونة، قصورًا عن إدراك المرام، فرأوا إنشاء مرابطة أشبه بمرابطة الإسلام، لا شغل لها إلاّ الصلاة والقتال، وسبق إلى تحقيق هذه الوطر[1] ألفونس الباتليور صاحب أراغون، فأنشأ جنديّة سمّاها بنظام المخلص، وجعل لها قوانين وعلامات، وقاتل بستّة آلاف من رجالها في غارته على بلاد المسلمين، ثمَّ ظهر نظام الفرسان الهيكليّين الذي أُنشئ سنة ١١١٩، فلم تمض بِضع عشرة سنة، حتَّى بلغ من القوّة والاستفحال المبالغ، التي لا تصحّ إلاّ للدول، وسنة ١١٥٦ أنشأ اثنان من أمراء الإسبانيول أحدهما اسمه سويرو، والثاني غرمان مار جوليان الإجاص، وذلك لكونهما بنَيَا حُصنًا، في مكان مخصَّص بمار جوليان، فيه غيضة[2] إجاص، نزل لهما عنها مطران طَلَمَنْكَة.

وسنة ١١٥٧ بعد وفاة الإمبراطور ألفونس السابع، حينما جمع الموحِّدون عساكرهم لمنازلة طُلَيْطُلَة، خارت عزائم الفرسان الهيكليين الذين في يدهم قلعة رباح، فنزلوا عنها للدّون سانشو أو شانْجُه الملقَّب بالمأسوف عليه، فأعلن هذا الأمير أنَّ مَن أراد من أمراء البلاد الدفاع عن قلعة رباح فهي له إقطاعًا بملحقاتها، فلم ينهض أحد وبعثت الحمية راهبًا من دير فيترو، سمّي فيما بعد مار ريموند، وراهبًا آخر اسمه دياغو فلسكيز، فطافا في البلاد وبالغا في التحريض والنفير، حتَّى جمعا عشرين ألف مقاتل في تلك القلعة، وامتلأت ذخائر، فأنشأ لهم ريموند نظامًا، وقيَّدهم بروابط وسمّى هذه الجنديّة الدينية بنظام قلعة رباح، وجاءها التثبيت من البابا، واستمسكت بقوانين ماربنوا، وكانت علامتها الفارقة رداءً

(١) الوطر الغاية والهدف.

(٢) مجتمع الشجر في مغيضة ماء.

أبيض وقَلَنْسُوة[1] مُرسَلة من الرأس على المنكبَين، وبعد ذلك صارت علامتها صليبًا أحمر على الثياب، وفي هاتيك المدّة تألَّف نظام رهباني حربي آخر، يقال له نظام مار يعقوب السيف، وثبَّته البابا اسكندر الثالث، وجُعِلت لأصحابه علامات فارقة في الثوب، وشكل الصليب، وغير ذلك، وكانت مدينة القنطرة في يد فرسان قلعة رباح، فأسلموها إلى فرسان مار يعقوب، وصارت مركزًا لهم، ومن هذه الفرق الرهبانية المرابطة أيضًا، فرسان مار جرجس الفامه، نظَّمهم ألفونس الثاني ملك أراغون سنة ١٢٠١، في نواحي طَرْطوشة، وسنة ١٣١٧ بعد استئصال الهيكليين، تألّف في مونتيزه من أراغون، نظام آخر باسم مار جرجس، فانضمَّ إليه النظام الأول وصارا واحدًا، وكان لكلّ نظام من هؤلاء رئيس اسمه المعلّم أو الأستاذ ورتبته أعلى الرتب، ويتلوه القائد الكبير، وينوب عنه إذا غاب، ويتلوه الكلافرو، وهو دهقان[2] القوم المكلَّف بإدارة الأملاك وحفظ الأموال، وكان في نظام مار يعقوب، مجلس مؤلَّف من ثلاثة عشر أخًا، لا يعقد ولا يحلّ المعلِّم بدون قرارهم.

- رهبانيّات النصارى المُرصدة لمجاهدة المسلمين

ووُجِدَ في إسبانية نظام راهبات محاربات، سُمِّي بنظام سيِّدات الفأس، وأصل تأسيسه، أنَّ المسلمين بعد أن خسروا طَرْطوشة، كرّوا لاسترجاعها، وحاميتها قليلة، فكادت تسقط، لولا ما قيل من أنَّ النساء هجمْنَ نحو الأسوار وبذلْنَ أنفسهنَّ حتَّى ردَدْنَ العدوّ، فتأسَّس من ذلك الوقت نظام جنديّة للنساء، وسنة ١٣٧٩، قلَّد جويان الأول سيف الفروسيّة، مائة شاب من أبناء الأعيان، وأعطاهم وسام الحمامة، وكان عقد الوسام، عبارة عن سلسلة ذهب، معلَّقة بها حمامة من الفضَّة في دائرة من الذهب، وكان نذر أولئك الفرسان أن يكونوا أمناء لنسائهم.

وأمّا مقصد هذه الرهبانيّات كلّها، فهو حرب المسلمين وغزوهم، وقد وجد غير ما ذكرنا لكن هذه هي المشهورة، وقد اتّسعت سلطتها وانبسطت قوّتها، حتَّى صار يخشاها الملوك، وأصبحت تستبدّ عليهم استبداد غزاة المغرب على ملوك غَرناطة، فلمّا ثُلّ عرش غَرناطة، وتمَّ مقصد فرديناند وإيزابيلا، وأدّى هؤلاء الفرسان خدمتهم، عوّل الملك وامرأته على إلغاء هذه النظامات، ونال من البابا أينوشنسيوس الثامن، أمرًا بإدارة هذه الرهبانيّات، وصارت منذ ذلك الحين إلى نظر الملك.

---

(١) لباس للرأس.

(٢) لفظ فارسي، معرَّب، رئيس الإقليم، القويّ على التصرّف.

في سقوط غرناطة والجلاء الأخير

- عودة إلى ذكر بني الأحمر، فتنة الزغل

وصلنا في ذكر دولة بني الأحمر إلى أبي الحسن علي، المتولّي المُلك بعد محمَّد بن اسماعيل، والذي يُفهم من بعض مؤرِّخي الفرنج أنه هو ابنه البكر وفي "النفح" يقول "إنَّه هو أبو الحسن علي بن سعد بن علي بن يوسف بن محمَّد الغنيّ بالله" ولا يذكر كيف أُفضَت إليه الإمارة، بل جُلّ ما يقول هنالك: "إنَّ بني الأحمر ملوك الأندلس الباقية بعد استيلاء العدوّ على الجلّ، كانوا في جهاد وجلاد في غالب أوقاتهم، إلى زمان السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري الغالبي الأحمري، واجتمعت الكلمة عليه بعد أن كان أخوه أبو عبد الله محمَّد ابن سعد، المدعو بالزغل، قد بويع بمَالَقَة بعد أن جاء به بعض القوّاد من عند النصارى، وبقي بمالقة برهة، ثمَّ ذهب إلى أخيه أبي الحسن، وانقضت الفتنة".

- السلطان أبي الحسن علي بن الأحمر، والحرب بينه وبين فرديناند وإيزابيلاّ

وقال مؤرِّخو الفرنج، أنه لمَّا ثار الزغل على أخيه، وسرح أخوه الجيش في أثره، فرَّ هذا إلى الدّون أنريك ملك قَشتالة، فتجاوز أبو الحسن حدود بلاده، وأغار على بلاد الإسبانيول، لكن روى دو ليون، قائد الثغور، قابله بأخذ مدينة مونتجيقار، ثمَّ مات الدّون أنريك، وتولّى فرديناند وإيزابيلاّ، فراسلهما أبو الحسن في المهادنة، فقبلا بها على شريطة أن يعترف سلطان غَرناطة بسيادة ملك قَشتالة، فأجاب سفراء ابن الأحمر أنهم غير مفوَّضين بذلك، فأشخص[1] فرديناند وإيزابيلا سفراءهما بطلب الجزية واقتضاء الخضوع من صاحب غَرناطة، فلمَّا عرضوا ذلك على السلطان أبي الحسن، أبى قبوله كلّ الإباء، وقال لهم "اذهبوا وأخبروا مَن أرسلكم أنَّ الملوك الذين كانوا يؤدّون الجزية قد ماتوا منذ طويل، وأنَّ دار الضرب في غَرناطة عادت لا تضرب فضَّة ولا ذهبًا، ولا تضرب إلاّ نسيوفًا وحرابًا".

(١) أرْسَلَ، ووجّه.

وحيث كان فرديناند وإيزابيلا مشغولين بحرب البرتغال، احتملا منه هذا الجواب، وأجَّلا الانتقام منه إلى وقت آخر.

وأمّا أبو الحسن، فافتتح الحرب على النصارى، ودهم قلعة الصخرة التي كان الإسبانيول قد استولوا عليها في أيام فرناند الرشيد، لما بلغه من ضعف حاميتها[1]، فتسلَّقت عساكره أسوارها ليلاً ووضعت السيف في الحامية، وساقت البقيّة مقرنين في الأصفاد[2] إلى غَرناطة، وقفل أبو الحسن ظافرًا منصورًا إلى حاضرته، فخرج الأعيان لملاقاته، ولكن عامّة أهالي غَرناطة بزعم مؤرِّخي الإسبانيول، لم يحتفلوا بما صنعه أبو الحسن؛ خصوصًا بسبي النساء، فأظهروا الامتعاض، ووزَّعوا المآكل على الأسرى، وقيل إنَّه لمَّا اجتمع الأمراء والفقهاء، لتهنئة السلطان بهذا الفتح، إذا بصوتٍ هائل ارتفع فيهم يقول الويل لِغَرناطة قد دنا أجلها، إنَّ أنقاض الصخرة ستقع على رؤوسنا؛ فأرجف هذا الصوت جميع الحضور، وتطلَّعوا فإذا بشيخٍ طاعنٍ في السنّ من طبقة الدراويش، قد خرج يطوف في الأسواق ناعقًا بالخراب، ولا نُعاق الغراب، حتَّى أجزع الجميع، وتطيَّر[3] منه الرفيع والوضيع، وأمّا أبو الحسن فعدَّه من جملة الممسوسين ولم يلتفت إليه.

ـ حدود مملكة غَرناطة، وسكانها

وقال بعض أولئك المؤرِّخين، إنَّ مملكة غَرناطة لعهد أبي الحسن، كانت مشتملة على أربع عشرة مدينة عظيمة، وسبع وتسعين قلعة، عدا الأبراج والحصون والقرى العامرة، وورد في التاريخ العامّ للعلاَّمة كنتو الشهير: أنَّ سلطنة غَرناطة في تلك الأيام كانت تحتوي ثلاثين مصرًا، وثمانين مدينة صغيرة، وعددًا لا يُحصى من الأبراج والحصون والدساكر، وقد قَدَّر بعض المؤرِّخين عدد بقيّة المسلمين في الأندلس بأربعة ملايين من النسم، وقالوا إنَّ السلطان أبا الحسن بن الأحمر داخلته الخُيلاء وخامره العُجب ببسطة سلطانه وكثرة جنوده، ففي سنة ١٤٧٨، لمَّا حضر الدّون جان دو فيرا من فرسان فرديناند، وإيزابيلا، ومعه جماعة يتقاضى الجزية المعتاذة من مولاي أبي الحسن، احتفل السلطان بلقائه، وظنَّ في الأول أنه قادم لمبارزة أحد فرسان المسلمين، لِما كانت جارية به العادة بين الفريقَين من البراز

(١) أعملَت فيهم السيوف.

(٢) القيود يشدّ بها وثاق الأسير (عمومًا).

(٣) تشاءم وهي من الطِّيَرَة: ما يُتشاءم به من الفأل الرديء.

والسجال في ألعاب الفروسيّة أيام الموادَعة، فلمَّا عرض له الأمر، أجابه الجواب السابق من أنَّ الذين سبق لهم أن يؤدُّوا الجزية قد ماتوا والآن دار ضربنا عادت لا تضرب إلاّ نِصالاً وحِرابًا، فلم يتمكَّن الملك وزوجته من جواب أبي الحسن إلاّ بعد ثلاث سنوات لاشتغالهما بحرب البرتغال. وكان بين ملوك الإسلام والإسبانيول عهد غلى أنَّ لكلِّ فريق أن يشنّ الغارة على أرض الفريق الآخر خفية، بدون نشر بنود ولا قرع طبول، بشرط أن لا تطول مدّة غارته فوق ثلاثة أيام، فعَلِمَ أبو الحسن أنَّ قلعة الصخرة قليلة الحامية، وهي قلعة أمنع من عُقاب الجوّ، مبنيّة على قُنّة جبل، لها طريق واحد منحوت في الصخرة، فقبل عيد الميلاد بأيام، انتبه أهل الصخرة ليلاً على صياح: "المغاربة! المغاربة!" فدخلوا القلعة وقتلوا الحرّاس وأسروا مَن سَلِم، وساقوهم إلى غَرناطة وجرى ما جرى.

وقال المقري في شأن مُلك هذا السلطان ما يأتي:

"واستقلّ السلطان أبو الحسن بما بقي من مُلك المسلمين بالأندلس، وجاهد الأعداء وافتتح عدّة أماكن، ولاحت له بارقة الكرَّة على العدوّ، وخافوه، وطلبوا هدنته، وكثرت جيوشه، فأجمع على عرضها بين يديه، وأعدّ لذلك مجلسًا أقيم له خارج الحمراء، وكان ابتداء هذا العرَض يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجّة عام اثنين وثمانين وثمانمائة، ولم تزل الجنود تعرض عليه كلّ يوم إلى الثاني والعشرين من محرّم السنة التي تليها، وهو يوم ختام العرض، وكان معظم المتنزّهين بالسبيكة(١) وما قارب ذلك؛ فبعث الله سيلاً عَرِمًا(٢) على وادي حدرة، بحجارة وماء غزير كأفواه القرب، عقابًا من الله وتأديبًا لهم لمجاهرتهم بالفسق والمنكر، واحتمل الوادي ما على حافتيه من حوانيت، ودُور، ومعاصر، وفنادق، وأسواق، وقناطر، وحدائق، وبلغ تيّار السيل إلى رحبة الجامع الأعظم، ولم يُسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد، وكان بين رؤساء الإفرنج في ذلك الوقت اختلاف عظيم، فبعضهم استقلّ بمُلك قُرْطُبة، وبعضهم بإشبيلية، وبعض بشريش، وعلى ذلك كان السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللذَّات، وركن إلى الراحات، وأضاع الأجناد، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه، واحتجب عن الناس، ورفض الجهاد، والنظر في المُلك، ليقضي الله تعالى ما يشاء، وكثرت المظالم والمغارم، فأنكر الخاصّة والعامّة ذلك منه، وكان أيضًا قد قتل كبار القوّاد، وهو يظنّ

(١) هو السهل المنبسط، الذي تُشرف عليه "الحمراء" من الناحية الشرقية.

(٢) المطر الشديد.

أنَّ النصارى لا يغزون البلاد، ولا تنقضي بينهم الفتنة، ولا ينقطع الفساد، واتّفق أنَّ صاحب قَشتالة تغلَّب على بلادها، وانقاد له الرؤساء المخالفون، ووجدت النصارى الطريق إلى الإفساد، وذلك أنه كان للسلطان أبي الحسن ولدان محمَّد ويوسف، وهم من بنت عمّه السلطان أبي عبد الله الأيسر، وكان قد اصطفى على أمّهما روميّة له منها بعض ذريّة، وكانت حظيّة عنده، مقدّمة في كلّ قضيّة، فَخيفَ أن يقدم أولاد الروميّة على أولاد بنت عمّه السنّية، وحدث بين خدّام الدولة التنافر والتعصّب لميل بعضهم إلى أولاد الحرّة، وبعضهم إلى أولاد الروميّة، وكان النصارى أيام الفتنة بينهم، هادنوا السلطان لأمدٍ حدَّدوه وضربوه، ولمَّا تمّ أمد الصلح، وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الأولاد، وتشكّي الناس مع ذلك بالوزراء والعمّال، لسوء ما عاملوا به الناس من الحَيف[1] والجَور[2]، فلم يصغ إليهم، وكثر الخلاف واشتدّ الخَطْب[3]، وطلب الناس تأخير الوزير وتفاقَم الأمر» انتهى.

- زوجتا أبي الحسن، والفتنة

وورد في تواريخ الإفرنج «أنَّ السلطان أبا الحسن كان متزوِّجًا بامرأتين: إحداهما ابنة عمّه واسمها عائشة الحرّة، والثانية ثريّا، إسبانيولية أسلمت، كان أبوها قائد مرتوس، وله من الأولى أبو عبد الله محمَّد، ويلفظ في بلده بالتخفيف، فيقال أبو عبد الله، وحرّفه الإسبانيول أبو عبديل، ومن الثانية ولدان، أحدهما سيِّدي يحيى الذي كان يريد أبوه أن يولّيه عهده إكرامًا لوالدته الحظيّة، وبهذه المناظرات انقسمت غَرناطة إلى قسمين، ومال قسم من الرؤساء والأعيان نحو الأمير أبي عبد الله، واشتدّت الفتنة التي مصدرها النساء، وفي خلالها ارتكب السلطان أبو الحسن الخطأ في مُنازلة الصخرة[4] لوقوع الفرقة في مملكته».

- نكبة الحامّة

«لمَّا بلغ خبر أخذ الصخرة الملك فرديناند، جزع جزعًا شديدًا؛ وأعمل في النفير، وجمع مقاتِلة الثغور، وبثَّ الرهابين[5] في جميع الأقطار يستنفرون فرسان النصرانية لقتالْ

---

(١) الظلم.

(٢) نقيض العدل.

(٣) المُصاب الشديد.

(٤) مِن أقاليم أكشونية بالأندلس.

(٥) الرهبان.

الإسلام، فأول مَن لبّى الدعوة الدّون لُذَريق بونس ليون، الملقَّب بمركيز قادس، وكان له في الأندلس أراض واسعة، وحصون عديدة، وعنده مقاتلة كثيرة، فأجمع الغارة وبلغه أنَّ قلعة الحامة قليلة الحرّاس، فأرسل من جماعته رجلاً حاذقًا، مقدامًا، دَرِبًا باقتحام الثغور، خبيرًا بتسلّق الجدران اسمه أورتغادو برادوفر، أدله[1] في نواحي الحامّة، بليلة مدلهمّة[2] وطاف حول الأسوار، وصعد القلعة وعيّن مكان وضع السلالم، وعاد مخبرًا، مولاه بما شهد، فجمع هذا أصحابه وساروا في ثلاثة آلاف فارس وأربعة آلاف ماشٍ، وكانوا في النهار يكمنون، وفي الليل يسرون بدون جلبة ولا ضوضاء، حتّى وافوا الحامّة قبل انبلاج الفجر بساعتين، فسار أورتغا بثلاثمائة مقاتل، وثلاثين من حملة السلالم إلى جانب القلعة فتسلّقوها بدون عائق، وقتلوا بعض الحرّاس، وارتفعت الصيحة ومُلِكَت القلعة، لكنَّ أهل المدينة وإن كانوا في الأغلب تجّارًا وصنّاعًا، فقد كانوا ذوي حفاظ، وشدّة بأس، وبصائر في الحرب، كسائر المغاربة، فرشقوا المحاصرين بالنبال والحجارة، وحملوا على القلعة، فضيّقوا عليها حتّى خاف الإسبانيول أن يسترجعوها منهم، وتشاوروا في حرقها، والخروج منها، فنهاهم المركيز عن ذلك وحرَّضهم على الثبات، واستحرّ القتل بين الفريقين، وقاتل أهل الحامة نساءً ورجالاً صغارًا وكبارًا قتال الأسود عن أشبالها، لكنَّ العدوّ تغلَّب عليهم فقتل بعضًا، وأسر بعضًا، ونهب البلدة ودمَّرها تدميرًا.

وأسرع فارس مغربّي إلى الحمراء، يخبر السلطان أنَّ النصارى قد دهموا تلك الليلة قلعة الحامّة، وحدث عراك شديد على الأسوار وأنه عندما فارق المدينة كانت القلعة في يد النصارى، فأرسل من غَرناطة ألف فارس، لأجل المُشارفة واستقصاء الخبر، فوجدوا العدوّ قد تسلّم القلعة والبلدة، فزحف السلطان أبو الحسن بثلاثة آلاف فارس وخمسين ألف راجل، ولم يستأنِ ريثما يجهّز جيشه بالمدافع والعدّة، وكان للمركيز صاحب هو الدّون ألونزو القرطبي، قَدِمَ لنصرة صاحبه، فلمَّا أحسّ بقدوم أبي الحسن فرَّ إلى النقيرة[3]، فلم يتعقّبه السلطان، وظلَّ قاصدًا الحامّة، وحصرها من كلّ جهة وركّز الأعلام حواليها، لكن حيث كان جيشه مكشوفًا للعدوّ أصبح هدفًا للسهام فقُتِلَ منه كثيرون، وارتدّوا على أعقابهم، وأدرك ابن الأحمر خطأه بالزحف بدون آلات الحصار، ولكنّه لم يرجع عن

(١) تقول أدْلَجَ في الجهات: دَخَلَها مُستخبِرًا.

(٢) شديدة السواد.

(٣) جهة كثيرة الماء، بين "تاج" و"كاظمة".

كيده، بل أمر بحفر الخنادق حول السور وواصل القتال فقتل وجرح من المسلمين نحو الألفين.

فأعمل المسلمون الحيلة في قطع المدد عن الحامّة، وكان لها نهر يسقيها فأداروه عنها، بعد أن تقاتلوا عليه قتال اليأس، وإذ لم يكن فيها عيون ولا آبار، اشتدّ الخناق بالإسبانيول، ولم يبقَ لهم مورد سوى قناة صغيرة، وعليهم إذ وردوها أن يقاتل منهم فريق، ويشرب فريق، حتّى يصحّ أن يقال إنَّ كلّ نقطة ماء بنقطة دم.

ثمَّ سقطوا على بئر، أغاثهم ماؤها قليلاً، ولكن بلغ منهم الضيق حدَّه، فأرسلوا بالصريخ إلى ملوكهم، فأصرخهم دوق مدينة سيدونيا من إشبيلية في خمسة آلاف فارس وخمسين ألف ماشٍ، وظاهَرَهُ[1] رئيس فرسان قلعة رَباح، وتقدَّم فرديناند بحاشية غير وافرة، وأرسل يقول للدوق أن ينتظر اجتماع الحشود، فأجابه الدوق أنه لا يمكنه الانتظار لكون الذين تحت الحصار في ضيق شديد، وإذ علم أبو الحسن بدُنوّ الجيوش، عزم على الهجمة الأخيرة، وفي صباح يوم اجتمع نخبة من أبطال المسلمين، وتسلَّقوا السور من ناحية برج عالٍ ووضعوا السلالم، وقتلوا الخفراء، ووصلوا إلى السوق وكادوا يبلغون الأبواب، وهم نحو سبعين رجلاً فقط، فأحاط بهم الإسبانيول إحاطة السوار بالمِعصم، فانضمّوا شبه دائرة رافعين في وسطهم راية النبي (ﷺ) وظلّوا يدافعون عن حوضهم دفاع الليوث، حتّى لم يبقَ منهم سوى رجل واحد، سقط وهو معتنق الراية النبوية، فأصاب أبا الحسن اليأس من هذا الفشل، وأقلع عن الحامّة إلى غَرناطة ووصلها المدد الكثيف". انتهى ما ذكره الإفرنج في شأن الحامّة وهاك ما ورد في "نفح الطيب" بهذا الشأن.

"وصحَّ عند النصارى ضعف الدولة واختلاف القلوب، فبادروا إلى الحامّة فأخذوها غدرًا آخر أيام الصلح، على يد صاحب قادس، سنة سبع وثمانين وثمانمائة، وغدوا للقلعة وتحصَّنوا بها، ثمَّ شرعوا في أخذ البلد فملأوا الطرق خيلاً ورجالاً، وبذلوا السيف فيمَن ظهر من المسلمين، ونهبوا الحريم والناس في غفلة الأيام من غير استعداد كالسكارى، فقُتل مَن قضى الله تعالى بتمام أجَلِه، وهرب البعض وترك أولاده وحريمه، واحتوى العدوّ على البلد بما فيه، وخرج العامّة والخاصّة من أهل غَرناطة عندما بلغهم العلم، وكان النصارى عشرة آلاف بين ماشٍ وفارس، وكانوا عازمين على الخروج بما غنموه، وإذا بالسرعان من

(١) أي أعانَهُ.

أهل غَرناطة وصلوا، فرجع العدوّ إلى البلد، فحاصرهم المسلمون وشدَّدوا في ذلك، ثمَّ تكاثر المسلمون خيلاً ورجالاً، من جميع بلاد الأندلس، ونازلوا الحامّة، وطمعوا في منع الماء عن العدوّ، وتبيَّن للعامّة أنَّ الجند لم ينصحوا، فأطلقوا ألسنتهم بأقبح الكلام فيهم وفي الوزير، وبينما هم كذلك، إذا بالنذير جاء، أنَّ النصارى أقبلوا في جمع عظيم، لإغاثة مَن بالحامّة من النصارى، فأقلع جند المسلمين من الحامّة وقصدوا ملاقاة الواردين من بلاد العدوّ، ولمَّا علم بهم العدوّ ولّوا الإدبار، من غير ملاقاة، محتجّين بقلّتهم وكان رئيسهم صاحب قُرْطُبة.

ثمَّ إنَّ صاحب إشبيلية جمع جندًا عظيمًا من جيش النصارى الفرسان والرجال، وأتى لنصرة مَن في الحامّة من النصارى، وعندما صحَّ هذا عند العسكر، اجتمعوا وأشاعوا عند الناس، أنهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد، والصلاح الرجوع إلى غَرناطة، ليستعدّ الناس، ويأخذوا ما يحتاج إليه الحصار، من العدّة والعدد، فعندما أقلع المسلمون عنها، دخلتها النصارى الواردون، وتشاوروا في إخلائها أو سكناها، واتّفقوا على الإقامة بها وحصَّنوها، وجعلوا فيها جميع ما يُحتاج إليه، وانصرف صاحب إشبيلية، وترك أجناده، وفرَّق فيهم الأموال، ثمَّ عاد المسلمون لحصارها، وضيَّقوا عليها وطمعوا فيها من جهة موضع كان النصارى في غفلة منه، ودخل على النصارى جملة وافرة من المسلمين، وخاب السعد بذلك، بأن شعر بهم النصارى، فعادوا عليهم، وتردّى بعضهم من أعلى الجبل، وقتل أكثرهم، وكانوا من أهل بَسْطَة ووادي آش، فانقطع أمل الناس من الحامّة ووقع الإياس[1] من ردِّها» انتهى.

فأنت ترى قرب الروايات العربية من الإفرنجية في مؤدّاها، وقد آثرنا المقابلة بين النقلين، زيادة في التمحيص، وإمعانًا في النصح، لقلّة تداول هذا التاريخ في العربية.

ثمَّ قال صاحب «نفح الطيب» «وفي جمادى الأولى من السنة، تواترت الأخبار أنَّ صاحب قَشتالة أتى في جنود لا تُحصى ولا تُحصر، فاجتمع الناس بغَرناطة، وتكلّموا في ذلك، وإذا به قد قصد لَوْشَة، ونازلها قصد أن يضيفها إلى الحامّة، وجاء بالعدّة والعدد، وأغارت على النصارى جملة من المسلمين، فقتلوا مَن لحقوه، وأخذوا جملة من المدافع الكبار، ثمَّ جاءت جماعة أخرى من أهل غَرناطة وناوشوا النصارى، فألجأوهم إلى الخروج

(١) (لغة) في اليأس.

عن الخيام، وأخذوها، فهرب النصارى وتركوا طعامًا كثيرًا، وآلة ثقيلة وذلك في السابع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة» انتهى.

وقال مؤرِّخو الإفرنج «إنَّ فرديناند عقد مجلسًا في قُرْطُبة، ليرى ماذا يفعل بالحامّة، فأشار أكثرهم: بدكّ حصونها وإخلائها لصعوبة حفظها من طارقة العدوّ، ولزوم حياطتها دائمًا بحامية وافرة تقتضي نفقات باهظة، فعارضت في ذلك الملكة إيزابيلا، وأصرّت على إبقائها، وجعلت حمايتها لنظر قائد اسمه فرناند بورتو كريرو، مع أربعمائة فارس وألف راجل.

ـ الحرب على لَوْشَة

وأجمع فرديناند على حصار لَوْشَة وهي موقع حصين على مقربة من الحامّة، فاستنفر جميع المدن، وبالغ في حشد العساكر، وبلغ ذلك المسلمين، فراسلوا إخوانهم من وراء البحر. فأرسل فرديناند وإيزابيلا أسطولهما لمنع إجازة المدد[1]، واكتساح أرياف بَرّ أفريقية، وسار من قُرْطُبة، وقد ترك أكثر جنوده في إستِجّة[2]، وإنَّما استصحب خمسة آلاف فارس، وثمانية آلاف ماش، فنازل لَوْشَة، فشاهد من حَصانة لَوْشَة، وصعوبة مسلكها، ومنعة النهر المطيف[3] بها ما هاله، فأدرك خطأه بسرعة الأقدام، لكنَّه أرسل كتيبة من جيشه للنزول بربوة محاذية للجسر، يسمّيها المغاربة «صنتو أبو الحسن» وكان قائد لَوْشَة، رجلاً يقال له علي العطّار، شيخًا عالي السنّ، مناهزًا التسعين، لكنَّه لم يفقد شيئًا من صلابة جنانه[4]، ولا قوّة إدراكه، وهو حمو الأمير أبي عبد الله ابن السلطان أبي الحسن، وكان عنده ثلاثة آلاف فارس، فأرسل في الليل طائفة من جنده، فكمنوا وراء «صنتو أبي الحسن»، وعند الصباح خرج وهاجم المسيحيين، فثاروا في وجهه، فانهزم أمامهم خديعة منه، فطاردوه مُلِحّين، وإذا بالأصوات ارتفعت من خلفهم، فالتفتوا فإذا بالمغاربة مُقبلين، فرجعوا للمحافظة على خيامهم، فَكَرّ عليهم علي العطّار وأرهف فيهم السيف، وبقي يطاردهم ويستلحم منهم، حتَّى تكاثرت نجداتهم، فعاد عنهم وقد قتل منهم جملة وافرة، وفيهم من أكابر فرسانهم لذريق جيرون صاحب قلعة رباح، الذي استشعر الإسبانيول فقده كثيرًا، فلمَّا رأى الملك

---

(١) وُصول الإمدادات.

(٢) بين القِبلة والغرب من قُرطُبة.

(٣) المحيط بها.

(٤) بفتح الجيم: القَلْب.

فرديناند ما رأى، أيقن بلزوم الرجعة، وتأهّب للإقلاع، وإذ رأى علي العطّار حركته في الرجوع، برز كالأسد إذا جاع، وهجم على معسكر الإسبانيول، فهزم منه جانبًا، فتداعى كلّه للفرار، وارتفعت الضوضاء والصياح وبذل المسلمون فيهم السلاح. فثبت فرديناند وبطانته ريثما أمكنهم نقل الخيام، والمدافع والميرة، لكنَّه كاد يلقى حتفه مرّتين، لولا تهالك الدّون جان دور ييرا، في وقايته، وما زال في ذلك المأزق حتَّى وصل مركيز قادس، وحال بينه وبين العدوّ، فنجا الملك، وفرَّ إلى بلاده وعلي العطّار يطارده إلى ريوفريو، فلحق بقُرْطُبة مدحورًا كسير القلب".

وعلى رواية أخرى "أنَّ السلطان أبا الحسن خفَّ إلى نجدة لَوْشَة، وأنه في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٨٨٧ الموافق ١٣ تمّوز سنة ١٤٨٢، هاجم معسكر فرديناند من الوراء بينما كان علي العطّار قد نهد إليه من جهة المدينة، وأنه بذلك دارت الدائرة على الإسبانيول" وهذه الرواية أقرب إلى خبر " نفح الطيب"، إذ فيه أنَّ جماعة من أهل غَرناطة ذهبوا إلى لَوْشَة وناوشوا النصارى، فأخرجوهم من الخيام.

وقال آخرون، إنَّ أبا الحسن لمَّا حضر بجيشه نجدةً للوشة، وجد فرديناند بجيشه قد جاز الدروب، وإنَّه لمَّا بلغت أخبار لَوْشَة حامية الحامّة هلعت قلوبهم، فقصدهم أبو الحسن، فأسرع فرديناند بإصراخهم، فارتدّ ابن الأحمر عنهم، وقصد مدينة قانيت، فاستولى عليها، وقفل إلى غَرناطة، فبلغه أنها بايعت ولده أبا عبد الله محمَّد وتبعها كثير من مدن المملكة، فتوجَّه إلى مالَقَة، التي حافظت على عهده، هي ووادي آش، وبَسْطَة.

- انتقاض أبي عبد الله محمّد على أبيه السلطان أبي الحسن، وفراره إلى مالَقَة

قال بعض مؤرّخي الإفرنج إنَّه في تلك الآونة استحكمت عُرى الخلاف في بيت ملك غَرناطة، وأخذ بنو سراج (عشيرة من أعيان غَرناطة أصلهم من قُرْطُبة)(١) بالخلاف مع بني زغبة، واستفحل أمر أبي عبد الله نجل السلطان أبي الحسن، ومالت إليه العامّة بما نقموا على أبيه ذهاب الحامّة، وهي مفتاح غَرناطة، فلمَّا قفل عنها المرّة الأخيرة خائبًا، وجد الحاضرة مقفلة الأبواب في وجهه، فمال إلى بَسْطَة، وهناك جمع خمسمائة رجل وحضر بهم إلى

(١) رواية ستانلي لان بول المؤرّخ الإنكليزي لأنَّ أصلهم من قرطبة فيكون بنو سراج غرناطة هم سلالة بني سراج قرطبة المذكورين في "نفح الطيب".

الحمراء، فقتل مَن التقاه في الدور والساحات، ولمَّا أصبح الصباح تكاثروا عليه؛ فأفنوا أكثر جماعته، ففرّ شريدًا إلى مالَقَة، وفي هذه الحادثة يقول المقري: " إنَّه هرب الأميران أبو عبد الله محمَّد وأبو الحجّاج يوسف خوفًا من أبيهما أن يفتك بهما، بإشارة حظيّته الروميّة ثريّا، واستقرّا بوادي آش، وقامت بدعوتهما ثمَّ بايعتهما تلك البلاد، المَرِيّة، وبَسْطَة، وغَرناطة، وهرب أبوهما السلطان أبو الحسن إلى مالَقَة".

وفي روايته شيء من مخالفة الرواية الإفرنجية، لكن على اتّفاق في النتيجة، فانظروا أيّ زمن اختاره أمراء غَرناطة للشِقاق والخِلاف، وإذا أراد الله شيئًا هيّأ أسبابه.

ـ غزوات أبي الحسن في طريف

أمَّا أبو الحسن، فأصبح بعد انقسام المملكة، غير قادر على مناطحة فرديناند قِرنًا[1] لقرن، ولكنَّه يراقب الفرصة للقيام بعمل يمكّنه من قلوب المغاربة، ويعيد عليه سلطانه، فعزم على الغارة في أراضي دوق سيدونا، وزحف بستّة آلاف راجل وألف وخمسمائة فارس، فلمَّا حصل في بلاد النصارى بين جبل طارق وقُسطُليّرة سرح أربعمائة فارس نحو حصن الجبل، وأرسل أربعمائة أخرى نحو طَريف، فعادوا بغنائم لا تُحصى، ثمَّ رفأ[2] إلى ميناء الحصن أسطول بقيادة كارلوس دوفاليرا، فالتمس منه بطْرُه دوفرغاز أن يتولّى قيادة الحصن مكانه ليخرج إلى لقاء العدوّ، وسار بسبعين فارسًا إلى جهة قَسْطُليّرة وكانت طلائع السلطان منفصلة عن جيشه، فناوشها القتال، فخرج إليه ثمانون فارسًا وحمي الوطيس[3]، فقتل جماعة من أبطالهم، وجرح دوفرغاز، وعاد كلٌّ من الفريقين إلى مكانه، فخيَّم أبو الحسن بساحة قُسطليّرة وأحرق بعض بيوتها، ولم تمكّنه منها، ولكنَّه أُعجب بشجاعة دوفر غاز، فاستدعى إليه أسيرَين من النصارى وسألهما ما هي وظائف قائد جبل طارق، فأجاباه أنَّ له على كلّ قطيع يمرّ بأرضه كبشًا، فصاح: "أعوذ بالله من أن أعتدي على فارس مِقدام كهذا". وأرسل إليه اثني عشر رأس غنم، عن الاثني عشر قطيعًا التي عنده قائلاً لِمَن أَمَرَه بسوقها، اعتذر له عنّي بجهلي الواجب، فأجاب دوفرغاز الرسول قبِّل لي يدَي جلالته وقُلْ له إنَّني أسيف[4] من أنه لم يوجد عندي جند أكثر من هذا لأقوم بواجب لقائه، وأملي

(١) المثيل والنظير والكفؤ والشبيه.

(٢) رفأ السفينة، أدناها من الشطّ.

(٣) قوله "حمي الوطيس": أي اشتدّت الحرب.

(٤) آسف.

عند وصول الثلاثمائة فارس الذين أرسلت بطلبهم من شريش، أن أحتفل له بوليمة فاخرة، ثمَّ صرف الرسول مكرَّمًا.

ـ غزوات الأمير أبو عبد الله الزغل أخي السلطان أبي الحسن

ولمَّا بلغ أمراء الإسبانيول غزاة[1] أبي الحسن، عقدوا النيّة على أخذ الثأر. واهتبلوا[2] هذه الغزة من اشتغال المسلمين بالفتنة في ما بينهم، فاجتمعوا في النقيرة تحت زعامة مركيز قادس الدّون بطره هنريكس، وقائد إشبيلية الكونت دو سيغونتاز، والدّون ألونزو دو كردناز، والدّون ألونزو دو أغيلار، وغيرهم. وبلغ عدد فرسانهم نحو ثلاثة آلاف مع رجالة كثيرة، وجعلوا وجهتهم الجبال لوجود قطعان الضان فيها بكثرة، وخيّلت لهم أنفسهم الوصول إلى وادي آش، والاستيلاء عليها بغتةً لضعف حاميتها، فساروا مجتهدين في إخفاء أثرهم، ولكن بلغ خبرهم وادي آش وهي إن كانت حاميتها قليلة فكان عليها قائد هو جيش بنفسه وأمّة برأسه[3]، ألا وهو الأمير أبو عبد الله الزغل أخو السلطان أبي الحسن، وكان أخاه أيضًا في البسالة والإقدام، لكنَّه أحذق وألبق وأدرب بكيد العدوّ، وأبصر بمواقع الكرّ والفرّ، ومعنى الزغل عندهم الفتى الغضّ الشباب، وكان هذا الاسم وحده يلقي الرعب في قلوب الإسبانيول.

فلمَّا أشرف الإسبانيول من الجبل المطلّ على مرج مالَقَة، ابتهجوا برؤية تلك الأرض ابتهاج بني إسرائيل بأرض الميعاد، وإذ شعر بهم الأهالي جمعوا قطعانهم ولاذوا بحصون الجبال، فأحرق الإسبانيول المنازل المهجورة وأخذوا بشعاب تلك الجبال، فتردّى بعضهم في الأوعار، فبصر بهم المغاربة من أبراجهم، فخرجوا ونضحوهم[4] بالنبل، ورموهم بالحجارة، وتصايحوا بهم من كلّ جانب، وارتفعت الأصوات، وتجاوبت الأصداء، فوقع الرعب في قلوب الإسبانيول وأغاث بعضهم بعضًا وانضووا إلى مكان واحد، وتشاوروا في ما يصنعون، فأجمعوا الرحلة وترك الغنائم، فساروا في الوعر والمغاربة يُمطِرونهم سيلاً دافقًا من النبل. حتَّى خارت قواهم، وجاهدوا سحابة يومهم إلى أن جنَّ الظلام، فحصلوا في وادٍ عميق وإذا بصوت قد ملأ الربى والوهاد: "الزغل الزغل".

---

(١) (اسم) من الغَزو.

(٢) انتهزوا الفُرصة.

(٣) أي أنه كان جيشًا وأمّة وَحْدَه.

(٤) رموهم بالسهام؛ رشقوهم بها.

فسأل صاحب أنتياغو: "ما هذا"؟

فأجابه أحد فرسانه: "هذا صوت الزغل فلعلّه قريب".

فقال لفرسانه: "لنطلع هذا الجبل، ذلك خيرٌ لنا من أن نُذبح كالغنم في قعر الوادي".

فأخذوا صعدًا والنشّاب والحجارة في ظهورهم، حتّى استلحموا، لا سيّما الرجّالة الذين كانوا يتشبّثون بأذناب الخيل، فتهوي بهم وبفرسانها فيهلكون جميعًا، وما زالوا في هذا الضيق، إلى أن بلغ كردنازقنة الجبل، فالتفت، فإذا به قد فقد حامل رايته وجمًّا من أصحابه وأنسبائه، ورأى نفسه محاطًا من كلّ جانب، ثمّ تردّى[1] في مضيق حرج جدًّا، وانتثر نظام جيشه.

ـ هزيمة مركيز قادس والكونت دو سيفنتاز ورفاقهما

أمّا مركيز قادس، فسار من جهة أخرى، ومعه الكونت دو سيفنتاز وألونزو دو أغيلار، فالتقوا بعساكر الزغل فتناجزوا[2]، وضافر الزغل من هنالك من أبطال الجبليين، فانكشف الإسبانيول، وأثخن فيهم المسلمون قتلاً وأسرًا، وأذرعوا الفتك[3]، فقاوم المركيز مقاومة شديدة، لكن سقط أخواه وولدا أخيه صرعى بجانبه ولمّا رأى الثالث من إخوته قد خرَّ صريعًا طار قلبه شعاعًا[4]، وأجهش بالعويل[5]، ولم يتمالك من البكاء وقتل فرسه، فَقُدِّم له فرس آخر، والتمس منه أصحابه الفرار، فساعدهم فيه، وانهزم بفلّهم إلى النقيرة.

وأمّا الكونت دو سيفنتاز، فبقي في الجبل مع جماعة، وأرادوا اللحاق بالمركيز، فمرّوا بجثث القتلى من إخوانهم وفيهم سُراة[6] الإسبانيول وأماثل رجالهم ومغاوير أبطالهم، فأصابهم جزع شديد، وظلّوا منهزمين إلى النقيرة وتاه منهم جملة وافرة في الشعاب، فأسرهم الجبليّون حتّى النساء، واعتقلوا منهم بحصن مالَقَة نحو مائتين وخمسين فارسًا، وأكثر من خمسمائة راجل.

---

(١) سَقَطَ.

(٢) تقاتلوا وتبارزوا.

(٣) بالَغوا في القتل، بشكل فظيع.

(٤) تمزّق وتبدّد من الخوف.

(٥) تهيّأ رافعًا صوته بالبكاء.

(٦) مفردها سَرِيّ: شريف ذو مروءة.

ولمَّا وصل مركيز قادس إلى النقيرة مفلولاً شريدًا أشعَثَ أغبر[١] مخضّبًا بالدم، عظمت النِكاية في قلوب الإسبانيول؛ لأنه كان عظيم المكانة فيهم، ولم يجسر أحد أن يعزّيه بأخوته، بل لزم غرفته كئيبًا حزينًا، وانتشر خبر هذه الهزيمة الشنعاء في البلاد فارتجّت الثغور، وساحت العَبَرات[٢]، وهلعت القلوب، حتَّى قلب فرديناند وإيزابيلا في وسط قصرهما؛ أمَّا المغاربة فطارت قلوبهم فرحًا، لا سيَّما عندما شاهدوا أمراء الإسبانيول وأعيانهم مقيَّدين بالسلاسل، تجلبهم فلاّحو الجبال، وفي أيديهم راياتهم، والكونت دو سيفنتاز من جملة مَن ثقَّفوهم[٣].

وهاك ما ورد في "النفح" بشأن هذه الوقعة قال: "في صفر سنة ثمان وثمانين وثمانمائة، اجتمع رؤساء النصارى وقصدوا قرى مالَقَة وبَلِّش في نحو الثمانية آلاف، وفيهم صاحب إشبيلية، وصاحب شريش، وصاحب إستِجّة، وصاحب النقيرة، وغيرهم، فلم يتمكَّنوا من أخذ حصن، ونشبوا في أوعار ومضايق وخنادق وجبال، واجتمع عليهم أهل بَلِّش ومالَقَة، وصار المسلمون ينالون منهم في كلّ محلّ، حتَّى بلغوا مالَقَة، ففرَّ كبيرهم ومَن بقي قُتِل أو أُسِر. وكان السلطان أبو الحسن في ذلك الوقت قد تحرّك لنواحي المنكّب، وبقي أخوه أبو عبد الله بمالَقَة، ومعه بعض الجند وقتل من النصارى في هذه الوقعة ثلاثة آلاف، وأسر نحو ألفين من جملتها خال السلطان وصاحب إشبيلية، وصاحب شريش، وصاحب النقيرة، وغيرهم، وهم نحو الثلاثمائة من الأكابر، وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدّة والذهب والفضّة" انتهى.

ـ أبو عبد الله يُخفق في فتح لشانة ويُؤسر

وأمَّا غَرناطة، فغبطت أبا الحسن على ما أصاب من الغُنم والفوز، وثارت بأبي عبد الله ولده لأجل الجهاد، فلبّى الدعوة، وعقد عزمًا موفورًا على إبلاغ الغارة حدود قُرْطُبة، فحشد سبعمائة فارس وسبعة آلاف ماش، وسار إلى لَوْشَة حيث وافاه حموه علي العطّار، بجيش من الفرسان كلّهم مغاوير، ثمَّ دخل أرض النصارى واكتسح بلادهم إلى حدود لشانة.

---

(١) شعثَ الشَعر، كان مُغْبَرًا متلبِّدًا، فصاحبه أشعث ملطَّخًا بالغُبار.

(٢) جرَت الدموع.

(٣) ظفروا بهم وأخذوهم.

وكان علي العطّار خبيرًا بالأرض لكثرة ما قاتل فيها في زمانه، فأبصر نارًا على علم[1]، فقال لصهره لقد أصبحنا مكشوفين فلنسرع إلى فتح لشانة، فسار معه أبو عبد الله وكان الدّون دياغو دوق قُرْطُبة في حصن بانية، وقد علم بقدوم المغاربة فخرج بمائتين وخمسين فارسًا وألفين ومائتي راجل لإنجاد ابن أخيه في لشانة، وفي الطريق تذكّر أنه نسي راية بانية، التي هي شارة بيته، فنشر راية قَبْرة[2]، وعند وصوله، انتعش به ابن أخيه ممّا اعتراه من خوف العدوّ، وبرز الكونت لمنازلة العدوّ، فتلاقيا وراء ربى وهضاب، وقد أثقلت الغنائم حركة المغاربة وشوهد أبو عبد الله ممتطيًا جواده الأشهب، تحفّ به بطانته الباهرة، ولمّا ظهر لأبي عبد الله جيش النصارى سأل حَماه عن رايتهم فأجابه لست أعرف يا سيِّدي هذه الراية، وأظنّ الأندلس كلّها زاحفة إلينا، إذ لا يمكن أنَّ أهل مدينة واحدة يقتحمون لقاءنا، واشتعلت نار الحرب وإذا بأحد القوّاد قد جاء الإسبانيول بمدد جديد، وعزف بموسيقى إيطاليّة، فقال علي العطّار، هذه ألحان طليانية لعلّ العالم كلّه أصبح ضدّنا، وكان الضباب كثيفًا فغمّ على المسلمين أمر العدوّ، وظنّوه أضعاف ما هو، فكانوا يقاتلون رجوعًا حتّى بلغوا ساقية هناك، فوقف السلطان أبو عبد الله على ضفّتها حتّى عبرتها رجاله وبقي الحرس حواليه والقتال بينهم وبين الإسبانيول، فانهزم الحرس وعبروا الماء، وأصبح السلطان فريدًا برأسه، فترجّل وتوارى وراء الصفصاف لئلاّ يعرفه الإسبانيول فحضروا إليه وأمسكوه، وظنّوه كبيرًا من كبراء المغاربة فعادوا به إلى لشانة، أمّا علي العطّار فلبث سائرًا والعدوّ في أثره، لكنَّه كان يكُرّ عليهم، فيبدِّد شملهم، ويستأنف سيره، ولمّا وصل الخبر إلى فرسان النقيرة، اغتنموها فرصة لإدراك الثأر، وسار الدّون ألونزو دو أغيلار بجيش فالتقى بالمغاربة على ضفاف الشنيل، فاقتتلوا شديدًا وزعموا أنَّ علي العطّار أبصر الدّون ألونزو فقصده وطعنه بحربة فأثبتها في قسم من درعه، ولم تُصِبه بضرر، فانتضى[3] حسامه ووثب عليه كالليث الذي قد ثكل شِبْله[4]، فدفع الفارس الإسباني عن نفسه، وبقي القِرنان يتساوران[5] ساعة، تارةً على ضفّة النهر، وطورًا في الماء وأثخن ذلك الشيخ العجيب جراحات، فرقّ الدّون لشيخوخته، وعرض عليه التسليم فأباه، فدهمه الدّون بضربة على أمّ رأسه، فخرَّ صريعًا في النهر.

---

(١) جبَل.

(٢) مدينة بالأندلس.

(٣) سلّه من غِمدِه.

(٤) فَقَده.

(٥) يتواثبان، واحدهم على الآخر.

قالوا: «وكان مصرعه سببًا في فشل المغاربة، فعبروا النهر مفلولين[1]، وغرق منهم كثير» وأمَّا أبو عبد الله فأحضر لدى كونت قَبْرة فأعظم موصله وعزاه بما يناسب المقام، قائلاً له، إنَّ القضاء الذي قضى عليه هذه المرّة ربَّما يقضي له مرّة أخرى.

ـ عودة أبي الحسن إلى غرناطة

وصل سيِّدي غالب الغرناطي بالصريخ إلى لَوْشَة فغَرناطة، وأخبر أنَّ السلطان أبا عبد الله قد وقع في يد العدوّ، وأنَّ العطّار قد قُتِل، فجزع المسلمون جزعًا شديدًا ومالت القلوب إلى السلطان أبي الحسن، وتطيّروا[2] من أبي عبد الله، واستشعروا صدق أقوال المنجِّمين بحقّه، بأنه سيكون سقوط غَرناطة على يده ممّا لقّب لأجله بالشقيتواي (الشقي)، ودخل أبو الحسن الحمَراء واستقرّ ثانيةً في كرسيه، وانحازت امرأته الحرّة إلى محلّة البيازين، وانقسمت العاصمة شطرَين، فكتب أبو الحسن إلى الملك فرديناند والملكة إيزابيلا أن يسلّما إليه ولده وهو يسلِّمهما الكونت سيفتناز وسبعة أمراء آخرين، فأبيا تسليمه خوفًا من أن يقتله، لا حذرًا عليه، بل خشيةً من انقضاء الفتنة بينهما، وأرسلت أمّه من جهة أخرى تعرض عليهما ردّه إليها على وثيقة أن يعترف بسلطة ملك قَشتالة، ويؤدّي جزية وافرة كلّ سنة، ويقدِّم النفقات العسكرية، ويردّ أربعمائة أسير نصراني، ويقدِّم سنويًا سبعين رقيقًا مدّة خمس سنوات، ويرهن على ذلك ولده الوحيد، وأولاد اثني عشر بيتًا من بيوتات المغاربة.

وحيث كانت إيزابيلا غائبة لم تحظَ عائشة بجواب، وخرج فرديناند فَشَنَّ الغارة على أراضي غَرناطة، وأبو الحسن ملازم مكانه، لا يخرج إليه خوفًا من أن يعود فيجد الأبواب موصدة في وجهه كالعادة، فكان نظير النمر الكاسر المحبوس في القفص وصَيْدُهُ بإزائه، وهذه نتيجة استبداد النساء بالأمور ودخولهنَّ في الأحكام، ثمَّ عادت إيزابيلا فأطلقت مولاي أبا عبد الله على شريطة أن يعترف بسلطانها وسلطان زوجها، ويُطلِق مَن في جانبه من أسرى المسيحيين، فخرج أبو عبد الله بحاشية وافرة لزيارة الملك فرديناند، فلمَّا قابله انحنى لأجل تقبيل يده فأبى فرديناند ذلك، وأنهضه بيده ولاطفه وأكرمه».

ـ إطلاق سراح أبي عبد الله، وعودة الفتنة بعودته إلى غرناطة

قالوا: «وقَدِمَ ابن سراج من غَرناطة ومعه ولده أبي عبد الله وأبناء الأشراف الغَرناطيين،

(١) منهزمين متفرّقين (منصوبة على الحالية).

(٢) تشاءموا.

فأودعوهم رهنًا، وجيء بالسلطان أبي عبد الله إلى غَرناطة، وسار فرديناند في تشييعه بضع ساعات، ولمَّا وصل أبو عبد الله إلى الحاضرة ثار به والده وأصحاب والده من جهة وانتصرت له والدته ومَن إليها من جهة أخرى، فكان هناك في ذلك الوقت الضيّق مشهد الحماقة الأعظم، وجرى من الأمور المُنكَرة ما ليس في كتاب، وامتلأت الأسواق بالمقاتلين، بعضهم ينادي بأسم أبي عبد الله، والبعض الآخر بأسم والده أبي الحسن، وكان أكثر ميل العامّة إلى أبي عبد الله، فسالت الدماء وأصبحت حمراء غَرناطة اسمًا على مُسمّى، إلى أنّ كلّ الناس من تقتيل بعضهم بعضًا والعدوّ على الأبواب، وسئموا من إهدار دماء المسلمين أعظم ما كانت الحاجة إلى ادّخارها لدفاع العدو، وارتضى أبو عبد الله أخيرًا بالخروج من غَرناطة والانحياز إلى المَرِيّة المدينة الثانية بعد تلك في الأبّهة والشأن وتشامخ البُنيان، إلاّ أنّ والدته حرسها الله، لم تكن راضية عن ذلك، بل قالت له إنَّ الملك الذي لا يقدر أن يستقرّ في عاصمة مُلْكه لا يصحّ أن يسمّى ملكًا، وكان بودِّها أن يبقى ابنها في الحمراء، ولو استمرّت الفتنة وجرى من الدم أضعاف ما جرى، والحق أنَّ لهذه المرأة، ولضرّتها الثريّا، اليد الطولى في تعجيل سقوط غَرناطة».

* يالربّي ممّا تجُرُّ النساء *

ـ وقائع رُنْدَة، والصخرة، والحامّة

على أنّه وإن كان أبو عبد الله قد ارتحل عن غَرناطة، فقد بقي له في البيازين رجال كلّما اغتاظوا من أبيه نادوا بأسمه، فأجمع أبو الحسن أخيرًا على الغزو في بلاد العدوّ لعلّه يزداد تمكينًا، وكان فرديناند بقسم كبير من جيشه في غَزاة بعيدة، فعقد السلطان على الجند لقائد مالَقَة، وجعل معهد اللقاء رُنْدَة، وهي حصن مشهور المنعة، كان لذلك الوقتْ عشّ الدعارة، ومركز قطاع السبل ومأوى الفتاك، وأهله لا يألون النصارى خبال(١)، ولا يفترون عن مغاورتهم من حصنهم، وسجونهم ملأى بأسراهم، وعليهم قائد يليق بهم، اسمه حامد الزغبي من بني زغبة، الموصوفين بالشدّة والقسوة، وعندهم طائفة من الأفريقيين، من غمارة، ولم يكن في الدنيا أحسن من هؤلاء إذا ركبوا، لأنهم سريعو الكرّة، عُقبان عند

---

(١) لا يوفّرون جُهدًا في إهلاكهم وإرهاقهم.

الوثوب، شديدو الوطأة، إذا أقبلوا من معاصمهم[1] اندفقوا على مروج الأندلس، ولا اندفاق السيل المنهمر من الجبال، فاجتمعت الأجناد في رُنْدَة وكانت نحو أربعين ألف ماشٍ وألف وخمسمائة فارس، وزحفوا تحت قيادة قائد رُنْدَة، وقائد مالَقَة، وذلك في ١٧ أيلول سنة ١٤٨٣ فانتشروا في السهول وامتلأت أيديهم من الغنائم، وامتدّ الصريخ بين رؤساء النصارى، فجمع صاحبا قادس وبويرتو جيشًا كثيفًا، ونهضا لمدافعة العدوّ، وكان المسلمون قد أقاموا كمينَين أحدهما عند مدخل سهل الأندلس، والثاني حفافي نهر لوبرة، فلمَّا انتشروا في أرض العدوّ نهد إليهم جيش من أوتررة فالتزموا الرجوع نحو لوبرة، فطاردهم الإسبانيول حتَّى وصلوا إلى الكامنين فأَرَّزوا[2] بهم، وحمل الجميع على الإسبانيول فهزموهم. فأنجدهم بويرتو كريرو فتشدَّدوا به، وأعاد الكرّة فثبت المسلمون في مواقفهم، لكن أُسر قائدهم، فذُعروا وانشطروا شطرَين فتأثف[3] الإسبانيول أحدهما وألحّوا عليه، والتقى الآخر بصاحب قادس فناوَشه، وإذ رأى جواد أخيه المقتول في الوقعة السابقة تحت أحد فرسان المغاربة، ورأى الإسبانيول خيول إخوانهم القتلى في جبال مالَقَة تحت فرسان أعدائهم، غلت في صدورهم مراجل[4] الغيظ، وثاروا لأخذ الثأر، فحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فكشفوهم، وضلّ حامد طريقه إلى رُنْدَة، فردّه إليه أحد المتمسلمة[5] من النصارى.

وكان عند صاحب قادس بعض العيون والجواسيس، أكثرهم من متنصِّرة المغاربة، فأخبروه بضعف حامية الصخرة، فتهيّأ لقصدها، واستجاش ببويرتو السابق الذكر وجويان المارز، فبادرا لإجابته، وزحفوا في ٢٨ أوكتوبر سنة ١٤٨٣ بستّمائة فارس وألف وخمسمائة ماشٍ، فبلغوها ليلاً بدون أن يشعر بهم أحد. وكمن أورتغادو برادو المعهود، بعشرة من أقرانه تحت السور، ومعهم سلالم، وكان رجال الحصن قد خرجوا إلى المدينة، وناشبهم الإسبانيول القتال، ريثما تمكَّن هؤلاء الكامنون من صعود الحصن، فعندما أيقنوا أنَّ العدوّ أصبح فيه، سقط في أيديهم، واتّفقوا مع العدوّ على الخروج بالأمان.

---

(١) مواضع اعتصامهم.

(٢) اجتمعوا.

(٣) تأثفه الناس: احتوشوه فصاروا حواليه كالأثفية.

(٤) مفردها مِرْجَل: قِدْر يُطبخ فيها حتّى تَغلي، واستعملها هنا على المجاز.

(٥) الذين اعتنقوا الإسلام.

وبعث السلطان أبو الحسن جيشًا إلى الحامّة، وكان قائدها الكونت طنديلة فذبّ[1] عنها حسنًا، وفي أحد ليالي الشتاء، خرّ جانب من سورها، فخاف الكونت أن يدري المسلمون فيقتحموا الثغرة، فنشر غطاءً كبيرًا من النسيج، وجعل وراءه الفعلة يشتغلون حتّى أكمل بناء الحصن المتهدّم.

ـ سقوط أريلولة في يد الإسبانيول، ونزول السلطان أبي الحسن عن الملك لأخيه الزغل

وفي تلك المدّة احتشد أمراء الإسبانيول ثانيةً للغزو، وزحفوا بستّة آلاف فارس واثني عشر ألف راجل وعليهم مركيز قادس، وكونت قَبْرة، وقائد القنطرة، وصاحب صنتياغو، والدّون ألونزو دواغيلار، وبويرتو كريرو، وغونسالف القرطبي، وغيرهم، فاجتاحوا أراضي مالَقَة، وحطّموا زرعها، وأحرقوا البيوت المنفردة، ونهض إليهم المالقيّون، فلم يفوزوا منهم بطائل.

وكان فرديناند قد استبدل بآلات الحصار القديمة المدافع النارية الجديدة، ونزل بها على أريولة، ولم يكن لأهلها عهد بهذه الأدوات الجهنّمية، فارتاعوا، وسلّموا بلدتهم صلحًا، وانحاشوا[2] إلى مالَقَة، فلم يقبلهم أهلها ظنًّا بأنهم جبنوا عن القتال، وخاموا[3] عن اللقاء، ثمّ سيّر فَرديناند بهذه الآلات جيوشًا اكتسحت بسائط غَرناطة، فسأله أبو الحسن الهدنة، فأبى، وأظهر التعصُّب لابنه أبي عبد الله، وبعث إليه بالمدَد بمكانه من المَرِيّة، وكان أبو الحسن قد بلغ من الكِبَر عُتيًّا[4]، وكفّ بصرُه، ولزم الفراش، فنزل عن الحكومة والقيادة لأخيه أبي عبد الله الملقَّب بالزغل، وكان له أمينًا وبه برًّا، فهاج أهالي المَرِيّة على أبي عبد الله محمَّد، وقاموا ببيعة عمّه، ولم يلبث أن حضر هذا إليهم بنفسه، فافتتح قلعة المَريّة، وفرَّ ابن أخيه شريدًا إلى قُرْطُبة، مستغيثًا بالملك والملكة، واستوسق أمر غَرناطة كلّها للزغل، وسار إلى مالَقَة، وحوَّمت عليه الخواطر، وانشرحت له الصدور، وعقد به مغاربة إسبانية أنواط الآمال.

؛

---

(١) دفع وحامى.

(٢) انحازوا والمراد بها هنا لجأوا ولاذوا.

(٣) جبنوا ونكصوا.

(٤) تقدّم به العمر وأصبح عجوزًا.

قال (صاحب النفح) بشأن الوقائع المتقدّمة: "ولمَّا استقرّ السلطان أبو عبد الله ابن السلطان أبي الحسن بغَرناطة، وطاعت له البلاد غير مالَقَة والغربيّة، تحرَّك السلطان أبو الحسن على المنكَّب ونواحيها، وأتى ابنه السلطان أبو عبد الله في جند غَرناطة والجهة الشرقيّة، والتقوا في موضع يُعرف بالدب، فكسر السلطان أبو عبد الله. ولمَّا سمع السلطان أبو عبد الله صاحب غَرناطة بأنَّ عمّه بمالَقَة غَنِم من النصارى أعمل السفر للغزو بأهل بلاده من غَرناطة والشرقيّة، وذلك في ربيع الأول من السنة، إلى أن بلغ نواحي لَشانة، وقتل وأسر وغَنِم، فتجمَّعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعهم كبير قَبْرة، وحالوا بين المسلمين وبلادهم في جبال وأوعار، فانكسر الجند، وأُسر من الناس كثير، وقُتل آخرون، وكان في جملة مَن أُسِرَ، السلطان أبو عبد الله ولم يُعرَف، ثمَّ عَلِمَ به صاحب لَشانة، وأراد صاحب قَبْرة أن يأخذه منه، فهرب به ليلاً وبلغه إلى صاحب قَشتالة، ونال بذلك عنده رفعة على جميع القوّاد وتفاءل به، فقلَّما توجَّه لجهة أو بعث سريّة إلاّ وبعثه فيها، ولمَّا أُسر السلطان أبو عبد الله، اجتمع كبراء غَرناطة، وأعيان الأندلس، وذهبوا لمالَقَة للسلطان أبي الحسن، وذهبوا به لِغَرناطة، وبايعوه مع أنه كان أصابه مثل الصرع إلى أن ذهب بصره، وأصابه ضرر، ولمَّا تعذَّر أمره أقام أخاه أبا عبد الله، وخلع له نفسه، ونزل بالمنكَّب، فأقام بها إلى أن مات، واستقلّ أخوه أبو عبد الله المعروف بالزغل بالمُلك بعده" انتهى.

وقد سار المؤلِّف، رحمه الله، في تاريخ هذه الوقائع كلّها على قاعدة، الإيجاز فيه البلاغة.

ـ فرديناند يقصد مالَقَة، والزغل يردّه عنها، وسقوط رُنْدَة

ثمَّ إنَّ فرديناند أعاد الكرّة سنة ١٤٨٥ خامس إبريل، فحشد في قُرْطُبة تسعة آلاف فارس وعشرين ألف راجل، وقصد بها مالَقَة لأنها ميناء غَرناطة، ومنها كان يتسرَّب المدَد من جهة البحر، فابتدأ بفتح الحصون التي في طريقه، وأشهرها ذكوان، فأسرع حامد الزغبي لإغاثتها، فوجد أهلها قد استأمنوا وخرجوا منها. وفي "النفح" "إنَّ ألف دارع من النصارى دخلوا ذكوان عنوةً، فأظفر الله تعالى أهل ذكوان بهم، فقتلوهم جميعًا، ثمَّ طلبوا الأمان وخرجوا. فسار إلى مالَقَة، فخرج إليه الزغل بألف فارس فردَّه، وقُتل من الفريقَين، فانعطف صوب رُنْدَة، بإشارة مركيز قادس لمُنعة هذا الحصن، وكثرة ما فيه من أسرى المسيحيين، وكان قائد رُنْدَة قد خرج للغزو، وعاد بغنائم لا تُسهى؛ وعندما وجد الإسبانيول

منازلين حِصنه، بعث بالصريخ إلى أهل الجبال المجاورة فأسرعوا إليه، وأشعلوا الحرب، وأقدموا إقدام الأتيّ[1]، ولم تؤخذ رُنْدَة إلاّ بسبب عين كان يستقي منها أهلها، وينزلون إليها بدهليز طويل، ولا ماء لهم غيرها، فلمَّا تمكَّن العدوّ من هذه العين، لم ينفعهم الثبات، وطلبوا الأمان على شرط الإجازة إلى أفريقية، فأذن لهم وخرجوا ووجد في أُسَرِهم عدد غفير من كبار الإسبانيول وأبناء الأمراء».

- الزغل ينتصر على كبير قَبْرة

ثمَّ عزم فرديناند على منازلة حصن مكلين لما بلغه من ضعف الجند المرتّب له، وحصل التواعد بين الملك وبين كبير قَبْرة على المسير معًا، فبادر الزغل إلى الجهاد، وبرز إلى ملاقاتهما، فلم يصبر صاحب قَبْرة عن ملاقاته وحده، وناوشه بأربعة آلاف غير الشيقتو، والفرق شاسع بين أبوي عبد الله ابني الأحمر، فوصل صاحب قَبْرة إلى وادٍ عميق وكمَن فيه، لكن القمر بغى عليه وخانه، فافتضح أمره للمغاربة وانهالوا عليه بنبل متتابع، فاستسلم جيشه وقُتل أخوه، وهلك جواده، فامتطى جواد أخيه، ولمَّا رأى شدّة فتك المغاربة بأصحابه، فرَّ شريدًا فطاردوه مدّة، وأذرعوا في عسكره القتل، فهلك في ذلك اليوم جملة وافرة من أمراء النصارى وأبناء البيوتات الإسبانية، وآب الزغل بالغنيمة.

- سقوط حصن قنبيل في يد الإسبانيول

وساء جدًّا وقع هذه الواقعة عند الإسبانيول، فأراد الملك محو أثرها، وأجمع على مهاجمة حصن قنبيل والحصن الذي بجانبه[2] وهما مبنيّان على صخرتَين متناوحتَين[3] ترتبطان بجسر، ولهما حامية شديدة تكثر المغاورة في أراضي العدوّ خصوصًا جهة جيّان وقائد الحصنَين محمَّد بن يوسف بن سراج، من رؤوس فرسان العرب، فوضع الملك المدافع النارية الجديدة بإزاء الحصنَين، وشرع يرسل عليهما النيران، وأدار الحركة الدّون فرنسيسكو راميرز، أول مهندس في إسبانية لوَقْتِه، واستمرّ إطلاق النار يومًا كاملاً حتَّى خرّت الجدران، وهلكت الأبطال، ولم يجد ابن سراج فائدة من المقاومة بإزاء هذه النيران المحرقة التي لم تكن عنده فسلَّم القلعتَين على شرط الخروج إلى غَرناطة فأُجيب إلى ذلك.

---

(١) السيل الجارف الغريب.

(٢) يقصد حِصن "الحائر"، وهو إلى جانب حِصن "قنبيل".

(٣) متقابلتين.

- **سقوط قلعة زالعة**

وكان قائد الحامّة الدّون غايتارز دو باديلا، فحضر لديه مرّة مغربي من طبقة التجّار الذين من عادتهم أن يلحقوا الجيش لشراء السلب، وطلب الكلام معه قائلاً: "كم تنقدني من المال إذا سلَّمتك قلعة زالعة؟" فأجابه: "وكيف يكون ذلك؟" قال: "إنَّ لي فيها أخًا أوعِز إليه سرًّا فيمكّن جنودك من دخولها ليلاً". قال له: "وهل تخون دينك وأمّتك لأجل المال؟" قال المغربي: "إنَّني بدلت ديني وأمَّتي وأمّي أمّة إسبانيولية وقائد زالعة رجل ظالم، سلبني مالي فأريد الانتقام منه". فأرسل الدّون رجالاً راسلوا الخائن فأنزل إليهم سُلَّمًا تسلَّقوا بها الحصن، فذبحوا نصف رجاله واستولوا عليه.

- **الحرب بين الزّغل وابن أخيه أبي عبد الله وقسمة المملكة بينهما**

وكان أبو عبد الله ابن أخي الزغل قد جعل حاضرة مُلْكه بَلِّش البلانكو، وتقوّى به حزبه سكان البيازين، وعادت الحال إلى مكانها بينهم وبين أصحاب الزغل، وتخضّبت غَرناطة بالدماء من أبنائها، وازدادت الحمراء حمرة مع جميع ما اشتقّ من هذا المصدر، ونُكئت قرحًا على قرح[1]. وبينما هم كذلك إذ بلغهم تأهُّب العدوّ لاكتساح البلاد، فتكلَّم الناس في الصلح واتّفقوا على قسمة المملكة بين الزغل وابن أخيه، فجعلوا للزغل غَرناطة ومالَقَة وبَلِّش، مالَقَة والمَريّة وما يلحق بها، وتركوا الباقي لعهدة أبي عبد الله وسألوه أن يُقيم بلَوْشة لكونها ثغر المسلمين، طمعًا في دفع العدوّ عنها لمكان السلطان أبي عبد الله من الاتّصال بالطاغية.

- **سقوط لَوْشة في يد فرديناند، بعد أن تكبَّد جيشه خسائر فادحة**

سار الزغل إلى لَوْشَة وبعث إلى فرديناند يسأله التجانف[2] عنها فلم يُجِبه، بل إنهَّ في ربيع عام ١٤٨٦ زحف الطاغية بجحفل جرّار[3] مؤلَّف من ١٢ ألف فارس و٤٠ ألف ماش و٦ آلاف من ممّهدي الطرق، وكان في جيشه كثير من مطوّعة الفرنسيس، وفيهم من المشاهير مثل غاسطون اليوني، ومن غزاة الإنكليز وفيهم اللورد سكالس، وكان معه آلات ومدافع تفوق الإحصاء، بإدارة جند ألمانيين بادروا لإجابة داعي الحرب المقدَّسة من أقاصي

(١) قَشَرَه قبل أن يبرأ فعاد إلى النزف.

(٢) تجانف عن طريقه: عدل عنها.

(٣) الجيش الكثير العدّة والعَدَد.

بلادهم، فقبل الوصول إلى لَوْشَة استأذن مركيز قادس من الملك أن يتبوّأ رابية «أبو الحسن» التي حقّت فيها الهزيمة على الإسبانيول المرّة السابقة، والتمس كبير قَبْرة أن يكون في طليعة الجيش، فأذن لكلّ بما سأل، وخيَّم مركيز قادِس في أبو الحسن بخمسة آلاف فارس، واثني عشر ألف راجل، وأخذ كونت قَبْرة، باتِّباع الوادي طامعًا في أسر أبي عبد الله، وأمَّا هذا فبرز إلى القتال يطلب الموت، وتقدَّم الصفوف ينافح ويكافح، وما زال يخوض غمرات المنايا إلى أن أصيب بجرحين كبيرين، فالتزمت حاشيته أن يرجعوا به، ولكنَّ القتال بقي مشتدًّا وتبايع الفريقان على الموت، وتحاجزوا وتناجزوا، وإذا بفارس مغربي، زَميت[1] المنظر، شديد الروعة، راكبًا جوادًا أدهم كالليل الحالك قد أحدق[2] به أبطال من غمارة، ووثب كالأسد الحارد[3]، فاخترق مصافّ الإسبانيول وهزم مَن لقيه، فاشتدّ به بأس المسلمين وراجعوا بصائرهم، ونبَّهوا عزائمهم، وحملوا حملة الرجل الواحد فاختلَّ مصافّ الأعداء على كثافة جموعهم، وكان هذا الفارس هو حامد الزغبي، فانكشف الإسبانيول من جهة الوادي، وكاد صاحب قادس يقع في الأسر، فبادر الملك فرديناند ببقيّة الجيش وإلى جانبه اللورد سكالس، البطل الإنكليزي ومعه غَزاة الإنكليز يقاتلون بالفؤوس على عادة بلادهم، ولم يكن ذلك معهودًا عند المغاربة فذُعروا وجُرح الزغبي، فاحتملوه إلى المدينة، وارتخت عزائمهم فنكصوا إلى الأرباض وألحَّ عليهم الإسبانيول، فاشتدّ العراك وراجع المسلمون ضمائرهم وصدقوا الحملة فكشفوا العدوّ، وجُرح اللورد الإنكليزي، وحُمل إلى الخيام، فنصب الطاغية مدافعه وأخذ يرمي البلدة بالنيران الدائمة، فهدم أسوارها وحاول أهلها ترميم جدرانها، وسدّ فرْجها[4]، فلم يُفلحوا، وكان النساء والأطفال والشيوخ، تحت نيران المدافع، يصابرون على مُرِّ الحِمام، فيئس من ذلك المسلمون وحملوا على الإسبانيول فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، واستمرّوا يفتكون بهم ليلتين ويومًا، لكن تهدُّم بلدتهم، وموقفهم بإزاء النيران المُحرقة، اضطرأهم أخيرًا إلى التسليم، على شرط الانصراف آمنين فأُجيبوا إلى ما سألوه، وخرجوا إلى رياغو على ثلاث ساعات من لَوْشَة.

---

(١) وَقور.

(٢) أحاطَ به.

(٣) من أسماء الأسد.

(٤) سدُّ الفتحة (في الجدار).

· وهاك ما ورد في النفح بشأن ما تقدَّم ببعض تصرُّف قال:

«ثمَّ انتقل (أي الطاغية) في جمادى الأولى إلى رُنْدَة، وحاصرها وكان أهلها قد خرجوا إلى نصرة ذكوان وسواها، فحاصر رُنْدَة وهدَّ أسوارها، وخرج أهلها على الأمان وطاعت له جميع البلاد ولم يبقَ بغربي مالَقَة إلاّ مَن دخل في طاعته وتحت ذمَّته، وضيَّق بمالَقَة وفرَّق حصصها على بعض الحصون ليحاصر مالَقَة وعاد إلى بلاده.

وفي تاسع عشر شعبان من العام، سافر صاحب غَرناطة لتحصين بعض البلاد، وبينما هو كذلك إذ بالخبر جاءه أنَّ محلّة العدو[1] خارجة لذلك الحصن[2]، وفي صبيحة الثاني والعشرين من شعبان أصبحت جنود النصارى على الحصن، كانوا قد سَرَوا إليه ليلاً، وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين، فقاتلهم المسلمون من غير تعبية، فاختلّ نظام المسلمين، ووصل النصارى إلى خِباء السلطان، ثمَّ التحم القتال واشتدَّ وقوّى الله تعالى المسلمين، فهزموا النصارى شرّ هزيمة، وقتلوا منهم خلائق، وقصر المسلمون خوفًا من محلّة سلطان النصارى إذ كانت قادمة في أثر هذه، ولمَّا رجعت إليهم الفُلول، رجعوا القَهْقَرى، واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات وجعلوا ذلك كلّه بالحصن، ولم يحدث شيء بعد إلى رمضان، فتوجّه العدو لحصن قنبيل، ونازله وهدّ أسواره، ولمَّا رأى المسلمون أنَّ الحصن قد دخل طلبوا الأمان، وخرجوا بأموالهم وأولادهم وفرَّ الناس من تلك المواضع، واستولى العدوّ على عدّة حصون مثل مشافر وحصن اللوز، وضيَّق بجميع بلاد المسلمين ولم يتوجَّه لناحية إلاّ استأصلها، ثمَّ إنَّ العدو دبر الحيلة مع ما هو عليه من القوّة فبعث إلى السلطان أبي عبد الله الذي تحت أسره، وكساه، ووعده بكلّ ما يتمنّاه، وصرفه لشرقي بَسْطَة، وأعطاه المال والرجال ووعده أنَّ مَن دخل تحت حكمه من المسلمين فإنَّه في الهدنة والصلح، وخرج لبلَّش فأطاعه أهلها، ونودي بالصلح في الأسواق، وصرَّحت به في تلك البلاد الشياطين، وسرى هذا الأمر حتَّى بلغ أرض البيازين من غَرناطة، وكانوا من التعصُّب وحميّة الجاهلية والجهل بالمقام الذي لا يخفى، وتبعهم بعض المفسدين، المحبّين تفريق كلمة المسلمين، وممَّن مال إلى الصلح عامّة غَرناطة لضعف الدولة، ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماسرتها بتقبيح وتحسين، إلى أن قام ربض[3] البيازين بدعوة السلطان

(١) محلة العدو: مكان العدوّ.

(٢) خارجة لذلك الحصن: قادمة إليه.

(٣) الربض: الناحية، وكلّ ما يؤدّى.

الذي كان مأسورًا، ووقعت فتنة عظيمة في غَرناطة نفسها، لما أراد الله من استيلاء العدوّ على تلك الأقطار، ورجموا البيازين بالحجارة من القلعة، وعظم الخطب وكانت الثورة ثالث شهر ربيع الأول عام أحد وتسعين وثمانمائة ودامت الفتنة إلى منتصف جمادى الأولى من العام، وبلغ الخبر إنَّ السلطان الذي قاموا بدعوته قدم على لَوْشَة، ودخلها على وجه رجاء الصلح بينه وبين عمّه الزغل صاحب قلعة غَرناطة، بأنَّ العمّ يكون له الملك وابن أخيه تحت إيالته بِلَوْشَة أو بأيّ المواضع أحبّ، ويكونون يدًا واحدة على عدوّ الدين، وبينما هم كذلك، إذا بصاحب قَشتالة قد خرج بجند عظيم ومحلّة قويّة، وعَدد وعِدد ونازل لَوْشَة، حيث السلطان أبو عبد الله، وضيّق عليها الحصار وقد كان دخلها جماعة من أهل البيازين بنيّة الجهاد ولمعاضدة وليّهم، وخاف أهل غَرناطة وسواها، من أن يكون ذلك حيلة فلم يأتِ لنصرتهم غير البيازين (انظر إلى ما تجنيه الفرقة واختلاف النيّة من ثمرة التخاذل) واشتدّ عليهم الحصار وكثرت الأقاويل بأنَّ ذلك باتّفاق بين السلطان المأسوز وصاحب قَشتالة، ودخل على أهل لَوْشَة في ربضهم، وخافوا من الاستئصال، فطلبوا الأمان في أنفسهم وأموالهم، فوفى لهم صاحب قَشتالة بذلك وأخذ البلد في السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين، وهاجر أهل لَوْشَة إلى غَرناطة. وبقي السلطان أبو عبد الله بِلَوْشَة، فصرخ عند ذلك أهل غَرناطة، بأنه ما جاء لَوْشَة إلاّ ليدخلها العدوّ، وقيل إنهً سرح له حينئذٍ ابنه الذي كان مرهونًا في الفداء، ثمَّ رجع صاحب قَشتالة إلى بلاده ومعه السلطان المذكور، وفي نصف جمادى الآخرة، خرج إلى البيرة فهدَّ بعض الأسوار، وتوعَّد الناس، فأعطاه أهله الحصن على الأمان، فخرجوا وقدموا على غَرناطة، وانتقل للصخرة فأخذها، وحصَّن هذه الحصون كلّها وشحنها بالرجال والعدّة، ورتَّب فيها الخيل لمحاصرة غَرناطة، ثمَّ عاد لبلاده، وتعاهد مع السلطان الذي في أسره بأنَّ مَن دخل في حكمه فهو في الأمان، وأشاعوا أنَّ ذلك بسبب فتنة وقعت بينه وبين صاحب إفرنسية، فخرج لِبَلِّش وأطاعته، ثمَّ بعث لَمن والاه من البلاد، أنه أتى بصلح صحيح وعقد وثيق، وأنَّ مَن دخل تحت أمره، أَمِنَ من حركة النصارى عليه، وأنَّ معه وثائق بخطوط السلاطين، فلم يقبل الناس ذلك إلاّ القليل منهم مثل أهل البيازين، فلهجوا بهذا الصلح وأقاموا على صحَّته الدلائل وتكلَّموا في أهل غَرناطة بالكلام القبيح مع تمكّن الفتنة والعداوة في القلوب، فبعث له أهل البيازين أنه إذا قدم بهذه الحجج اتَّبعه الناس وقاموا بدعوته من غير التباس، فأتى على حين غفلة ولم يكن يظنّ إتيانه بنفسه. فدخل البيازين ونادى في أسواقها بالصلح التامّ الصحيح، فلم

يقبل ذلك منه أهل غَرناطة وقالوا: ما بعهد لَوْشَة من قدم. ودخل ربض البيازين بالرجال، سادس عشر شوّال سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وعمّه بالحمراء، واشتدّ أمر الفتنة، وأمدّ صاحب قَشتالة صاحب البيازين بالرجال والعدّة والبارود واشتدَّ أمره بذلك وعظمت أسباب الفتنة، وفشا في الناس القتل والنهب"، انتهى.

وفي رواية المقري اختلاف مع الروايات الإفرنجية في بعض المظان، من تقديم وتأخير وتصغير وتكبير، كما لا يخفى على مَن تدبَّر النقلَيْن وقال مؤرِّخو الإسبانيول: "ثمَّ زحف فرديناند نحو "أيلورة"[1] الواقعة على ستّة عشر ألف متر فقط من غَرناطة، فضيَّق عليها، ورماها بالنيران، فسلَّمها سكانها وخرجوا، وكان حصن (متن فريد) من أمنع حصون المغاربة، وقد حفر الزغل حوله الخنادق وأرسل مَن فيه من النساء والأولاد إلى غَرناطة، فأناخ عليه[2] فرديناند يرميه بالمحرقات حتَّى اشتعل مخزن البارود. وفي "النفح" يقول "دار العدّة، وتهدَّمت المنازل، وهلك الناس، فطلبوا الأمان وخرجوا إلى غَرناطة ودخل ملوك النصارى الحصن. ووجدوا فيه جملة وافرة من أسرى المسيحيين، هذا، والزغل لا يتحرَّك من مكانه بالحمراء، خوفًا من انتقاض أهل البيازين الذين كان لهم مع نساء القصر السهم الأوفر في إسقاط تلك السلطنة".

وزعموا أنَّ قائدي (متن فريد) وأيلورة، وكانا أخوين في البأس كما في النسَب والمغاربة يحبّونهما كثيرًا لإقدامهما، فبعد تسليم الحصنين تبدَّلت محبّتهما قِلًى[3]، فيئسا من الحياة، وشرعا يجدّان في استعادة منزلتهما، واستأذنا السلطان في نزال النصارى، فعقد لهما على جيش وافر وخرجا للجهاد، فالتقيا بالإسبانيول عند جسر بينوس على مسافة ساعتين من غَرناطة، فكانت ساعة مؤرَّخة في وقائع حروب الدنيا أبدى فيها الإخوان من حُسْن البلاء، وصِدْق الجِلاد ما لا يدخل تحت وصف، فكانا كيفما حملا في مصافّ العدوّ اختلّت أمامهما الصفوف، وتهاوت أمامهما الأبطال، وكان مركيز قادس قائد الطليعة فأوشك أن يولّي منهزمًا، فأسرع لإغاثته كونت قَبْرَة فلم يقض أرَبًا، فبادر الدّون جويان ابن أخي الملك، فلم يشفِ غليلاً، فوافاهم الطاغية الكبير بنفسه، وبباقي جيشه، فردَّ المغاربة بكثرة العديد، وبقي الأخوان المستميتان يقاتلان في مقدَّمة الجند، وقد أحاط بهما شِرذِمة[4] من

---

(١) ذَكَرها كتاب "الرّوض المعطار في خَبَر الأقطار"، وهو معجم جغرافي مع مسرد عام، للحميري.

(٢) بمعنى أنزلَ به، أو أهوى بثقله عليه.

(٣) بمعنى ببغض على غير قياس.

(٤) جماعة قليلة.

أنجاد الغارة، إلى أن وقعا صريعَين الواحد بعد الآخر، فعظم الخطب فيهما، واشتدّت النكاية بموتهما، وبكاهما أهل غَرناطة بسيول الدموع.

وعاد فرديناند إلى قُرْطُبة، بعد أن اجتاح مرج غَرناطة، وأخنى على نضارته[1]، ولم يكد يخلص إلى بلاده، حتّى استؤنفت الفتنة في غَرناطة بين الزغل وابن أخيه، وكان ما كان من حضور أبي عبد الله إلى البيازين وقيام دعوته فيها، واستمرار القتال بين الفئتين أيامًا حتّى قيل إنّ السلطانَين تبارزا بأنفسهما في أسواق غَرناطة فلم يفُز أحدهما بالآخر.

ـ وصول خبر الأندلس إلى المشرق، والاتّفاق على الإغاثة

وذكر مؤرّخو الفِرنجة، أنّ أخبار الأندلس كانت وصلت إلى المشرق، فارتجّ لها العالم الإسلامي، ووافقت حصول الفتنة بين السلطان بايزيد الثاني وصاحب مصر. فتهادَنا، ووقع الاتّفاق على أن يُرسل بايزيد أسطولاً على سواحل صقلية لكونها تابعة لمملكة إسبانية، وأن يجهّز صاحب مصر بُعوثًا من جهة إفريقية.

ـ خوف فرديناند وسقوط بَلّش

فلمّا أحسّ بذلك فرديناند وإيزابيلا، أجمعا على سدّ الثغور البحرية كلّها عن غَرناطة قطعًا للإمداد، ولمّا كانت مالَقَة هي الثغر الأعظم، وميناء الأندلس ومركز التجارة مع مصر والشام، ومنها كانت تتسرّب الأموال والأسلحة والجنود والخيول من تونس وطرابلس وسائر المغرب، كان أول ما أعملا فيه الاستيلاء على مالَقَة، ولكن قبل النزول على مالَقَة عزما على أخذ بَلّش القريبة منها، ففي ربيع سنة ١٤٨٧، زحف الطاغية بعشرين ألف فارس وخمسين ألف ماشٍ، قسمها قسمين: أحدهما بقيادة صاحب القنطرة، والثاني قاده بنفسه، وأخذ الأول بطريق الوادي، وسار الثاني بطريق الجبل، وأمامه نحو أربعة آلاف من الصنّاع وممهّدي الطرق، فلم يزل حتّى أطلّ على مرج بَلّش وجنانها، وهي من أزهى بقاع الأرض، وأبدع أقاليم الدنيا، وقد ارتفعت في حفافيها الحصون والأبراج، وهناك قوم من الجبليين أهل شدّة ونجدة، فما خيّم الملك حتّى انقضّوا عليه من وراء الصخور، انقضاض النسور من الوكور، فهزموا طائفة من جنده، واستلحموا جماعة، فقُتل جملة وافرة من أبطاله، وأصيب ابن الدوق براغانس بجراحة، ثمّ أرسل جنودًا للمحافظة على الذخيرة

---

(١) بمعنى «أفسد» وأتلف نضارته.

الآتية بطريق الجبل، فلم يتمكّنوا من حفظها وأصابها المغاربة، وأبعدوا في معسكره النكاية[1]، وأخذوا يضرمون النيران في الليالي على رؤوس الجبال إشارة بعضهم إلى بعض على حدّ ما قال:

وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا يـتـكـلّـمـون بـألـسـن الـنـيـران

وكبسوا معسكر الطاغية بياتًا، مرارًا جمّة، وأخيرًا تجمّعوا من كلّ ناحية وهاجموا المعسكر، وبعد قتال عنيف ارتدّوا إلى جبالهم، هذا والحرب الداخلية لم تزل قائمة على سوقها[2] في أسواق غَرناطة، فلمّا شاهد المسلمون ما هم عليه من الغفلة والاشتغال بمناظرة بعضهم لبعض، أحوج ما كانوا إلى الانضمام والوئام شدّدوا النكير على السلطانين، ونصحوا لهما بالعدول عن الشأن الذي هما فيه، فأبى أبو عبد الله التخلّي لعمّه عن المُلك وأصرّ على المطالبة غير متأمّل في عواقب هذه الحال التي ستنتزع المُلك منه، ومن عمّه، ومن جميع أهل بيته وملّته، في أرض عمّروها ثمانية قرون، إلاّ أنَّ الزغل لم يصبر عن نجدة بَلِّش فأبقى في الحمراء حامية كافية لدفع ابن أخيه المشؤوم، وخرج ليلاً بألف فارس وعشرين ألف ماشٍ، واجتمع إليه من أهل الجبال أعداد، وعلا الصوت في الربى والوهاد، "الزغل الزغل" فوقع الرعب في قلوب الإسبانيول، وكانت مدافع الطاغية في الطريق، فحاول رضوان المكناسي استخلاصها، فلم يفز بطائل، وكتب الزغل إلى قائد بَلِّش، يأمره أنه عندما يشاهد النار ليلاً يخرج من إحدى جهات المدينة، وهو يقابله من الجهة الثانية وكان الرسول من المتمسلمة، فوقع الكتاب في يد فرديناند فخاف جدًّا وخافت الملكة أكثر منه، ولكن أفادهما الظفر بذلك الكتاب، عدم وقوف قائد بَلِّش على أمر الزغل، فبقي في المدينة لا يبدي حركة وتقدَّم الزغل نحو معسكر الإسبانيول فلم يجدوا أحدًا خرج من البلدة، فلم ينكصوا على أعقابهم[3]، بل اقتتلوا اقتتالاً شديدًا، وانتظر المغاربة أن يخرج أهالي بَلِّش لمساعدتهم، فطال الأمد ولم يبرز أحد، فأصابهم الهلع وتقهقروا وتقدَّم صاحب قادس، فتبوّأ مرقبًا عاليًا ركب فيه ريحهم[4]، فاجتهد الزغل في ضمّ شملهم فلم يفلح، فعاد بهم إلى غَرناطة، ولمّا طار الخبر إليها بما حلّ به من الفشل بايع أهلها ابن اخيه، فضرب هذا أعناق أربعة من أعيان الغَرناطيين أنصار عمّه، ولمّا بلغ الزغل نهر شنيل، أخبره بعض

---

(١) أبعدوا في معسكره النّكاية: تمادوا في معسكره قتلاً، فأثّروا فيه، وقَهَروه.

(٢) قام على ساقها: اشتدّت.

(٣) أحجموا وعادوا عمّا كانوا عليه. ارتدّوا.

(٤) استعلى بالغَلَبة عليهم، وحلَّ من نصرته عليهم مكانًا مرتفعًا.

حواشيه أنَّ الحضرة بايعت ابن أخيه، فتحوَّل إلى المَرِيّة، فالمنكَّب، فوادي آش. ولمَّا أصبح أهالي بَلِّش وقد رأوا الزغل أقلع بعسكره عنهم، وهت عزائمهم فعوّلوا على التسليم، وعُقِدت شروط الصلح بين رضوان قائد البلدة، وبين الكونت دو سيفونتاز صاحب شريش الذي كان أسيرًا في بَلِّش، وخرج أهل بَلِّش بأموالهم إلى غَرناطة، وانطلق أسرى الإسبانيول، وأطاعت جبال البِشرات، ونحو أربعين بلدة فيما قيل بنواحي مالَقَة، وطالبوا حماية الطاغية، وصار المسلمون في جميع هاتيك النواحي مُدَجَّنين.

وقال صاحب « نَفْح الطيب» بشأن الحوادث المتقدِّمة ما ملخَّصه «إنَّ صاحب غَرناطة، بعث إلى الأجناد والقوّاد من أهل بَسْطَة، ووادي آش، والمَرِيّة والمنكّب، وبَلِّش، ومالَقَة، وجميع الأقطار وتجمّعوا بغَرناطة، وتعاهدوا وتحالفوا على أنَّ يدهم واحدة على عدوّ الدين، ونصرة مَن قصده العدوّ من المسلمين، وخاف صاحب البيازين، فبعث لصاحب قَشتالة في ذلك، فخرج بمحلّته قاصدًا نواحي بَلِّش، وبعث صاحب البيازين وزيره، إلى مالَقَة وإلى حصن المنشأة؛ يذكِّر ويخوِّف، ومعه النسخة من عقود الصلح، فقامت مالَقَة وحصن المنشأة بدعوته، خوفًا من صاحب قَشتالة وطمعًا في الصلح، ثمَّ اجتمع كبار مالَقَة مع أهل بَلِّش، وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة والسبب الحامل لهم على ذلك، فلم يرجع أهل بَلِّش عمَّا عاهدوا عليه أهل غَرناطة وسائر الأندلس من العهود، وخرج صاحب قَشتالة قاصدًا بَلِّش مالَقَة، ونزل عليها في ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة، وحاصرها ولمَّا صحّ عند صاحب غَرناطة ذلك، اجتمع بالناس فأشاروا بالمسير لإغاثة بَلِّش للعهد الذي عقدوه، وأتى أهل وادي آش وغيرها وحشود البِشرات، وخرج صاحب غَرناطة منها في الرابع والعشرين لربيع الثاني من السنة، ووصل بَلِّش، فوجد العدوّ نازلاً عليها برًّا وبحرًا فنزل بجبل هناك وكثر لغط الناس، وحملوا على النصارى من غير تعبية، وحين حركتهم للحملة، بلغ السلطان الزغل أنَّ غَرناطة بايعت صاحب البيازين، فالتقوا مع النصارى فشلين، وقبل الالتحام انهزموا وتبدّدت جموعهم، مع كون النصارى خائفين وجلين منهم، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، فرجعوا وقد شاع عند الخوّاص ثورة غَرناطة على السلطان، فقصدوا وادي آش، وعاد النصارى إلى بَلِّش، ودخلوا ربضها عنوة، ولمَّا رأى أهلها تكالب العدوّ عليهم، وإدبار جيوش المسلمين عنهم، طلبوا الأمان، فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى من السنة، وأطاعت النصارى جميع البلاد التي بشرقي مالَقَة وحصن قُمارش» انتهى.

ـ حصار مالَقَة، ومحاولة تسليمها صلحًا

ثمَّ ذكروا أنَّ فرديناند أجمع على حصار مالَقَة، وكانت من قواعد سلطنة غَرناطة وميناء الأندلس، وثغرها المحروس كما تقدَّم الخبر، وهي مبنيّة في قعر وادٍ خصيب، فاتح فاه لجهة البحر، تمنعها الجبال والأبراج والأسوار من البرّ، والأمواج المتكسّرة على الأسوار من البحر، وعلى رابية في أحد طرفي المدينة القصبة، (دار حكومة باصطلاح المغرب) وفوق القصبة صخرة شامخة عليها المنارة البحرية المسمّاة بالفار، ولها وراء السور ربضان، أمّا المناوح[1] منهما للبحر، فجنّات معروشات[2] وغير معروشات، ومنازل رحبات، وأمّا المقابل للبرّ فكان مشتبكًا بالعمارة متّصل البيوت. وكان لمالقة حامية وافرة مجرّبون في الحروب ومعتادون لقاء الأهوال، وأهلها من ذوي الحركة والنشاط والعمل والحزم، أكثرهم تجّار وفيهم عدد من ذوي اليسار، وفي مقدّمة هؤلاء التجّار الموسرين، رجل يقال له علي دردوق، له عدّة سفن تجارية تسافر إلى جميع مواني الشرق، وله في ثغر مالَقَة الكلمة العالية والرأي المقدّم، فجمع هذا عصبة من كبار القوم وسار إلى قائد القصبة وبيَّن له الدفاع وخلوّ المقاومة من كلّ جدوى، وأنَّ الأجدر بهم قبول دعوة السلطان أبي عبد الله حليف الطاغية، فرضي القائد وسار إلى خيام الإسبانيول للمكالمة في شروط التسليم وترك القيادة لأخيه.

ـ حامد الزغبي وجماعة الزغل يأبون الاستسلام

وكان حامد الزغبي المشهور بلدد[3] العداوة للنصارى، قائد موقع المنارة البحرية، وعنده من بني غمارة، طائفة كلّهم على شاكلته من شدّة البأس وصعوبة المراس، فطارت عقولهم عندما سمعوا بما عزم عليه أهل البلدة، واستنفروا مَن كان باقيًا من أهلها على عهد الزغل، واستدعى حامد الخوّاص إلى حضرته، فحضروا جميعًا، ولم يتخلّف منهم إلاّ دردوق الآنف الذكر، فقرّروا وجوب الدفاع ونقضوا ما أبرمه قائد القصبة بتمامه.

وكان صاحب قادس قد عرف في بَلَّش مالَقَة رجلاً شهيرًا، من تجّار المغاربة، وعده بفتل ذؤابة[4] حامد عن المقاومة، فعرض الأمر للملك، ففوّضه بالعمل وأركبه المركيز

---

(١) المناوح: المقابل.

(٢) المعروش، المليء بالدوالي والأشجار والظلال.

(٣) شدّة العداوة والخصومة.

(٤) خادَعَهُ حتّى أزالَهُ عن رأيه.

جواده، وقلّده سلاحه، وأردفه بمغربي آخر من أنسبائه بكتب يعرض فيها على حامد مدينة كوهين، مع أربعة آلاف ذهب إن سلّم قصر المنارة أو جبل نارو، وإن رضي بتسليم البلدة كلّها كان جزاؤه أعظم، وكان حامد يحترم مركيز قادس احترام الأبطال بعضهم لبعض، فأكرم الرسل وأصغى إليهم، لكنّه رفض خيانة ملّته ووطنه رفضًا باتًّا، فكرَّر فرديناند الرسالة فكاد الأهالي يقبلون بالصلح لو لا ما قال حامد للرسول وهو: "اذهب وقُلْ لسيِّدك إنّني قد تسلّمت مدينة مالَقَة لأحميها لا لأسلّمها" فعندما يئس فرديناند منهم قدَّم المدافع، وزحف بالجيش وقابلته أساطيله من البحر فأحرق حامد الأرباض، وسيَّر ثلاث فرق لمصادمة العدوّ، وذلك أنه لمَّا كان لا بدّ للإسبانيول من المرور بمضيق بين قصر المنارة والجبل، أمر الزغبي فرقة من جيشه باحتلال المضيق، وفرقة أخرى باحتلال الصخرة المشرفة، وفرقة ثالثة بالنزول بالجهة البحرية.

ـ القتال وصمود مالقة

وانتشبت الحرب بدايةً في المضيق المذكور، وتصارعوا قِرنًا لِقِرن، وعوَّلوا على القتل أكثر من الأسر، وتلاحقت النجدات للمسيحيين، فعظم سوادهم[1]، واشتدّت وطأتهم، لكنَّ المغاربة ثبتوا في مواقفهم، وفلّوا[2] حدودهم، فألزموهم الرجوع، فنكصوا على أعقابهم، ولما يقضوا وطرًا[3]، وكان فرديناند مشتغلاً بتركيب مدافعه وتصويبها ممَّا اقتضى من المشقّة ما لا يوصف، فلمَّا تمَّ له ذلك رمى البلدة بالنيران، وظاهرته الحرّاقات من البحر، وارتفع دويّ المدافع ولكنَّ المدينة قاومت مقاومة شديدة لمتانة أسوارها، ومِنعة مواقعها، ولم تؤثِّر النيران إلاّ في برج واحد كبير تداعى أكثره للخراب، فاهتبل النصارى فيه الغرّة وتسلّقوه، فدحرهم المسلمون أول مرّة وأهلكوا منهم خلقًا كثيرًا، فحملوا ثانيةً وصدقوا الحملة، فأزاحوا المسلمين، وملكوا الحصن، فتجمّع المسلمون وحملوا عليه، واحتفروا عند ركنه أخدودًا، ووضعوا النار في الأخدود[4] فخرَّ منه جانب، وهلك بسقوطه جمٌّ غفير من الإسبانيول، ففتحوا منه ثغر لجهة معسكرهم، يتسرَّب لهم بها المدد، وبقي الفريقان يراوحون القتال، ويغادونه يومين وليلتين، وانكفأ المسلمون، ولم يتمكّنوا من الحصن،

---

(١) كثرتهم.

(٢) هَزَموا.

(٣) حقّق الهدف، وأدرك الغاية.

(٤) الحُفرة المستطيلة في الأرض.

واشتدّت عزائم الإسبانيول بأخذه، ولكنّهم لم يطمعوا في مهاجمة المدينة لما فيها من الجيوش المدرَّبة على القتال، وطال بهم المقام، فسئموا وتبرَّموا وخافوا العاقبة، ووقر[1] في نفوسهم، من خوف الزغبي وطائفته، ما آل بهم إلى القنوط[2]، ففرَّ منهم جماعة وافرة إلى المدينة وانضمّوا إلى المسلمين، وأخبروهم عن ضيق الحالة بالنصارى، وبالغوا في الحكاية فثارت الحمية برؤوس هؤلاء فأخذوا يندلقون على الإسبانيول اندلاق السيوف من الأغماد، ويندفقون اندفاق السيول من الأنجاد[3]، فلا يلقونهم في مأزِق، إلاّ مزّقوا شملهم كلّ ممزَّق.

ـ فرديناند يجدّد طلب التسليم

واتّصل بفرديناند، أنَّ النصارى الخائنين بشَّروا حامدًا بكون الملكة ترجَّت زوجها كثيرًا برفع الحصار عن مالَقَة، فذهب إلى تقطيع آمالهم باستدعاء الملكة إلى المعسكر، فجاءت وصحبتها ابنتها، وبعد وصولها راجع حامدًا في التسليم، فَجَبَّه حامد الرسل، وأنكر الأمر وترجّاه بعض الخواص بالقبول، فقيل إنَّه قتلهم، فأمر الطاغية بإطلاق المدافع، فأطلقت نيرانها دِراكًا[4]، واتّفق أن حضر الملك والملكة إلى معسكر صاحب قادس، فجرّب في حضرتهما بعض مدافعه الكبار، ولم ينشب أن أبصر الراية التي فقدها في جبال مالَقَة وهي تخفق فوق برج قريب من جبل فارة أو المنارة، فأثَّر ذلك في خاطره، ولجّ في إطلاق النيران، ثمَّ تقدَّم بالجند نحو ذلك الحصن وطمع في أخذه، فانهال عليه ألف مغربي من ذوبان[5] الجيش فذبحوا أجناده ذبح الشياه[6]، وهزموا مَن سَلِم منهم، فتلاحق المدد للنصارى، فأعادوا الكرّة والتحم الفريقان، وهلك منهما خلق كثير، وتولّى الصبر مقام المغاربة فكاد المركيز ينهزم ثانية، وكادت رايته تقع أيضًا في يد العدوّ، لولا أنَّ قائد تلك القطعة من جيش المسلمين ابراهيم بن زناتة جُرِح في معمعة القتال، فعاد به قومه إلى الحصن، وأرسلوا من هناك نبالهم فنالت من الإسبانيول، وتقهقر عسكر المركيز وفشا فيه القتل، وهلك في هذه الوقعة أورتاغو دو برادوا، الفارس الشهير أول مَن تسلَّق قلعة الحامّة فكان يومًا شديدًا على الإسبانيول.

(١) أثقلها وأثّر فيها، واستقرّ.
(٢) اليأس.
(٣) مفردها نَجْد: الطريق المرتفع.
(٤) دارك الشيء دِراكًا، أتبَعَ بعضَه لبعض.
(٥) هنا بمعنى ذِئاب.
(٦) الواحدة من الغنم.

ـ القتال المرير من جديد

ومن ثمَّة أصبح الكفاح بين الفريقين، يأس المرء من الحياة، ومبايعة الأرواح في أسواق المنايا، وتهالكت المقاتلة وتكالب الجند بعضهم على بعض، وشرع حامد يرمِّم المتهدِّم من أسوار المدينة، حتَّى أنه عزم على بناء ستّ سفن حرّاقات بقصد الهجوم على أسطول الإسبانيول، وأمّا الملك والملكة فاستجلبا الذخائر والأقوات من جميع مدن إسبانيا، وأمرا ببناء أبراج من الخشب يسع الواحد منها مائة مقاتل تمشي على دواليب، ولها سلالم لأجل التسوّر[1] والنزول، وعقبا ذلك بحفر الخنادق ونقب الأسوار، وحشرا لهذه الغاية الفعلة والصنّاع، واستكثرا من العدّة والآلة، وقام العمل على قدم وساق، وحامد لا يترك للمحاصرين راحةً ولا يمهلهم فواقًا[2]، بل يغاديهم النزال، ويراوحهم، حتَّى ملّوا وامتلأت الخيام بالجرحى والمرضى، ثمَّ لم يلبث أهل مالَقَة أن اكتشفوا الحفر التي أداروها على جدران المدينة، فحفروا بإزائها ونقّبوا تحت الأرض إلى أن اتّصل بعضها ببعض، فكان الفَعَلَة يتلاقون من المسلمين والنصارى في تلك الدهاليز، ويتصارعون في بطن الأرض صراعهم فوق ظهرها، إلاّ أنَّ الظهور كان للمسلمين هناك دائمًا، وكان الإسبانيول يخرجون من أخاديدهم مدحورين ويُهال[3] على ما حفروه.

ـ تفشي الجوع في مالَقَة

ثمَّ تجمَّع المحصورون، وحملوا من البحر والبرّ حملة واحدة، واستمرّ القتال ستّ ساعات فلم يكشفوا العدوّ، وعادوا إلى مراكزهم، وكان الجوع قد فشا في مالَقَة، وانقطع عنها المدَد وسُدَّت دونها المسالك، وفنيت في أهرائها الغِلال، فاشتدّ الضيق بالناس، واجتمعوا عند علي دردوق، وأجمعوا على مراسلة الطاغية، في أمر التسليم بشرط الأمان عل النفوس والنفائس، وأنفذوا بالرسالة رجلا، آب إليهم بجوابٍ شافٍ طبّق ما يشتهون، فشعر به أصحاب حامد فرشقوه بالسهام فأُصيب وانهزم صوب مخيّم الإسبانيول.

ـ الزغل يُسيّر جيشًا لنجدة مالَقَة فينهزم أمام ابن أخيه

هذا ولمَّا رأى أهل وادي آش ما حلّ بأهل مالَقَة من الضيق، سألوا السلطان الزغل

---

(١) التسلّق، تقول: تسوّر الحائط، والتّسور: صعد عليه.

(٢) القصير من الوقت، وقصد بها: لم يترك لهم فرصة لالتقاط أنفاسهم.

(٣) صبّة.

المُسيِّر لنجدتهم. فساعدهم فيه، وحشد جيشًا وجهّز له ما يلزم، وبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله ابن أخيه، فأرسل جيشًا لمعارضة جيش عمّه في الطريق إثباتًا لأمانته وتأكيدًا لصداقته لملوك النصارى، ولم تأخذه رأفةً بأبناء جِلدته[1]، وقضى الله بظهور أصحاب أبي عبد الله الملقَّب بالشقي، فقفل جيش الزغل إلى وادي آش، وفرح أبو عبد الله فرحًا جزيلاً بهذه النصرة، وبعث بالبشائر مع تفصيل الواقعة إلى فرديناند وإيزابيلا، وأسنى الهديّة فجاوباه شكرًا وتمجيدًا، وظنّ أنه قضى بذلك وطرًا، لكنَّه أوغر[2] عليه بهذه الفعلة قلوب المسلمين، فمال عنه كثير من حزبه وخاف على نفسه، فأرسل يستمدّ فرديناند فأمدّه بألف فارس وعشرة آلاف راجل لأجل حراسته. لعمري جدير بملك كهذا أن يكون آخرًا لملوك قومه.

وفي هاتيك المدّة، وصل وفد من مَلِك تِلِمْسان إلى فرديناند وإيزابيلا بهدايا فاخرة، وقد تضمّنت رسالتهم الكلام في شأن أهل مالَقَة فاستقبل الملك وامرأته ذلك الوفد بِرًّا وترحيبًا واقتصرا على ذلك، واشتدّ الجوع بأهل مالَقَة، وأكلوا الخيل وهلك منهم سغبًا[3] خلق كثير.

ـ النجدات تترى[4] إلى مالَقَة وإلى فرديناند

ثمَّ ظهر من وادي آش رجل يُدعى بأبراهيم، ويُلقَّب بالصانتو، أي الولي؛ فلمَّا رأى رجوع عساكر الزغل عن نجدة مالَقَة، أخذ يطوف في أسواق وادي آش مناديًا، إنَّ الله أوحى إليه كيفيّة خلاص مالَقَة فسألوه عن كيفيّة خلاص مالَقَة، فاجتمع حوله أربعمائة رجل من أولي النجدة وساروا بصحبته إلى تلك المدينة، فرأوا أوفق مكان للدخول جهة معسكر المركيز صاحب قادس، فهجموا عليه، فمنهم من قتل الخفراء. ومنهم من ألقى بنفسه في البحر، ثمَّ تَسوَّر جدران البلدة فبلغ منهم مائتان المدينة وانهزم الباقون.

أمَّا الصانتو فلم يَغْشَ الكريهة[5]، بل دَلَف إليه الإسبانيول، فوجدوه ساجدًا قانتًا لا يتحرّك، فأخذوه إلى المركيز فسأله عن حاله، فأجابه إنَّه وليّ الله وإنَّ الله تعالى قد كاشفه بفتح مدينة مالَقَة، فسأله عن كيفيّة ذلك فأجابه إنَّه نُهي عن كشف ذلك السرّ، إلاّ للملوك، فأرسله المركيز إلى الملك والملكة وكان فرديناند قد طعم[6] ونام، فلم ينبّهوه، وقادوا المغربي

(١) بَنو قومِه.

(٢) وَغَرَ عليه صدره، توقّدَ عليه من الغيظ.

(٣) الجوع الشديد.

(٤) متواصلة.

(٥) دَخَل بالمعركة.

(٦) تناول طعامه.

إلى سُرادق المركيزة مويا والدوق ألفارو دو برتغال، فتشابه هذان عليه بالملك والملكة لما رأى من إجلال الجند لهما، وما شاهد من الرِّياش[1] الفاخر في فسطاطهما[2] فطلب ماء ليشرب، وبينما هو يمدّ يده لتناول القدَح، إذ استلّ من تحت جنبه شفرة فاجأ بها الدوق بضربة فصرعه، ثمَّ أراد أن يثني على المركيزة فأخطأها، ووقع خنجره في نضائد الديباج[3]، فوثب عليه الجند وقتلوه، وأفحشوا المثلة[4] في جسده، وطرحوه إلى أهل مالَقَة، فأخذها غمارة، وغسلوها ودفنوها بكلّ إكرام، ثمَّ ذبحوا أحد كبراء الإسبانيول المأسورين عنده، وناطوا جثّته بذيل حمار وسرحوه بها إلى معسكر المسيحيين.

فارتاب النصارى من ذلك، وزادوا عدّة الحرس على فسطاط الملوك، وأمروا جميع المدجَّنين أي المغاربة الخاضعين، بالانصراف من المعسكر، ولم يمُت ابراهيم الولي حتَّى قام في مالَقَة وليّ آخر وادّعى مثل دعواه، ونشر راية، فرفعها حامد فوق الأبراج تشديدًا للمحصورين.

وفي تلك المدّة حضرت النجدات الوافرة لمعسكر الطاغية، فكان ما ورد من قِبَل دوق مدينة سيدونيا، ما خلا الجيوش، مائة سفينة دخلت جون مالَقَة مُوقِرة[5] بالمِيرَة[6] والكُراع[7]، وأكثر من عشرين ألف ذهب من النقود، وعند ذلك راجعت الملكة أهل مالَقَة في أمر التسليم، فرفض حامد كلّ الرفض ومنع انعقاد الصلح، فعزم المسيحيون على الحملة العامّة والوقعة الفاصلة.

وكان عند المدينة جسر ذو أربع قناطر، على كلٍّ من طرفيه برج شاهق، فتولّى قائد المدفعيّة الأكبر فرنسيسكو راميرز افتتاحه فحفر أخدودًا تحت الأرض وجعل منه مسربًا إلى البرجين، وتقدَّم بالجيش ووضع البارود في الأخدود، وقذف بنيران المدافع فأصاب الشرر أثناء المعركة البارود الذي في الدِّهليز فخرَّت طائفة من البرج وقُتل من حُماته جماعة، وفرّ البقيّة فاستولى عليه الإسبانيول وناشبوا الحصن الثاني.

---

(١) اللباس الفاخر.

(٢) السرداق من الأبنية، مجازًا: القصر.

(٣) وسائد الحرير.

(٤) (بالضمّ): التنكيل والعقوبة.

(٥) محمّلة ثقيلًا.

(٦) الطعام.

(٧) الخيلُ والبغال والحمير، وهنا، نوع من دواسم الطعام.

ـ القتال الأخير وسقوط مالَقَة

وكان الجوع قد عضّ أهل مالَقَة بنابه، حتَّى طلبوا لحم الخيل فلم يجدوه، فأكلوا الجلود وطبخوا الورق بالزيت، وهلك منهم خلق كثير، والتجأ جماعة إلى معسكر النصارى، مُؤْثِرين الرقّ على الموت جوعًا، فعند ذلك توجّه علي دردوق وجماعة من أعيان البلدة إلى حامد، فوجدوا عنده الدرويش، المارّ الذكر، فقالوا له إنّنا نتوسَّل إليك بالله وبرسوله أن لا تُصرّ على مقاومة عقيمة من الجدوى، فإنَّ أسوارنا دون أسوار رُنْدَة وقد تهدّمت رُنْدَة.

وإنّ رجالنا ليسوا بأشدّ من رجال لَوْشَة وقد سَلِمت لَوْشَة، وليس لنا في غَرناطة كبير أمل، فإنَّ سلطانها أبا عبد الله تابع لملوك النصارى، وإنَّ الزغل عمّه طريد منها شريد في وادي آش، فما ننتظر، ونساؤنا وأطفالنا يهلكون أمامنا جوعًا، فأجابهم حامد علينا بعد، هجمة أخيرة، فلا تثبطوا عزائمنا عنها، وخرج في اليوم الثاني رافعًا راية الدرويش ووراءه ابراهيم الزناتي، وجماعة غمارة، ورتَّب المصاف وصعد النساء والأولاد على أعالي الأبراج لمشاهدة الوقعة الأخيرة وتزاحفت الصفوف وجاءت الهجمة على معسكر صاحب قلعة رباح، ومعسكر صانتياغو فصدَق المسلمون الحملة، وهبَّت الريح المبشِّرة، فخفقت لها راية الدرويش، وحميَ الوَطيس، وتسابقت غمارة إلى تسنُّم الجنّة، وقاتلت بما يُعرف من بأسها وصدق جلادها فانكشف الإسبانيول، وطاردهم المغاربة بالقتل والأسر، وأذرعوا الفتك، فوقع الرعب في قلوبهم، وتداعوا من كلّ ناحية للفرار، وبينما الأمر كذلك إذ خرّ الدرويش صريعًا بحجر أصابه، وسقطت الراية فتطيَّر[1] المسلمون، ونزل بهم الهلَع، ورجعوا أدراجهم، فلمَّا رآهم النساء مُدْبرين[2] ارتفع عويلهنَّ ونادَيْنَ بالويل والثبور، ولبث حامد سائرًا إلى معقله مع قومه الغماريين، وانقطع أمل المالقيين، وعوّلوا على التسليم فراسلوا الملوك ملتمسين الأمان على النفوس والنفائس، فلم يجابوا إليه وقيل لهم إنَّ أيام الرأفة قد مضت، فراجعوا في ذلك فأُجيبوا بالإعراض أيضًا، حينئذٍ أرسلوا إلى الملك يقولون له إنَّهم عزموا أن يشنقوا ألفًا وخمسمائة أسير مسيحي فوق السور، ويجمعوا نساءهم وذراريهم في القلعة ويحرقوا البلد ويخرجوا منه بالسيف مقاتلين إلى آخر نفس من حياتهم، فعندها حسبوا لذلك حسابًا، ورضوا منهم التسليم على ذلك الشرط، ودخلوا

---

(١) تشاءم، من «طِيرة».

(٢) ها هنا بمعنى هارب، فارّ.

مالَقَة وتبوّأوا الحصون، وبقي الزغبي ممتنعًا في مكانه، إلاّ أنَّ جماعته جَنَحوا إلى التسليم من الجوع. والتزم أن يتابعهم فبعث إلى فرديناند بذلك فأجابه إنَّه لا يناله إلاّ ما ينال أهل مالَقَة، فلمَّا استسلم غدر به، وأُخِذ هو وأصحابه أرِقّاء، وحينما سأله عن سبب مقاومته الشديدة أجابه، أقسمت أن أجاهد في سبيل ديني ووطني وسلطاني ولو طاوعني جندي ما أسلمت السلاح أبدًا، فغضب الطاغية وأمر به فحُمل على الأدهم.

ـ فرديناند يدخل إلى مالَقة ويحوّل مسجدها إلى كنيسة

وعندما دخل مالَقَة حوَّل المسجد الأعظم كنيسة، وأقام بالقَصَبة، وأقامت الملكة بجبل فارة، وبعد فتح المدينة أطاع غربي البلاد كلّها، وخُضِدَت شوكة أهلها(١)، وجُدِع(٢) مارن(٣) عزِّهم(٤)، وسكنت سورة بأسهم(٥)، وأمَّا السلطان أبو عبد الله فبعث يهنِّئ الملك والملكة بهذا الفتح، ولم يكن هذا المسكين يدَعْ فرصة لإظهار أمانته إلاّ وينتهزها، فلم تنفعه تلك الأمانة إلاّ حينما كان مظاهرًا للطاغية على عمّه، وللإسبانيول على قومه، حتَّى إذا خارت قوى مناظريه واستسلموا إلى العدوّ، وظنَّ الأمر قد استتبَّ له، نزلت الصاعقة على رأسه، وأُخذ من حيث كان يرجو الأمن، وخُتِمَ به ملك آبائه، وشقيت مئات من الألوف بشقائه، ولم ينجُ من المحنة سكان البيازين الذين ظاهروه على غيّه، وشاركوه في فساد سعيه.

وتأمّل في ما قال المقري بشأن حصار مالَقَة، تجده منطبقًا على الرواية الفرنجية لولا شدّة الاختصار قال: "وكان أهل مالَقَة قد دخلوا في الصلح وأطاعوا صاحب البيازين، وأتى إليها النصارى بالميرة، ولمَّا نزل بَلِّش، بعثوا هديّة لصاحب قَشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين، وقائد شريش، الذي كان مأسورًا عندهم فلم يلتفت إليهم صاحب قَشتالة، لقيام جبل فارة وهو حصن مالَقَة بدعوة صاحب وادي آش، وارتحل صاحب قَشتالة إلى مالَقَة، ونازلها برًّا وبحرًا، وقاتله أهلها قتالاً عظيمًا بمدافعهم وعدّتهم وخيلهم ورجلهم، وطال الحصار، حتَّى أداروا على مالَقَة الخنادق من البرّ، والسور والأجفان(٦) من البحر، ومُنِعَ

---

(١) خضد الشوك: قطعه، والشوكة: القوّة والبأس. "وخضد شوكتهم": كسرهم وأخضعهم.

(٢) الجَدْع: (لغة) قطع الأنف.

(٣) طَرَفُ الأنف أو ما لانَ من طَرَفِهِ.

(٤) الأنَفة والحميّة، والمعنى (أنه أرغم أنوفهم وأذلّهم بعد عزّة).

(٥) سورة بأسهم: السورة أثر المجد، وعلامته وارتفاعه، وسورة السلطان: سطوته. والسورة: المنزلة والشرف. والبأس القوّة والشدّة. والمعنى: هدأت صولتهم وسكنت قوّتهم.

(٦) السفن والمراقبة. (مولّدة). كقوله: أرسل العيون، أي الجواسيس.

الداخل إليها، ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار، وحاربوا حربًا شديدًا وقرّبوا المدافع، ودخلوا الأرباض، وضيّقوا عليهم بالحصار إلى أن فنيَ ما عندهم من الطعام، فأكلوا المواشي والخيل والحمير، وبعثوا الكتب للعُدْوَتين، وهم طامعون في الإغاثة، فلم يأتِ إليهم أحد (ولكنَّ عهدي بالنضال قديمُ) وأثّر فيهم الجوع، وفشا في أهل نجدتهم القتل، ولم يُظهروا مع ذلك هَلَعًا ولا ضعفًا، إلى أن ضعف حالهم، ويئسوا من ناصر أو مغيث من البرّ والبحر، فتكلّموا مع النصارى في الأمان كما وقع ممّن سواهم، فعوتبوا على ما صدر منهم، وما وقع من الجفاء، وقيل لهم لمّا تحقّق العدوّ التجاءهم: تُؤمَنون من الموت وتُعْطَوْن مفتاح القلعة والحصن، والسلطان ما يعاملكم إلاّ بالخير، إذا فعلتم، وهذا خداع فلمّا تمكّن العدوّ منهم أخذهم أسرى، وذلك أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة، ولم يبقَ في تلك النواحي موضع إلاّ وملكه النصارى» انتهى.

ـ كَرّة أبي عبد الله الزغل

وفي هاتيك الأيام، خرج الزغل بعساكره من وادي آش منقضًا كالصاعقة على الإسبانيول، فأجلب على الأطراف، وشنَّ الغارات في البسائط، وقتل وأثخن وسبى وغنم، وعاد بالأسرى والغنائم إلى وادي آش، ثمَّ جمّع فرديناند حشوده كلّها في مُرْسِية في ربيع ١٤٨٨، وزحف بها على ديار الإسلام، فدخل في طاعته نحو ستّين بلدة، إلاّ المَرِيّة، فإنَّ سالمًا قائدها هزم جيوش الطاغية، فمال إلى بَسْطَة، وكان الزغل قد وصل إليها، ووضع كمينًا في واديها، فزحفت طلائع الإسبانيول فصدمها الزغل صدمة رئبال، وبعد مقاتلة شديدة أخذ يتقهقر حتّى أصبح الكمين من ورائها، فلمّا حصلت بين الجيشين كرّ الزغل من ناحية، والنفر الكامنون من أخرى، وانقضّوا على الإسبانيول انقضاض النسور، فأفنوهم بحدّ السيف، ولم يسلم منهم إلاّ الطويل العمر، فقدم الملك فرديناند للكَرّة، فصدمه الزغل صدمة جديدة، وعلا الصياح في الربى والوهاد "الزغل الزغل"، فهلعت قلوب الإسبانيول، فانهزموا، ومنحوا القوم أكتافهم، فتعقّبهم المغاربة بالقتل والأسر، فأهلكوا منهم خلقًا كثيرًا وأجلَت الواقعة عن مصرع الدّون فيليب الأرغواني، من كبار أمراء إسبانية، وغيره من الأمراء، ولم يرجع الزغل عنهم حتّى وافاهم المدَد، فانصاع فرديناند إلى نهرٍ قريب، وفرّق كتائبه على المدن والحصون، فخرج الزغل، ودهم هذه المدن فلم يدَع فيها إسبانيوليًا فيه عين تَطرف وأفنى خلائق لا تُحصى في قلعة نزار.

وكان قائد قلعة قلار، معتمدًا على متانة جدرانه، ومركزه من قمّة الجبل. محاطًا بالأهاوي[1] والأودية، فغاب عنها، فدهمها الزغل والسيف مشهور بيده، فانهزم الإسبانيول من وجهه ولاذوا طُرًّا بالحصن، وكان لهم قائد مقدام اسمه جوان دو أفالوا، فأحسن البلاء، وأحكم التدبير فلم يتمكّن الزغل من الحصن، فأدار حوله الخنادق، وهدم جانبًا من السور، وأوشك أن يدخل الحصن عنوةً، لولا ما أمطروه من النُشّاب والحجارة، وقذفوا عليه من الأنفاط والزفت، وبقي القتال خمسة أيام متوالية لم يَسيغوا فيها الريق[2]، حتّى يئست الحامية ومالت إلى التسليم، فأنذرهم القائد بأنّ الزغل يُفحش فيهم العقوبة والانتقام بما هو معهود من قسوته، فاعتبروا قوله وفضّلوا الموت تحت الحصار على الموت صبرًا بين يدَيّ العدوّ، وما زالوا في الضَنْك[3]، إلى أن نفس من خناقهم بوير تودو كريرو، بنجدة وافرة فأحرق الزغل المدينة وقَفَلَ إلى وادي آش.

ـ غارات المسلمين في بلاد الإسبانيول

ثمَّ إنَّ مغاربة المَريّة وطبرنة، وبَرْشَنة، خرجوا وأغاروا على مُرْسِية وجهاتها، وثار كثير من المغاربة الذين عاهدوا العدوّ، وفي هاتيك الأيام هطلت أمطار غزيرة وجاءت سيول جارفة، هدّمت كثيرًا من البنيان في مملكتَي قَشتالة وأراغون، واشتدّت عواصف البحر فتحطّم كثير من السفن.

ـ حصار بَسْطَة

ولمَّا أقبل ربيع سنة ١٤٨٩، عرض فرديناند جيوشه في جيان، فبلغت ١٣ ألف فارس و٤٠ ألف راجل، فزحف بها قاصدًا مدينة بَسْطَة، موطّنًا نفسه على إبادة ملك الزغل، فأعدّ الزغل قوّته لمصادمته، لكنَّه لم يتجرَّأ أن ينهد إليه بنفسه خوفًا من أن يشدّ عليه ابن أخيه من الوراء فيقع بين عدوَّين كبيرين ليس أدناهما إليه بالأقلّ عدوانًا، فسرح إلى بَسْطَة جميع الأجناد التي يستغني عنها في وادي الآشات، واستنفر العامّة إلى الجهاد فامتلأت بَرْشَنة، وطبرنة، وقلاع البشرات، بالخيل والرّجل، ورنّت الأودية بقعقعة السلاح وصليل[4]

(١) جمع الجمع لهواء، وكذلك للوهدة العميقة (أهوية).

(٢) لم يسيغوا فيها الريق: كناية عن أنهم لم يُطعموا شيئًا.

(٣) الضيق.

(٤) صوت وقع الحديد، بعضه على بعض، وغلب صوت وقع السيف مطلقًا.

البوارق[1]، وكان ابن الزغل سيِّدي يحيى الناصر بن سالم، في المَرِيّة، وكان قائدًا مجرَّبًا مِقدامًا، وللزغل فيه مزيد الثقة، فاستدعاه من مكانه وأرسله إلى بَسْطَة، بعشرة آلاف من شجعان المغاربة، فتقوَّت بَسْطَة بهذا العدد، وبلغ مقاتِلَتُها عشرين ألفًا، عليهم ثلاثة من أكابر قوّاد الأندلس **الأول** محمَّد بن حسن، من أبطال عصره المشاهير، **والثاني** حامد أبو حلى قائد الجند المخيّم بِبَسْطَة، **والثالث** قائد قيجار، وكان من رؤوس القوّاد وكانت القيادة العامّة لسيِّدي يحيى، ولكن عُلُوّ الرأي كان لمحمَّد بن حسن لمزيد خبرته وبلائه، وسَداد آرائه وأنحائه.

وبَسْطَة بلدة حصينة، واقعة في وادٍ خصيب متَّسع الأرجاء، طوله ثماني مراحل[2]، وعرضه ثلاث، يُسمّى الهويّة، محاطة بسلسلة روابي اسمها جبل الكحل، ويسيل في واديها نهران يسقيان أرضها، والمدينة مبنيّة في السهل، لكنَّها محصَّنة من أحد طرفَيها بوعر الجبل وبقلعة متينة، ومن الطرف الآخر بسور مكين عليه أبراج شاهقة، ولها ربض إلى جهة السهل فيه حصون وأبراج، وفي مقدِّمة هذا الربض غوطة أشْجار، مسافتها مرحلة، مشتبكة السرح[3]، فينانة الدوح[4]! كأنها أجمة واحدة تدور عليها المياه بأقنية متشعِّبة، تسقي جميع غِياضها، وفيها مئات من الأبراج متفرِّقة في البساتين، فكانت هذه الغوطة بما فيها من اشتباك الشجر، وكُثرة مجاري المياه، وعدد الأبراج والحصون، تجعل مُقْتَرب تلك المدينة في غاية الصعوبة.

ـ أهالي بَسْطَة يتأهّبون للقتال والحصار الطويل

فعندما قصد جيش الطاغية نزال بَسْطَة، أخذ أهلها يتأهّبون للمقاومة، ويعدُّون ما استطاعوا من قوّة، فحصدوا زروعهم قبل أن يستفرك[5] الحَبّ في السنبلة، وادّخروا لمؤونتهم جميع ما وصلت إليه أيديهم، فكنت ترى أقاطيع المواشي تباعًا، داخلة من الأبواب، والبهائم مُوقِرة[6] أحمالاً من المؤن، والميرة، والسلاح، والكراع، من كلّ نوع،

(١) جمع البارق، وهنا السيف.

(٢) مفردها مرحلة، وهي المسافة التي يقطعها المسافر في يوم.

(٣) شجر له ثمر، لا شوك فيه، وقيل كلّ شجر طال.

(٤) هي الحسنة الشَّعر الطويلة./ أي أنّ الأشجار كثيفة الأغصان.

(٥) يسمن ويشتدّ.

(٦) محمّلة.

فيمكن أن يقال على وجه التقريب إنَّ بَسْطَة أخذت عدّة الحصار خمسين شهرًا، ولمَّا أناخت عساكر فرديناند بساحة الموقع، اشتدَّت الحركة في البلدة، وازدادت الجَلَبَة من قرع الطبول وتقليب السلاح، وجاء فرديناند فضرب خيامه في الوادي بين البساتين، وبعث إلى أهل المدينة يدعوهم إلى التسليم على شروط موافِقة لهم، إن انقادوا إلى ذلك منذ البداية، ويؤكِّد لهم أنه لا يرفع الحصار ولا يُفرج عن البلدة أبدًا حتَّى يتمكَّن منها، فعقد قوّاد المغاربة مجلسًا حربيًّا وتشاوروا في ما يجاوبون به ملك الإسبانيول، وكان سيِّدي يحيى قد استاء من إنذار فرديناند فأراد أن يجاوبه بأنَّ حامية بَسْطَة لا تُسلِّم أبدًا، ولكنَّها تقاتله حتَّى تفنى جميعًا تحت أنقاض السور، فأجابه محمَّد بن حسن أن لا فائدة لنا من هذا الجواب، فلنجتهد أن يكون في فعلنا ما يُنقِض إعلان الطاغية، وأن تزيد فصاحة العمل على فصاحة القول، وهكذا فقد أرسلوا إلى الملك فرديناند جوابًا في غاية اللطف والإيجاز يشكرونه فيه على عرضه التسليم بشروط خفيفة، لكن يعتذرون له عن الرفض بكونهم أؤتمنوا على المدينة ليحافظوا عليها لا ليسلِّموها.

ـ الحرب والقتال الشديد

فعندما أخذ الملك جوابهم شحذ غرار العزيمة(١)، وعوَّل على التضييق والأخذ بالمُخنَّق، فتقدَّم بحملته صوب السور لأجل تمكين المحرقات من البلدة، وأوجف(٢) بخيله ورجله، وتغلغل الإسبانيول في البساتين ليتَّخذوا مركزًا يمنعون فيه المغاربة من الخروج، وانتشروا في أطرافها، وكان الشبَّان الأغرار منهم، متقدِّمين، كأنَّما يوفضون(٣) إلى أعراس، إلاّ أنَّ أهل الحنكة والتجربة كانوا يرون في كلّ خطوة بين تلك الغِياض خطرًا، وأمَّا صاحب صانتياغو فحثَّ أصحابه، وتقدَّم بهم ووعدهم عن الله بالنصر، وبينما هم على هذه الحال إذ ارتجَّت الأرجاء بقرع الطبول، وأصوات الهيجاء واندفقت فرقة من المغاربة يقودها سيِّدي يحيى بنفسه لصدّ الإسبانيول عن التقدُّم، فالتقت الفئتان في مشتبك تلك الغياض مُبَالَطة(٤) بالسيوف، ومناضلة بالسهام، ومطاعنة بالحِراب، لكن طبيعة ميدان الحرب من جهة التفاف الشجر وتقطيع البساتين بالأقنية وكثرة الأبراج والبيوت جعلت الريح للمغاربة

(١) شحذ غِرار العزيمة: (كناية) كقولِكَ: عَقَدَ العزيمة، وصمَّمَ.

(٢) عدا وسار.

(٣) عدا وأسرع.

(٤) تقول تبالط القوم، أي: تجالدوا بالسيوف.

الذين كانوا يقاتلون مُشاةً، حالُ كون الإسبانيول رُكبانًا، زدْ على هذا كَوْن أولئك أخبر بالأرض وثناياها وزواياها، وأدْرَبَ على الكرّ والفرّ، فلمًّا رأى قوّاد الإسبانيول ذلك أوعزوا إلى كثير من الخيّالة أن يترجَّلوا ويقاتلوا على أرجلهم، فعندها استحرّ [1] القتل وحَمِيَ الوَطيس، ولم تكن معركة عامّة، بل مجتمع معارك متفرِّقة، إذ كلّ بستان أصبح ميدانًا لمعركة، وكلّ روضة صارت موطنًا للنزال، وعاد كلٌّ من المقاتِلَة لا يبصر إلاّ الذي حواليه، ولا يعلم بالبعيد عنه، وعادت القيادة وقرع الطبول عبثًا، لأنَّ كلاًّ من الجند مشغول بنفسه متجرّد لِقِرْنِه، وفي بعض الأماكن كان الإسبانيول هم الظاهرين، وفي غيرها كان العُلوّ للمغاربة، وربَّما انهزمت فئة من وجه فئة فتبعتها فسقطت على فئة ظافرة، فانضمَّ إليها شمل المنهزمين وجدَّدوا الكرّة، وقد يقصد بعضهم الفرار من شدّة الهَول، فيقع في جهة ولا يدري إلاّ وهو فيهم، ذلك من عدم تمييز العدوّ من الصاحب في مشتبك تلك الغياض، وانصرف جهد كلّ من الفريقين إلى احتلال تلك الأبراج القائمة في وسط البساتين، ووضعت في كثير منها النار، فامتدّ الحريق وارتفع اللهيب، وخَرَّت الجدران وعَلَت الأصوات كقيام الساعة [2]، وازداد مشهد القتال هولاً وروعًا. هذا وفرديناند ينتظر بذاهب الصبر نتيجة المصاف، وهو في غاية القلق والجزع، لا يعلم شيئًا ممّا وراء هاتيك الأشجار الحاجبة لنور الشمس، فكان يسرِّب البعوث والنجدات، إلى المواقع التي يخشى فيها الدائرة على قومه، وأَجْلَتْ المعركة عن مهلك الدُّون جويان دولارة، من أفراد ناشئة الإسبانيول وأعيانهم، وأحبُّهم إلى قلب الملك، وكان قد اقترن حديثًا بالدونّة كاتالاينة دو أوريا من أبدع فتيات عصرها.

وأمّا من الجهة الثانية فكان القائد محمَّد بن حسن، وحوله جماعة من القوّاد مراقبين حركات القتال من فوق الأسوار مدّة اثنتي عشرة ساعة استمرّت فيها المناجَزة [3]، وكانت كثافة ورق الأشجار تحول دون رؤية التفاصيل فلم يكن يرى إلاّ بَريق الخُوَذ [4] ولا يلمح سوى لمعان النِصال، ثمَّ أخذت تَفِد الجرحى، فارتفع عويل النساء، وكانت ضجّة هائلة عند موصل جثّة رضوان ذي الفرغى من مُتَمَسْلِمَة النصارى الذي صار من أعاظم قادة المسلمين، ثمَّ أخذ المغاربة يتقهقرون إلى جهة المدينة، وأمر فرديناند بنقل خيامه إلى هاتيك

(١) اشتدّ.

(٢) يوم القيامة.

(٣) المقاتَلَة والمبارزة.

(٤) مفردها خوذة: مِغفر من حديد يقي رأس المقاتل.

الجهة وعندها طار محمَّد بن حسن إلى نجدة سيِّدي يحيى، واجتهد أن يُزَحْزِح الإسبانيول عن مراكزهم الجديدة، لكن هجوم الظلام، حال بينه وبين المرام، فوقف متربِّصًا مكانه ولم يدَع للعدوّ راحة الليل بطوله، ولمَّا أصبح الصباح كان مشهد القتال هائلاً فالأرض مغطّاة بجثث القتلى، تنبئ بلسان حالها عمَّا احتملت من الحرب وأهوالها، وهكذا أصبحت تلك الخمائل وهاتيك الحدائق مجرى العوالي[1] ومجرى السوابق[2].

ـ تراجع فرديناند وعزمه على الرحيل

ثمَّ إنَّ فرديناند أدرك حرج الموقف الذي ضرب فيه خيامه وشدّة الخطر الحائق[3]، فأجمع على تقويض خيامه منه، لكنَّه قدَّم طائفة من جيشه تُشاغل العدوّ إلى أن يتمكَّن من إعادة المعسكر إلى محلّه الأول، فأغار سيِّدي يحيى بقوّة جسيمة من الخيل والرجال فلم يَفُزْ من المعسكر بطائل يُذكَر، لكن رجوع المحلّة إلى المكان الأول جعل المغاربة في منجاة من السوء عند الكرّ والفرّ نحو المدينة، فعقد الملك مجلسًا مؤلَّفًا من كبار القادة، واستشار في ما يفعل، فأشار عليه مركيز قادس بترك الحصار، مؤقّتًا، بزعمه أنَّ المدينة محصَّنة مكتفية في الميرة والذخيرة والسلاح وعدد المقاتِلة، لا يمكن افتتاحها الآن والجيش في تربُّصه أمامها مُعرَّض للمرض. وإذا جاء الشتاء تعذَّر القتال وسالت الأودية، وإنَّ من رأيه أن يعتاض عن الإصرار على منازلة بَسْطَة، باجتياح الكورة وإفساد زرعها، وإطلاق الغارة على المدن والقرى المجاورة، إلى أن تكون تهيّأت فرصة أخرى. وأمَّا الدُّون غوتيارو دو كردناس أمير لاره فذهب إلى أن رفع الحصار عن بَسْطَة يتّخذه العدوّ دليلاً على الضعف، ويزيد المغاربة جرأة ويستأسد به الزغل وربَّما يكون سببًا لانتقاض أهل غَرناطة على أبي عبد الله وميلهم إليه فهو يرى الإفراج من سَفَهِ الرأي، وكان الملك متردِّدًا بين أن يُقلع أو أن يقيم. تارةً يتصوّر المشاق التي ستحيط بعسكره، خصوصًا في جلب الذخيرة فيعوِّل على رأي صاحب قادس، وطورًا يتأمّل في ما يترتّب على الانصراف من استغلاظ أمر العدوّ، فيميل إلى رأي أمير لاره، وبَلَغَ الجند ما كان من تشوّر الملك، واهتمامه، وعزمه على الرحيل ضنًّا براحتهم، فقاموا يطلبون الإقامة في ساحة البلد إلى أن يتمّ لهم فتحه، ولمَّا تضاربت الآراء

---

(١) الرماح.

(٢) الخيل.

(٣) أحاق به: أحاط.

بعث الملك يسأل الملكة رأيها بمكانها من جيّان، وكانت بينهما بُردٌ[1] مُرَتَبَة، ذات مراكز يقوم أصحاب كلّ مركز منها بقطع المسافة التي تخصّه بحيث تصل الرسالة في عشر ساعات، فأجابته أنها تترك قضيّة الإقامة أو الظّعن إلى رأي الملك ووزرائه، لكن في ما لو أريد الاستمرار تستعين الله في تقديم جميع ما يلزم للجيش من المؤونة والمال إلى أن تكون البلدة قد أطاعت، فأجمع حينئذٍ فرديناند على الإقامة، وعندما بلغ الجند عزيمة الملك ارتفع ضجيج السرور كأنهم أصابوا غُنمًا أو أحرزوا فتحًا.

ـ فرديناند يُعيد تنظيم جيشه

واتّصل بسيِّدي يحيى ما هو واقع من المراء[2] في أمر الحصار، فعلَّل النفس بالآمال، وترقّب الفرج برحيل الملك لكن محمَّد بن حسن لم يكن يصدِّق ذلك، وإذا بحركة فجائيّة في صبيحة يوم كادت تحقّق رجاء سيِّدي يحيى، فإنَّ الخيام قُوِّضت والآلة أُنهضت، والمدافع تعاورها النقل، وخُيِّل أن قد شالت نعامة[3] الإسبانيول وخمدت لهم بارقة النصر، وإذا بالطاغية قد قسّم جيشه شطرين فجعل مركيز قادس على أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل، وأصحبه بالدُّون ألونزو دو أغيلار ولويز فرديناند ربويرتو كريرو وغيرهما من مشاهير أبطالهم، وجعل معه المدافع، وسيَّره إلى الجهة المقابلة للجبل واتّخذ الملك لنفسه قيادة القسم الثاني وهو مؤلَّف من ستّة آلاف فارس، وجيش من المشاة كثيف، وعدد من الجبليين، واستظهر بجماعة من عظماء المملكة، مثل الكونت دو تنديلاّ وصاحب صانتياغو، فأقام كلّ فريق على طرف من البساتين. وضرب أوتاده هناك، فنظر محمَّد بن حسن قائد بَسْطَة فقال: أما إنَّه لم يزل بينهما حاجز من الشجر، لكن لم يكد يخرج منه هذا القول حتَّى ملأ الفضاء صوت انقعار الأشجار، وأعمل الإسبانيول الفأس فطارت قلوب المغاربة شَعاعًا، بما أصاب بساتينهم وتصايحوا للممانعة دون القطع والتحطيم، فاشتبك القتال أيامًا وتعدَّدت الوقائع وانصَلت الكَرّات، واستمات البشر دون الشجر، ورخصت الأرواح في سبيل الأدواح، واستمرَّت المناوشات أربعين يومًا، تمكَّن خلالها الإسبانيول من استئصال تلك الغياض وإبادة هاتيك النضرة بملاحقة العمل والصبر على هجمات العدوّ، وأُزيل

---

(١) جمع شاذّ لـ "بَريد": الرُسُل، ينقلون الرسائل.

(٢) الشكّ.

(٣) مثلٌ يُضرب للقوم، إذا ارتحلوا عن مَنْهلهم وتفرّقوا.

الحاجز الذي كان بين المحلَّتين وعُطِّلت بَسْطَة من حلاها، وعريت في آنٍ واحد من جنّة نزهتها وجُنّة[1] وقايتها. ثمَّ جعل الإسبانيول من إحدى المحلّتين إلى الثانية ممرًّا، وضربوا دونه السدود، ورتَّبوا مجاري المياه وبنوا الأبراج على الجوانب بحيث أصبح من المُحال أن يحال بين المحلَّتين، ثمَّ طمع فرديناند في منع الماء عن بَسْطَة وقال بعض الإسبانيول ممَّن أرَّخ الوقائع إنَّ الماء ضروري لهؤلاء أكثر من الخبز، لأنهم على اضطرارهم إليه لأجل الشرب، يحتاجون إليه لأجل الوضوء والغسل وإسقاط الجَنابة[2] ممَّا تأمر به ديانتهم، ولا نحتاج إليه نحن الإسبانيول. وكان لبَسْطَة عين تجري من قمّة «أبو الحسن» وراء البلدة وكانوا يتبرّكون بمائها، فلمَّا أحسّوا بما أجمع عليه الإسبانيول خرجوا تحت جناح الليل، وأقاموا عندها من الحصون ما يَعصِمُها[3] من كلّ غارة.

وفي خلال هذا الحصار، خطر لبعض فتيان الإسبانيول شنّ الغارة على نواحي وادي آش، وكان في مقدِّمتهم فرنسيكو دو بازان، وأنطونيو دو كويفا، فجمعا نحوًا من ثلاثمائة فارس ومئتي راجل وسارا مستترين بجناح الليل، آخذين بشِعاب الجبل، حتَّى وافيا قرى الوادي قبل تحقُّق الفجر، فأسروا مَنْ صادفوه من أهلها وانتهبوا مالها، وحطَّموا زرعها، وساقوا نعمها، كلّ ذلك في لحظة، وقَفلوا غانمين قبل أن يشعر بهم أحد، فطار رعاة المواشي الذين خلصوا من شرّهم، وأعلموا بهم الزغل فسرح في أثرهم ستّمائة من نخبة فرسانه ورجالته فأدركوهم في طريق انصرافهم، ولمَّا التقت العين بالعين، وجد الإسبانيول أنفسهم دونهم في العديد والقوَّة، فتصوَّروا ترك الغنيمة والرضى بالإياب، لكن فرنسيكو دو بازان، وأنطونيو دو كويفا، لم يوافقاهم على الفرار، بحجّة أنَّ المشاة الذين معهما لو فرّوا لاستلحمهم العدوّ، وأنَّ المقاومة هي أنجى لهم في تلك الحال، فاختلفت الآراء بينهم وأراد القوّاد حسم النزاع فأمروا حامل الراية أن يتقدَّم، فتوقَّف وكاد القوم يولون الإدبار، فتقدَّم فارس من الحرس الملكي اسمه هرناندو بيرز دلبلغار، قائد حصن سالار، ورفع منديلاً كان متلفِّعًا[4] به على حسب عادة أهل الأندلس، وعقده برأس الحَربة ونادى أصحابه، فدبَّت الحميَّة برؤوسهم وكَرّوا بقلبٍ واحد وصدقوا الحَمْلَة، فانكشف العدوّ دون انتظار؛ وقُتل

(١) السُترة، وكلّ ما وقى من السلاح، كالدرع.

(٢) (لغة وشرعًا): التنجّس، وجب إسقاطه قبل الصلاة.

(٣) يقيها.

(٤) الرجل بالثوب، اشتمل به وتغطّى.

نحو ثلاثمائة من المغاربة، وأسروا جماعة وقَفلوا ظافرين فكافأ الملك هرناندو المذكور بلقب فارس، وأجاز له رفع ذلك المنديل في مواطن قتاله.

- الزغل يعجز عن إمداد بَسْطَة خوفًا من ابن أخيه

وبينما كان الزغل ينتظر إياب أصحابه بالغنيمة، إذ رآهم راجعين فرقًا، مغلوبين حزقًا[1]، فرأى الأقدار معاكسة له والدهر قد قلب ظهر المِجَن[2]، بما كان يترامى إليه من أخبار بَسْطَة، وهلاك قسم كبير من حاميتها، واشتداد الكظام بأهلها، ولم يكن في وسعه أن يخف إليها بذاته، خوفًا من أن يقتحم تلكَ الفرجة ابن أخيه من غَرناطة، فيسلبه ملكه، فكان يبعث إليها بالمدَد بعد المدَد، لكنَّ الإسبانيول كانوا يلاقون الأمداد فيفلُّونها قبل الوصول إلى المدينة، مع ذلك بقيت حالته أجمل من حالة ابن أخيه السلطان أبي عبد الله، لأنه حفظ لنفسه هيبة سلطان ذي صولة وصاحب دولة.

وأمَّا ابنُ أخيه فكان ملكًا تابعًا لملوك قَشتالة، وحزب القتال في غَرناطة لم يكن ليساوي بين المُجاهد المُرابط المُثاغر، والخائن الخاضع الخانع لغير أهل الدين، وأخبار بَسْطَة كلّ يوم تنكأ قلوبهم، وتفتّ في أعضادهم، حتَّى تمشَّت المراسلات في ما بينهم في الوثوب على الحمراء وقتل أبي عبد الله، والنفور من غَرناطة حزبًا واحدًا إلى وادي آش، ومنها إلى بَسْطَة للإفراج عن المحصورين، لكن لحسن بخت أبي عبد الله، وسوء طالع الأندلس، عُرف هذا الملك بالمكيدة فضرب أعناق رؤساء الحركة، ورفع رؤوسهم فوق جدران الحمراء، فأنزل بذلك الرعب في القلوب، ولم يبقَ في غَرناطة عِرْق ينبض لثورة، وأحسّ فرديناند بما كان في عزم الغرناطيين فازداد حَذَره، وضاعف القوّة، ووضع المحارس، وبثَّ العيون والروّاد، وأخذ يظهر لأهل بَسْطَة كلّ يوم من القوّة بمظهر جديد، وهم ينتظرون النجدة، ولا يحضر لصريخهم أحد، حتَّى يئسوا، وغلب عليهم القُنوط، فأراد محمَّد بن حسن أن ينبِّه عزائمهم، ويحيي آمالهم، فقال لسيِّدي يحيى: "يلزم أن نُظْهر للعدوّ أننا لم نَهن، ولم نَزَلْ على عزمنا وقوّتنا". فجمعا جيوشهما، وخرجا بقوّة عظيمة، فالتقاهما فرديناند بجموعه، وهَدَرت طبول الحرب، وتزاحفت الصفوف من كلّ جانب، واستماتت كتائب المسلمين، فانكشف الإسبانيول، ووقع الخلل في مصافهم، ولم تتمّ عليهم

(١) الحَزِق: الحازق: مَن لا يملك أمر نفسه في سرعة المشي.

(٢) الدرع (عمومًا). وهو مثل يُضرَب لِمَن كان لصاحبه على مودّة ورعاية، ثمَّ حالَ عن العَهد.

الهزيمة لوفرة أعدادهم، وسعة محلّتهم، فقَفَل المسلمون بالغنائم، ودخلوا البلد ظافرين، ومن ثَمّة أخذوا يرسلون الجنود من جهة الجبل، فيهبطون السهل كلمح البصر، ويغنمون المواشي ويعودون بها إلى بَسْطَة، وجرى خلال ذلك وقائع متفرِّقة شديدة، امتاز فيها بين الأقران الدُّون ألونزو دو أغيلار.

وممّا يُروى، أنَّ أحد فرسان الإسبانيول المسمّى مارتين غالندو، شاهد لمغيب الشمس، فارسًا مغربيًّا شديد الصولة باهر الفتك، يحمل على الإسبانيول فلا يقف في وجهه فارس إلاّ جدّله[1]، ولا يساوره قِرن إلاّ صرعه، فتصدّى غالندو لبرازه، فتصاولا وتجاولا ساعة، فجُرح المغربي في وجهه، وانقلب عن صهوته فقبل أن يقحم الإسبانيولي جواده ليفتك به، كان المغربي نهض على رجليه واستلّ حربته فأعجله بجرحٍ في رأسه، ومع كونه على رجليه وكون قرنه راكبًا، كاد لشدّة بأسه وخفّة حركته يورده حتفه لولا إسراع رفاق للإسبانيولي بنجدته، فعندها أخذ المغربي يتقهقر رويدًا رويداً إلى أن صار بين أصحابه، فسُئل عنه فإذا به من عشيرة بني سراج. ولمّا كان الوجه في أكثر هذه المبارزات الفردية للمغاربة، شدَّد الطاغية في منع قومه عن قبول هذا البراز، وحظَّر عليهم المناوشات الخاصّة لعلمه اليقين أنَّ المغاربة أقوم من كلّ شعب في الأرض على هذا النوع من القتال، وأنهم أدرى بالأرض وأهدى فيها سبيلاً.

- إنذار سلطان مصر إلى فرديناند

قالوا: وبينما كان الإسبانيول يحصرون بَسْطَة، إذ شوهد في المعسكر اثنان من أجلاّء رهبان الفرنسيسكان: الواحد منهما ذو هيبة وهيئة ووقار عظيم، راكب جوادًا كريمًا بسرج مذهَّب، والآخر متصاغر متضائل يسعى وراء الأول راكبًا رمكة[2] بسرجٍ خالٍ من الزينة، وكان دائمًا مُطرقًا في الأرض، ماشيًا القصد، خافض الجناح، فلمّا شوهد هذان القسّيسان في الجيش تكلّم الناس في مجيئهما، على أنه كان معهودًا حضور الرهبان في هاتيك الحروب المقدَّسة، فطالما اجتمعت الخوذة والقلنسوة تحت راية واحدة، فظنَّ من البداية أنهما من الرهبان المجاهدين، لكن فُهم أخيرًا أنهما قادمان من الأراضي المقدَّسة برسالة مهمّة. أمّا صاحب الوقار والتصدُّر وعلوّ النغمة فهو الأب أنطونيو ميلان رئيس دير الفرنسيسكان في

---

(١) صَرَعه، وقيل ألقاه أرضًا فصَلّبه وصَرَعه.

(٢) الرمكة: الفرس: البرذونة تتّخذ للنسل (معرب) جمعها رَمَك ورماك ورَمَكات وجمع الجمع أرماك.

بيت المقدس، كان ممتلئ الجسم، جهير الصوت، طلق اللسان، ذا أساليب خطابية كمَن تعوَّد أن يقول في الناس، ويسمع له الناس، وأمَّا رفيقه فكان صغير القدّ، مختصر الجرم[1]، مصفرّ اللون، ليِّن الحديث، خفيّ الإشارة، خافت الصوت، وكان من التواضع وخفض الجناح، على ما ينبغي أن يكون عليه مَن انتمى إلى مثل دعوته، وتلبس بمثال حُلَّته، لكنَّه كان من أهمّ رهبان الدير وأحمسهم وأدربهم، كان إذا رفع نظره من الأرض، انقدحت عيناه شرارًا، فبينما يظنّه الإنسان أودع من الوَرقاء[2]، إذا هو أدهى من الحيّة الرقشاء[3].

وكان هذان الراهبان، آتيين من عند سلطان مصر في ذلك الوقت، الملقَّب من قِبَل الإفرنجة بسودان مصر، لأنه كان الاتّفاق بين هذا السلطان وبين السلطان بايزيد الثاني صاحب القسطنطينية على إصراخ مملكة غَرناطة، ووضعا فيما بينهما أوزار الحرب، اجتماعًا على مظاهرة الملّة وتفرُّغًا للجهاد، ثمَّ أوفد صاحب مصر هذين الراهبين بكتاب منه إلى ملوك قَشتالة، وإلى البابا، وإلى ملك نابُلي، مُنكِرًا عليهم ما هو واقع من العذاب على مغاربة غَرناطة، الذين هم من بني مِلّته وجِلدته، بينما عدد كبير من المسيحيين، راتعون في ممالكه في بحابح الراحة والأمان، متمتِّعون بأملاكهم وحقوقهم، ناعمون بحرّيتهم الدينية، فهو يُلحُّ في الإفراج عن مسلمي الأندلس، وتمكينهم من الأملاك التي اغتصبوهم إيّاها، وأجلوهم عنها، وإلاّ فإنَّه يمحو بذباب[4] السيف، جميع النصارى الذين هم في ممالكه، ويخرِّب معابدهم، ويجعل كنيسة القيامة في القدس قاعًا صفصفًا. وكان خبر هذا الإنذار قد ذاع بين مسيحيي الشرق فأقضّ مضاجعهم، وروَّع قلوبهم، وصاروا ينتظرون خلاص مسلمي الغرب، لئلاّ يؤخذوا بجريرة المُعتدين عليهم.

فالتقى فرديناند ذينك[5] الوافدين برًّا وتَجِلّة[6]، كعادته من ملاقاة رجال الدين، وخلا بهما مرارًا، مستقصيًا منهما مليًّا عن أحوال النصرانية في المشرق.

وكان الوافدان قد عاجا[7] برومة، لتسليم البابا كتاب سلطان مصر، فكتب البابا معهما إلى ملوك قَشتالة، يستشير فيما يجب أن يجاوب على خطاب صاحب مصر، وكتب بمثل

---

(١) الجسم.

(٢) مؤنّث الأورق: الحمامة.

(٣) المنقّطة بسواد وبياض.

(٤) حَدّه.

(٥) مثنى "ذلك".

(٦) العَظَمَة، تَجِلّة: تعظيمًا.

(٧) أقام به.

ذلك ملك نابُلي، وتوخَّى في كتابه تخطئة ملوك قَشتالة، ولو من طَرَفٍ خفيٍّ فيما هم مباشروه، وممَّا جاء فيه: "إنَّه ولئن كان المغاربة مخالفين في المذهب، فليس منَ الجائز الإساءة إليهم بدون سببٍ عادل، وإنَّه إن كان ملوك قَشتالة لا يصبرون على أدنى إساءة من مسلمي إسبانية، فليس من اللائق بمقامهم أن يأتوا أقلّ عمل، من شأنه أن يجرّ على النصرانية وبالاً"[1] إلى آخر ما ذكر من هذا القبيل، ممَّا نقله بعض الإسبانيول، وعقبه بالطعن في ذلك الملك، والقَدْح في أمانته للنصرانية، واتِّهامه بالعصبة مع صاحب مصر، إلاّ أنَّ بترو باركا، لا يعزو ركوب ملك نابُلي، ظَهْرَ الخلاف في هذه المسألة إلى نقص في حميَّته الدينية، بل لمآرب سياسية أنه كان يعتقد بأنه إن تمكَّن فرديناند من فتح غَرناطة أمكنته الفرصة، وتهيَّأت له الوسيلة، للادّعاء بملك نابُلي، أنه تابع لمملكة أراغون.

أمَّا فرديناند فأجاب ذلك الملك جوابًا في غاية اللطف والرشاقة، أتى فيه على تفاصيل تلك الحرب، وبيَّنَ له وجوه الحقّ في غَشيانها[2]، وختم كتابه بتسكين رَوْعِهِ من جهة نصارى المشرق، مؤكِّدًا له أنَّ الأموال التي يدفعونها هي الجِنَّة الواقية لهم، دون ما يتهدَّد به سلطان مصر من استئصالهم، وكتب إلى البابا يعرض له أسباب الحرب، وهي تنحصر في ثلاثة: **الأول** استرجاع أرض تملَّكها المغاربة بالسيف، **والثاني** مجازاتهم على سيّء المعاملة التي عاملوا بها المسيحيين، **والثالث** أنها حرب مقدَّسة يقصد بها إعلاء مجد الكنيسة.

وبعد أن أقام الراهبان الوافدان بالرسالة مدّة بمحلّة الملك، يَقُصّان على قوّاد الجيش أخبار المشرق، شَخَصا[3] إلى جيّان لمقابلة أعظم الملكات كثلكة، ألا وهي الملكة إيزابيلا، فاستقبلتهما من البِرّ والاحتفاء بما يفوق الإطراء، وعيّنت لديرهما في بيت المقدس، إحسانًا سنويًّا نحو ألف دوكًا، وعند انصرافهما سلَّمتهما غشاء[4] باهر النفاسة، مطرَّزًا بيدها الملوكية لوضعه على القبر المقدَّس.

ـ فرديناند، يُرسل المؤرِّخ بطرة مارتيل بسفارة إلى مصر

قال الكاتب الإنكليزي الشهير واشنطون أرفن: "ولم يذكر الأب أغابيدا مؤرِّخ هذه

---

(١) سوء العاقبة والشدّة والوخامة.

(٢) دخل بها.

(٣) ذَهَبَ.

(٤) غطاء.

الوقائع، نتيجة الرسالة التي وفد بها ذانك[1] الراهبان، وهي أنه في ما بعد أزعج[2] فرديناند وإيزابيلا، المؤرّخ الشهير بطرة مارتير أنغلريا، سفيرًا إلى الشرق لدى صاحب مصر، أو بحسب قولهم السودان الأعظم، فأبدى من الحذق والمهارة بتلك السفارة، ما أقنع به ذلك الملك الشرقي، واستجلب به ميله، وفاز منه بإيثار غَرَضِه، وحصل على أوامر، برفع كثير من المغارم عن زوّار القدس الشريف، ولبطرة المذكور رحلة شهيرة في بلادهم ضمنها جمًّا من الفوائد والنوادر»[3].

هذا وبقي الحصار مستمرًا على بَسْطَة، ونفير فرديناند وإيزابيلا ينبعث إلى آفاق إسبانية، فتتكثّف الجيوش وتتوارد المقاتلة من كلّ فجّ، ولم يكن العناء كلّه في جمع الأجناد، بل بإزاحة عِلَلهم وتوفير أقواتهم، ولم تنحصر النفقة في الجيش المقاتل وحده، بل كان يلزم الملك وامرأته، تسريب الذخيرة لجميع المدن التي دخلت في حوزتهما، وكفاية حماتها، لما سبق أخذها من الإكتساح والعبث الذي غادرها كجوف العَيْر، فرتّبت الملكة ألوفًا من البهائم لنقل الأقوات، وجعلت عليها خفارة وافرة لصدّ غارات المغاربة في الطريق وأقامت تواصل الأمداد صباح مساء، ولمّا فرغت خزينتها من النقد، استعانت بأعيان البلاد والبطارقة، فقدَّم كلٌّ منهم ما وصلت إليه يده من النقد، وبعضهم قدَّم ما عنده من الحُلي والجواهر، وباع الأساقفة آنيّة الكنائس، واستنزفوا ما في خزائن الأوقاف من الكنوز، وتبرّع التجّار بمبالغ طائلة من المال، وجاد كثير من العشائر الأصيلة بذخائرهم ونفائسهم، وأخيرًا أرسلت الملكة نفسها حُلِيْها وآنيّة القصر الثمينة إلى برشلونة وبَلَنْسِية، وباعتها لأجل شراء الأقوات والميرة، وإزاحة عِلَل العساكر.

وبينما كانت قُطُر[4] الحيوانات تَرِد تبعًا، مُوَقّرة بالذخيرة والطعام إلى مخيَّم الملك فرديناند، وقوّة الإسبانيول تتعزَّز يومًا فيومًا بإزاء بَسْطَة، كانت الأقوات ابتدأت تنفد في البلدة، والمجاعة تعضّ الحامية بنابها، لكن بقي لأهل بَسْطَة أمل في الفرج بهجوم الشتاء، وتراكم الأمطار، وحسبوا أنَّ لا بدّ من أنّ السيول المتحدِّرة من الجبال تضطرّ الطاغية

---

(١) مثنّى ذلك، اسم إشارة، على الرفع.

(٢) أقلقه، وقلّعه من مكانه، ومعناها (هنا): أرسله.

(٣) لا يوجد حلّ لهذه المسائل إلاّ بوجه واحد وهو أنّ الشرقيين أكرم أخلاقًا من الغربيين وأنّ قاعدة «إذا ملكت فأسجح» لا تعرفها أوروبا. (أسجَحَ: أحسن العفو).

(٤) جمع الجمع لـ قِطار، مصافّ الجِمال، بخاصّة في قافلة متّصلة.

للظَّعْن[1] بمحلّته، وبينما هم يتسلّون بهذا الأمل، إذ أخذ الإسبانيول ينون بيوتًا من الخشب مسقوفة بالأجرُّ، حتَّى كمل لهم نحو ألف بيت على هذه الصورة لإقامة الأمراء والقوّاد، واتّخذ الأجناد لأنفسهم بيوتًا من الطين موطَّدة بفروع الأشجار ومغطّاة بالخُوص[2]، وصارت المحلّة عبارة عن مدينة قائم في وسطها بناء كبير لنزول الملك ، يخفق فوقه علما أراغون وقَشتالة، وقد عوَّل فرديناند على اختطاط[3] هذه المحلّة، توقّيًا من السيل، وقطعًا لأمل المغاربة من الإفراج، إلاّ أنه لم يكد يتمّ بناءها حتَّى عصف إعصار شديد، صحبه مطر مِدرار وسيل أتيّ[4] فتهدَّم جانب من البيوت، وهلك خلق كثير من الجند والخيل والماشية، وفسدت الأقوات والذخيرة، وارتاع الجيش، وخافوا الهلاك، ولكن أسعدهم الطالع بإقلاع المطر، فخفّت وتيسَّرت الحركة، وأرسلت الملكة بعوض عمَّا نقص من الزاد، وبعثت ستّة الآف رجل لترميم الطرق التي أضرَّ بها السيل، وإقامة المعابر عليها، وأعاد الملك بناء البيوت التي تهدَّمت في المحلّة، ورجع الاطمئنان إلى قلوب الإسبانيول.

وخاف الطاغية تكرُّر الإعصار، والغَرَق، وتفشّي المرض في جيشه، فراسل أهل بَسْطَة في التسليم على أن يؤمنهم في أنفسهم ونفائسهم، فبعث إليه محمَّد ابن حسن بجواب لطيف العبارة سلبيّ المعنى، وكانت أخبار السيل وما ألحقه من الضرر بمعسكر فرديناند، قد وصلت إليهم مع المبالغة، فطمعوا في رحيله، وتشدَّدت عزائمهم، وبرزوا للقتال، فحدثت عدّة مناوشات، هلك فيها جملة وافرة من رجالات الفريقَين، وحدَّثوا أنَّ في إحدى هذه الوقائع خرج نحو ثلاثمائة فارس وألفَي راجل، فأعتلوا مرقبًا وراء المدينة ركبوا فيه ريح الإسبانيول، فتناوشوا ساعة، واستوت الهزيمة على هؤلاء فتبعوهم، وقد فُقِد منهم جملة، إلى أن حصلوا في محلّة كونت تنديلة، وغونسلاف القرطبي، فصَدَفوها الحملة فتداعى رجالها للفرار، وثبت الكونت وصاحبه في موطنهما إذ وجدا الثبات أدنى إلى السلامة من الهرب، فانضمّ إليهما مَن صَبَر من الجند، وصدّوا المغاربة، فأوقفوهم، ولكنَّهم كادوا يختلّون في مصافهم وتحقّ عليهم الغَلَبة، وإذا بألونزو دو أغيلار، وكونت أورينه، وجماعة من رجالاتهما قد أقبلوا، فتلقّوا الصدمة، وتكاثروا، فارتدّ المغاربة نحو المدينة، وجرى على

---

(١) المَسير.

(٢) ورق النخل وغيره.

(٣) البلد أو المحلّة، رَسَمَ بناءها.

(٤) الأتيُّ: جدول تؤتيه إلى أرضك، السيل الغريب لم يصبك مطره، وكلّ مجرى ماء أتيٌّ وأُتِيٌّ.

هذا النمط عدد من الوقائع، لم تخفق فيها راية ظفرٍ تامٌّ لأحد، وكانت شِرَّة [1] المغاربة في القتال تزداد بازدياد يأسهم وخناقهم، وكان الأمير سيِّدي يحيى دائمًا في مقدِّمة جنده، لكنَّ فراغ الخزائن من المال، ونفاد القوت، قَطَعا من آماله، وتذاكر مع محمَّد بن حسن في الحالة، فأجمعا على استمداد الأهالي، وبيَّنا لهم تعذُّر المقاومة مع إعواز القوت، فتشاور أهل بَسْطَة بعضهم مع بعض، وجمعوا ما عندهم من الحُلي والآنية، من ذهب وفضّة، ودفعوها لمحمَّد بن حسن قائلين له: "خُذ هذه فاضربْها نقدًا، أو فبعْها، أو فارهنْها، واستحضِرْ مالاً لقوت العسكر" وقالت نساء بَسْطَة بعضهنَّ لبعض: "هل يليق بنا أن نتبرَّج ونتزيَّن بهذه الحُلي، حالة كَون بلادنا خرابًا، ورجالنا محتاجة إلى القوت الضروري" ثمَّ جمعْنَ ما عندهنَّ من العقود والأساور وسائر الحُلي، ودفعْنَها لمحمَّد بن حسن قائلاتٍ له: "خُذْها وادفعْ بها عن ديارنا وعيالنا، فإنْ أُفرج عن بَسْطَة لم نحتَج إلى الزينة لأجل إظهار فرحنا، وإن أُخِذَت بَسْطَة فأيّ حاجةٍ للأسير بالحُلي والجواهر".

فتمكَّن محمَّد بن حسن بهذه الإعانة من مداومة الدفاع، ونمى إلى الملك ما فعل أهالي بَسْطَة، وما تجدَّد عندهم من النشاط، فعَمَدَ إلى مقابلتهم بما يوهِن عزائمهم، وكتب إلى الملكة يدعوها إلى المعسكر، فبينما محمَّد بن حسن يشدِّد حماة البلدة، ويبسط لهم الأمل برحيل الملك، إذ سمع قرع الطبول، فشخصت الأنظار إلى جهة محلّة الإسبانيول، فإذا بالملكة قادمة بجيش، يحف بها بطانة عظيمة بأبهى الملابس، وعلى يمينها كريمتها البرنسس إيزابيلا، وعلى الشمال الكردينال الأكبر في إسبانية، ووراءها جماعة من عقائل إسبانية السريات [2]، فلمَّا شاهد القائد محمَّد هذا المشهد فتّ في عضده، والتفت إلى أصحابه قائلاً: "يا إخواني أصبح تسليم بَسْطَة مقرَّرًا".

- سقوط بَسْطَة صُلحًا

وقد كان لموصل الملكة إيزابيلا من الأُبَّهة والوقار ما أثَّر في خواطر المغاربة أنفسهم، وعزم بعض رجالهم أن يهاجموا موكب الملكة لدى وصوله، فمنعهم الأمير سيِّدي يحيى حرمةً لمقام الملكة، وأطلّ جميع سكان بَسْطَة من السطوح، والمآذن، والأبراج، لمشاهدة وصول الموكب، وكان احتفالاً فائقًا وعلت فيه السكينة جميع الجوانب، وعندما أيقن

(١) الشِّرَّة: الحرص: النشاط والرغبة ومنه شِرَّة الشَّباب.

(٢) صاحب المروءة في شَرَف، والسيِّد الشريف الجيِّد السخي.

المسلمون أنَّ الملك والملكة لا يرحلان إلاَّ بتسليم بَسْطَة، مالوا إلى التسليم، وتمسَّت رجالات الإسبانيول بالصلح، فحضر الدّون غوثيار دو كردناس، واجتمع بالقائد محمَّد بن حسن وقال له باسم الملك، إنَّه إن سلَّم أهل بَسْطَة الآن، يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وحرّية اعتقادهم، وإلاَّ فإن أصرّوا على المقاومة، لم يأمنوا خيرًا لا على دم، ولا على مال، ولا على دين محمَّد، وذكَّره بما أصاب مدينة مالَقَة، فراجع سلطانهم الزغل في ذلك، وكتب له سيِّدي يحيى كتابًا، وأرسل به القائد محمَّد بن حسن، فلمَّا وصل إلى وادي آش، وجد السلطان منقطعًا في جهة من قصره يتأمَّل في سوء بخته، وما آلت إليه الأحوال، فسأله عن حال بَسْطَة؛ فأجابه: "تفهم من هذا الكتاب" ودفع إليه كتاب سيِّدي يحيى فقرأه حتَّى أتى على آخره، وعرف اضطرار البلد للتسليم، وما عرضه عليهم الطاغية من الشروط الموافقة، ولم يُخالج صدره أقلّ ريب في كلام سيِّدي يحيى لما كان عليه من الثقة فيه، والتعويل عليه وخَلْطِهِ بنفسه كأنَّهما شخص واحد، فتنفَّس الصعداء، وتوجَّع مليًّا، وأخذ يفكِّر في ما يعمل مُطرقًا ساعة، ثمَّ أمر فحضر الفقهاء والشيوخ، وتشاوروا في ما يفعلون، فأجلى المجلس عن تعذُّر إمداد بَسْطَة بشيء، فاستدعى الزغل قائد بَسْطَة محمَّد بن حسن، وقال له: "اذهب إلى ابن عمّي سيِّدي يحيى وقُلْ له: (لا ينتظر منّي نجدة لأنني لا أقدر على تلبيته بشيء فليفعل ما يبدو له)". فعاد القائد بالجواب، وكان أمرًا مَقضيًّا، لأنَّ قوَّاد بَسْطَة تصالحوا مع فرديناند على أن يدخل البلد، وينال الجميع الأمان، ويخرج من جاء في صريخ بَسْطَة من فرسان المغاربة بخيلهم وأمتعتهم إلى حيث شاؤوا، ويكون تسليم البلدة والقلعة في ستّة أيام، وأمَّا أهل بَسْطَة، فلهم الخيار بين أن يرحلوا بأموالهم أو أن يقيموا بالربض متمتِّعين بأملاكهم وحرّيتهم الدينية.

ـ فرديناند يكرّم القادة، وتنصُّر الأمير يحيى

وخلع الملك فرديناند على القوّاد وأكرمهم، وأنعم عليهم واختصّ بإيثاره الأمير يحيى وأدناه، ونال هذا من الحظوة لديه، ولدى الملكة ما أكَّد لهما صداقته، وتعلَّق قلبه بالملكة بما بهره من جمالها ولطفها ورصانتها، فأخذ يسعى في خدمتها، ويتزلَّف[1] إلى مرضاتها بأنواع المُناصحة، وحبَّب إليه حبُّها النصرانيّة.

---

(١) تقرّب.

فيقال إنَّه تنصَّر سرًّا، وقد أطنب المؤرِّخ أغابيدا الإسبانيولي، في وصف تلك النعمة، وعدَّ هذه من فتوحات فرديناند، وذهب بعض مؤرِّخي العرب بحسب قول واشنطون أرفن، إلى أنَّ الطاغية استغوى هذا الأمير بإجزال الصلات[1] وإسناء الجوائز وتوسيع الإقطاعات، ولكن أغابيدا يقول، إنَّ ذلك كان حكمةً منه لأجل بسْطَ يده، وإنفاذ كلمته فيما يعود باستمالة كثير من قومه إلى النصرانيّة، وإنَّه بقصد إبقاء سطوة الأمير يحيى على المغاربة، صدر أمر الملكين بإبقاء مسألة تنصّره مكتومة إلى أن يكون قضى بواسطته أوطاره، كذلك دخل القائد المجرَّب محمَّد بن حسن في خدمة فرديناند، واقتدى به كثير من فرسان المغاربة.

وكان تسليم بَسْطَة في رابع ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٤٨٩ بعد حصار ستّة أشهر وعشرين يومًا، ووُجِد فيها نحو خمسمائة أسير نصراني، وهلك تحت أسوارها من عساكر الطاغية عشرون ألفًا، قيل منهم سبعة عشر ألفًا ماتوا بالأمراض. والباقون هلكوا في القتال.

واقتدى ببسطة غيرها من المدن كالمنكَّب، وطبرنة، وكثير من حصون البشرات، ودخل أهل تلك الجهات جميعًا في ذمّة الطاغية، واعتنى في البداية بإحسان معاملتهم وإجزال العطاء في قوّادهم، سياسةً منه لاستنامة جمهورهم إليه ورضاهم بسلطانه.

وكان من هؤلاء القوّاد رجل يقال له علي بن الفخار، في يده عدّة من المواقع والحصون، فحضر في جملة القوّاد الذين سلَّموا مفاتيح حصونهم، وانقلبوا بالصلات والجوائز، وكان شامخ الأنف شديد الزماتة[2] والوقار، فلمَّا وصل الدور إليه، خاطب الملكَين بحرّية الرجل العسكري، وإن كان لم يستطع إخفاء يأسه وانكساره فقال لهما: "أنا رجل مسلم قائد لحصون طبرنة وبَرْشَنة، قد تسلَّمت هذه الحصون لأجل محافظتها، لكن الذين عُهِد إليّ بقيادتهم، فقدوا كلَّ نهضة وقوَّة، وعادوا لا يطلبون سوى الأمان، فهذه الحصون أصبحت أيها الملوك العظام لكم متى شئتم ابعثوا من يستلمها" فأمر فرديناند في الحال بإعطائه مبلغًا طائلاً من المال جزاء هذا التسليم الجزيل القَدر، فامتنع من أخذِهِ مُنكِرًا ذلك إنكارًا شديدًا، وقال لهما: "أنا لم آتِ لأبيع ما ليس ملكي، بل لأُسلِّم ما جَعَلَتْهُ الأقدار الإلهيّة مُلكًا لكما، وليَكُن يقينًا عند جلالتكما، إنَّه لو وُجِدَ مَنْ يُسعِفني كما يجب، لكان الموت هو ثمن هذه الحصون بدلاً من الذهبِ الذي يُعرَض عليَّ".

(١) مولَّد، وَصْل فُلان بالمكافآت والهِبات.

(٢) تقول: زَمُت زماتة، وتزمّت: كان جليلاً.

فأُعْجِب الملكان بأَنَفَة[1] هذا القائد وشهامته وأمانته، وتمنَّيا أن يكون منتظمًا في جملتهم، ويدخل في خدمتهم، فأبى خدمة أعداء ملّته وقومه، ولمَّا يئسا منه قالت له الملكة إيزابيلا: "إذًا لا يوجد لك حاجة نظهر لك بقضائها ما لك في جانبنا من الاعتبار".

أجابها: "بلى! حاجتي عندكم إنَّني تركت في المدن والحصون التي سلَّمتها كثيرًا من بني ملَّتي البائسين، الذين لا يتيسَّر لهم الرحيل عن أوطانهم بنسائهم وأطفالهم، فأرجو أن تعطوني وعدًا ملوكيًّا بحمايتهم، وإطلاق الحرّية لهم في دينهم وأملاكهم".

فوعداه بذلك ثمَّ قالت له الملكة: "وهلاَّ تطلب شيئًا لنفسك؟"، قال: "كلاَّ سوى الإذن في الإجازة[2] بخَيلي ومتاعي".

فأراد الملكان أن يجبراه على قَبول صلتهما من المال مع الخيل الثمينة السروج لا بقصد المكافأة، بل على سبيل الهديّة، فأنكر أن يصيب هذه النعمة وذاك الوَفْر في زمن بؤس قومه وخراب وطنه، ثمَّ أخذ تذكرة الإجازة من الملك فرديناند واستصحب خيوله وخَدَمَه وأمتعته وأسلحته، وألقى على بلاده نظرة الوداع، كاسف البال، بادي الكآبة، لكن بدون أن تسقط له دمعة، ولا يترطَّب له جفن، وركب جواده قاصدًا البحر لأجل الإجازة إلى أفريقية.

وقال في "نفح الطيب" بشأن بَسْطَة وحصارها الطويل: "وفي عام أربعة وتسعين خرج لبعض حصون بَسْطَة، فأخذها بعد حرب، واستولى على ما هنالك من الحصون، ثمَّ نازل بَسْطَة، وكان صاحب وادي آش لمَّا تعيّن العدوّ بمحلَّته، بعث جميع جنده وقوَّاده، وحشد أهل نجدة تلك البلاد من وادي آش، والمَرِيّة، والمنكَّب، والبشرات، فلمَّا نزل العدوّ بَسْطَة، أتت الحشود المذكورة، ودخلوها ووقعت بين المسلمين والنصارى حروب عظيمة، حتَّى تقهقر العدوّ عن قرب بَسْطَة، ولم يقدر على منع الداخل والخارج، وبقي الأمر كذلك رجب وشعبان ورمضان، ومحلاَّت المسلمين نازلة خارج البلد، ثمَّ إنَّ العدوّ شدَّ الحصار وجدَّ في القتال، وقرَّب المدافع والآلات من الأسوار، حتَّى مَنَع، الداخل والخارج بعض منع واشتدَّ الحال في القعدة والحِجّة[3]، وقلَّ الطعام، وفي آخر الحجَّة، اختبروا الطعام في خفية فلم يجدوا إلاَّ القليل، وكانوا طامعين في إقلاع العدوّ عند دخول فصل الشتاء وإذا بالعدوّ

---

(١) اشتقاق من (أَنِف)، والعرب تخصّ الأنف، من بين الجوارح، بالعِزّ أو الذلّ أو الرفعة والإباء.

(٢) بمعنى الإذن، تقول: أجازَه، أعطاه الإجازة، أي الإذن.

(٣) القِعدة والحِجّة: شهران عربيّان، أراد بهما: ذو القِعدة، وذو الحِجّة.

بنى وعزم على الإقامة، وقويَ اليأس على المسلمين، فتكلَّموا في الصلح على ما فعل غيرهم من الأماكن، وظنَّ العدوّ أنَّ الطعام لم يبقَ منه شيء، وأنَّ ذلك هو المُلجئ[1] لهم للكلام، وفهموا عنه ذلك، فاحتالوا في إظهار جميع أنواع الطعام في الأسواق، وأبدوا للعدوّ القوَّة مع كونهم في غاية الضعف، والحرب خدعة، فدخل بعض كبار النصارى للتكلُّم معهم، وهو عَيْن ليرى ما عليه البلد، وما صفة الناس، وعند تحقُّقهم بقاء الطعام والقوَّة، أعطوهم الأمان على أنفسهم، دون مَنْ أعانهم من أهل وادي آش والمنكّب والمَريّة والبشرات، فإن دافعوا هؤلاء عنهم صحَّ لهم الأمان وإلاَّ فلا، فلم يوافق أهل البلد على هذا، وطال الكلام، وخاف أهل البلد من كشف الستر، فاتَّفقوا أن تكون العقدة على بَسْطَة، ووادي آش، والمَريّة والمنكّب والبشرات، ففعلوا ذلك، ودخل جميع هؤلاء في طاعة العدوّ وعلى شروط شَرَطوها، وأمور أظهروا بعضها للناس، وبعضها مكتوم، وقبض الخوّاص مالاً، وحصلت لهم فوائد. وفي يوم الجمعة عاشِر محرَّم سنة خمس وتسعين وثمانمائة، دخل النصارى قلعة بَسْطَة وملكوها، ولم يعلم العوام كيفيَّة ما وقع عليه الشرط والالتزام، وقالوا لهم: "مَنْ بقي بموضعه فهو آمن ومَنْ انصرف خرج بماله وسلاحه سالمًا"، ثمَّ أخرج العدوّ المسلمين من البلد وأسكنهم بالربض خوف الثورة".

ـ الزغل يدخل في طاعة الطاغية

وكان الزغل قابعًا في كسر بيته من وادي آش، يسمع كلّ يوم صريخًا ويرنّ في أذنه كلّ ساعة صدى وَيْل، وبلاده تُسلَّم الواحدة بعد الأخرى إلى العدوّ، والأقدار تعاكسه اطرادًا، والضربات تنهال عليه دِراكًا، وفي هذه الحالة قدم عليه ابن عمِّه، سيِّدي يحيى، عدوًّا في ثياب صديق، وبعيدًا في صفة قريب، مشارِكًا في الهمّ والدم، ولم يكن الزغل عَلِم بتنصُّره، إذ بقي ذلك سرًّا، فارتاح جدًّا إلى رؤية ابن عمّه في ذلك الوقت الضيِّق، ولمَّا أقبل عليه عانقه لزامًا وضمَّه إلى صدره وبثَّه همَّه، فأخذ سيِّدي يحيى توطئة لما يتوخّى من خدمة الطاغية، يبيِّن له اليأس من الحالة، وعقم الدفاع من الفائدة، لما هو مُقدَّر من سقوط مملكة غَرناطة بين أيدي النصارى، وأنَّ المنجِّمين لم يكذبوا فيما حكوه عن أبي عبد الله الشقي، وأنَّ السقوط سيكون على يده، وأنه لمَّا أُسِرَ في لشانة، كان تبادر للظنّ، أنها هذه الواقعة التي أشار إليها المنجِّمون، وأنَّ النحس قد انقضى، فظهر الآن أنَّ ليس المقصود واقعة

(١) ألجأه إلى الأمر: اضطرّه إليه.

مفردة، بل وقوع المملكة بأسرها، فحيث كان أمر الله قَدَرًا مقدورًا، لزم التسليم لمشيئته تعالى ﴿وإذ وقع القضا، فليس إلاَّ التسليم والرِّضى﴾، فأطرق الزغل ساعة وهوغريق في لُجج[1] الهواجس والأشجان، ذاهب من التأمّل والتألُّم في بُحْران[2]، ثمَّ رفع رأسه وكبَّر وحوقل[3] وقال: "ليس من القضاء مفرّ و﴿لن يصيبنا إلاَّ ما كتب الله لنا﴾ تالله لو لم يكن سقوط غَرناطة قَدَرًا لكان سناني وحُسامي زعيمَين بحفظها".

فقال له سيِّدي يحيى: "وماذا استقرَّ في عزمك الآن؟ هل أجمعت تسليم المدن الباقية لك إلى ابن أخيك أبي عبد الله حليف النصارى؟". فلمَّا سمع الزغل ذلك اضطرب كلّه، وقال له: "كلاَّ! بل أُفضِّل أن أرى رايات العدوّ خافقة فوق هذه الأبراج، من أن أسلِّمها لهذا الشقي" فاغتنم سيِّدي يحيى فيها الفرصة، وأخذ يرغِّبه في التسليم ويحسِّن له الانحياش[4] إلى الطاغية والدخول في ذمّته، إلى أن حصل أخيرًا على موافقته، فانقلب إلى الطاغية بما أراد، وتقرَّر تسليم المَرِيّة، ووادي آش، وسائر البلاد التي في يد الزغل، وأن يكون الزغل لقاء ذلك حليفًا للملكين، ويقطع أرضًا واسعة، في البشرات، مع نصف الملاحة، ويلقَّب بملك أندرش، ويكون إلفا مُدَجَّن رعيَّةً له، ويتمتَّع بدخل أربعة ملايين مراويد ـ هذا إلى مواعد كثيرة.

وتقرَّر بينهما على أن يكون التسليم في المَرِيّة، ففي سبع عشرة خلت من ديسمبر (كانون الأول)، تحرَّك الملك فرديناند من بَسْطَة بقسم من جيشه، وتبعته الملكة بالقسم الآخر مارًّا بالمدن والحصون التي دخلت في طاعته، فلمَّا صار على مقربة من المَرِيّة، لقي السلطان أبا عبد الله الزغل خارجًا في ملاقاته مع الأمير سيِّدي يحيى وجماعة من الخوّاص، ولم تُخْفَ على وجه الزغل علامات الغيظ الشديد والأسف البالغ، وكان ظاهرًا على خضوعه التكلُّف، وفي مقادته الصعوبة، وكأنَّ لسان حاله يحدِّث بأنَّ خضوعه إنَّما كان للقَدَر لا للقُدَر، ولله لا للبشر.

على أنه لمَّا اقترب الملك فرديناند ترجَّل الزغل، وتقدَّم إليه وهوى على يده كمَن يريد استلامها، فتجافى الملك عن ذلك حرمةً للقب السلطنة، وانحنى إليه فعانقه، وأشار إليه

---

(١) مفردها لُجّة، هي من الماء مُعظمه، كناية عن الأعماق المتخبّطة.

(٢) الهَذَيان، التغيير الذي يحدث للمريض دفعة، في الأمراض الحادّة.

(٣) فلان، قال: "لا حول ولا قوّة إلاّ بالله".

(٤) الانحياز.

باستئناف الركوب، وأجمل في مكالمته، ولمَّا تمَّ له استلام البلاد، لحق للزغل بأرضه في جبل البشرات حيث انقطع يحثو على رأسه تراب الذلّ.

· وحيث توخَّينا نصحًا بالتاريخ وإمعانًا في تمحيص الروايات، مؤاخاة النقل الإفرنجي بالرواية العربية، نُتبع ما قاله بهذا المقام أيضًا «صاحب النفح» وهو «ثمَّ ارتحل العدوّ للمَريّة، وأطاعته جميع تلك البلاد، ونزل صاحب آش للمَريّة ليلقاه بها فلقيه، وأخذ الحصون والقلاع والبروج، وبايع له السلطان أبو عبد الله على أن يبقى تحت طاعته في البلاد التي تحت حكمه كما أحبّ، فوعده بذلك وانصرف معه إلى وادي آش ومكَّنه من قلعتها أوائل صفر من العام المذكور، وأطاعته جميع البلاد ولم يبقَ غير غَرناطة وقراها وجميع ما كان في حكم صاحب وادي آش صار للنصارى في طرفة عين، وجعل في كلّ قلعة قائدًا نصرانيًّا وكان قائد من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم مالاً من عند صاحب قَشتالة إكرامًا منه لهم بزعمهم، فتبًّا لعقولهم وما ذلك منه إلاّ توفيرًا لرجاله وعدّته، ودفع بالتي هي أحسن، ثمَّ أخذ برج الملاحة وغيره وبناه وحصَّنه، وشحن الجميع بالرجال والذخيرة، وأظهر الصلح والصحبة مع صاحب وادي آش، وأباح الكلام بالسوء في حقّ صاحب غَرناطة مكرًا منه وخداعًا ودهاءً» انتهى.

ـ فرديناند يطلب إلى أبي عبد الله تسليم غَرناطة

وأمّا صاحب غَرناطة الشيقتو فلمَّا وصل إليه خبر نزول عمِّه على حكم الطاغية طار فرحًا، وظنَّ أنه بالغ أمنيته، وأنه من الآن فصاعدًا أمِّن النزاع وأصبح بدون مناظر، وتمكَّن سلطانه بتمكين ملك الإسبانيول الذي هو حليفه، إلى غير ذلك من الأماني الكواذب، التي قلَّما تخطر إلاَّ في بال أمثاله ممَّن يضيِّعون مثلما أضاع، وكاد يأمر بالزينة لبشرى خذلان عمِّه، لولا أنَّ وزيره يوسف ابن كماشة نبَّهه من غفلته؛ وأصحاه من نشوته وقال له: «أفِق، فإنَّ الزوبعة كانت في أفق واحد، فستنتقل إلى أفق آخر» مع هذا لم يقنع لحماقته وسخفه، وأمر فأُسْرِجَ له جواده، وخرج للنزهة، فسمع بأذنه كلام السوء في حقِّه، وأيقن بغضب العامّة منه، إذ كانوا يعتبرون الزغل هو السلطان المجاهد المرابط الحامي ذِمار المِلّة، وأنه ما سيق إلى ما سيق إليه إلاَّ اضطرارًا بمظاهرة ابن أخيه للعدوّ عليه، فأسرع أبو عبد الله الأَوبة[1]

(١) العودة.

إلى قصره، وأرسل إلى فرديناند يستدعي نجدته خوف الانتقاض، فأجابه فرديناند يطلب النزول له عن غَرناطة ويذكِّره بالعهد الذي عقده معه بعد أَسْرِه، بأنه عندما يتمكَّن من وادي آش وقرية بَسْطَة يمكِّنه من الحمراء، وهوذا قد تمكَّن فيتقاضاه الوفاء بالعهد الذي عاهده إيَّاه، فأجابه أبو عبد الله أنَّ ذلك قد كان منه، ولكن حيث أصبحت غَرناطة مجمعًا لجالية المسلمين من جميع أقطار الأندلس، وملجأ للشذاذ والمشرَّدين من المدائن التي دخلت في حَوزة الإسبانيول. وقد غلَت في صدور الجميع مراجل الإحنة[1]، واستوفزوا[2] للأخذ بالثأر، فإن داخلهم في طاعة الملك فرديناند الآن، انتقضوا عليه، واستُهدف للخطر المحيق، فهو يلتمس المهلة لأجل سكون ثائرهم، وانطفاء وقدتهم، ومن ثمَّة لا يبقى مانع من القيام بما عاهد عليه.

ـ بوادر الحرب بين غَرناطة وفرديناند

فلم يقنع الطاغية من جواب أبي عبد الله، وقَلَبَ له ظهر المِجَن، وكشَّر له عن ناب العَداوة، وأرسل إلى أعيان غَرناطة، والقوَّاد، يعرض عليهم تسليم القلاع والنزول عن الحمراء، وهو يفي لهم في مقابلة ذلك بشروط الأمان ويعاملهم بما عامل به أهل وادي آش والمَرِيّة، وإلاَّ فإنْ حدَّثَتْهم أنفسهم بالمقاومة وأصرّوا على الجفاء، سار معهم سيرته، مع أهل مالَقَة، فمال جماعة التجَّار وأرباب الأشغال الذين يدور نجاحهم على السكون إلى رأي التسليم، وتابعهم فيه من خاف في عياله مغبَّة[3] الحرب وعاقبة الخذلان[4]، ولكن كانت غَرناطة لذلك العهد، قد غصَّت بالمطرودين والموتورين الواردين عليها من كلِّ أوبٍ، قد ملأ الضغن قلوبهم، وغلا الثأر في صدورهم ووطَّن اليأس نفوسهم على الاستماتة وقد شُحِنَت بالمقاتلة وأحلاس[5] الحرب وأنجاد الغارة ممَّن وُلِدوا على صهوات الجياد، ونشأوا في معامع الجهاد، وممَّن لا حِرفَةَ لهم سوى الغزو والمرابطة، وكان فيها آخرون وإن لم تكن الحرب حِرفة لهم، يرتزقون منها فإنَّ هممهم العربية تأبى لهم، وحميتهم الإسلامية تربأ بهم من أن يستسلموا للعدوّ صاغرين، ويروا غَرناطة الحمراء قبّة الإسلام في الأندلس،

(١) مفردها إحْنَة: الحِقد والغَضَب.

(٢) تهيّأ للوثوب، عمومًا.

(٣) عاقِبة.

(٤) خَذَلَه وخَذَل عنه خَذْلاً وخِذلانًا: خيّبه وترك نُصرته وعونه.

(٥) أكفاؤها وفُرسانها.

العهد الأخير وحضرة العِزّ ومتبوَّأ المنعة، مئين[1] من السنين، والمصر الذي يموج بجموع المؤمنين قد وطئها الطاغية بقدم استيلائه، وقاد شَمَمَها بِزمام استعلائه.

ـ موسى بن أبي غسّان، روح الجهاد

واتَّفقت تواريخ الإفرنج على أنه كان واسطة عِقد هذه الطبقة، المجلي في حَلْبَة الفِراسة، الأمير موسى بن أبي الغسّان من سلالة الملوك، شابًا بعيد الهمّة كريم السجيّة، أبيّ النفس باهر القوّة مستوفيًا شروط الفُتوَّة، جامعًا بين صَباحَة الوجه وضَبارة الخُلق[2]، غايةً في بهاء الطلعة ونفاذ العزيمة، حدًّا في عزّة النفس وزكاء الطبع، كان لا يوجَد أَدرَب منه في عصره بفنون الفروسيّة، ولا أحسن منه اقتعادًا لصهوات الخيل، ولا ألبق ولا أرشق حركة بألعاب السيف والترس، وتقليب السلاح بأنواعه، كان إذا برز في ميدان، ترك أمره فتنة لحسان غَرناطة، ومدارًا لحديث الأندلسيَّات، وإذا شهد الكريهة[3] قذف مشهده الرعب في قلوب الإسبانيول، وطالما نُصِرَ المسلمون باَسمه.

وكان موسى ناقمًا على السلطان أبي عبد الله هوادته[4] مع النصارى، ولين جانبه لهم، فعندما وصل إلى غَرناطة رُسُلُ الطاغية، وشاع ما طلبه من تسليم الحضرة، والنزول عن الحمراء، قام هو وتلك الفئة المائلة إلى الحرب، مُستنفرين العامّة للجهاد، مستبلغين في حثّ الهمم، وتنشيط العزائم، وتحذير القوم عواقب الخضوع، من فقْد الأمن على الأعراض والدماء والأموال، وأعمل موسى في الإحتشاد وبالغ في النفير، فبادرت جَمْهرة المسلمين إلى إجابة داعيه، وطمعت في استئثار الجنّة، ونفرت فتيان غَرناطة، تريد الموت في سبيل الذَبّ عن ذمار الدين، وتطيع من موسى سيِّدًا كانت تغضب له ألوفهم إذا غضب ولا يدرون لِمَ غضب، فكيف وقد غضب للدين، ونفر لحماية عرض المؤمنين، فأرسلوا الجواب إلى الطاغية قائلين له، إنَّهم يفضِّلون الموت على تسليم مدينتهم ويوعدونه إن شاء الإجلاب[5] بما استطاعوا من قوَّة.

---

(١) مئات.

(٢) رجل ذو ضبارة في خَلْقِهِ: مجتمع الخلق وثيقه.

(٣) من أسماء الحرب.

(٤) هَوادة: الهَوادة: اللِّين، وما يُرجى به الصلاح بين القوم، والمحاباة.

(٥) الإتيان للحرب، أو إشهار الحَرب.

ـ الحرب

فلمَّا أيقن فرديناند بما أجمعوا عليه، أطلق الغارات على الأطراف، وجعل ذلك إلى نظركونت تنديلا قائد ثغر جيّان، وشرع في التأهُّب والاستعداد للمعركة، وقام موسى بن أبي الغسَّان من الجهة الثانية وقد حفَّ به فِتيان سُراة غَرناطة، وتبايعوا على الموت تحت لوائه، ونفرت فرسان المسلمين من كلِّ أَوب [1]، وماجت أسواق غَرناطة وساحاتها بالحشود، وملأ الآفاق صهيل الخيول، وموسى روح الجهاد ومحطّ الآمال، وقِبلة الخواطر وحياة نفوس المثاغرين، واسمه الرعب المحيق بأقاصي الثغور.

فلمَّا أخذ الإسبانيول يشنّون الغارات، خرج الأمير موسى بفرسانه فوالى عليهم الهزائم، وصارت خيوله وسراياه تعود بالغنائم، وتدخل غَرناطة دخول الظافر، ممَّا أعاد إلى خواطر القوم ذكر الأيام الماضية، وحدَّثهم بعَود عزّ الإسلام وأيام غلبته على تلك الأقطار، ومضى شتاء تلك السنة على هذه الحال وأقبل الربيع، فقال الطاغية علينا أن نجتاح هذه السنة كُوَر غَرناطة، وفي التي بعدها نهاجم البلد بعد أن يكون قلّ القوت وانقطع المدَد، فحضر بخمسة آلاف فارس وعشرين ألف ماشٍ وأخذ يكتسح مرج غَرناطة البديع النضير المنقطع النظير، معه من أمراء بلاده دوق مدينة سيدونية، ومركيز قادس، ومركيز فيلنه، والدّون ألونزو دو أغيلار، وغيرهم من رؤوس قوَّادهم، فشمل تلك المروج عيثًا وتخريبًا وبعث النار في جميع أرجائها، حتَّى غطّى الدخان الأفق، وأظلم جوّ غَرناطة من دخان شجرها، هذا وأبو عبد الله لا يجسُر على الخروج من حمرائه خوفًا من فتك العامّة به، لقولهم إنَّه هو سبب هذه المصائب، لكنَّ موسى قسَّم فرسانه إلى عدّة كتائب وعقد على كلّ كتيبة لواحد من آحاد القادة، وأطلق الغارات على أطراف معسكر الإسبانيول، فأبلغ فيهم النكاية، وربَّما عمد لكثرة حشودهم إلى الخدعة والمكيدة أحيانًا، ففي إحدى المرّات بينما كانت قطعة من الجيش الإسبانيولي سائرة في سفح جبل، إذ التقت بجماعة من المغاربة تقهقروا أمامهم، فطمعت فيهم حتَّى نشبت [2] بين صخور، فاندفق عليها المغاربة من وراء الجُندلِ [3]، فاستلحم الإسبانيول، وفرَّ منهم جماعة، وصبرت جماعة بقيت تقاتل في أرضها، وإذا بخَيل الإسلام، قد أطلَّت مُنقضَّة إنقضاض العِقبان، فحصلت في وسط الإسبانيول،

---

(١) مِن كلّ أوب: مِن كلّ ناحية وصَوب.

(٢) عَلقَت.

(٣) الجندل: المكان الكثير الجَنْدَلِ والجَنْدَلُ: الحجارة.

وحَمِيَ الوطيس، وكان مركيز فيلنه، وأخوه الدّون ألونزو دو بشيكو، في بهرة المعمعة[1]، فما عَمَّ أنْ جُرِحِ المركيز وخرَّ الدّون ألونزو، صريعًا وبجانبه أصطفان دو سوزون من صُيّابة* القوّاد، وضاق الخناق بالإسبانيول، وشاهد الملك أنَّ الوجه للمغاربة[2]، وأنَّ جماعته هالكون لا محالة، فأمرهم بالرجوع، فلم يتريَّثوا في تلبية أمره، وانكفؤوا خاسرين بعد دفاعٍ شديد.

ولمَّا رأى فرديناند أنَّ مناجَزة المغاربة، خصوصًا في هذه المناوشات الخاصَّة، تعود غالبًا بالخسران على عسكره، أصدر أمره الصارم باجتناب القتال معهم، والاعتماد على العَيْثِ في بلادهم، واكتساح أراضيهم، واستئصال أسباب القوت، ليأخذ غَرناطة بالمجاعة بدل الحرب.

ـ سقوط حصن رومة في يد فرديناند

وكان على مسافة مرحلتين من غَرناطة حصن يقال له حصن رومة، من فوق هضبة مُشرِفة على المرج، وكان في مكانه أعزّ من الأبلق[3]، يقصده الملتجئون من المغاربة والشذاذ منهم وفلّ العساكر إذا انهزمت، وهوشجًا[4] في حلوق الإسبانيول، فلمَّا كان الطاغية نازلاً على مرج غَرناطة، ازدادت يقظة حرّاس الحصن، وفي صبيحة يوم، بينما كانوا ينظرون إلى بعيد مراقبين حركات الطاغية، إذ تراءى لهم عمائم عجراء[5]، وأسنّة[6] مغربية، ولم يكن غير قليل، حتَّى وصل حذاء القصر، نحو مائة وخمسين مغربيًّا، معهم قطيع من المواشي مسرعين مهطعين[7]، وتقدَّم منهم عريف عليه سيماء[8] الشرف والنباهة، فالتمس الدخول قائلاً إنَّهم كانوا في غارة ببلاد النصارى، وقد غنموا منهم، وقفلوا، لكنَّ النصارى تطاردهم فهم يخافون أن يدركوهم في الطريق قبل أن يدركوا غَرناطة، ففي الحال أسرع الخفراء إلى

---

(١) سطوع المعركة الذي يخطف الأبصار.

(*) النُخبة المُختارة.

(٢) الوجه لهم: (مجازاً) الغَلَبَة لهم.

(٣) حِصن شهير للسموأل.

(٤) ما اعترض في الحَلْق من عَظْمٍ ونحوه.

(٥) تقول اعتَجَر الرجل، لَفَّ عمامته دون التحلّي.

(٦) رماح.

(٧) هطعَ: أسرع مقبلاً خائفًا وهو مهطعٌ.

(٨) علامة.

فتح الأبواب ودخل هؤلاء المغاربة وأظهروا الاطمئنان، وفرحوا بهم، إلاّ أنه ما كاد ينتشر حرّاس الحصن في باحاته حتّى علت الصيحة بغتةً، فأسرع كلٌّ إلى سلاحه مذعورًا، فوجدوا القصر في يد هؤلاء الدخلاء، فاستناموا إلى الخضوع، وعُلِمَ بعد ذلك أنَّ سيِّدي يحيى السابق الذِّكر مع ولده، قدما من الجبل بجماعة من المدجَّنين لخدمة الطاغية، فأعملا الحيلة في الاستيلاء على هذا الحصن استزادةً من الزلفى لديه، وبهذه الوسيلة تمكَّنا منه، وبعثا بالخبر إلى فرديناند، فأرسل وشحَنَه بالمقاتلة، وأمَّا حامية الحصن، فإنَّ سيِّدي يحيى أبقى عليهم وأطلق سراحهم، فانصرفوا إلى غَرناطة، ولم ينفعه عند الغَرناطيين إبقاؤه على حياتهم مع خيانته في أمر الحصن، فانهالت على اسمه اللعنات كالمطر الصيِّب، كما أنه من الجهة الثانية لم يحمل عمله كلّه على الخُلوص التامّ، فقد قال الأب أغابيدا الإسبانيولي في تاريخه: "إنَّ إطلاق سراحهم دليل على أنَّ نصرانيّته لم تكن كاملة، بل لم يزل في قلبه بعض ذرّات من الإسلام"، وهذه غاية المنافقين أن يخْلَصوا من كلّ فئة.

- الزغل ينضمّ بجنوده إلى فرديناند

ثمَّ أوغر صدور الغَرناطيين حنق آخر أشدّ من الأول، وهو من عمل مولاي أبي عبد الله الزغل ملك أندرش، الذي كان معتزلاً فيها، متسلّيًا بهذا اللقب عن أحزانه وأوجاعه، وكان المسلمون إلى ذلك الحين ينظرون إليه نظرهم إلى رجل مظلوم مخذول، وصل إلى الحالة التي وصل إليها اضطرارًا وتسييرًا، وزجَّه في ما هو فيه كنود[1] ابن أخيه، وقعود بني ملّته عن نصره، ففي أحد الأيام ساقت الزغل عمايته في بغض ابن أخيه إلى النزول من أندرش بمئتَي مقاتل والانضمام إلى عسكر الإسبانيول، فلمَّا رأى المسلمون راية الزغل بين رايات ملوك النصارى، تحقَّقوا انحيازه للطاغية، فألحقوه بسيِّدي يحيى في المنزلة عندهم، وعلت عندهم مكانة ابن أخيه حينئذٍ، ونودي بأسمه في الأسواق، وهتفت الأصوات بالدعاء له، وعقدت به الآمال، فنفعه عمل عمِّه، ونشط السلطان أبو عبد الله للحركة، وأعمل في الجهاد، بما رأى من إقبال قَوْمِه عليه.

- تراجُع فرديناند، وقيام أبي عبد الله للجهاد

وبعد أن لبث الطاغية شهرًا كاملاً يعيث في مرج غَرناطة، حتّى أخنى على نضارته،

(١) كُفر.

قفل إلى قُرْطُبة من طريق الجبل، فما توارى عن العين حتَّى نهض أبو عبد الله متقلِّداً سلاحه، وامتطى جواده، ونفر واستنفر، فالتفت عليه فرسان غَرناطة، وخفَّت إليه سكان جبال البشرات، الموصوفون بشدّة البأس، وماجت ساحات الحضرة بالحشود، وتبايع الناس على الموت، وتبارى الفرسان في ميدان النزال، يقدِّمهم الأمير موسى بن أبي الغسَّان، وهو روح النهضة، وسيف العزيمة، والفجر الصائح بِلَيل المِلمّة[1].

ـ سقوط حصن همدان في يد أبي عبد الله

فخرج السلطان من الحمراء في ١٥ حزيران ودهم حصن همدان على بضع مراحل من غَرناطة وهو من أعزّ حصون النصارى، يحرسه مائتان وخمسون مقاتلاً من أبطالهم، معقودًا عليهم لفارسٍ مغوار اسمه مندو دو كويشاده، فأناخ بساحته السلطان ستّة أيام وستّ ليال، يغاديه القتال ويراوحه، حتَّى هلك أكثر حاميته، وسلَّم الباقون فدمَّر السلطان الحصن وجعله دكًّا[2] وأرسل الأسرى إلى غَرناطة.

ـ سقوط حصن مارشنة وحصن بلدة في يده أيضًا

ثمَّ استولى أبو عبد الله على حصن مارشنة، وحصن بلدة من حصون النصارى، وشاع بين المسلمين أنَّ السلطان أثخن في النصارى، وافتتح من معاقلهم، وأنَّ الكرّة مأمولة، فقويت عزائمهم ولاحت لهم بارقة الأمل، وانتقض الخاضعون منهم للطاغية ناشرين راية أبي عبد الله، وأخذ خيّالة غَرناطة يغزون أرض النصارى من جهة ثغر جيّان، ويغنمون منهم، إلاَّ أنه، مرّة، بينما كان بعضهم عائدين بغنيمة وافرة كَمَن لهم كونت تنديلة في أحد الأودية، فذُعِروا وقتل منهم خمسة وثلاثون فارسًا وأُسِر نحو من خمسين واستعاد الكونت الغنائم.

ـ أبو عبد الله يفكِّر بفتح شلوبانية على البحر ويقصدها ثمَّ يدخلها

وبقيت سرايا الفريقَين يغزو بعضها بعضًا، فرأى السلطان أبو عبد الله أنَّ بقاء الحال على هذا المنوال لا يزيده قوّة، وأنه بعد أن جرى ما جرى، من حطم الزروع وقطع الأشجار، ونسف العمران حول عاصمته، لا بدَّ أن يؤخذ بالجوع إن لم يؤخذ بالحرب،

(١) النازلة الشديدة؛ والكارثة الجَليلة.

(٢) هَدَمَه وقوّضه جميعًا.

ففكَّر في فتح طريق بينه وبين البحر، والاستيلاء على فُرْضَة بحرية، يتسرَّب منها إليه المَدَد حيث كانت جميع مواني الأندلس في أيدي النصارى، فوجَّه عنايته نحو شلوبانية وهي مدينة كانت معدودة عند العرب من أحصن مدن الأرض وأصعبها مرتقى، وكان ملوكهم يستودعون فيها خزائنهم وكنوزهم، وكان الطاغية لذلك العهد قد جعلها لِنَظَر الدّون فرنسيسكو راميرز دو مدريد، قائد المدفعيّة الأكبر، لكنَّه كان عند زحف أبي عبد الله إليها غائبًا في قُرْطُبة، ينوب عنه في القيادة أحد فرسانه، فانتهز الفرصة سلطان غَرناطة ونازل شلوبانية بجيشٍ جرّار، وكان أهلها من المدجَّنين، فلمَّا رأوا رايات الإسلام قد أقبلت، انضووا تحتها وخلعوا طاعة العدوّ ورأت حامية البلدة من النصارى، إنَّها لا تقدر على مدافعة أبي عبد الله، فاعتصمت بالقلعة، فدخل المدينة، واستولى عليها وامتنعت عليه القلعة فنازلها، وطمع في منع الماء عنها، وامتدّ الصريخ في الجوار بأنَّ المسلمين منازلون شلوبانية، فامتلأت قلوب نصارى الساحل رعبًا، وكان الدّون فرنسيسكو أنريك قائد بَلِّش مالَقَة، فجمع جيشًا فيه فرناندو بيرز دلبلغار، صاحب المنديل، وحضر لإغاثة قلعة شلوبانية، فوجد المدينة في أيدي المسلمين فخيّم تُجاه القلعة، فاشتدّ به أَزْرُ الحامية، وانساب فرناندو سرًّا بسبعين من أشدّاء رجاله، فتسلَّقوا القلعة من باب صغير قبل أن تمكَّن العدوّ من الشعور بهم، ولم يلبثوا أن حضر إلى الميناء أسطول فيه جنود ومُؤَن لإغاثة النصارى، فنزلوا في مكان حصين على شاطئ البحر، ولمَّا نازل المسلمون القلعة صاروا بين عدوَّين، فارتدّوا عنها، وعوَّل أبو عبد الله على أخذ ميناء حَدَرّة الذي كان سلَّمه إلى النصارى سيِّدي يحيى، السابق الذِّكر، في ما تزلَّف به إليهم من الخدمة، إلاَّ أنه بلغه كون الملك فرديناند زاحفًا بعساكره، فهاجم القلعة الهجوم الأخير فلم يفُز منها بطائل، فأقلع عن شلوبانية عائدًا إلى غَرناطة، واشتفى في مسيره بالعيث في الأراضي المختصّة بسيِّدي يحيى، والانتقام من جماعته، ورجال عمّه الزغل، ودخل الحمراء بمغانم كثيرة تَسلّى بها عن فشله أمام شلوبانية، ولم يكد يستقرّ في مقعده بالحمراء، حتَّى وصل الطاغية بجيش مؤلَّف من سبعة آلاف فارس وعشرين ألف راجل بقصد إغاثة شلوبانية، فلمَّا بلغه إقلاع ملك غَرناطة عنها، مال إلى المرج، فاستقصى جهاته تخريبًا وتدميرًا، واستأصل أشجاره، وأفسد زرعه، حتَّى قيل إنَّه لم يبقَ فيه غصنًا أخضر ولا نعجة تسرح، فبينما هو مرج أخضر، إذ انقلب قفرًا أغبر، ودافع أهل غَرناطة عن حياضهم ورياضهم فلم يُجْدِهم دفاعهم، لانتشار العدوّ في بقاعهم، والتزامهم الانكماش في مدينتهم محافظةً على أسوارها.

ـ فرديناند يُخرج أهالي وادي آش وبَسْطة والمَرِيّة من منازلهم

وفي تلك الأيام، كشف النصارى مكيدةً دبَّرها أهل وادي آش والمَرِيّة وبَسْطَة، فإنّهم راسلوا السلطان أبا عبد الله أن يزحف إلى مدنهم، وهم يفتكون بحاميات، ويفتحون له أبوابها، فبلغ ذلك مركيز دو فيلنه، فخفَّ إلى وادي آش بقوّة وافرة، وبحجّة أنه يريد أن يعرض الأهالي في مكان فسيح فأخرجهم خارج الأبواب ثمَّ أغلق الأبواب في وجوههم، وأبلغهم أنه محظورٌ عليهم سكنى المدن، نعم أذن لهم بالدخول مثنى مثنى، أو ثلاث ثلاث، لأجل أخذ نسائهم وأولادهم، وحيث صاروا بدون مأوى اتّخذوا مضارب وأكواخًا في الأرباض والبساتين وأوصلوا الشكوى من هذه المعاملة، فأُجيبوا بأنَّ عليهم الانتظار إلى أن تتحقَّق براءتهم، ويصدر أمر الملك بشأنهم، فلمَّا حضر الملك فرديناند، وفدوا عليه وشكوا لديه معاملة قوَّاده لهم، خلافًا للعهود التي أعطاهم إيَّاها فأجابهم بما معناه: يا أصحابي، بلغني أنَّ كيدًا هنا قد تدبَّر بأن تقتلوا عمّالي وجنودي وتشتركوا مع ملك غَرناطة في قتالي، وقد تحقَّقت تدبير هذه المكيدة في ما بينكم، فمَن منكم تثبت براءته يعود إلى منزله، ومَن دخل في هذه الدسيسة فإنَّني لا أسامحه، لأنني كما أحبّ الرحمة أحبّ العدل أيضًا، وها أناذا الآن، أجعلكم في الخيار، فاختاروا الأخفّ عليكم، إمَّا أن تقوموا من هنا جالين عن البلاد بعيالكم وأموالكم وأنتم آمنون وسالمون في أنفسكم ونفيسكم، وإمَّا أن تسلِّموا إليَّ رؤساء الفتنة الذين كادوا لي كيدهم. قال المؤرِّخ غابيدا وهو من التعصُّب والتحامل بالمقام الذي لا يَخفى: «ولمَّا كان أكثر أهل وادي آش مشتركين بهذه الدسيسة آثروا الرحيل بنسائهم وأطفالهم».

ثمَّ خيَّر فرديناند أهالي بَسْطَة والمَرِيّة هذا التخيير نفسه، تخلُّصًا منهم ففضَّلوا الإجازة إلى أفريقية، ومَن بقي منهم لاذ ببعض القرى والدساكر لابسين أثواب الذلّ ألوانًا وأشكالاً.

ـ الزغل يجوز[1] إلى أفريقية

وكان السلطان أبو عبد الله الزغل قد يئس من الحالة التي آل إليها وتكاءده[2] الهمّ، واشتدَّت عليه وطأة الأحزان ممَّا جرى له من فَقْدِ الملك، وانتثار السلك، والنزول عن عرش سلطنة، إلى رتبة شيخ قرية، بل كان أهل أندرش ابتدأوا ينشُزون عليه، وبعد لحاقه الأخير

(١) عَبَر.

(٢) تكأدَّ وتكاءد الأمر: شقّ وصعب وتكاءده: كابده وشقّ عليه وصلي به.

بجيش الطاغية أصبح اسمه ممقوتًا[1] عند كلّ المسلمين، وصار رديفًا للعنة اللاعنين، فضاقت مذاهبه، وعوَّل على الرحيل من الأندلس، فَقَدِم على الطاغية وطلب منه المساعدة في الإجازة، وعرض عليه شراء أملاكه الواسعة بثمن بَخْس، وكانت نحوًا من ثلاث وعشرين بين مدينة وقرية في وادي أندرش والهورين، فأُعطي بدلها خمسة ملايين من السكّة المعروفة بالمزاويد، ووهب حصّة في الملاحة وأماكن أُخَر لابن عمّه سيِّدي يحيى، وشدَّ حقائبه وأجاز إلى أفريقية.

فلمَّا وصل إلى أفريقية، أخذه سلطان فاس وألقاه في السجن، وبعد ذلك سَمَلَ[2] عينيه، بدعوى إنَّه كان السبب في بلايا مسلمي الأندلس، وذهاب غَرناطة من اليد، واستصفى أمواله، واستبدّ بخزائنه، ولعلَّ هذا هو السبب في نكبته، ثمَّ خلى سبيله، فروى مؤرِّخو الفرنجة أنه التجأ إلى أمير بَلِّش غمارة وكان صديقًا له، فأشبعه من جوع، وآواه من فقر، ولطّف مصيبته بقدر الاستطاعة، حتَّى إذا مضى هذا لسبيله لم يبقَ له مُغيث ولا ناصر، فهوى ثانيةً في وَهْدَة الذلّ والفاقة، وقيل، إنَّه آل أمره أخيرًا إلى أن يستعطي في الأسواق، ويطوف، وعلى ثيابه رقّ غزال مكتوب عليه: "هذا سلطان الأندلس العاثر الجد"[3]، وهذا مخالف لرواية "نفح الطيب" كما سترى عند ذكره جواز الزغل.

ـ فرديناند يحاصر غرناطة من جديد

هذا، وبعد أن عطَّل فرديناند مروج غَرناطة من حلاها، زحف في حادي عشر نيسان من ذلك العام، بأربعين ألف راجل وعشرة آلاف فارس لحصار المدينة، واستصحب في هذا السفر جميع عظماء قوَّاده لُذَريق بونس دولي، ومركيز قادس، ومعلِّم صانتياغو، ومركيز فيلنه، وكونت تنديله، وكونت قَبْرة وأورنية، والدّون ألونزو دو أغيلار، وانعقدت العزائم على التضييق بالبلدة، ومزاولة الحصار إلى أن يتمّ تسليمها، وإنَّه لا إفراج عنها هذه المرّة. وكانت الملكة إيزابيلا مع ولدها البرنس جويان وابنتيها، جويانة مارية، وكاتالينه في حصن كونت تنديله تبعث بالمدَد والذخيرة إلى المعسكر.

فلمَّا رأى السلطان أبو عبد الله من شرفات الحمراء جيوش الطاغية مقبلة، وقد غطّى

(١) المَقْت: أشدّ البغض. ممقوت: مبغض.

(٢) قَلَعها.

(٣) الحظّ.

عجاجها[1] الفضاء وسدّ الأفق، عقد مجلسًا مؤلّفًا من أعيان غَرناطة ورؤسائها، فاجتمعوا كاسفي البال، نادبي سوء الحال، وتخوَّف بعضهم عواقب الحرب من نزول المعرّات[2] في بيوتهم، فأشاروا على أبي عبد الله بتسليم مقاليد أمره إلى كرم فرديناند أملاً بأن ذلك يعود بشروط صلح مقبولة.

وسئل الوزير أبو القاسم عبد الملك، أن يبيِّن مقدار الباقي من الطعام والذخيرة لأجل الحصار، فأجاب أنَّ الباقي يكفي مؤونة بضعة أشهر ما عدا الذي في مخازن التجّار ومنازل الأغنياء، لكن أيّ فائدة من ذلك إذا كان حصار النصارى لا ينتهي، ثمَّ سُئِل عن عدد المقاتِلة، فأجاب إنَّه عدد عظيم، لكنَّه ماذا ينتظر من جيش معظمه من سكان المدن يرغون، ويزبدون، في أماكنهم، حتَّى إذا دَلَفَ إليهم العدوّ سكنت ثائرتهم وانطفأت جمرتهم.

فلمَّا سمع موسى بن أبي الغسَّان هذه الكلمات نهض قائلاً: «أيُّ باعثٍ بنا إلى اليأس؛ فإنَّ دم الأبطال من عرب الأندلس فاتحي هذه الديار يجري في عروقنا، وعندنا قوّة وافرة، وجيوش معوَّدة مجرَّبة في الوقائع، لا نرتاب في إقدامها، إذ لدينا عشرون ألف شاب يمكنهم أن يدافعوا عن دورهم وأسوارهم، أعظم قوّة وأكثف جيش، فأمّا الطعام فلا نحتار في أمره، ولدينا عِقبان من الجياد المسوَّمة نطير بها إلى ديار المدجَّنين الذين استسلموا للنصارى وإلى بلاد العدوّ فنعود بالغنائم والأنفال»[3].

فثبَّت كلام موسى عزائم القوم ووطَّنهم على الدفاع وتوزَّعت القيادة فعهد إلى الوزير أبي القاسم بتجنيد الأجناد وتفريق المؤونة والسلاح، وإلى الأمير موسى بقيادة الخيّالة وحفظ أبواب المدينة والمهاجمة، ومعه نعيم رضوان ومحمَّد بن زاهدة، وإلى عبد الكريم الزغبي وقادة آخرين، بالمحافظة على الأسوار، وإلى قوَّاد القصبة والأبراج الحمر، بالدفاع عن الحصون.

وأخذ الغَرناطيون بالتأهُّب للجهاد، فلم يكن يُسْمَع إلاَّ قرع الطبول، وسليل أسنّة وصهيل خيول، وانتظمت الفرسان بقيادة موسى كواكب، يتقدَّمها شِهاب ثاقب[4]، فكان أنجاد الغارة وأحلاس القتال يُعجَبون ببسالته وإقدامه، وكانت العامَّة تحوم عليه، هاتفين

---

(١) العجاج: الغُبار.

(٢) المعرّة: الفَقر، وفناء الزاد.

(٣) نَفَلَ القائد الجُندَ، جَعَلَ لهم ما غَنِموا في الحرب. والجمع أنفال.

(٤) كواكب يتقدّمها شهاب ثاقب: (كناية) عن الفرسان الذين يتقدّمهم موسى بن أبي الغسّان.

بالدعاء مهلّلين، وكان طائفة العَجَزَة من الشيوخ والنساء يسلّمون عليه ويباركونه، معتقدين أنه حاميهم والجِنّة الواقية دونهم.

ولمّا قرب النصارى من المدينة أحكم المغاربة إقفال الأبواب وجعلوا وراءها السدود والسلاسل وأوثقوها بالأغلاق المتينة، فجاء موسى وأمر برفعها كلّها قائلاً: "قد عُهِدَ إليّ وإلى خيّالتي حراسة هذه الأبواب، وستكون أجسادنا سدودًا من دونها"، وجعل عند كلّ باب حرسًا وافرًا وكانت خيله دائمًا حاضرة للنزال، ومقاتلته على أوفاز[1] للحرب، فإذْ دنا العدوّ، انقضّت عليه كالصواعق وأفحشت فيه النكاية، فكان في أفعال موسى فضلة على أقواله.

قال الكاتب الشهير واشنطون أرفن: "فلو وُجِدَ عند الغَرناطيين عدّة رجال مثل موسى، أو كان ظهوره في بداية هذه الحرب لكان تأجّل سقوط مدينة غَرناطة وبقي المسلمون مدّة مديدة بعد ذلك متبوّئين أبراج الحمراء".

ـ وقائع الأمير موسى بن أبي الغسّان

هذا ونظر فرديناند إلى حالة غَرناطة ومَن فيها من جموع المسلمين، المنضوية إليها من سائر الأندلس تغلي في صدورهم الأوتار[2] غَليَ النار في المراجل، وفيهم من ذوبان الرجال، وأبطال النزال عدد يفوق الإحصاء، فرأى أنّ أخذ البلد بالسيف من قبيل الأحلام، واعتمد أن يأخذها بالحصر والتضييق، كما أخذ مدينة بَسْطَة، فقطع عنها المَدَد واجتاح جبال البشرات، وصار يقبض على كلّ قافلة نازلة صوب غَرناطة فكان موسى يشنّ الغارة في خيله على معسكر، فيغنم ويفتك ويعود بالسلب، فأمر الملك اتّقاء غارات موسى بحفر خنادق وإقامة أسداد حول المخيَّم، وجعل المخيَّم أقسامًا أربعة، على شكل مربَّع وبينها الأسواق والدكاكين.

وبعد أن تمَّ ذلك على هذا المنوال استدعى امرأته الملكة إيزابيلا، فحضرت بأولادها وأقامت معه، وذلك دهاءً منه لقطع آمال الغرناطيين من الرحيل عنهم، حتّى يُمَكّنوه من بلدتهم، وكان لقدومها في المعسكر ضجّة فرح عظيمة، أمّا المغاربة فلم ترتخِ عزائمهم بذلك، وقال لهم موسى: "إنّ علينا الدفاع عن الأرض التي تحت أقدامنا لأنه إذا لم تبقَ لنا ذهب ملكنا ومُحيَت أسماؤنا".

---

(١) تقول: توفّز للشرّ: تهيّأ؛ لو فاز: متأهّبون للحرب.

(٢) مفردها وَتْر: الظلم، والتعسّف، وهَضْم الحقوق.

ـ المبارزات

ولمّا رأى موسى أنَّ الملك فرديناند لا يناوشهم القتال مُنتظرًا تسليم البلد بالحصر والتضييق وقطع الميرة، أخذ يُرسِل فرسانه لمبارزة فرسان النصارى قِرنًا لِقِرن، فلم يكن يمضي يوم، إلاَّ ويقع فيه عدّة مبارزات بين شبّان الطائفتين، فرأى فرديناند أنَّ هذه المصارعات الشخصيّة قد أثارت جأش المغاربة، وقوَّت عزائمهم وأفقدته عددًا من فرسانه، فأمر جيشه بعدم قبول البراز. وعيَّرهم[1] المسلمون بذلك. فلم يخالفوا أمر الملك، فقال المسلمون: "أيُّ فضل لملكٍ يحاول أن يُخضِعنا بإضعاف أجسادنا ويفرّ من لقاء أرواحنا". ومنذ ذلك الحين شرع فتية المسلمين يحرِّكون شبَّان الإسبانيول للنزال بما أمكن من الوسائل، فكان بعضهم ينقضّ على معسكر فرديناند بيده حربة يثبِّتها في أقصى معسكرهم وعليها اسمه، وربَّما كتب مع اسمه بعض الشتائم تحميسًا للإسبانيول، لكنَّ هؤلاء كانوا يحتملون هذا الذلّ إطاعةً لأمر الملك. إلى أنه في أحد الأيام أغار فارس مغربي اسمه "طرفة" مشهور بقوّة جسمه وثبات جنانه، لكنَّ شجاعته أميَل إلى التوحُّش، وغلظ الكبد ممَّا هي إلى النخوة والحميّة، فأثبت رمحه في الأرض أمام فسطاط الملك والملكة، ورجع كالبرق الخاطف، فجَدَّ الحرس في أثره فلم يُدركوه، ودخل المدينة فنظروا إلى الرمح فوجدوا عليه رقًّا[2] مكتوبًا عليه بعض الشتائم عرفوا أنَّ المقصود بها الملكة.

ـ تسلُّل الإسبانيول إلى غَرناطة وانسحابهم منها

فعظُمت نِكاية هذا الفعل في قلوب الإسبانيول؛ وكادت فتيانهم تتميَّز[3] من الغيظ، من هذه الجرأة، وفي الليلة التالية جمع فرناندو بيريز دلبلغار نخبة من الشبّان وسرى تحت الظلام إلى أحد أبواب المدينة، فوجد الحرس نائمين لعدم توقُّعهم مثل هذا الهجوم، فدخل بجماعته وقام كلٌّ إلى سلاحه فتمكّن الإسبانيول من الباب وحفظوه، ريثما كان فرناندو قد أوغل في وسط المدينة، راكضًا جواده الذي يسابق الريح حتَّى وصل إلى الجامع الأعظم، فأثبت في بابه لوحًا كان معه مكتوبًا عليه اسم "مريم العذراء" ورجع مسرعًا فوجد قومه ثابتين في مراكزهم، فخرجوا وافرين وما انتبه أهل غَرناطة لهذه الضجّة، وجدّت العساكر من كلّ نواحي البلد حتَّى كان الإسبانيول قد صاروا بقرب مضاجعهم.

---

(١) عابَهم.

(٢) الجِلدُ يُكتب عليه، وهو خاصّ بجلد الغَزال.

(٣) تميَّزَ من الغيظ: تقطَّع.

ويقال إنَّ هذا الجامع بعد دخول الإسبانيول إلى غَرناطة تحوّل إلى كنيسة بأسم السيِّدة « مريم » وإنَّ الإمبراطور شرلكان، منح دلبلغار هذا وذُرِّيته الحقّ في دفن أمواتهم بتلك الكنيسة.

وكان بُعْد معسكر الإسبانيول عن المدينة بحيث لا يمكن منها سوى لمحتها العامّة، فأرادت الملكة إيزابيلا أن تشاهد تفاصيل البلد، وقلّ صبرها عن ذلك فهيّأ مركيز قادس بطانة وافرة وأحراسًا متعدِّدين وسيَّر قطعة من الجيش بين خيل ورجل، وسار الملك والملكة وأولادهما وأمراء إسبانية بأفخر الزينة وأنْفَس المراكب، وقصدوا مزرعة يقال لها "الزبية" في حدود الجبل، شمالي غَرناطة مُشْرِفة على حمرائها وأجمل أحيائها فلمَّا قاربوا المحلّ تقدَّم مركيز فيلنه، وكونت أورينه، والدّون ألونزو دو أغيلار، بجنودهم وربطوا أعالي القرية ووقف مركيز قادس، وكونت تنديله، وكونت قَبْره، والدّون ألونزو، وفرناند، بجموعهم حذاءها[1]، ودخل الملك والملكة أحد بيوت القرية حيث أُعِدَّ المكان لجلوسهما وحف بهما الأمراء والأساقفة، ينظرون إلى غَرناطة الحمراء، متأمِّلين كيف تتحوَّل قريبًا مساجدها كنائس ومآذنها معالق للنواقيس[2].

(١) محاذاتها (قربها).

(٢) مفردها ناقوس: جَرَس.

الغَرناطيون يهاجمون موكب إيزابيلا

ـ معركة «مناوشة الملكة»

ولمَّا رأى المغاربة اصطفاف جيش الإسبانيول كأنَّما يريدون القتال، رأوا من الذلّ الإحجام عن مناجزتهم، فما مضت هنيهة، حتَّى شوهدت سريّة من فرسان غَرناطة قد خرجت من المدينة بالعِدَد الكاملة والأسِنّة اللامعة، وعُلِمَ أنها فرسان موسى بن أبي الغسَّان، فصدر أمر الملكة لمركيز قادس باجتناب القتال لأنها لا تريد أن يُراق بمقدار نغبة الطائر [1]، من الدم في سبيل نزهتها، فالتزم المركيز السكون ولم يعلم المغاربة السبب فيه فأخذوا يتحرَّشون بالإسبانيول، ويدعونهم إلى النزال، والملك يمنع قومه من الإجابة، وألحَّ بعض فرسان المسلمين حتَّى صاروا في مصاف النصارى يهزّون أسنّتهم ويحرّكون حفائظ أعدائهم، وهؤلاء ساكنون في مواطنهم، وإذا بفارس زَميت [2] الهيئة، مفتول السواعد، غريب الصولة، عظيم البطشة، قد تقدَّم ووراءه جماعة فعرف بالقرينة، أنه هو «طرفة» الذي أهان الملكة حسبما تقدَّم، ونظر الإسبانيول فإذا به معلَّق بذيل جواده اللوح الذي كان دلبلغار قد ركَّزه في باب الجامع الأعظم، بما فيه من الكتابة، فلمَّا رأى الإسبانيول هذه الإهانة غاب صوابهم وضاع رشدهم، وأسرع أحد أبطالهم المدعو كارسيلاسو، فاستأذن الملك في النزول لمبارزة هذا الذي أهان السيِّدة «مريم»، فأجابه إلىذلك إجلالاً لمقام الطلب، فعاد كارسيلاسو وتقلَّد سيفه، وتأتَّب بدرعه، [3] واعتقل سنانه [4]، وامتطى حصانه، ونزل لمبارزة الفارس المغربي، فتساور القرنان بمشهد من الجيشين الشاخصة أبصارهما وكان المغربي، بحسب رواية مؤرِّخي الفرنجة، أشدَّ ساعدًا وأعظم خَلقًا وأوثق أضلاعًا وأحسن ركوبًا من خصمه، ولذلك كان النصارى خائفين على فارسهم وفي الصدمة الأولى تزحزح كارسيلاسو عن صهوته وكاد يهوي لولا أنه تمكَّن حالاً من لجام حصانه، وعاد مستويًا على ظهره، فأخذ المغربي يدور حوله، متوثّبًا به، دوران الباز الأشهب حول فريسته، وكان

---

(١) ما حسا من الماء، الجرعة.

(٢) وَقور.

(٣) لَبِسَها، والإِتْب: الدرع التي تُلْبَسُ فوق الثياب.

(٤) قبض على رُمحه.

جواده طائعًا له، وخُيِّل للناظرين عند كلّ ضربة يضربها، أنَّ رأس الإسبانيولي قد طار عن جثّته أو فُلِقَ شطرين، لكن كارسيلاسو بسرعة حركته اتّقى ضربات طَرَفة، تارةً بالنكوس[1] بجواده، وأخرى بالدَرَق يحتمي بها، ومع هذا فكانت كُلُوم البطلين قد غطَّتهما بالدم، وخارت قوى الإسبانيولي ولحظ ذلك طَرَفة منه، فوثب عليه وأهواه عن سرجه ولمَّا حصلا على الأرض صرعه على ظهره، ثمَّ ركع فوق صدره واخترط خنجره وهمَّ أن ينحره به، فصاح كارسيلاسو صيحة رجَّ بها الفضاء ولم يكن إلاَّ كالبرق حتَّى سقط المغربي قتيلاً، وعُلِمَ أنَّ خصمه وجأه[2] في أحشائه بمدية كانت معه، وقام من تحته وقد علا ضجيج النصارى من شدَّة فرحهم بنجاة فارسهم، ونسبوها لِمَدَد جاءه من السيِّدة «مريم العذراء» التي انتصر لها، وقد رُوعِيَت في هذا البراز قواعد الفروسيّة، فلم يتعرَّض أحد من الفريقين لنجدة ابن جِلْدَته، لكنَّ المغاربة لمَّا رأوا سقوط فارسهم، هاجت أحقادهم فأمر موسى بقطعتين من مدافعه فأخذتا ترميان النار على صفوف الإسبانيول، فاختلَّ مصافهم، فقال موسى لرؤساء جنده عليكم بالمهاجمة ولا نضيِّعنَّ الوقت في المبارزات الشخصيّة، ثمَّ وثب كالغضنفر الطاوي[3]، وتبعه جماعة من خيل ورجال وحملوا حملة الرجل الواحد على صفوف النصارى، فشطروها وأوقعوا بها، فلمَّا رأى مركيز قادس ذلك لم يجد محلاً لطاعة أمر الملكة في التزام السكون وأمر بالقتال، واستحرَّ الطعن والضرب من كلّ الجهات، وقال مؤرِّخو الفرنج إنَّ الملك والملكة وجميع حاشيتهما من الأساقفة والأمراء لمَّا حمي الوطيس، جثوا على ركبهم بمكانهم من السطح المشرف على ميدان الحرب مستغيثين بـ «مريم العذراء»، وإنَّ استغاثتهم قد صادفت القبول فإنَّ الشدَّة التي حمل بها المغاربة لم تلبث أن انحلَّت ووقع الرعب في قلوب رجالتهم، فولّوا الإدبار، واجتهد موسى كثيرًا مع خيّالته في ضمّ شملهم فلم يُفلح، لأنَّ أكثرهم انهزموا إلى الجبال، وبلغ، بحسب زعمهم، عدد مَن قُتِل وأُسِر وجُرِح من الغَرناطيين نحو الألفين، وهذه المعركة تُسمَّى بمناوشة الملكة، ويقال إنَّه بعد أن بردت البلاد للطاغية، ابتنت إيزابيلا ديرًا في قرية، زبيبة، باسم مار فرنسيسكو، لم يزَل إلى الآن وفي حديقة الدير شجرة غار (شجرة النصر) مغروسة بيد الملكة نفسها.

---

(١) النُكّس: الجواد لا يسمو برأسه، والمعنى: الانعطاف الكامل بالجَواد.

(٢) وجأ بالسكين أو الخنجر: طَعَن.

(٣) الأسد الجائع.

ـ احتراق معسكر الإسبانيول

وكان مرج غَرناطة لم يزل باقيًا منه نطاق أخضر يحيط بأسوار المدينة، فاعتزم فرديناند أن لا يدع هناك غصنًا أخضر ولا عذبة مورقة[1] وأخذ يستعدّ لنقل محلّته صوب البلدة، وبينما هو في ذلك، إذ حصل حريق في خيمة الملكة وكانت من أبدع الفساطيط[2] في النصرانية، وامتدّ لسان النار في المعسكر، فلم يكن إلاَّ كلاً ولا، حتَّى أصبحت تلك المدينة المتحرِّكة هَباءً منثورًا، ولكن لم يُصَب أحد بأذى وظنَّ النصارى في البداية أنها مكيدة من المغاربة بقصد أن يزحفوا إليهم أثناء اشتغالهم بالحريق، فأعدّ مركيز قادس ثلاثة آلاف فارس وتقدَّم بها نحو المدينة صدًّا للغارة، فلم يبرز أحد وإنَّما شوهدت الرؤوس المعمَّمة، متطلِّعة من شرفات الأسوار نحو الحريق، وظنَّ المسلمون أيضًا أنَّ للنصارى مأربًا في إحراق معسكرهم وأنَّ في طيّ ذلك كَيْدًا، والصحيح أنَّ الملكة كانت أمرت إحدى جواريها بنقل المصباح من جانب سريرها إلى جهة أخرى، فوضعته الجارية في مكان آخر بقرب الستار، وهبَّ عليه نسيم فاتَّصل اللهيب بالنسيج وأحدث ما أحدث.

ـ فرديناند يزحف نحو الأسوار فيبرز له السلطان

وكان فرديناند عارفًا بطباع المغاربة، فخاف أن يُحدث هذا الحريق في قلوبهم جرأة ويقوّي لهم أملا، فلم يُصبح الصباح حتَّى عبَّأ جيشه وزحف به نحو الأسوار مجتاحًا بقيّة البساتين التي كانت محيطة بالمدينة، فبرز السلطان أبو عبد الله من حمرائه بنخبة جيشه يذبّ عن حوضه ويذود عن روضه، في مواطن كاد الجبان فيه يساوي الشجاع، وأوشك الهيّابة[3] أن يلقى السباع، إذ كان بنو الإسلام هناك يقاتلون في الدفاع عن أعراضهم وأوطانهم الأخيرة، ويناضلون عن أعزّ ما عندهم تحت أعين نسائهم وأطفالهم وشيوخهم، المطلِّين عليهم من مشارف الأبراج والمنازل، ولم تكن هناك واقعة واحدة، بل انتشرت المعارك بعدد الغياض والبساتين، ففي كلّ حديقة مُعْتَرك، وعند كلّ غيضة مُشْتَبَك،ولم يبقَ من الأرض قدم، إلاَّ أُريق عليه دم، وكانت خيل موسى تجول في الميدان مشدِّدة من عزائم المغاربة حتَّى

---

(١) الذين يزورون إسبانية في هذه الأيام يقولون إنَّ جميع هذه المدن التي كانت زاخرة العمران في زمان العرب لا تزال منحطّة قليلة السكّان، وإنَّ كلّ تلك الجنان لم يتجدّد منها إلاَّ القليل مع أنه مضى على خرابها نحو أربعمائة سنة وصدق بعض مؤرّخي الإفرنج في قولهم إنَّ إسبانية بعد العرب صارت جسمًا بلا روح.

(٢) جمع فسطاط، وهو نُزُل الملك.

(٣) الجبان، ويلقى السباع: يقابلها ويواجهها.

لو كان منهم جريح مُعَفَّر بالتراب، وشاهد مرور موسى انتفض قائمًا، وذهل عن جراحه، وكم من صريع التفت صوب موسى فقرَّت به عينه، ودعا له وحيّاه، وهو يفارق الحياة.

ـ الإسبانيول يملكون بعض الأبراج، ودفاع موسى المستميت

وملك الإسبانيول بعض الأبراج بقرب البلدة، لكن بعد أن أُذيقوا مُرَّ الكفاح، وتساقوا كؤوس الحِمام[1] مساقاة الراح[2] وأبلى أبو عبد الله في هذا العراك بلاء تحدّثت به الركبان، ولكن رجالته نكصت على الأعقاب، وكاد يقع في أيدي الأعداء لولا أنه نجا بفرسانه بخفّة الحركة، وظلَّ قافلاً إلى المدينة، تاركًا في وسط المعمعة موسى، الذي بذل جهد الاستطاعة في ضمّ شمل المُشاة، وكان يناديهم مُعَنِّفًا إيَّاهم، ويحرِّضهم على الجهاد في سبيل حُرَمهم ودمهم، ولكن غلب الجزع على قلوبهم فلم يُجيبوا مناديًا ولا لبّوا داعيًا، وتراجعت المشاة كلّهم صوب المدينة، فثبت موسى وفرسانه، وانتصب الميزان بينهم وبين العدوّ بأسره ولم يعترهم فتور ولا ملال، ولكن قُتل منهم جملة وافرة وأُثخن الباقون جراحًا، فأخذ موسى يتقهقر بهم مدافعًا إلى أن بلغ المدينة فدخلها وأغلق الأبواب، وجعل وراءها الأثقال والسلاسل، قائلاً إنَّه عَدِم الثقة في المقاتلة المعيّنة لحراستها، وأمر بأن لا يخرج المشاة مرّة أخرى من المدينة لملاقاة العدوّ.

ـ مدافع غَرناطة تجبر فرديناند على التراجع

وكانت مدافع غَرناطة النارية قد فَغَرَت[3] أفواهها، فرزأت[4] طلائع الإسبانيول، فأمر فرديناند برجوع الجيش، بعد أن أحرق آخر ما أحدق بغَرناطة من الخضرة، وغادرها تختنق بدخان أشجارها، وكانت هذه الوقعة الأخيرة التي خرج بها المغاربة للقاء الإسبانيول دفاعًا عن مدينتهم الفيحاء، وشهد سفير فرنسا الذي كان هناك، من باهر شجاعتهم وإقدامهم واقتحامهم حِياض[5] المنايا ما ملأه عجبًا. قال المؤرِّخ واشنطون أرفن الإنكليزي "إنَّ هذه الحرب حقبة عظيمة الشأن في تاريخ الدهر، بما تخلَّلها من باهر الثبات والإصرار، فإنَّ

---

(١) الموت.

(٢) الخَمْرة.

(٣) فتحت أفواهَا.

(٤) أنزلت مُصابها بهم.

(٥) موارد الموت ومناهله.

النَكَبات توالت فيها على المغاربة مدّة عشر سنوات بدون انقطاع، فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الأخرى، وفنيت رجالاتهم قتلاً وأسرًا وقاتلوا عن كلّ مدينة وبلدة وحصن وبرج، بل عن كلّ صخرة، كأنّما هم ينتظرون الفَتح، ولم يجدوا مكانًا تثبت فيه أقدامهم، ولا جدارًا يمكنهم رمي السهام من ورائه، إلاّ واعتصموا به. ينازعون العدوّ وطنهم المحبوب، حتّى إذا لم يبقَ لهم إلاّ عاصمتهم مقطوعًا عنها عن كلّ مدد، غير طامعة في أدنى غوث، نازلاً على أسوارها أمّة بقضّها وقضيضها[1]، لم يزالوا يدافعون عنها، كأنّما هم يترقّبون معجزة يرسلها الله في حقّهم". وقال غيره من المؤرّخين القدماء: "إنّ مقاومتهم الشديدة، تدلّ على الألم الذي كانوا يشعرون به لفراق مرج غَرناطة الذي كان لهم فردوسًا ونعيمًا، فبذلوا أقصى ما عندهم من القوّة محاماة عن أعلق الأرضين[2] بقلوبهم، لا يفصلهم عنها انخذال ولا إدبار سعد، ولا إثخان جراح ولا الموت نفسه، بل لبثوا يناضلون عن محابّ قلوبهم، ومواضع أشجانهم إلى أن سقط في أيديهم وأبى السعد أن يخدمهم".

وبرهان ما قاله هؤلاء المؤرّخون من الإفرنج، قول شاعر ذلك العصر في ذلك المصَر سيِّدي محمَّد العربي العُقيلي، عندما نزل النصارى لمحاصرة غَرناطة:

بالطبل في كلّ يومٍ ... وبالنفيرِ نُراعُ
وليس مِن بعد هذا ... وذاك إلاّ القِراع
يا ربّ خيرك يرجو ... من هيض منه الذراع
لا تسلبني صبرًا ... به لقلبي ادِّراع[3]

وهو الذي قال فيمن تنصَّر من المسلمين:

فإن يرتفع عند النصارى بالابتدا* ... فكم عندنا من حرف حبل يجرّه

ـ فرديناند يبني معسكرًا من الحجر

هذا وبعد أن دارت الدائرة الأخيرة على جُند غَرناطة، وخاب الأمل وخان الجدّ، لزم

(١) جاؤوا بقضّهم وقضيضهم: أي جميعهم.

(٢) أعلق الأرضين بقلوبهم: أحَبُّ الأراضي إلى قلوبهم.

(٣) ادّرع الرجل: لبس الدرع الواقية.

* تورية، فالمبتدأ شأنه الرفع عند العرب؛ وكم في لغتهم من حروف الجرّ.

المسلمون البلد لا يأتون بحركة، وإنَّما انتظروا إقلاع الطاغية وتبرُّمه بالحصار بعد حريق الخيام، فكان منه أن شرع ببناء معسكر من الحجر، بدل الأُطُم[1] والأخبية، ولم يكن إلاَّ قليل، حتَّى قامت هناك مدينة عامرة بأسواق وحوانيت، مقسومة بشارعين عظيمين، يقسِّمانها على شكل صليب فيتكوَّن منها أربعة أحياء، وفي الوسط رَحبة فسيحة لاجتماع الجيش، وللمدينة أربعة أبواب تُناوح مَهابَّ الرياح الأربع[2] ولمَّا تمَّ بناؤها أطلق عليها اسم «صنتافي» أو مدينة الإيمان المقدَّس ولم يكد يستقرّ بها سكانها، حتَّى دارت فيها الحركة التجارية، فما كان يرى إلاَّ قوافل نازلة إليها وصاعدة منها، بينما كانت غَرناطة البائسة، غريقة في لُجّة، مقطوعة الإمداد، ثمَّ لم تلبث أن فشا فيها الجوع بانقطاع الوارد من الميرة والمرافق، وكانت قافلة من الطعام وقطعان وافرة من الغنم قد استولى عليها صاحب قادس وهي نازلة من جبال البشرات إلى غَرناطة، وزاد الحال تقدُّم فصل الخريف وهجوم الشتاء، فاشتدّ الخناق بأهل غَرناطة وأحسّوا بالعجز عن المناصبة[3]، وتذكَّروا جميع أقوال المنجِّمين عند ولادة ملكهم، وما قيل بشأن سقوط غَرناطة ليلة أخذ قلعة الصخرة، وانقطع قَرْعُ الطبول ونَفْخُ الأبواق، وسكنت جَلَبَة الحرب في تلك المدينة، وغلب على الجميع اليأس.

ـ أبو عبد الله يتشاور في التسليم، ورفض موسى لذلك

حينئذٍ عقد أبو عبد الله مجلسًا في الحمراء، حضره أكابر قوّاد الجُند وحماة الحصون وأعيان المَصر، وفقهاؤه، وسألهم عن رأيهم في إسلام البلد، فقام أبو القاسم عبد الملك حافظ البلدة، وبيَّن لهم الحالة السيِّئة التي آلوا إليها فقال: «إنَّ إهراءنا قد خلت من المؤونة أو كادت، ولا ننتظر الآن شيئًا في الطريق، بل الذي كان واردًا لأجل الخيل صار قوتًا للخيَّالة أنفسهم، وربَّما أكلوا الخيل نفسها، وناهيك أنه من السبعة الآلاف من رؤوس الخيل التي كانت عندنا برسم الرِباط، لم يبقَ سوى ثلاثمائة رأس، وإنَّ في مدينتنا مائتي ألف نسمة كلّها تطلب الخبز».

فقال أعيان البلد إنَّ أهل غَرناطة أصبحوا غير قادرين على المقاومة واحتمال المحاصرة، ولأيِّ شيء يجب استمرارالمقاومة ما دام العدوّ غير مُقلع عنّا ولا راضٍ منّا إلاَّ بإحدى الخطَّتين: إمَّا التسليم وإمَّا الموت.

(١) القصر، وكلّ بناء مرتفع.

(٢) جهات الأرض الأربع.

(٣) العداء والمقاومة.

فاشتدَّت كآبة أبي عبد الله ممَّا سمع وأطرق ساعة، وتأمَّل في وجوه العمل، وفكَّر في أنه لو وصل إليه على الأقلّ مدد من صاحب مصر أو ملوك المغرب لأمكنه الثبات، ومع هذا فقلَّما يتمكَّن من الثبات إلى أن توافيه النجدات من وراء البحر، نظرًا لانقطاع الزاد ولذلك ارتخت عزائمه، وران[1] عليه اليأس، ورأى الجمهور منه ذلك فعوَّلوا على التسليم، وأصفقوا[2] على الدخول في ذمَّة الطاغية، حينئذٍ قام موسى معارضًا وحده إجماعهم قائلاً: "لقد عجَّلتم في الكلام في أمر التسليم فإنَّ وسائلنا لم تنقطع، ولم يزل عندنا بقيّة قوّة عظيمة الفعل شديدة التأثير، وطالما كانت سبب الفتح، ألا وهي الاستماتة فلنستنفِرَنَّ العامّة إلى الجهاد، ولِنُسَلِّحَنَّهم ونقتحِمَنَّ صفوف العدوّ حتَّى نخالط أسِنَّتهم، وإنَّني لحاضر أن أمضي في هذا السبيل وأتوغَّل في كثيف جمع الأعداء، وخير لي مرارًا، أن أُعَدَّ فيمن استأكلهم الدفاع عن غَرناطة من أن أُعَدَّ في الأحياء من بعدها".

ـ إرسال الوزير أبي القاسم بطلب الصلح

فلم تُحرِّك كلماته منهم ساكنًا، ولم تُثِر عزمًا، لأنَّ اليأس كان قد استولى عليهم، والاعتقاد بأنَّ المصير، هو إلى ما أنبأ به المنجِّمون من السقوط ودلَّت عليه الحوادث من البوار أصبح عامًّا عندهم، فكانوا أسرع إلى طلب المُوادعة من الماء إلى الحدور، ولمَّا رأى أبو عبد الله أنَّ هذا هو استعداد القوم، جنح معهم إلى التي يبتغونها، وتقرَّر إشخاص[3] الوزير القاسم عبد الملك، إلى الطاغية، لعقد شروط الصلح.

ـ شروط الصلح

فلمَّا قدم أبو القاسم على الملك والملكة، رحَّبا به وأكرما موصله، وأحالاه في المذاكرة[4] على غونسلاف القُرْطُبي وفرناندو دو صفر، كاتب أسرار الملك، فبعد المراجعات الطويلة تقرَّر الأمر على أنه إن مضت سبعون يومًا ولم يرِد في أثنائها مدَد للمغاربة، يتسلَّم الإسبانيول غَرناطة، وإنَّ جميع أسرى النصارى يطلق سراحهم بدون فِدية.

---

(١) خيَّم.

(٢) أطبقوا، بمعنى اجتمعوا على رأي واحد.

(٣) إرسال.

(٤) بمعنى المفاوضة.

وأنَّ أبا عبد الله وخواص رجاله، يحلفون يمين الأمانة للملك والملكة، ويتعيَّن لهم في جبال البشرات إقطاعات معلومة لأجل معيشتهم، وأنَّ سكان غَرناطة يصبحون رعيّة لملوك الإسبانيول، لكنَّهم يحفظون أملاكهم وأسلحتهم وخيولهم، ولا يسلِّمون سوى مدافعهم، وتكون لهم الحرّية التامّة في أمور دينهم، ويتعيَّن لهم قضاة من أنفسهم، يحكمون بمقتضى قواعد كتابهم، تحت سلطة ولاة منصوبين من قِبَل ملوك الإسبانيول، ويصير إعفاءهم من الضرائب مدّة ثلاث سنين، وفي ختامها يدفعون لملوك الإسبانيول الجزية التي كانوا يدفعونها لملوكهم، بدون زيادة، ومن شاؤوا منهم الإجازة إلى برٍّ أفريقية في خلال هذه المدّة، تُعطى لهم الرخصة بالسفر مع عيالهم وأموالهم، بدون رسم مرور من أيّ ثغر شاؤوا من ثغور البحر.

واتَّفقوا على تسليم أربعمائة شخص من أبناء البيوتات المغربية، تبقى رهائن عند الطاغية إلى أن يتمّ تسليم البلد وفيهم نجل سلطان غَرناطة.

هذه خُلاصة الشروط التي قرأها الوزير أبو القاسم بمحضر الملأ من أهل غَرناطة وبين يدي سلطانه، بعد عودته من معسكر النصارى، فلم يبقَ واحد ممَّن حضر إلاَّ أجهش بالبكاء ولجَّ بالعويل، ففاضت شؤون المآقي[1]، وبلغت الأرواح التراقي[2]، وتصاعدت الزفرات من الجميع، إلاَّ الأمير موسى بن أبي الغسَّان، فإنَّه بقي ثابت الجأش عَصيّ الدمع، والتفت نحوالجمع فقال لهم: "دعوا يا موالينا البكاء والنحيب للنساء والأولاد، فنحن رجال ولنا قلوب، لا لأجل ذرف الدموع، بل لأجل سفك الدماء، وإنّني لأرى عزائم هذه الأمّة قد ارتخت، وقطعوا أملهم من نجاة هذا الملك فوالله لقد بقي علينا أشرف الخطّتين وهي الموت، فلنمت إذًا في سبيل استقلالنا، والانتقام من عدوّ غَرناطة فأُمّنا الأرض تتلقّى أبناءها في أحشائها غير مقيَّدين بسلاسل العبوديّة، ولا قدَّر الله أن يكون أشراف غَرناطة صاروا يخافون الموت في الدفاع عنها".

ـ غضب موسى، وما يُقال عن نهايته

ثمَّ سكت موسى، وعلت المجلس السكينة فالتفت أبو عبد الله نحو الحاضرين، وأخذ يحدِّق في وجه كلٍّ منهم، فلم يقع نظره إلاَّ على وجوه عَلَتها الكآبة وظهرت عليها دلائل

(١) ها هنا الدموع.

(٢) مرحلة صعود الروح.

اليأس، وأبصر الجميع مُطْرِقين كأنَّ على رؤوسهم الطير، فصاح حينئذٍ: "الله أكبر لا إله إلاَّ الله محمَّد رسول الله، باطل اجتهادنا في معاكسة الإرادة الإلهية، فقد كتب في اللوح المحفوظ، أنني أكون شقيًّا، وأنَّ هذا المُلك يذهب من يدي"، فصاح الوزراء والفقهاء: "الله أكبر لا حيلة في قضاء الله"، وارتفعت الجَلَبة بالتكبير[١] والحَوْقَلة[٢] من كلِّ جانب، لكن وقع الإجماع على قبول الشروط، ولمَّا رأى موسى أنَّ جميع الحضور متَّفقون على إمضائها، قام من بينهم غاضبًا والتَفَتَ نحوهم قائلاً: "يا قوم لا تَغَشّوا أنفسكم ولا تتسلّوا بالمُحال، ولا تظنّوا أنَّ ملوك النصارى وافون بمواعيدهم لكم، وأنهم كرام عند المقدرة كما هم فتّاكون عند القتال، فوالله إنَّ الموت الأحمر هو أهون ما نتوقَّع، وإنَّما نحن مستقبِلون أمرًا أيْسَره اكتساح الأوطان وفضيحة العيال وانتهاب الأموال وقلب المساجد وتدمير المنازل، هذا عدا السوط والنار والنَّطْع[٣] والنفي من الأرض والضنى في أعماق الحُبوس، إلى غير ذلك ممَّا نحن صائرون إليه:

إذا لم يكُن مِن الموت بُدٌّ فمِن العارِ أن تموتَ جبانا

أمَّا أنا فوالله دون أن أشهد ذلك" (؟)، قال هذه الكلمات وخرج من محلّ الاجتماع واجمًا مُطْرِقًا، ثمَّ طاف بقاعة الأُسود وسائر أَبهاء الحمراء بدون أن يكلِّم أحدًا من الجشم[٤] الواقفين في الأبواب، ودخل منزله، وتقلَّد سلاحه الكامل، وأمر فأسرج له جواده الكريم، فركب وخرج من باب البيرة، إلى حيث لم يُسمَع له بعدها خبر، ولم يوقَف له على أثر.

قال المؤرِّخ واشنطون أرفن: " هذه رواية مؤرِّخي العرب في شأن غيبة هذا البطل". لكن أغابيدا روى في انتهاء أمره غير ذلك فقال: "كان في أكثر العشيّات يجتمع عُصبة من فِتية الفرسان الإسبانيول، سائرين للنزهة حفافي الشنيل، ففي إحدى المرّات، أبصروا عند العشاء، فارسًا مغربيًّا أخذ يدنو منهم دارعًا، مرخي القِناع، وحصانه مثله مغطّى بالزَرَد، وكانوا دارعين مثله تحت المغافِر، لأنهم في أيام الهدنة لم يكونوا يحملون إلاَّ أسلحة الدفاع فلمَّا شاهدوا هذا الفارس المجهول متقدِّمًا نحوهم بهيئة مُنَكَّرة نادوه كي يقف عنده ويعرِّف بنفسه.

---

(١) قولك: "الله أكبر".

(٢) قولك: "لا حول ولا قوّة إلاّ بالله".

(٣) بساط من الجلد، يُفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس.

(٤) يريد بها الثُّقلاء.

أمَّا هو فلم يحر[1] جوابًا، بل ظلَّ حاملاً عليهم ومن أول طعنة بسنانه شكَّ فارسًا، منهم، فرماه عن صهوته، ثمَّ دار حول الباقين شاهرًا السيف فأذرع الضرب، وتلاحقت ضرباته فلم ترتفع له يد إلاَّ بحَتف[2]، ولم يقع له حدّ إلاَّ في مقتل، وكان الظاهر عليه أنه مستميت، مولع بالفتك، يقاتل للاشتفاء لا للعلاء، ويرغب في المنايا لا في الجراح ويهوى الموت لا البقاء، إلى أن كَبَّ نحو نصف الخيّالة الذين التقوه صرعى على وجوههم بفياصل ضرباته، وقواصم طعناته قبل أن يُصاب بجراحة ذات خطر لشدّة تلاحم زَرَدَه وسُبوغ[3] درعه، لكنَّه أُصيب في الآخر وخرَّ جواده من تحته، وخُيِّل أنه وقع في اليد فحاول فرسان النصارى أن يمسكوه مسك اليد إبقاءً على حياته بما بَهَرهم من فتكه، وأدهشهم من إقدامه، لكنَّه بقي يقاتل وهو على رُكَبِه بخنجر من خناجر فاس كان في يده. ولمَّا رأى قواه قد خارت وأصبح لا يستطيع إطالة الدفاع، وخشي أن يؤخذ أسيرًا، زحف إلى النهر فرمى بنفسه في الماء، حيث غاصت به درعه في الحال. وكان هذا الفارس المجهول هو موسى بن أبي الغسَّان وقد عرف جواده بعض المتنصّرة المغاربة ممَّن كانوا في معسكر الإسبانيول"، قال أرفن: "ومع هذا فلم تزل هذه الحكاية مفتقرة إلى زيادة التأكيد".

❃ ❃ ❃

أمَّا شروط تسليم غَرناطة فقد سَرَدَها المرحوم ضيا باشا في تاريخه للأندلس وهي خمس وخمسون مادّة، تتضمَّن تفاصيل ما وقع عليه الاتّفاق، وفي طيِّها من عهود المحاسنة والملاطفة والمراعاة والمحافظة على أعراض القوم وعقائدهم ودمائهم وأموالهم وكراماتهم وراحاتهم، ما لا يفي به إلاَّ نصّه.

وقد تكرَّر في المادّة الخامسة، العهد من الملك والملكة باحترام ديانة المسلمين، ومساجدهم وأوقافها وأموالها المحفوظة، وعدم التعرُّض لأمورهم الشرعية، بل إعادة ذلك إلى فقهائهم، والمحافظة على أصول الفقهاء وعاداتهم وملابسهم، وأن يبقى هذا العهد معمولاً به في الأعقاب وأعقاب الأعقاب.

---

(١) لم يُجب بشيء.

(٢) الموت.

(٣) تقول سَبَغَ الشيء: تمَّ فطال إلى الأرض.

وفي المادّة السادسة، عدم سلب أسلحة المسلمين ومراكبهم ومواشيهم، إلاَّ الأسلحة النارية فتقرَّر أخذها.

وفي المادّة السابعة، تسهيل السفر لكلّ من شاء الهجرة بأمواله وأمتعته، وفيما بعدها إجازته على نفقة دولة قَشتالة من أيّ مرسى أراد، وتسهيل معاملات بيع العَقَار لمَن شاء الرحيل، وإذا لم يتهيّأ البيع ووكَّل صاحب المُلك وكيلاً تُعتبر وكالته، ويساعد على استيفاء حاصلاته وإيصالها إليه بمكانه وراء البحر.

وورد في المادّة الحادية عشرة، تشديد مجازاة كلّ مَنْ يدخل من النصارى جامعًا بدون رخصة الفقهاء.

ورد في المادّة الخامسة عشرة، إعفاء السلطان أبي عبد الله وسائر أمراء المسلمين وقوّادهم وفقهائهم، من الضرائب والرسوم، وإقرار الجميع على امتيازاتهم كما كانوا لعهد ملوكهم، وأن تكون كلمتهم نافذة وقولهم مسموعًا.

وورد في المادّة السادسة عشرة، والتي بعدها، ما يتضمَّن عدم جواز دخول أحد من النصارى بيوت المسلمين، حتَّى ولا الملك والملكة ومَنْ خالف ذلك من النصارى يُجازى بشدّة.

وفي المادّة الخامسة والعشرين، إذا فرَّ أحد من أسرى المسلمين المعتقلين في سائر الممالك، ووصل إلى غَرناطة، فقد نجا، ولم يكن لمأموري شرطة غَرناطة، أن يُمسكوه، لكن ذلك الامتياز مخصوص بعَرَب الأندلس لا يتناول أسرى المغرب.

وفي المادّة الثلاثين، أنَّ مَنْ أسلم من النصارى قبل هذه الكائنة، فلا تجوز معاملته إلاّ بالحُسنى، ولا يرى أقلّ تحقير، ومَنْ خالَف ذلك ينال من الجزاء شدّة.

وفي المادّة الواحدة والثلاثين، لا يُجبَر مُسلم ولا مُسلمة على قبول الدين المسيحي.

وفي المادّة الثانية والثلاثين، إذا كان المُسلم متزوِّجًا بنصرانيّة وأسلمت، لا تُجبر على الرجوع إلى دينها الأصلي، والذين يتولَّدون من هذا الزواج يُعَدّون مسلمين، ولو ارتدَّت الزوجة عن إسلامها.

وفي الخامسة والثلاثين، لا يَردّ المسلمون شيئًا ممَّا غَنِموه أثناء الوقائع التي جرت إلى يوم تسليم البلد، وفي التي بعدها، لا يُعاقَبون على شيء ممَّا مضى، من تحقير الأسرى أو إهانتهم.

وفي الثانية والأربعين، تُفْصَل الخصومات بين المسلمين والنصارى في مجلس مؤلَّف من قائدين أحدهما مسلم والآخر مسيحي.

وفي الثالثة والأربعين، تعاد جميع أسرى المسلمين في مدَّة ثمانية أشهر من أيّ بلاد وُجِدوا فيها من إسبانية، وفي مدّة خمسة أشهر إن كانوا في بلاد الأندلس.

وفي التي تليها، ذكر إطلاق سبيل ابن الدرامي المأسور عند غونسالف هرناندز، وعثمان أسير كونت تنديله، ورضوان أسير صاحب قَبْرة، وإعادة الفقيه ابن محيي الدين ورفاقه، الذي غابوا على إثر حادثة ابراهيم بن سراج أينما وُجِدوا.

وفي السادسة والأربعين، تسهيل حركات سفن المغاربة في مواني الأندلس، وإعفاؤها تلك المدّة من دفع الرسوم، بشرط عدم نقل أسرى من النصارى.

وفي الثانية والخمسين، عدم استخدام شُرطة من النصارى لمراقبة شؤون المسلمين، بل تكون شرطتهم من أنفسهم.

وفي آخر هذه المعاهدة، تعهَّد الملك فرديناند وامرأته صاحبا ممالك قَشتالة، وأراغون، وليون، وصقلية، أن يحافظا على نصّ شروطها حرفًا بحرف، ويُجْريا جميع أحكامها من خاصّ وعامّ وكلّي وجزئي، بكمال التدقيق وبدون أدنى زيادة ولا نقصان مهما كان من الأسباب، وأن تبقى على شكلتها وهيئتها، ولا يتغيَّر ولا يتبدَّل حرف منها إلى الأبد، ولا يمكن أحدًا من خلفاء الملكين المشار إليهما، ولا خلفاء خلفائهما ولا حَفَدَتِهما ولا أولادهم إلى ما شاء الله، أن ينقُضوا أقلّ حكم من أحكامها، أو يبدِّلوا حركة من حركاتها، وأعطى الأمر بها إلى الأمراء والوزراء، والقوَّاد والأجناد، والرهبان والرعيّة، من حاضر وغائب، وقاصٍ ودانٍ، وكبير وصغير، وأعلن أنَّ مَنْ يجترئ على الخلل بشيء ممَّا تضمَّنته هذه المعاهدة يُجزى جزاء مَنْ أقدم على إفساد البراءات الملوكية أو تقليد الحجج والسندات بدون أدنى تأخير.

وأقسم الملك فرديناند والملكة إيزابيلا وسائر مَنْ أمضوا الشروط على دينهم وشرفهم برعايتها إلى الأبد، على الصورة المبيَّنة وكُتِبت على رقّ غزال مُحَلّى ومطرَّز، تحريرًا في ثلاثين من كانون الأول سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وألف من الميلاد.

وحرَّرها « فرناندو صَفْرَه » بأمر الملكين، وأمضاها الملك فرديناند والملكة إيزابيلا،

وأولادهما: الدّون جان، والدّونة إيزابيلا، والدّونة حنّة، والدّونة ماريانة، والدّونة كتالينة، ورئيس أساقفة إشبيلية الدّون دياغو هرتادو، ورئيس أساقفة صانتياغو الدّون ألفونس، وكبير فرسان صانتياغو المسمَّى بالدون ألفونس أيضًا، والدّون جان، كبير فرسان القنطرة، والدّون ألفارو، زعيم رهابين مار يوحنّا، والدّون بيرو غوانزالس كردينال إسبانية، ورئيس أساقفة المملكة، والدّون هنري كبير حكومة أراغون، ومن أبناء عمّ الملك، والدّون ألفونس من أبناء عمّه أيضًا، والدّون ألفارو مدير دائرة الملكين، والدّون بفرو فرناندز رئيس جند قَشتالة، ويليهم نحو أربعين دونًا، كلّهم من أبناء السلالة المالكة، وأساقفة البلاد وأمرائها وأعيانها وقوّادها.

وكتب أيضًا معاهدة أخرى لسلطان غَرناطة، أبي عبد الله بن أبي الحسن، متضمِّنة أربع عشرة مادّة، فيها تمليكه الإقطاعات والأراضي والبلدان التي وهبها إيّاه الملكان، معيّنًا كلّ منها بذاته، والتعهُّد بإعطائه أربعة عشر مليونًا وخمسمائة قطعة من السكّة المعروفة بالمراويد عند دخولهما قلعة الحمراء، وإقرار ملكيّته لجميع العقار الموروث، وإعفاؤه من دفع الضرائب والرسوم وآداء المُكوس، عمَّا يجلب من الأمتعة برسمه، وأنه في أيّ وقت شاء بيع هذه الأراضي والأملاك، يشتريها الملكان كلّها بقيمتها العادلة، وإن لم يشأ بيعها واردًا النقلة إلى برّ المغرب، فالوكيل الذي يعينه عليها يستوفي له حاصلاتها ويوردها عليه، في أيّ جهة كان ممَّا وراء البحر، وفي أيّ وقت عوَّل على الإجازة، تنقله مع رجاله وعياله وأمواله، سفن دولة قَشتالة مجّانًا، ولا يطالب بشيء، ولا يكون مسؤولاً عن شيء ممَّا حصل، إلى حين عقد الصلح، ولا يُستَرَدّ شيء ممَّا غَنِمَه، وجميع هذه الشروط كما هي جارية في حقّه، تجري أيضًا في حقّ والدته وشقائقه وزوجته وزوجة مولاي أبي نصر، والعهدة الثانية، مؤرَّخة في يوم تاريخ الأولى، إلاَّ أنني وجدت أكثر المؤرِّخين يؤرِّخون إمضاء المعاهدات في ٢٥ كانون الأول وفق ٢٢ المحرَّم سنة ٨٩٧ هـ.

ـ فرديناند يبثّ جميع أساطيله وجيوشه منعًا لوصول المدَد

ولمَّا كان الإسبانيول قد أعطوا المغاربة مُهْلة سبعين يومًا لأجل التسليم، بناء على أمل هؤلاء في ورود النجدة من وراء البحر، ازداد الطاغية تيقُّظًا وسهرًا، وجعل الجيوش محيطة بغَرناطة إحاطة السوار بالمِعْصَم، وجمع الأساطيل وبثَّها في مراسي الأندلس، وفي فُرْضَة المجاز، منعًا لكلّ مَدَد وارد، فلم يَطُلّ أحد، وإن أطلّ فلم يغنِ شيئًا، لأنَّ سلاطين الإسلام

كانوا في ذلك الحين متشاغلين بفتنهم الداخلية، ومحاربة بعضهم بعضًا، فضلاً عن أنَّ الذي أصبح مقرَّرًا في أذهان عامّة المسلمين، أنَّ لا أمل بحفظ مملكة الأندلس وتجديد دولة الإسلام فيما وراء البحر إلى جهة العُدْوة الإسبانية، وأنَّ الجهاد في هذا السبيل عَبَث، وهذا الأمر كائن لا محالة، فتركوا الأمور وشأنها، وأهل غَرناطة يعلِّلون أنفسهم بلعلَّ وعسى، ولكن ابتدأ الجوع يعضّهم بأنيابه، فرأى أبو عبد الله أنَّ انتظار آخر المدّة ممّا لا يكون له نتيجة سوى زيادة الضِيق والمجاعة، ولا رجاء في ورود أقلّ مَدَد، ولو كان في حيِّز الإمكان لظهر، أو كان في قيد الحياة تنفّس، فشاور الرؤساء، فأشاروا بالتسليم قبل انقضاء الأجَل المضروب.

- قيام مُرابط آخر اسمه حامد بن زارة

وفي العشرين من كانون الأول، أرسل وزيره يوسف ابن كُماشة مع الرهائن إلى الملك فرديناند، وأصحبه بفرسَين كريمَين، وسيف ثمين على سبيل الهديّة، فبثَّه مقصده، وعَزْم الجماعة على تسليم البلد قبل مضيّ الأمد. وفي اليوم التالي، ظهر درويش اسمه حامد بن زارة، فأخذ يطوف الأسواق مناديًا بالجهاد، مستنفِرًا العامّة إلى الدفاع قائلاً لهم إنَّه سَيَرِد إليهم نجدات من البشرات، ومن بَرّ العُدوة، وإنَّ الأمل عظيم بالفرج، لكن الملك أبا عبد الله والرؤساء خائنون، وكَثُرَ هذا القيل والقال في البلد، وصبّوا اللعنات على أبي عبد الله، ورموه بالخيانة وبيع الدين والوطن، شأن كلّ أمّة غُلِبَت، وشأن أمّة اليونان اليوم، بعد أن قهرتها الدولة العثمانية، وجاست عساكر مولانا السلطان الأعظم خلال بلادها، فقام كثير منها ناقمين على الملك جورج ووليّ عهده، ولولا صلاتهما النَسَبِيّة مع ملوك أوروبا لطردهما اليونان أو فتكوا بهما[1].

- ثورة غرناطة

فثار نحو عشرين ألفًا من أهل غَرناطة، وتقلَّدوا أسلحتهم، وخرجوا إلى الأسواق بضوضاء ملأت الفضاء، عازمين على الجهاد مستعينين بالله في دفع العدوّ، فاستمرّوا يومًا كاملاً وقِسْمًا من الليل بهذه الحركة، وإذا بإعصار قد عصف بشدّة، فألزم الناس بيوتهم وانتهى الهياج بهبوب العاصف.

---

(١) هذا كان في حرب اليونان للأتراك أيام السلطان عبد الحميد ولكن في الحرب الأخيرة بين الترك واليونان قام هؤلاء على أسرتهم الملوكيّة وطردوها كما لا يخفى ممّا حقّق كلمتنا هذه.

وفي اليوم التالي خرج أبو عبد الله من الحمراء، محفوفًا برؤساء البلد، وخاطب الأمّة قائلاً لهم: «لا ذنب إلاّ عليّ، أنا الذي عققتُ والِدَيّ وجلبتُ الأعداء على المملكة، لكنّ الله قد أخذني بجرائري، وأنزل النقمة كلّها على رأسي، وها أنا ذا الآن قبلت بهذه المعاهدة لأجلكم يا قومي، ضنًّا بدمكم أن يُراق، وبأطفالكم أن يموتوا جوعًا وبنسائكم وذراريكم أن تنزل فيهنّ معرّات الحرب، وحفظًا لأموالكم وأملاككم وحرّيتكم وشريعتكم وديانتكم، في ظلّ ملوك أسعد طالعًا[1] من أبي عبد الله المشؤوم»، فأثّرت رقّة كلامه في خواطر القوم، وسكنت سورة حقدهم، واستَلَّت[2] نعومة خطابه ما خشن في صدورهم. فانفضّوا إلى أمكنتهم. وفي الحال أرسل أبو عبد الله إلى الملكين يعرض عليهما التسليم في اليوم التالي، حذرًا من تجديد الحوادث، فرضيا بذلك، وتأهّبا لدخول الحمراء. كما أنّ أبا عبد الله وأسرته وحشمه، أحيوا الليل في التأهُّب للخروج، وقد غسلوا أبهاء الحمراء بدموعهم وملأوا نواحيها بنواحهم، وزمّوا[3] حقائبها بما فيها من الذخائر والأعلاق[4]، وأحضروا لها البغال، وقبل أن تبلّج الفجر انساب حريم أبي عبد الله وأهل القصر من أحد الأبواب حيث كان بانتظارهم فرقة من فرسان المغاربة، الذين لبثوا متمسّكين بعروة سلطانهم إلى الآخر، وساروا من أحد الأحياء المعتزلة من المدينة والناس نيام والشوارع خالية، أمّا عائشة الحرّة والدة أبي عبد الله فكانت متجلّدة ومتجمّلة، وأمّا امرأته وسائر جواري القصر فقد قرّح[5] البكاء مآقيهنّ، وخدّد الدمع خدودهنّ، ولمّا وصل الموكب إلى إحدى القرى التي على طريق البشرات، وقف ينتظر وصول أبي عبد الله.

ـ التسليم

عند مطلع الشمس، جاءت فرقة من الخيّالة والمُشاة، يصحبها هرناندو دو تالافيرة مطران أفيلا، ودخلت من أحد أبواب المدينة حسبما كان وقع عليه الاتّفاق فالتقاها السلطان أبو عبد الله، وقال للمطران المذكور: «امضِ وتسلَّم هذه الحصون التي صيَّرها الله إلى أيديكم عِقابًا للمغاربة على أعمالهم». ثمّ تقدَّم لملاقاة الملكين، وتقدَّمت العساكر فدخلت

---

(١) أسعد حظًا.

(٢) بمعنى المخرَجَت.

(٣) زمّوا الحقائب وسواها: ربطوها تأهّبًا للسفر.

(٤) مفردها العِلْق: النفيس من كلّ شيء.

(٥) جرّح، والمآقي ـ ها هنا ـ العُيون، مفردها مُقلة.

الحمراء، وكان فرديناند وإيزابيلا ينتظران رؤية أعلام إسبانية فوق أبراجها. فمضت مدّة وأنظارهما شاخصة، فلم يريا شيئًا وخَشِيا وقوع حادث، لكن لم يكن إلاَّ قليل بعد ذلك، حتَّى خفقت راية الصليب فوق أبراج الحمراء ـ حيث لم تزل خافقة إلى الآن ـ وبجانبها راية مار يعقوب، وعَلا هتاف العساكر، فلمَّا رأى الملكان ذلك بمكانهما على ضفّة الشنيل، خَرَّا جاثيين على رُكَبِهما، واقتدى بهما جميع الأمراء والقوّاد والجند شكرًا لله تعالى على ما مَنَّ به، وبعد انتهاء الصلوات، استأنفوا المسير حتَّى صاروا بجانب جامع صغير قريب من النهر، فَهُنا التقوا بالسلطان أبي عبد الله الشقي، فحالما وقعت العين على العين أراد السلطان الترجُّل إجلالاً للملكين فمنعاه، فهوى على يد الطاغية ليقبِّلها فلم يمكِّنه فرديناند من ذلك. وقيل إنَّ الملكة أيضًا أبت أن تُرسِل له يدها، وإنَّها أحسنت عزاءه وسلَّمته ابنه، الذي كان مرهونًا، فضمَّه إلى صدره، وأخذ يقبِّله، كأنَّ الشقاء زاد من تعلُّق أحدهما بالآخر، ثمَّ سلَّم أبو عبد الله مفاتيح البلد إلى الملك قائلاً له: "هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في إسبانية، خُذْها فقد أصبح لك مُلْكنا ومَتاعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته تعالى، فتقبَّلْها بالرأفة التي وعَدْتَ بها، والتي ننتظرها منك".

فأجابه فرديناند: "لا شكَّ في ما وعدنا به، وعسى أن يكون لك من صحبتنا الحظّ الذي لم يكن لك في عداوتنا".

ثمَّ دفع فرديناند المفاتيح إلى الملكة، فدفعتها إلى ابنها البرنس جويان، وهذا أعطاها لكونت تنديلة الذي كان قد عُيِّن قائدًا للمدينة ولسائر مملكة غَرناطة.

ـ أبو عبد الله يقصد وادي برشانة

ثمَّ انفصل أبو عبد الله عن الملكَين، قاصدًا المَقرّ الذي عُيِّن له في وادي برشانة، وسار الطاغية وامرأته نحو المدينة وأصوات الموسيقى مسموعة إلى بعيد، ولم يدخلاها يوم تسليمها، بل انتظرا أن تتبوَّأها جميع العساكر. أمَّا سلطان غَرناطة السابق فلمَّا وصل إلى مرقبٍ عالٍ على مسافة مرحلتين من المدينة يُشرِف عليها، وقف يودِّع مدينته، فلم تكن في عينه أجمل منها في تلك الساعة، فأخذ يتأمَّل في أبراجها وقلاعها ومنائرها الضاربة في السماء، ومرجها النضير والمنقطع النظير، ووقف وراءه حاشيته وجنده الذين لم ينفصلوا عنه، وهم يتأمَّلون سكوتًا وقد أبْكَمَهُم الحزن وأخرسهم الهمّ، وإذا بالدخان قد ارتفع فوق القلعة، ودوّى صوت المدافع، إيذانًا بأنَّ المدينة دخلت في حَوزة الإسبانيول وانقطعت منها

دولة الإسلام، فعندها أخفق فؤاد أبي عبد الله ولم يملك نفسه دون البكاء فصاح «الله أكبر» وفَسح مجال الدمع، واستمطر ماء العيون، فجادت بالشآبيب[1]، فقالت له أمّه عائشة الحرةّ المشهورة بالشدّة: «عليك أن تبكي بكاء النساء، ما عَجِزْتَ أن تدافع عنه دفاع الرجال» وهي الكلمة الشهيرة التي تناقلتها جميع التواريخ، فاجتهد وزيره يوسف بن كُماشة في تعزيته، فلم يقبل قلبه العزاء، وبقيت شؤون عينه فائضة وزفراته متصاعدة، وهو يقول: «أيّ شقاء مثل شقائي». وقد سمّى الإسبانيول تلك الذروة التي وقف عليها آخر سلاطين غَرناطة يبكي المنزل والحبيب بـ«آخر حَسَرات المغربي».

ـ دخول فرديناند غَرناطة

ولمَّا وقف فرديناند عن دخول البلد خوف الغِيْلة[2]، إلى أن تكون عساكره احتلَّت المواقع جميعها، أرسل مركيز فيلنة وكُنت تنديلة بثلاثة آلاف فارس وجيش من المُشاة، مصحوبين بالأمير سيِّدي يحيى الذي سمَّاه النصارى بعد تنصُّره بالدون بدرو دو غَرناطة، وعُيِّن للنظر في أمور المغاربة، وبابنه الذي أطلقوا عليه اسم الدّون ألونزو دو غَرناطة، وكان أميرًا للأسطول فتبوَّأوا جميع الأبراج ونشروا فوقها الأعلام الإسبانية.

ولم يدخل الملكان المدينة إلاَّ في سادس كانون الثاني، وكان الاحتفال بدخولهما باهرًا، وظلاَّ سائرين إلى مسجد غَرناطة الأعظم، فحوَّلاه كنيسة، وأُقيمت الصلاة شكرًا لله تعالى على هذا الفتح المُبين، وأقبل الأمراء والقوّاد وعظماء الإسبانيول على الملكَين، يقبِّلون أيديهما ويهنِّئونهما على هذه النعمة التي اختصَّهما الله بها وكرَّمهما بإحرازها. وبعد الخروج من الكنيسة سارا إلى الحمراء الموصوفة، فألفياها فوق ما كانا يتصوَّرانها: من إتقان الصَنعة، وفخامة البنيان، ورَحابة الساحات، ولطافة الرسوم، والنقوش، وأُعجبا بما فيها من الزخرفة التي تنقطع من دونها الأيدي، والتأنُّق البالغ حَدَّه، سواء في الأبهاء والمقاصير، أو النوافر والصهاريج، أو المداخل والتعاريج؛ إذ يتحيَّر الناظر ما بين مَرْمَرٍ مَسنون، وعَسْجَدٍ[3] مَصون، وسواري كأنها مُفرَّغة في أحسن القوالب، وسقوف كأنها السماء زُيِّنت بالكواكب، فاتَّخذ الملكان لهما عرشًا فيها، وجلسا للتهنئة، حيث جاء أهالي غَرناطة

(١) مفردها شؤبوب: الدفعة الشديدة من المطر.

(٢) الاغتيال.

(٣) الذهب.

والبشرات، يقدِّمون لهما واجب الإجلال ويقبِّلون أيديهما صاغِرين[1]، ووُجِدَ في غَرناطة يوم دخول الملكَين إليها خمسمائة أسير من الإسبانيول.

وهكذا انتهت تلك الحرب التي استمرَّت عشر سنين، لم تَفْتُر فيها الوقائع، ولا نشفت الدماء، ولا انقطعت المصارع، وبنهايتها انصرم[2] حبل الإسلام في بلاد الأندلس، بعد أن استتَبَّت دولته فيها سبعمائة وثمانيًا وسبعين سنة منذ انهزم لُذَريق على ضفاف الوادي الكبير، إلى تسليم غَرناطة، والله وارثُ الأرض ومَنْ عليها.

- التسليم كما ورد في كتاب "نَفْح الطِيب"، وما تبعه من وقائع

وهاك ما قال صاحب "نفح الطيب" عن الوقائع المتقدِّمة إلى حين التسليم ننقله ببعض اختصار تابعًا لما تقدَّم من روايته:

"ثمَّ بعث (أي الطاغية) في السنة نفسها رُسُلاً لصاحب غَرناطة، أن يمكِّنه من الحمراء كما مكَّنه عمّه من القلاع، ويكون تحت إيالته، ويعطيه مالاً جزيلاً على ذلك، وأيّ بلاد شاء، من الأندلس، يكون فيها، تحت حكمه، قالوا وأطمعه صاحب غَرناطة في ذلك، فخرج العدوّ في محلاّته لقبض الحمراء والاستيلاء على غَرناطة، وهذا سرّ بين السلطانين، فجمع صاحب غَرناطة، الأعيان والكبراء والأجناد والفقهاء والخاصّة والعامّة، وأخبرهم بما طلب منه العدوّ، وأنَّ عمّه أفسد عليه الصلح الذي كان بينه وبين صاحب قَشتالة بدخوله تحت حكمه، وليس إلاَّ إحدى خُطّتين: الدخول في طاعته أو القتال، فاتَّفق الرأي على الجهاد، ونزل صاحب قَشتالة على مرج غَرناطة، وطلب من أهلها الدخول في طاعته، وإلاَّ أُفسد زرعهم، فأعلنوا بالمخالفة، فأفسد الزرع، وذلك في رجب سنة ٩٥. ووقعت بين المسلمين والعدوّ حروب كثيرة، ثمَّ ارتحل العدوّ عند الإياس[3] منهم ذلك الوقت، وهدم بعض حصون، وأصلح برج هَمْدان، والملاّحة، وشَحَنُهما بما ينبغي، ثمَّ رجع إلى بلاده، وعند انصرافه نزل صاحب غَرناطة إلى بعض الحصون التي في يد النصارى، ففتحها عنوةً، وقتل مَنْ فيها من النصارى، وأسكنها المسلمين، ورجع لِغَرناطة ثمَّ أعْمَل الرحلة إلى البشَرات في رجب المذكور، فأخذ بعض القرى، وهرب مَنْ بها من النصارى والمرتدّين أصحابهم، ثمَّ

---

(١) الصاغر: الذليل المُهان.

(٢) انصرم حَبْل الإسلام: كناية عن زوال دولتهم في بلاد الأندلس. ولغة: انصرم الحَبْل: انقطع.

(٣) لغة في اليأس.

أتى حصن أَنْدَرَش فتمكَّن منه، وأطاعته البشرات، وقامت دعوة الإسلام بها، وخرجوا عن ذمّة النصارى وهنالك عمّه أبو عبد الله محمَّد بن سعد، بجملة وافرة، فقصدهم في شعبان من غَرناطة، واستقرّ عمّه بالمريّة، وأطاعت صاحب غَرناطة جميع البشرات إلى برجه، ثمَّ تحرَّك عمّه مع النصارى إلى أَنْدَرَش فأخذوها لرمضان، وخرج صاحب غَرناطة لقرية همدان، وكان برجها العظيم مشحونًا، فحاصره ونَقَب أهل غَرناطة البرج الأول والثاني والثالث ثمَّ البرج الكبير وهو القلعة، وأسروا مَنْ كان بها، وهم ثمانون ومائة واحتووا على ما هنالك من عدّة وآلات حرب، وفي آخر رمضان خرج صاحب غَرناطة بقصد المُنكَّب، فلمَّا وصل حصن شُلوبانية أخذه عنوةً بعد حصاره، وامتنعت القلعة وجاءتهم الأمداد من مالَقَة بحرًا، فلم تقدر على شيء، وضيَّقوا بالقلعة، فوصلهم الخبر أنَّ صاحب قَشتالة خرج بمحلّته لمرج غَرناطة، فارتحل صاحب غَرناطة عن شُلوبانية، وجاء غَرناطة ثالث شوّال، ووصل العدوّ إلى المرج ومعه المرتدّون والمدجَّنون، وبعد ثمانية أيام ارتحل لبلاده بعد هدم برج الملاّحة وبرج آخر، واتَّجه إلى وادي آش، فأخرج المسلمين منها، وهدَّم قلعة أَنْدَرَش، ولمَّا رأى ذلك السلطان الزغل وهو أبو عبد الله محمَّد بن سعد، بادر بالجواز لبرّ العُدْوَة فجاز إلى وَهْران ثمَّ لتلمسان واستقرّ بها، وبها نَسْلُه إلى الآن يُعرفون ببني سلطان الأندلس.

ثمَّ تحرَّك صاحب غَرناطة على بُرْشانة، وحاصرها، وأخذها، وأسر من كان بها من النصارى. وفي ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ خرج العدوّ بمحلاّته إلى مرج غَرناطة، وأفسد الزرع ودوّخ الأرض وهدَّم القرى، وكانوا يذكرون أنه عزم على الانصراف، فإذا به صَرَف الهمّة إلى الحصار والإقامة، وصار يضيِّق على غَرناطة كلّ يوم، ودام القتال سبعة أشهر، غير أنَّ النصارى على بُعد، والطريق بين غَرناطة والبشرات متّصلة بالمرافق، والطعام من ناحية جبل شُلَيْر، إلى أن تمكَّن فصل الشتاء، ونزل الثلج فانسدّ باب المرافق، وانقطع الجالب وقلّ الطعام، واشتدّ الغلاء، واستولى العدوّ على أكثر الأماكن خارج البلد، ومنع المسلمين من الحرث والسبب، وضاق الحال وعظم الخطب وذلك أول عام ٨٩٧، وطمع العدوّ في الاستيلاء على غَرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب، ففرّ ناس كثيرون من الجوع إلى البِشَرات، ثمَّ اشتدّ الأمر في صفر من السنة، وقلّ الطعام، وتفاقم الخَطْب، فاجتمع ناس مع مَنْ يُشار إليه من أهل العلم، وقالوا: "انظروا في أنفسكم وتكلَّموا مع سلطانكم"، فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة، وتكلَّموا في هذا المعنى، وأنَّ

العدوّ يزداد مَدَدَه كلّ يوم، ونحن لا مَدَد لنا، وكان ظَنُّنا أنه يُقلع عنّا في فصل الشتاء، فخاب الظنّ، وبنى وأسَّس وأقام وقَرُب منّا، فانظروا لأنفسكم وأولادكم، فاتّفق الرأي على ارتكاب أخفّ الضرَرَين، وشاع أنَّ الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلد خوفًا على نفوسهم، وعلى الناس، ثمَّ عدَّدوا مطالب وشروطًا أرادوها، وزادوا أشياء على ما كان في صُلْح وادي آش، منها أنَّ صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشروط، وذكروا أنَّ رؤساء أجناد المسلمين لمَّا خرجوا للكلام في ذلك امتنَّ عليهم النصارى بمال جزيل، ثمَّ عُقِدَت بينهم الوثائق على شروط قُرئت على أهل غَرناطة، فانقادوا إليها، ووافقوا عليها، وكتبوا البيعة لصاحب قَشتالة، فقبلها منهم، ونزل سلطان غَرناطة من الحمراء.

"وفي ثاني ربيع الأول من سنة ٨٩٧ استولى النصارى على الحمراء، ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غَرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنًا خوف الغدر، وكانت الشروط سبعة وستّين، منها تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودُورهم، ورُباعهم وعَقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت عليه، ولا يحكم على أحد منهم إلاَّ بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم، ولا يغصبوا أحدًا، وأن لا يولّى على المسلمين نصراني ولا يهودي، وأن يُفتَكَّ جميع مَنْ أُسِرَ في غَرناطة من حيث كانوا، خصوصًا أعيانًا نصَّ عليهم، ومَنْ هرب من أسرى المسلمين ودخل غَرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لسواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومَنْ أراد الجواز للعُدْوة لا يُمنع، ويجوزون في مدّة عيّنت في مراكب السلطان، لا يلزمهم إلاَّ الكِراء، ثمَّ بعد تلك المدّة، يعطون عِشْرُ مالهم والكِراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر مَنْ أسلم على الرجوع للنصارى، وأنَّ مَنْ تنصَّر من المسلمين يُوقَف أيامًا، ويُحضَر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإنْ أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يُعاقَب مَنْ قتل نصرانيًّا أيام الحرب، ولا يؤخذ ما سُلِب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلَّف المسلم بضيافة أجناد النصارى، ولا يُسَفَّر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وتُرفع عنهم جميع المظالم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلَّع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدًا من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنًا في نفسه وماله، ولا يُجعَل علامة كما يُجْعَل لليهود (١)، وأهل

(١) لعلّ الأصل: ولا يحمل علامة إلخ ـ أو ـ ولا يجعل له علامة كما يجعل لليهود مصحّحة.

الدجن، ولا يُمنَع مُؤَذِّن ولا مُصَلٍّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومَن ضحك منهم يُعاقَب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافَق على كلّ شروط صاحب رومة، ويضع خطّ يده. وأمثال هذه ممّا تركنا ذكره. وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة، جعلوا قائدًا بالحمراء وحكّامًا ومقدّمين بالبلد. ولمّا علم بذلك أهل البِشَرات دخلوا في هذا الصلح، وشَمَلُهم حُكمه على هذه الشروط، ثمّ أمر العدوّ ببناء ما يحتاج إليه في الحمراء، وإصلاح سورها وصار يختلف إليها نهارًا ويبيت بمحلّته ليلاً، إلى أن اطمأنّ من خوف الغدر، فدخل المدينة وتطوّف بها وأحاط خبرًا بما يرومه» انتهى.

ـ السلطان أبو عبد الله ينقطع في وادي بُرْشانة

وبعد أن دخلت غَرناطة في حَوْزة الإسبانيول، انقطع السلطان أبو عبد الله في أرضه بوادي بُرْشانة، حيث وفَّر له الطاغية الإقطاعات، وكذلك لوزيره يوسف بن كُماشة الذي لَزِمَ بابه، فأقام مدّة هناك ذاق أثناءها طعم الراحة، وانتفض من عوارض ما كان فيه من هِياط ومِياط[1]، لكنَّ الأمر لم يطُل به حتّى عاد يذكر ماضي مُلكه وعليائه، ويَحِنُّ إلى غابر حمرائه، فتثور فيه الأشجان، وتستشعر فؤاده الأحزان. في هاتيك المدّة لم يَدَع الملكان وسيلة إلاّ واستعملوها لأجل صَبائه[2] عن دين آبائه، وإدخاله في النصرانيّة، فأخفقت مساعيهما، وبقي بالهما مشغولاً من جهته إذ لم يزل وجوده هناك محلاًّ للخوف من انتفاض مسلمي الأندلس تحت رايته والتفافهم حواليه، ففي سنة ١٤٩٦، داخَلَ الملك فرديناند وزيره يوسف بن كُماشة سرًّا، في ابتياع أراضي مولاه بثمانية آلاف دوكًا من الذهب، فتمَّت الصفقة، وانعقد البيع بدون علم أبي عبد الله، وبدون أن يعتني فرديناند بسؤال يوسف عن سند الوكالة، بل نقده المال، فحمله البغال وسار إلى البِشَرات، فلمّا وصل بين يدَي مولاه نثر الدنانير أمامه قائلاً له:

«رأيت يا مولاي أنَّ بقاك هنا مُعرَّض للخطر، فإنَّ المغاربة أهل إقدام وثار، وحَمَلَة أوتار، ولا يبعد أن يثوروا مرّة رافعين رايتك، وتُعزى ثورتهم إليك، فتقع في المُقيم المُقعِد، وما دمت في هذه البلاد يخطر في بالك أنك كنت أميرها على حين لا أمل في رجوع هذه الإمارة، لذلك رأيت الأنجح في حقّك بيع أراضيك، وهوذا ثمنها لديك، يمكن لك أن تتملّك به أراضي واسعة جدًّا وراء البحر».

(١) يقال: «هم في هياط ومِياط»، أي «اضطراب ومجيء وذهاب».

(٢) تقول: صبأ: خرج من دين إلى دين آخر، وصبائه على غير القياس: إخراجه.

ـ أبو عبد الله يجوز إلى مدينة فاس ونهاية أمره

فلمَّا سمع أبو عبد الله هذه الكلمات استشاط غضبًا، واختَرطَ(١) سيفه وكاد يضرب به رأس وزيره، فأسرع هذا إلى الفرار من حضرته، وبقي أبو عبد الله وحده يتأمَّل في هذه المسألة، ويقلِّب من وجوهها، فم يلبث أن ذهب ما به، وعاد إليه سكونه، واستدلّ أنَّ هذه الصفقة لم تكن لتجري لولا رغبة فرديناند في زياله من هناك، وأنَّ الحقّ قد يكون مع وزيره يوسف، فأجمع الرحلة وشدّ حقائبه، وجمع أمواله وكنوزه، وتحمَّل إلى أحد الثغور حيث شيَّعه كثيرون من قومه داعين له بالتسهيل. فلمَّا ركب السفين وغابت عن عينيه جبال غَرناطة انهملت منهما العَبَرات، وتصاعدت من صدره الزفرات، ونزل بمليلة، ومنها سار إلى فاس نزيلاً على سلطانها متلهِّفًا على ما سَلَف، وفي بعض تواريخ الإفرنج أنه توفّي قتيلاً في إحدى الوقائع مع سلطان فاس سنة ١٥٣٦، أي بعد ٤٤ حولاً من فراقه إسبانية، ولذلك قال فيه أحد المؤرِّخين: "إنَّه قُتِل في سبيل الدفاع عن مملكة سواه، بعد أن جَبُن عن أن يُقتَل في الدفاع عن سبيل مملكته".

وأمَّا النفح فيقول في نهاية أمره ما يأتي: "ثمَّ احتال (أي الطاغية) في ارتحاله (أي أبي عبد الله) لِبَرّ العُدْوَة، وأظهر أنَّ ذلك طلبه منه المذكور، فكتب لصاحب المَريّة، أنه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من برّ العُدْوَة، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه، ويقف معه وفاءً بما عُهِد له، فانصرف في الحين بنصّ هذا الكتاب، وركب البحر ونزل بِمَليلة، واستوطن فاسًا، وكان قبل طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسعف بذلك، وحين جوازه لِبرّ العُدْوَة لقي شدّةً وغلاءً وبلاء".

ويقول بعد ذلك: "والسلطان المذكور الذي أُخِذَت على يده غَرناطة، هو أبو عبد الله محمَّد الذي انقرضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس ومُحيَت رسومها، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمَّد الغنيّ بالله، واسطة عِقدهم ومُشيِّد مبانيهم الأنيقة، وسلطان دولتهم على الحقيقة، أو هو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينية بفاس، العائد منها لِمُلكه في أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الأنفاس. وهو سلطان لسان الدين بن الخطيب ابن السلطان أبي الحجّاج يوسف ابن

(١) استلّه من غِمدِه.

السلطان اسماعيل، قاتل سلطان النصارى دُوْن بِطْرُه بمرج غَرناطة، ابن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الأنصاري الخزرجي رحمهم الله تعالى جميعًا. وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمَلِيلَة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده، معتذرًا عمَّا أسلفه، متلهِّفًا على ما خلَّفه، وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس، رأيتها ودخلتها، وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة، ودُفِن بإزاء المُصلَّى خارج باب الشريعة، وخلَّف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد، وعَقَبُ هذا السلطان إلى الآن بفاس، وعهدي بذُرّيته بفاس، إلى أن سنة ١٠٣٧ يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويُعَدّون من جملة الشحَّاذين، ولا حول ولا قوّة إلاَّ بالله العليّ العظيم» انتهى.

وأمَّا قوله في رسالته إلى السلطان فاس التي أنشأها له أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله العقيلي وهو «ولقد عرض علينا صاحب قَشتالة مواضع مُعتبرة خير فيها، وأعطى من أمانه المؤكَّد فيه خطّه بإيمانه، ما يُقنع النفوس ويكفيها، فلم نرَ ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصُّفر. ولا سوَّغ لنا الإيمان، الإقامة بين الإيمان والكفر» إلى آخر السجع ـ فهو من قبيل التغالي والتعزُّز، إذ لولا احتيال فرديناند عليه، ما فارق أوطانه والله أعلم».

❁ ❁ ❁

حال مسلمي الأندلس فيها، بعد ذهاب مُلْكِهم

ـ عهد الانتقام والابتلاء والإكراه

ورد في تاريخ "الإسلام في إسبانية" تأليف ستانلي لانبول ما مُحَصَّله: "إنَّ آخر أنفاس أبي عبد الله على تلك الربوة، لم يكن بآخر حرِّ أنفاس المسلمين في تلك الديار، بل بداية أنفاس يرسلونها الصعداء، وافتتاح عهد انتقام وابتلاء، وإنَّ أُسقف غَرناطة الأول هرناندو دو تالافيره، كان رجلاً حليمًا عادلاً أحسن معاملة المغاربة، وأبى الجَور عليهم، تعلَّم اللسان العربي، وكان يصلّي به، وعلى يده ارتدّ ألوف من المغاربة إلى النصرانيّة. قيل إنَّ ثلاثة آلاف تنصَّروا في يوم واحد، إلاَّ أنَّ الكردينال كسيميناس، الذي كان من القسم المحارب بين رؤساء الكنيسة اعتسف[1] السبيل، ومال إلى العنف والإكراه، وأساء معاملة المسلمين، وحمل الملكة إيزابيلا، على ما بقي نقطة دهماء[2] في تاريخ حياتها من اضطهادهم واستعبادهم وإكراههم على التنصُّر، فأثار ذلك ساكنهم، وأخرج كامنهم، وفي إحدى المرّات، حُبست امرأة من البيازين لشأن من هذا القبيل، فثار سكان البيازين، وتحصَّنوا، وحملوا السلاح، وكادوا يفتكون بالجنود، وأوشك الدم أن يسيل بحدّة الكردينال كسيميناس.

ـ إقفال المساجد، وإحراق الكتب

إلاَّ أنَّ المطران هرناندو الموصوف بالوداعة، دخل رَبْض البيازين بالسكينة والأنس، مع نفر من حاشيته بدون سلاح، وسأل القوم عن شكواهم، وتقبَّلها بالاستماع والاحتفال، وهدّأ روعهم وأعاد طائر الأمن إلى وكره، وحجب الدماء يومئذٍ، على أنَّ كسيميناس المشهور، لم يزَل يغوي الملكة حتَّى أصدرت أمرها بإكراه المسلمين على إحدى الخطَّتين: الجلاء أو النصرانية، وذلك بأنهم كانوا يذكِّرون المسلمين بأنهم سلالة النصارى في الأصل، فأُقفلت المساجد، وأُحرقت الكتب التي هي ثمرات القرون وزَبَد الحِقَب، وأُذيق المسلمون

---

(١) سار فيه على غير دراية أو هداية.

(٢) نقطة سوداء.

العذاب أشكالاً وألوانًا، ففضَّل عامَّتهم فراق دينهم على فراق أوطانهم، إلاَّ أنَّ شعلة الحميّة الإسلامية بقيت تلمع فِي جبال البِشَرات، حيث حمتهم أوعارهم من مضطهديهم.

ـ الثورة الأولى وهزيمة الدّون ألونزو، وانتقام الإسبانيول الهمجي

وأول جيش أُرسل إليهم تحت قيادة الدّون ألونزو دو أغيلار، البطل الشهير، انهزم هزيمةً شنعاء وذلك في سنة ١٥٠١، وقُتِل الدّون المذكور، وقيل إنَّه الدّون الخامس المقتول من عشيرتهم في حرب المسلمين، فازداد انتقام الإسبانيول من المغاربة بعد هذه الغَلَبة، وهجم كونت تنديلة على قوجار، وهدَّم كونت سرين جامعًا على جماعة التجأوا إليه من المسلمين بنسائهم وأطفالهم، وأمسك الملك فرديناند بنفسه الطريق على الفارّين من الجبال، فمَن بقي حيًّا من الثوّار، فرَّ إلى مراكش ومصر والبلاد العثمانية، وانتهت الثورة الأولى في الجبال.

ـ تظاهُر المسلمين بالتنصُّر

ومضى على ذلك نصف قرن والبغض دفين في القلوب، والمسلمون المتنصِّرون يُعَمِّدون أولادهم ظاهرًا، فإذا انصرف القسّيس، مسحوا عن الولد ماء المعمودية، وإذا تزوَّج أحد الموريسك (لقب المتنصِّرة من المغاربة)، أجرى القسّيس عقد الإكليل، ثمَّ بعد ذهابه عقدوا النِكاح بحسب السُنّة الإسلامية.

ـ أهالي الأندلس يساعدون قرصان البحر، والإسبانيول يُكرهونهم على تغيير عاداتهم

وكانوا يتقبَّلون قرصان البحر من أهل المغرب ويعاونونهم على اختطاف أولاد النصارى، ويأتون غير ذلك، فلو كانت ثمت (ثمَّة) حكومة عاقلة قويمة، ترعى عهودها التي واثقت عليها عند تسليم غَرناطة، لم يكن محلٌ لذلك البغض العميق، ولكنَّ حكّام الإسبانيول، لم يكونوا أهل عقل ولا عدل، وكانوا يزدادون بتمادي الأيام شرًّا، ولم تلبث الأوامر أن صدرت بإكراه المغاربة على ترك ألبستهم المخصوصة بهم ولبس البرنيطة والسراويلات الإسبانيولية، وحُظِّر عليهم الغسل ودخول الحمّام اقتداءً بغالبيّتهم في احتمال الأقذار، ثمَّ منعوهم من التكلّم بالعربية، وصدر الأمر بأن لا يتكلَّموا بغير الإسبانيولي،

وبأن يغيّروا أسماءهم، ويسيروا سيرة إسبانيولية، ويسمّوا أنفسهم إسبانيولاً، وكان تصديق الإمبراطور شرلكان هذا الأمر الفظيع في سنة ١٥٢٦، على أنه لم يكن الظاهر من اعتماده إجراؤه بالفعل؛ لكنَّ عمّاله اتَّخذوا ذريعة لاستنزاف أموال الموسِرين من المغاربة، وصار ديوان التفتيش يحترف ويتَّجِر بهذه المسألة.

ـ الثورة الثانية في البشرات

لمَّا صار الأمر إلى فيليب الثاني، شدَّد في إنفاذ الأوامر بحقّ الموريسك وسنة ١٥٦٧، عزَّز الأمر الصادر بشأن تغيير الزيّ واللغة باستيثاق غريب، لأجل منع النظافة التي هي من سنن الإسلام، وذلك بأنه أخذ يهدم حمّامات الحمراء البديعة، فالطرائق التي أخذوا بها لتنكير أحوال تلك الأمّة، هي أشدّ من أن يحتملها أيّ قَبيل كان، دع سلائل المنصور وعبد الرحمن وأبناء سراج، ولذلك لم يطُل الزمن حتَّى استطار الشرّ، واشتعلت الفتنة، وثار فرج بن فرج، من نسل بني سراج بجماعة من ذوي الحمية من غَرناطة قاصدًا الجبال، قبل أن تمكَّنت الحامِية من تعقّبِهم، ونودي بهرناندو دو فلور، من نسل خلفاء قُرْطُبة ملكًا على الأندلس، تحت اسم محمَّد ابن أميّة، وعمَّت الثورة في أسبوعٍ واحد كلّ أنحاء جبال البِشرات ووقع ذلك سنة ١٥٦٨.

ولمَّا كانت هذه الجبال من أصعب تضاريس الأرض مرتقى، وأوعرها مسلكًا، كان تدويخ سكانها من أصعب الأمور منالاً، والفتنة فيها بعيدة المرمى، فاستمرَّت هذه المرّة حَوْلَين كاملَين، حافلاً تاريخها بحوادث لا تُحصى من القتل والغدر والتعذيب والاستباحة والاحتيال من الجانبين، لكنَّه أيضًا حافل بوقائع يندر في تاريخ الفروسية، وكتب الحماسة الظفر بأمثالها، وتبقى على صفحات السِيَر فخرًا للقرون والأمم، وكان المغاربة هناك في موطنهم الأخير، والموقف الذي يحاولون فيه إدراك الثأر على نحو مئة سنة قضوها في البلاء العظيم، والهَوْن[1] الذي ليس له نظير، فهبّوا جميعًا منادين بأخذ الثأر واقتضاء الأوتار قرية بعد قرية، وهدموا الكنائس وأهانوا ما فيها، وفتكوا بالقسّيسين، وعذّبوا النصارى الذين وقعوا في أيديهم، واعتصم الذين نجوا بالمعاقل والأبراج ودافعوا دفاعًا شديدًا. وكان مركيز مونتيجارة قائدًا في غَرناطة، فعمد إلى المسالمة، وأخذ بالمُلاينة، وكادت الوَقْدَة تنطفئ لولا ما أعاد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء في حبس البيازين من المغاربة، قيل إن

(١) الذلّ والهَوان.

ذبحهم بغير علم المركيز، لكنَّ الموريسك لم يقبلوا العذر، ونشروا لواء الثورة، وصار ابن أميّة أميرًا بالفعل على جميع جهات البِشرات، إلاَّ أنه لم يكن ممَّن يحسن السياسة فقام بعض أعوانه وقتلوه وبويع لرجل آخر، موصوف بالنجدة والحماسة اسمه عبد الله بن أبوه.

ـ الدولة الإسبانية تقضي على الثورة، واسترقاق الثوّار

فأرسلت دولة إسبانية، لتدويخ الثوّار، الدّون جون الأُوسترى، أخا الملك، وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر، فباشر القتال في شتاء سنة ١٥٦٩ إلى١٥٧٠ وأتى من الفظائع، ما بخلت بأنداده كتب الوقائع، فذبح النساء والأطفال أمام عينيه، وأحرق المساكن ودمَّر البلاد، وكانت علامته "لا هَوادة"، وانتهى الأمر بإذعان الموريسك، لكنَّه لم يَطُل واستأنف مولاي عبد الله بن أبوه الكَرَّة، فاحتال الإسبانيول حتَّى قتلوه غِيلة، وبقي رأسه منصوبًا فوق أحد أبواب غَرناطة ثلاثين سنة. وأفحش الإسبانيول في قمع الثورة بما أقدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالدخان، حتَّى أهلكوا من بقيّة العرب هناك خلقًا كثيرًا، وخنع° الذين نجوا من الموت، لكنَّهم وقعوا في الرِقّ، وسيقوا مماليك وعُبْدانًا ونُفي جملة منهم، فأخذ عددهم يتناقص. ولمَّا كان اليوم المشهود والمذكور في التواريخ وهو عيد جميع القدِّيسين سنة ١٥٧٠، بلغ عدد مَن ذهب منهم عشرين ألفًا، والذين أُخذوا منهم في مَعْمَعة الفتنة صاروا إلى الاستعباد، والباقون أُخرِجوا من البلاد مخفورين، فمات كثير منهم على الطرق تَعَبًا، فمنهم من أجاز إلى بَرّ العُدْوَة، وطافوا هناك سائلين لأجل قُوْتِهِم الضروري، ومنهم مَن لجأ إلى بلاد فرنسا حيث استقبلوهم برًّا وترحيبًا، واحتاج إليهم هنري الرابع لأجل دسائسه في مملكة إسبانية، ولم ينتهِ إخراجهم تمامًا إلى سنة ١٦١٠، إذ وقع الجلاء الأخير، ولم يبقَ في تلك البلاد مسلم بعد أن وليها الإسلام ثمانية قرون. ويقال إنَّ عدد مَن خرج منهم منذ اليوم الذي سقطت فيه مملكة غَرناطة، إلى السنة العاشرة بعد الألف والستّمائة يبلغ ثلاثة ملايين، وإنَّ الذين خرجوا لآخر مرّة، نحو نصف مليون.

ـ الإسبانيول يخرّبون بيوتهم بأيديهم

وأمَّا الإسبانيول فلم يعرفوا ماذا يصنعون، ولا أنهم يخرّبون بيوتهم بأيديهم، بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة، مع أنَّ إسبانية كانت مركز المدنيّة ومبعث أشعّة العلم قرونًا، وقلَّما استفادت بُقعة أوروبية من حضارة الإسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد، فلمَّا

غادرها الإسلام انكسفت شمسها، وتسلّط نحسها، وإنَّ فضل مسلمي الأندلس، ليظهر في همجيّة هؤلاء القوم، وتأخُّرهم في الحضارة، وسقوط هذه الأمّة في سلّم الاجتماع، بعد أن خلت ديارها من الإسلام» انتهى كلامه ملخَّصًا.

واستشهد في حاشية هذه الجملة، بنقل يمثِّل لك درجة هذه الحقيقة، وهو أنَّ للملك حول مدينة غَرناطة ضِياعًا واسعة ومزارع، التزموا بيعها سنة ١٥٩١، بسبب كونهم يخسرون عليها أكثر من غلّتها، مع أنَّ هذه البقاع كانت لعهد العرب، حدائق غنَّاء، وغياضًا ذات أفياء، وموارد ثروة ورَخاء.

ـ واشنطون أرفن يصف الثورة

وقال واشنطون أرفن، في تاريخه لفتح غَرناطة ما معناه ملخَّصًا: «إنَّه بعد دخول هذه البلدة في حَوْزة الإسبانيول، بقيت الحال غير مُستَتِبّة تمامًا مدّة سنوات، إلى أن وقع من اجتهاد رؤساء مذهب الكاثوليك في حمل المسلمين هناك على النصرانيّة، ما أيأس مغاربة الجبال المتشدِّدين في دينهم، فثاروا برؤساء الدين، وقبضوا على اثنين من هؤلاء الدُعاة في مدينة دارين، وعرضوا عليهما الإسلام فامتنعا فقتلوهما. وقيل إنَّ النساء والأولاد قتلوهما قعصًا[1] بالعصي وشدخًا[2] بالحجارة، وإنَّهم أحرقوا جثَّتيهما، فانتقم النصارى من هذه الفعلة، بأن اجتمع منهم نحو ثمانمائة فارس، وساروا إلى قرى المغاربة يخرِّبون ويَعيثون، فاعتصم المغاربة بالجبال، وانتشرت الفِتنة في الجبال كلّها، لكن وسطها كان في جبل برميجه المصاقب للبحر، فلمَّا اتَّصل الخبر بالملك فرديناند، أصدر أوامره بنقل المغاربة الساكنين في جهات الثورة إلى قَشتالة، وأعطى الأمر سرًّا بأنَّ مَن يدخل منهم في النصرانيّة يبقى في وطنه، ثمَّ رمى تلك الأمّة بالقائد المشهور ألونزو دو أغيلار، ومعه جيش، وهو الذي قضى معظم شبابه في قتال المغاربة، فما اقترب من بلادهم حتَّى هُرِع جملة وافرة منهم إلى رُنْدَة للدخول في النصرانيّة، وجَمَر[3] الباقون منهم تحت قيادة فارس اسمه الفهري، سائقين نساءهم وأطفالهم إلى حيث يتعذَّر السلوك من تلك الأوعار، ورابطين شِعاب الجبال دون مرور عساكر الإسبانيول، فالتقى الجمعان أمام بلدة موناردة، وانتشب القتال، فيقال إنَّ الدّون ألونزو مع ابنه الدّون بِطْرُو، وثلاثمائة من شجعانه، صَدَقوا الحَمْلة على المغاربة

(١) قعصه قعصًا: قتله مكانه، أجهز عليه.

(٢) شدخ الرأس شدخًا: كسره.

(٣) جمر القوم على أمر: تجمّعوا وانضمّوا.

فأزاحوهم، وتلاحقوا في الهزيمة، فتتَبَّعهم الجُنْد يغنمون وينهبون، ولمَّا امتلأت أيديهم بالغنائم، كرَّ عليهم الفهري بجماعة من أبطاله، وعلت الصرخة، فارتجَّت لها جوانب الأودية، وذُعر الإسبانيول فتداعوا للفرار، وثبت ألونزو في مكانه يحرِّضهم ويضمّ من شتيت شملهم، فصبر معه جماعة، وولّى الأكثرون، ودخل الظلام، وخيَّم الغسَق، واشتدّ الخناق بالإسبانيول وجُرِح بِطُرُه ابن ألونزو، فأمره أبوه بالرجوع، فأصرّ على البقاء بجانب أبيه، فأمر أتباعه بحمله إلى معسكر كونت أورينه، فاحتملوه مُثخنًا جِراحًا، ولبث الدّون بمائتين من رجاله يناضلون حتَّى فنوا عن آخرهم.

وتحصَّن الدّون بين صخرين يتّقي بهما، فبصر به الفهري، فقصده واستَحرَّ الصراع، وألحَّ وطمع في قِرنه، وكانا متماثلين في ثبات الجنان مع قوّة الأضلاع، وتوثُّق الخَلْق، فصاح ألونزو بخصمه: "لا تحسبنَّ نفسك وقعت على صيدٍ هيّن، فأنا الدّون ألونزو دو أغيلار"، فأجابه المغربي: "إن كنتَ أنتَ الدّون ألونزو فاعلم أنني أنا الفهري"، ثمَّ كوّره صريعًا، ومات بموته مثال الفراسة الإسبانيولية. وأنموذج الغَشَمْشَمِيَّة[1] في الأندلس.

واندفع المغاربة ذلك الليل بطوله يطاردون الإسبانيول، ولم ينكفئوا حتَّى لاح الصباح، فأجلى المعترك عن قتل الدّون فرنسيسكو دو راميز المدريدي، الذي كان قائد المدفعيّة الأكبر، وكانت له المواقف المشكورة في حصار غَرناطة، لكنَّ مصرع الدّون ألونزو دو أغيلار أنسى الأحزان جميعها. وعند وصول خبر هذه الفاجعة إلى الملك، زحف بالجيش إلى جبال رُنْدَة، فسكنت بحضوره الثائرة، واشترى بعض المغاربة أرواحهم، فجازوا إلى أفريقية، واحتمى آخرون بالنصرانيّة، وأمَّا أهل البلد الذي قُتل فيه الدعاة فسلكوا في سلسلة العبوديّة، وبحث الملك عن جثّة الدّون، فوجدها بين مائتَي جثّة من الإسبانيول، فيها أجساد عدد من الأمراء والكبراء، فحملوها إلى قُرْطُبة في مشهد حافل، بين مدافع كالسحاب الهواطل، ودفن في كنيسة مار هيبوليتو، ونَدَبَه الإسبانيول دهرًا طويلاً" انتهى كلامه مجملاً.

وذكر المؤرِّخ الفرنسي الشهير فيكتور دروي في تاريخه ما يأتي ملخَّصًا:

إنَّ إسبانية تخلَّصت من العرب، لكنَّها بقيت حافظة عليهم إحنة شديدة، ربَّتها في قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم في الحرب، وكان لذلك العهد سكان الجزيرة أخلاطًا من

(١) الجرأة والمضاء.

مسلمين ونصارى، ويهود، فعوَّل فرديناند على توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد، تعزيزًا للدولة، فأنشأ ديوانًا جديدًا للتفتيش. وكان الملك هو الذي يعيِّن الرئيس والمفتِّش الكبير، ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم، وكان هؤلاء في البداية من النصارى المتهوِّدين والمسلمين المتنصِّرين ظاهرًا، الباقين في الباطن أمناء لمحمَّد (ﷺ)، ثمَّ شملت أحكام الديوان أهل البِدَع السياسية، كالبِدَع الدينية أيضًا.

ـ إنشاء ديوان جديد للتفتيش

وسنة ١٤٩٢، قرَّر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من إسبانية، بعد أن سلبوهم أموالهم، وقد قدَّر بعض المؤرِّخين المعاصرين لتلك الحادثة عدد مَن خرج منهم ٨٠٠ ألف (قلت منهم جماعة وافرة بازمير، وأقوام بالأَستانة، هاجروا إليهما في تلك الكائنة، ومنذ خمس سنين[1] احتفلوا بُعيد مُضيّ الأربعمائة سنة على دخولهم بلاد الدولة العليّة، أكثروا فيه من الدعاء لسلطنة آل عثمان التي هي كهف المطرودين)، والقسم الأكبر منهم هَلَكوا وعُذِّبوا بما لم يُعَذِّبه أحد من العالمين، وسنة ١٤٩٩، صدر أمر بسلب المغاربة حرّيتهم الدينية التي تقرَّرت لهم بموجب عهد غَرناطة، فجلا منهم جَمٌّ غفير، ولم يتمّ خروجهم جميعًا حتَّى القرن التالي في سنة ١٦٠٩، وهكذا فازت إسبانية بوحدتها الدينية، لكنَّها خسرت صناعتها وتجارتها اللتين كان العرب واليهود أهمّ عُمّالها».

وذكر مرّة عند كلامه على شرلكان أنه «أكمل مقصد فرديناند، فأكره مغاربة بَلَنْسِية على التنصُّر، وأهل غَرناطة على ترك زِيّهم، والتكلُّم بغير لغتهم»، وقال بمناسبة فيليب الثاني إنَّه: «اضطهد المغاربة، وضيَّق عليهم حتَّى التزموا الثورة سنة ١٥٦٨، وأوقدوا نيرانهم على تلك الجبال، إيذانًا بالخروج، وكان يمكِّنهم بما أمسكوه من مخانق جبالهم، الثبات طويلاً لو امتدَّت إليهم يد مَعونة من إخوانهم أهل أفريقية، ففرَّق فيليب شملهم، وبدَّدهم في مقاطعته، ولم تمض سُنون عَشر، حتَّى صاروا كلّهم أرِقّاء».

ـ كلام المقري في نهاية الأندلس

ثمَّ لنذكر بحسب عادتنا في المقابلة، كلام المقري في هذه الوقائع الأخيرة، وهو ببعض تصرُّف: «ثمَّ إنَّ النصارى نَكَثوا العهود، ونقضوا الشروط عُرْوَةً وعُرْوَة، إلى أن آل الحال

---

(١) دُوّن هذا التاريخ في سنة ١٣١٥هـ. الموافق سنة ١٨٩٧م فيكون الاحتفال قد حصل في سنة ١٣١٠ هـ الموافق ١٨٩٢م.

لحملهم المسلمين على التنصُّر سنة أربع وتسعمائة، بعد أمور وأسباب، أعظمها وأقواها عليهم، أنهم قالوا إنَّ القسِّيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى، أن يرجعوا قهرًا للنصرانيّة، ففعلوا ذلك، وتكلَّم الناس ولا قوّة لهم، ثمَّ تعدّوا إلى أمر آخر وهو أن يقولوا للمُسلم، إنَّ جدّك كان نصرانيًّا فأسلم فلترجع نصرانيًّا، ولمَّا فحش هذا الأمر، قام أهل البيازين على الحكّام وقتلوهم، وهذا كان السبب للتنصُّر قالوا: إنَّ الحكم خرج من السلطان، إنَّ من قام على الحاكم فليس إلاَّ الموت إلاَّ أن يتنصَّر، وبالجملة فإنَّهم تنصَّروا عن آخرهم، باديةً وحاضِرة، وامتنع قوم من التنصُّر، واعتزلوا النصارى، فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى وأماكن، كذلك، منها بلفيق وأَنْدَرَش وغيرهما، فجمع لهم العدوّ الجموع، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبيًا، إلاَّ ما كان من جبل بللنقة، فإنَّ الله تعالى أعانهم على عدوِّهم، وقتلوا منهم مَقْتَلَةً عظيمة، مات فيها صاحب قُرْطُبة (هو ألونزو دو أغيلار)، وأُخرجوا على الأمان إلى فاس، بعيالهم وما خَفَّ من أموالهم دون الذخائر.

ثمَّ بعد هذا كلّه كان من أَظْهَر التنصُّر من المسلمين، يعبد الله في خفية، ويصلّي، فشدَّد عليهم النصارى في البحث، حتَّى أنهم أحرقوا منهم كثيرًا بسبب ذلك، ومنعوهم من حمل السكّين الصغيرة، فضلاً عن غيرها من الحديد. وقاموا في بعض الجبال على النصارى مرارًا، ولم يقيِّض الله تعالى لهم ناصرًا إلى أن كان إخراج النصارى إيّاهم بهذا العصر القريب أعوام(1) سبعة عشر وألف، فخرجت ألوف بفاس، وألوف أُخَرْ بتِلِمْسان من وَهْران، وجمهورهم خرج بتونس، فتسلَّط عليهم الأعراب، ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم، وهذه ببلاد تِلِمْسان وفاس ونجا القليل من هذه المَضرّة.

وأمَّا الذين خرجوا بنواحي تونس فسلَّم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمَّروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتَطوان وسَلا وفِيجة الجزائر، ولمَّا استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرًا جرّارًا، وسكنوا سَلا، كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصَّنوا قلعة سَلا وبنوا بها القصور، والحمّامات، وهم الآن بهذا الحال، ووصل منهم جماعة إلى القسطنطينية العظمى، وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام، وهم لهذا العهد على ما وصف، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين» انتهى.

قلت وأشهر الأئمّة الذين أدركهم عهد الاستيلاء على غَرناطة، ورحلوا فيمن رحل

---

(1) لعلّ أصله: أيّ عام.

إلى الشرق، قاضي الجماعة أبو عبد الله محمَّد بن علي بن محمَّد بن الأزرق صاحب التآليف الجليلة، منها "بدائع السلك في طبائع الملك"، حذا فيها حذو ابن خلدون، وقد دخل مصر بعد الارتحال عن وطنه، واستنهض عزائم السلطان قايتباي لاسترجاع الأندلس، قال المقري: "فكان كمن يطلب بيض الأنوق"[1] ثمَّ حجّ ورجع إلى مصر، وجدَّد الكلام في غرضه، فدافعوه عن مصر بقضاء القضاة في بيت المقدس، فتولاّه بنزاهة وصِيانة، وله نظم بديع، فمنه قوله:

تأمَّلْتُ منْ حُسْن الرّبيع نَضارَةً ... وَقَدْ غرَّدَتْ فوقَ الغُصونِ البلابلُ
حكَتْ في غصونِ الدوح قُسًّا فصاحةً ... لِتَعْلَمَ أنَّ النَّبْتَ في الرَّوْض باقِلُ[2]

وقوله:

تعجَّبْتُ مِنْ يانعِ الوردِ في ... سَنى وجنَّةٍ نبتُها بارضُ[3]
ولِمَ لا يرى وَرْدُها يانعًا ... وقد سال من فوقها العارضُ[4]

ومنه قوله عند نزول الطاغية بمرج غَرناطة:

مَشُوْقٌ بخيْماتِ الأحبّةِ مُوْلَعُ ... تُذَكِّرُهُ نجدٌ وتُغْريهِ لَعْلَعُ[5]
مواضعكُمْ يا لائمينَ على الهوى ... فَلَمْ يبقَ للسُّلوانِ في القلبِ مَوْضعُ
ومَنْ لي بقلبٍ تلتظي فيه زَفرةٌ ... ومَنْ لي بجَفْنٍ تنهمي منه أدمُعُ
رُوَيْدَك قاربْ للَّطائفَ مَوْضِعًا ... وخَلِّ الذي مِنْ شَرِّه يُتَوَقَّعُ
وصَبرًا فإنَّ الصَبْر خَيْرُ غنيمةٍ ... ويا فوزَ مَنْ قد كان للصبر يَرْجِعُ
وَبِتْ واثقًا باللُّطفِ مِنْ خَيْرِ راحمٍ ... فألطافُهُ منْ لَمْحَةِ العَيْنِ أسْرَعُ
وإنْ جاءَ خَطْبٌ فانْتظرْ فَرَجًا لهُ ... فسوفَ تراهُ في غدٍ عنك يُرفَعُ
وكُنْ راجعًا لله في كلِّ حالةٍ ... فليسَ لنا إلاَّ إلى الله مَرْجِعُ

(١) "كمن يطلب بيض الأنوق" مثل يُضرب لمن يَطلب مستحيلاً.

(٢) حكت: شابهت، قُس: هو قُسّ بن ساعدة، خطيب جاهلي يُضرب به المثل في البلاغة وباقِل: (تورية) والمقصود به [رجل معروف] بالعِيّ، مخالف للفصاحة عاجز عن الطلاقة.

(٣) أول النبت.

(٤) هاطل المطر.

(٥) اللعلع: السراب.

أمّا الرجوع إلى الله، فهو أحقّ الحقائق، وأمّا أنه لا بدّ من انكشاف الخطوب، فهذا خطب الأندلس لم ينكشف، إلاّ بتقلُّص ظِلّ الإسلام من تلك الديار، وطالما ارتقب أهلها اللّطائف، فلم تطُل عليهم إلاّ البلايا الكِبار، حتَّى آل أمْرُهُم إلى الحريق بالنار ذلك بقَدَرِ من الله[١] إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ثمّ إنّ الأندلسيين المطرودين، النازلين ببَرّ العُدْوَة انتقموا من الإسبانيول ومن طوائف الإفرنج، عمَّا أُذيقوه من العذاب بجهاد البحر، الذي أشار إليه المقري، حيث إنّهم انتظموا في سلك بحرية الجزائر وغيرها من بلاد المغرب أيام كان أهلها يلقَّبون بملوك البحر، وكانت دول أوروبا بأسرها تدفع لهم الجزية، وتواصل إلى والي الجزائر الهدايا، دفعًا لغائلة السفن المغربية عن سفنها، فكان من قطع المغاربة ـ خصوصًا الأندلسيين منهم ـ السبل البحرية على بحّارة الإسبانيول وغيرهم، من السَبي والأسر والعَيْث الذي أتوه على شواطئ أوروبا، لا سيَّما إسبانية ما ألَّف له الأوروبيون تواريخ خاصّة به، وهو يدلّ على استحكام الإحِن في صدورهم، وفي الواقع لا نرى عداوة طال أمرها، وتوقَّدت جمرها كالعَداوة التي بين المغاربة والإسبانيول.

وقد اتَّفق الكتّاب على أنّ الأندلسيين الجالين عن بلادهم إلى بَرّ العُدْوَة، احتملوا معهم على أيديهم صناعة الأندلس، وفي صدورهم همم أهلها، ونقلوا ذوق تلك البلاد الموصوف بالسلامة إلى حيث ألقوا عصا تسيارهم[٢]، فأخذت عنهم فنون، وشاعت بواسطتهم صنائع، وانتشرت بسببهم فوائد، وكانوا مع رثاثة حالهم وتشريدهم من بلادهم، صفر الأيدي إلاّ من زهيد المَتاع، يمثّلون حيثما حلّوا قطعة من الأندلس، ولا يزال على بيئاتهم وأنواع معايشهم وسائر شؤونهم ومآخذهم، مسحة أندلسية تمتاز بالذوق،

---

(١) تكرّر في هذا التاريخ ذكر القدر وهو هنا في موضعه فإنّ القدر والمقدار أن تكون الوقائع بقدر أسبابها وعللها وجارية على نظام سنن الله المطردة في الخلق، وأمّا ما تقدّم من الاعتذار عن الخضوع للأعداء بالقدر وكونه خضوعًا له لا لهم فإنّما يصحّ في حال العجز التامّ عن كلّ عمل في جهادهم ولم يكن كلّ أولئك المعتذرين بالقدر كذلك، ولا سيّما ذلك السلطان الأفين الظالم الفاسق، فيجب أن يعلم المسلم أنّ بدعة الاعتذار بالقدر عن المعاصي وعن القيام بما يجب من حقوق الأمّة العامّة كالجهاد، وعن الاستسلام للأمراض والمصائب وعدم الاهتمام بدفعها بالأدوية مثلاً، هي أقتل البدع لهذه الأمّة، وقد توسّل بها بعض المستعمرين لإقناع الشعوب الإسلامية الجاهلية بالرضا بسلطة الأجنبي بحجّة أنها بقدر الله، وإنّما الواجب مقاومة الأقدار بالأقدار، كما قال الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه، حين أمر بعدم دخول الشام لوجود الوباء فيها، فقيل له "أتفر من قدر الله؟". قال: "نفر من قدر الله إلى قدر الله". وقد كان الذي سأله سؤال الإنكار أبو عبيدة (رضي الله عنه) فقال له: "لو غيرك قالها؟؟".

(٢) إلى حيث ألقوا عصا تسيارهم: أي إلى حيث وصلوا في سَفَرِهم، ورحلتهم.

تدلّ على الأصالة في التمدّن، حتَّى أنَّ الكاتب فليكس دو بوا الإفرنسي، الذي ساح في أواسط أفريقية في العام المنصرم[1]، عثر على قَبيل في جِوار تنبكتو، يقال لهم "الأندلوز"، حقَّق بما أخذه من أخبار أصول تلك القبائل، أنهم من جالية الأندلس كما يدلّ عليهم اسمهم، وذكر أنهم مع فقرهم تجدهم أسمى ذوقًا، وأعلى طبقة في المدينة، من القبائل المجاورَة لهم، ولهم صناعات مخصوصة بهم كالصِياغة والنقش إلى غير ذلك، والظاهر أنهم مترامون[2] إلى السودان عن مراكش، وسُبحان من بيده تصاريف الأمور.

(١) أي عام ١٨٩٦م.

(٢) مهاجرون، مُبْتَعِدون.

خاتمة

لا تزال آثار العرب حيّة في إسبانية، تشهد بفضل هذه الأمّة، وتنطق بامتزاج الإسلام مع الحضارة، وأنَّ كثيرًا من الأماكن في تلك البلاد خصوصًا غَرناطة وقُرْطُبة وإشبيلية، بل بَلَنْسِية وطُلَيْطُلة قد يظنّ الداخل إليها أنَّ المسلمين لم يغادروها إلاَّ منذ عهد قريب، وقد اندمج كثير من الأوضاع العربية في البناء بالهندسة الإسبانيولية، كما اختلط اللسان الإسبانيولي بالعربي، وتولَّدت من هذا الاقتران ألفاظ خلاسية، سَرَد منها الفاضل المحقِّق أحمد أفندي زكي[1] جمهورًا[2] في رحلته إلى الأندلس المنشورة في جريدة "الأهرام".

وقد اتَّفق المحقِّقون من مؤرِّخي الإفرنجة، أنَّ إسبانية كانت مجاز العلم من الشرق إلى الغرب، ومبعث أشعّة العرفان، أفاضها العرب، فاستنارت بها أوروبا، واهتدت بها طويلاً، وقد تركوا هناك آثارًا في الصناعة والزراعة والبناء، وأفخم ما بقي عنهم منها، مبانيهم التي لا تزال إلى الآن بهجة السيّاح ودهشة الناظرين، على أنهم في أيامهم لم يتركوا فرعًا من فروع العلم ولا شعبة من شعب التمدُّن، إلاَّ ضربوا فيها بِسَهْم، وكانوا فيها القدوة لغيرهم، فما شئت من طبّ وجراحة وصيدلة وفلسفة ومنطق وطبيعة وهيئة[3] ورصد وحساب وجغرافية.

ومن أُشْبونة، خرج الأخوة المغرورون، هائمين في بحر الظُّلُمات طمعًا في الوصول إلى برّ وراءه يعدّون إليه، على ما ذكر الشريف الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق، إلى اختراق الآفاق"، وقد قمت بنشره في الجرائد، إجابة لبعض السائلين عن ذلك من أهل أميركا، وكانت عندهم مبادئ في الفنون العسكرية، والمِلاحة، وعناية جزيلة بخزائن الكتب، وحمَل العلم، وتأليف الأندية العلمية، واختراع الآلات، وهم الذين أدخلوا إلى أوربا الكاغد[4] والبارود من الصناعة، على ما أدخلوه من النبات والشجر الجديد في

---

(١) هو الأستاذ العلاّمة أحمد زكي باشا المصري.

(٢) سَرَدَ منها جمهوراً: سَرَد كثيرًا منها.

(٣) علم الهيئة، علم يُبحث فيه عن أحوال الأجرام السماوية (Cosmographie).

(٤) الكغد والكاغِد والكاغَد: القرطاس.

الزراعة، وبالإجمال فكانوا حَمَلَة العلم، وأُنموذَج الأمم المتمدِّنة في القرون الوسطى، وكانت إسبانية لعهدهم، جنّة الله في أرضه، ونُكتة معمور الدنيا بطوله وعرضه، وغابت شموسها من بعدهم، وأوحشت لفقدهم.

وقد ذكر "لافاله" على وجه الإجمال مدنيّة الإسلام بإسبانية، وأتى على بيان مزاياهم في الصناعة والزراعة والغراس والبناء، ووصف قصر إشبيلية، وحمراء غَرناطة وجامع قُرْطُبة، وأطال في خصائص الهندسة العربية والزخرف الشرقي، ثمَّ تكلَّم على أسلحة الأندلسيين، وقرَّر أنَّ العرب هم أول من استعمل المدافع النارية في أوربا، وأنهم هم الذين هَدَوا الأوروبيين إلى صناعة البارود، وعرَّفوهم بصنعة أخرى أشدّ تأثيرًا على الاجتماع الإنساني، وهي عمل الورق، قال وإنَّهم في جميع الفنون فاقوا المسيحيين، وبلغوا الدرجة القصوى من الحضارة حينما كان أقرانهم ملفوفين في حنادِس[1] الجَهالة والبربرية، فكانوا فوقهم في العلم ومثلهم البأس، وكانوا حكماء في المجالس؛ أشدّاء في المآزق، فإن قيل، فإن كانت الحال على ما وُصِفَت فلماذا سقطوا...؟ قلنا إنَّهم ظلّوا مدّة ثمانية قرون لم تنقطع بينهم الفرقة والشِقاق، الذي كان يمزِّقهم كلّ مُمزّق، وإنَّه أعوزهم روح الوئام والاتّحاد الذي به قوّة الأمم وفَلاحها.

ولا أتعرَّض الآن لتفصيل ما انطوى تحت هذه التضاعيف ممَّا يستغرق المجلّدات الكبار لا سيّما وإنَّ الكلام في هذا الموضوع قد طال طولاً أخاف عليه انتقاد القرّاء، والسبب فيه أنني لم أستحضر التأليف بتمامه قبل طبعه، وإنّما كنت أولّفه وأنشره متابعًا، فحرصت أن لا يفوتني فيه شيء أعتقده مهمًّا ممّا وصلت إلى الاطلاع عليه يدي القاصرة ليأتي كتابًا مستوفى في بابه، ويكون قد نقع الغليل في هذا السبيل، وجعلت أكثر اعتمادي في متأخّر المدّة على الكاتب الإنكليزي اللغة (واشنطون أرفن) مع المقابلة بينه وبين غيره، ومزاوجة النقل الإفرنجي دائمًا مع الرواية العربية من (نفح الطيب) التي لم أطّلع على سواها في هذه اللغة عن هذا التاريخ كما لا يخفى. ولا يبعد أني إنْ حقّقت أشياء فوق ما كتبت بهذا الكتاب، ممّا يتعلّق بأخبار غرناطة أضفته إلى هذا الكتاب في الطبعة التالية.

ولا ينس القارئ اللبيب أنني نبّهته إلى غرضي في مقدّمة الكتاب وهو التنقيب عن أخبار الحَقَبَة الأخيرة من نزول المسلمين بتلك البلاد، لأنَّ هذه القطعة هي أشدّ الأقسام

---

(١) عَنى بها: ظُلُمات.

احتياجًا إلى هذا المعوز من تأريخهم، وإنّني لا أستحسن مذهب الكتابة في ما طال تعاور الأقلام إيّاه بلغة قوم، وصار التأليف فيه زيادة أعداد، وإضاعة مداد.

ومن الغريب أنَّ هذا التاريخ فضلاً عن ندوره بالعربي لِمَن أجدر المطالعات بالوعي لِما جاء فيه من سِيَر الأبطال، وأوصاف مواطن النزال، وما تبطنه من غريب الوقائع الحاكية موضوع القصص ومولود الخيال، ممّا لا يعتري قارئه الملال.

ولا أكتم القارئ الذي هو خليق بأن لا يخفى عليه ذلك بشفوف بصره ولطف حسّه أنَّ الأمر غير خال في هذا الإملاء أيضًا من نزعة جنسية، وحنوة عصبية، وهَفوة للفؤاد وراء آثار بني الجلدة، ممّا تستشعر فيه مرضاة هذه النفس العظيمة السرّ، البعيدة مهوى الغرض، الغريبة شكل الهمّ، وتوفّر به اللّذة والراحة لهذا الوجدان الداخلي السائح في أثر ما يتعلّق بالنفس من جميع جهاتها، على ترجيح الأقرب فالأقرب، وقد طبع الخالق الحكيم هذا المرء على حبّ جنسه، والميل للاتصال بأبناء أبيه، فكأنما يتمثّل بذلك صورة نفسه التي هي جزء من هذا المجموع، لما يحس من أنَّ أقرب أنواع الدم إلى دمه هو الجاري في عروق قومه، فهو يحنّ إليهم، ويحنو عليهم، ويتألّم لألمهم، ويعتزّ بعزّهم، وتراه إذا غابت أشخاصهم، استأنس بآثارهم بعد الأعيان(١)، وارتاح إلى مواطنهم، ورغب في الدوس على مَواطئ أقدامهم، ولو بعد أزمان. وقد عَهِدنا الذي يصاب بعزيز أو بذي قرابة، يختلف(٢) إلى قبره، ويشفي بالبكاء عنده حرارة صدره، وإذا ظفر بقطعة من ملبوسه أو مفروشه، أو برُقعة من خطّه، احتفظ بها، وغالى في قيمتها، وجعلها مدار أنسه، في خَلَوات نفسه، وروح حياته، في مُنتَبَذِ(٣) مُناجاته، وبناءً على هذه القاعدة، أُولع الخلق بحفظ آثار الغابرين، وتطلّعوا بغريزة فيهم إلى معرفة سير السالفين، ووقفوا على الأطلال الدَوارِس، وبكوا على الدمن البَوالي، كأنما يجدّدون عندها عهودهم مع آبائهم، ويشدُّون لديها معهم عُرْوة وفائهم.

ومن هذا المأخذ، انبعث الشعور بالمَيْل إلى احتذائهم ومُحاكاتهم في سَيْرِهم، واقتِصاص الخافي والعافي من أثرهم(٤)، تصديقًا لقول نبيّنا (ﷺ): "لتتبعن سُنَنْ مَنْ

(١) جمع شاذ لعَين.

(٢) يذهب.

(٣) ما هنا، الانفراد بعيدًا.

(٤) ما ظهر من أثرهم وما امّحى. "ومعروف أنَّ الخافي من الأضداد، تعني الستر والظهور".

قبلكم شِبرًا بشِبرٍ وذِراعًا بذِراع حتَّى لو دخلوا حُجْرَ ضَبٍّ لدخلتموه»[1] فيا ليتنا نتبع الآنَ سُنَنَ مَن قبلنا، ونقتدي بسلفنا، ونبني بناء أوائلنا، ونعتبر بحمراء غرناطتنا، وخضراء دِمَننا، ونتأمَّل في سالف عِزِّها وسابق أمْرها ونجتنب الفرقة التي آلت إلى فقدها، ونسأل رسومها عمَّا مضى من نعيمها، فهي رسوم إن لم تُجِبْكَ حوارًا، أجابتك اعتبارًا، فلا يكونَنَّ دائمًا من شأننا أن نتباهى بمجد الأوائل ونفاخر بالعظم الرميم، دون أن نقتصّ أثر الآباء ونُحيي ذِكر القديم، ولا يبقى من نصيبنا في المجد إلاَّ حديث سمر، ومجرَّد ذِكر، وما أحسن ما قال شوقي، شاعر العصر:

وذاتُ دلالٍ من بني الرُّوم حولها ... إذا ما تَبَدَّتْ أخوةٌ سَبْعةٌ مُرْدُ
عُنيتُ بها حتّى التقينا فهزَّها ... فتى عربيٌّ مِلءُ بُرْدَتِهِ مَجْدُ
فقالت أطيبٌ بعدَ عُسرٍ وشدَّةٍ ... فقلت: نعم مِسْكُ الأحاديث والنَدُّ
عُطِّلنا من النُعمى وطُوِّقَ غيرُنا ... تَداولَتِ الأيّامُ وانتقل العِقدُ
وما ضاعتِ الدنيا علينا وحُسْنُها ... ولكنْ عن أغصانِهِ رَحَلَ الوردُ

هذا وكان الفراغ من كتابة هذا التأريخ ليلة السبت
الواقع في السادس والعشرين من المحرَّم سنة
خمس عشرة وثلثمائة بعد الألف الموافق
٢٦ من حزيران سنة ١٨٩٧

(١) الحديث في مسند الصحيحين وتتمّته أنَّ الصحابة (رضي الله عنهم) سألوه (ﷺ) عمَّن قبلهم فقالوا: "يا رسول اليهود والنصارى"؟ قال: "فمَن؟". وفي رواية أنهم فارس والروم، وكلتاهما بمعنى، والمراد أنهم بعد الاهتداء بالإسلام، والاعتصام به، سيتدعون في دينهم ويتفرّقون شيَعًا بعد اتّحادهم، كما فعل مَن قبلهم من الأمم المجاورة لهم، فيحلّ بهم من عقاب الله ما حلّ بأولئك، وكذلك وقع، وما حلّ بهم في الأندلس من الشواهد عليه. ولكنَّ المؤلّف أراد أن يعظ المسلمين من طريق آخر على طريق أسلوب الحكيم، فتمنّى لو اتّبعوا سنن سلفهم الصالح فيما أصلحوا فيه قبل فساد أمرهم.

وثائق تاريخية

أربعة مراسيم سلطانية صادرة عن أبي الحسن

علي بن أبي النصر بن أبي الأحمر

إلى بعض فرسان الإسبانيول

وزعمائهم بين سنتي

١٤٧٠ و١٤٧٥

(عن نسخة مطبوعة بباريس سنة ١٨٦٣)

المرسوم الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

صلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا. من عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله، ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر، ابن الأمير المقدَّس أبي الحسن، ابن أمير المسلمين أبي الحجّاج، ابن أمير المسلمين أبي عبد الله، ابن أمير المسلمين أبي الحجّاج، ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيّده الله بنصره، وأمدَّه بيُسره، إلى الفارسَين المكرَّمين الزعيمَين الحسيبَين المشكورَين الوفيَّين، دون دياقه هرندس المرشكال، ومرتين الهَنْشة ذي منت ميور، صاحب القبذيق، أكرمهما الله بتقواه، وأسعدهما بهداه، سلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا؛ كتبنا إليكم من حمرائنا العليّة بغَرناطة حرسها الله، عن الخير والعافية والحمد لله.

وإلى هذا فاعلموا أيها الفارسان المكرَّمان أنه وصل كتابكم، وفهمنا جميع ما ذكرتم فيه، فشَكَرنا تعريفكم وقصدكم، وأثنينا على محبّتكم ومودّتكم، وشكرناكم على وصولكم للقبذيق، وعلى إظهار المحبّة التي لا شكّ فيها فأنتم ـ علم الله ـ عندنا من أحبابنا الأوفياء وأصدقائنا الأصفياء، وبسبب أنه وصلنا التعريف أنَّ دون الهَنْشة والفرسان جازوا على توجُّه وزير مقامنا، لجهة وادي آش، ولأجل أنه توجَّه سريعًا، ولم يصحّ عندنا من الأخبار شيء، بصحيح ما عرفكم بشيء، فنزيد منكم أن لا تزالوا تعرفونا بما يزيد عندنكم، وكذلك نحن نعرفكم بما يزيد عندنا وجميع حوائجكم عندنا مَقضيّة والله يعمل كرامتكم بتقواه.

كُتِبَ في (التاسع عشر) لربيع الأول عام خمسة وسبعين وثمانمائة. صحّ هذا.

❁ ❁ ❁

المرسوم الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

صلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا. ليعلم من يقف على هذا المكتوب الكريم أو يسمعه، أننا عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله، ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر، ابن الأمير المقدَّس أبي الحسن، ابن أمير المسلمين أبي الحجّاج، ابن أمير المسلمين أبي عبد الله، ابن أمير المسلمين أبي الحجّاج، ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أ يَّدنا الله بِنَصْره ... وأمدَّنا بِيُسْرِه ...

كان بيننا وبين الفارس المكرَّم الزعيم الحسيب المشكور الأوفى دون دياقه هرّندس دي قُرْطُبة قند قَبْرة، بن قند حصن أشر، صاحب بيّانة، وقائد القلعة، والفارس المكرَّم، الزعيم الحسيب المشكور، مرتين الهَنْشة ذي منت ميور، صاحب القبذيق، والفارس المكرَّم، الحسيب الزعيم المشكور، يبغش بنيغش صاحب لكٌّ والبندين، أكرمهم الله بتقواه صُلح ثابت، ومحبّة صادقة، ومودّة خالصة، منعقدة لأمدٍ معلوم، ولأجْل أنَّ هذه المحبّة التي بين مقامنا وبين الفرسان المذكورين هي تزداد في كلّ يوم وفي كلّ حين، ونحن نريد أن تزيد أكثر من ذلك، وأن نجدِّدها الآن، وأن نُدْخِلَ في الصلح والمحبّة، الفُرسان المكرَّمين، يبغش بنيغش صاحب لكٌّ والبندين، ودون دياقه هرندس المرشكال بقَشتالة. والوزير الكبير بقُرْطُبة، ودون مرتين قمنددور إستبَّة أولاً القند دي قَبْرَة، فلأجلِ ذلك، تعلمون أيها الفرسان المكرَّمون، والأحباب المشكورون دون دياقه هرندس دي قُرْطُبة قند قَبْرَه وبن قند حصن أشَر، وصاحب بيّانة وقائد القلعة، ومرتين الهَنْشَة دي منت ميور، صاحب القبذيق، ويبغش بنيغش صاحب لكٌّ والبندين، ودون دياقه هرندس المرشكال * بقَشْتالة، الوزير الكبير بقُرْطُبة ودون مرتين قمندور * إستبَّة. أكرمكم الله بتقواه، وأنَّ مقامنا الكريم يُعقد ويُجَدَّد معكم صُلحًا صحيحًا، ومحبّة ثابتة خالصة لهذه من عشرة أعوام أعجمية متوالية،

(*) مرشكال وقند وقمندور: هو الرسم العربي لألفاظ لاتينية، تدلّ على مناصب، غالبًا ما تكون عسكريّة، تولاّها نبلاء الإفرنج؛ كلفظ "قومس comes" باللاتينية، مفرد "قوامس"، زعماء النصارى في قواعد الأندلس. وأصبح ذلك منصبًا دينيًّا.

يكون أولها أول يوم من شهر ينير الأعجمي، مُفتتح عام اثنين وسبعين وأربعمائة وألف لتاريخ المسيح، ويكون تمامها آخر يوم من شهر ديسمبر الأعجمي عام أحد وثمانين وأربعمائة وألف لتاريخ المسيح المذكور، على أن نكون أحباب أحبابكم، وأعداء أعدائكم، وأن نعينكم في جميع الأمور التي تحتاجون إليها في وطنكم، بقدر جهدنا على جميع أعدائكم من أيّ صنف كانوا، للمدّة التي تريدونها، وفي الوقت الذي تعرفونا بحاجتكم في الإعانة، أو توجَّهوا رسولكم في طلب ذلك، نُعينكم بقَدْرِ جُهدنا، وكذلك نُعرِّفكم أيها الفُرسان المكرَّمون بجميع ما نعلمه أو نتعرَّفه، من سرّ أوَ غيره، ممَّا لا يكمل لحرمتكم نعرِّفكم بذلك سريعًا. مع رسول صادق معروف، لأجل أن تجعلوا خلاصًا في أرضكم قبل وقوع الفساد، وإذا نميّز ضررًا لجهّتكم، نجتهد في تبعيده عنكم، وإن ميَّزنا فائدة أو مصلحة لجهّتكم، نجتهد في تقريبها لكم؛ ونحفظ المودّة والصحبة المنعقدة بيننا وبينكم في الأقوال والأفعال.

واعلموا أيها الفرسان المكرَّمون المذكورون، لأنَّ أولادنا الأمراء أسعدهم الله، يحفظون لكم هذا الصلح وهذه المحبّة والصحبة، مثلما نحفظها نحن بخاصّة مقامنا الكريم، فإنَّكم من أجَلّ أحبابنا الأوفياء، وأصدقائنا الأصفياء، ومن أهل رأينا الكبراء، فجانبكم عندنا محفوظ، ومحبّتكم صحبة ثابتة، لانشكّ في صدق محبّتكم ولا في خلوص مودّتكم، ونحن نعاهدكم على صحّة جميع ما ذكرنا لكم، ونحلف لكم بالله الواحد الحقّ، على أنَّ كلّ ما ذكرنا لكم نوفي به ونحفظه ونحرزه بالقدر والوفاء في كلّ وقت، من غير غَدر ومن غير خِداع. ولأجل أن يكون هذا العقد صحيحًا وثابتًا، ختمناه بعلامَتِنا السعيدة، الصادرة من يدنا الكريمة، وجعلنا عليها طابَعَنا العزيز المعهود عن مقامنا الكريم. في أوائل رجب الفرد المبارك عام ستّة وسبعين وثمانمائة، عرف الله بحكمته. صحَّ هذا.

❁ ❁ ❁

المرسوم الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

صلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّد وعلى آله وصَحْبه وسلَّم تسليمًا. من عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله، ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر، ابن الأمير المقدَّس أبي الحسن، ابن أمير المسلمين أبي الحجّاج، ابن أمير المسلمين أبي عبد الله، ابن أمير المسلمين أبي الحجّاج، ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر، أيّده الله بنصره، وأمدَّه بيسره، إلى الفارس المكرَّم الزعيم الحسيب المشكور الأوفى، دُون دياقه هرندس ذي قُرْطُبة قند قَبره بن قند حصن أشر، صاحب بيّانة وقائد القلعة أكرمه الله بتقواه وأسْعَدَه بهُداه.

سلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، كتبناه إليكم من الحمراء العليّة بغَرناطة حرسها الله، عن الخير والعافية، والحمد لله وإلى هذا فاعلموا أيها الفارس المكرَّم والقند المُرفَّع، أنه وصلنا كتابكم صُحبة القائد جوان يناذه، واستوفينا ما ذكرتم فيه، وأمَرْنا وزير مقامنا الكريم، أسعده الله، أن يتحدَّث معه، ويقرِّر له قصد مقامنا العليّ، أعلاه الله حسبما يخبركم به، وما ذكرتموه عن وجهتكم وسفركم لسُلطان قَشتالة صديقنا أكرمه الله بتقواه، فإذا مصلحتكم في ذلك فتتوجّهوا، وإن شاء الله بالسلامة، واعلموا أيها القند المرفَّع، أنَّ حبيبنا ولدكم المرشكال أكرمه الله بتقواه، وأرضكم تكون منّا ببال، وما يُعلمهم إلاَّ ما يُرضيهم، والذي وقع ما وقع، إلاَّ بأسباب يقرِّرها لكم المذكور، ولا نشكّ أنَّ فرساننا أخطأوا في بعض ما نُضر، ولكنَّ محبّتكم عندنا معلومة، فلا تشُكّوا في ذلك، ولا تعتقدوا خِلافَه، ويريد منكم أن توصّوا أهل القلعة أن لا يخرجوا عن الواجب، وكلّ ما لكم من الحوائج، نعمل فيها ما يرضيكم، والله يعمل كرامتكم بتقواه.

كُتِبَ في الرابع والعشرين من الربيع الأول عام ثمانين وثمانمائة. صحَّ هذا.

Adresse au verso:

الفارس المكرَّم، الزعيم الحسيب الأوفى،
دون دياقة هرندس ذي قُرْطُبة قند قبره بن
قند حصن أشر صاحب بيانه وقائد القلعة
أكرمه الله بتقواه

المرسوم الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

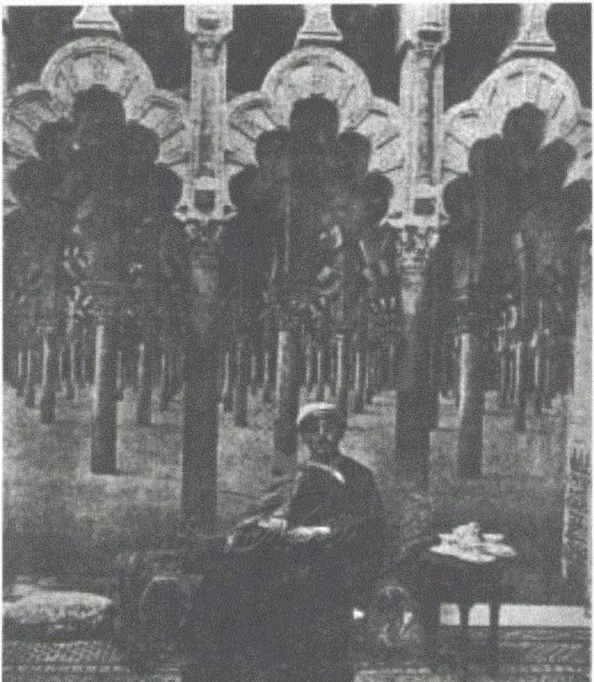
صلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا، من عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله، ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر، ابن الأمير المقدَّس أبي الحسن، ابن أمير المسلمين أبي الحجّاج، ابن أمير المسلمين أبي عبد الله، ابن أمير المسلمين أبي الحجّاج، ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر، أيّده الله بنصره، وأمدَّه بيسره، إلى الفارسَين المكرَّمين، الزعيمَين المشكورَين، الوفيَّين الأحبَّين، دون دياقه هرندس المرشكال بقَشتالة، ومرتين الهَنْشة دي منت ميور، صاحب القبذيق، أكرمهما الله بتقواه، ووفَّقهما بهُداه، سلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، كتبناه إليكم من الحَمراء العليّة بغَرناطة حرسها الله عن الخير والعافية، والحمد لله، وإلى هذا، فاعلموا أيها الفُرسان المكرَّمون، أنه وصلنا كتابكم، واستوفينا ما ذكرتم فيه، فشكَرنا قصدَكُم ومحبَّتكم، والأمان الذي طلبتموه، يعملكم كرامة لكم، وقد أمرنا وزير مقامنا العليّ، أسعده الله، بكتب لكم بالغًا حسبما يعملكم، فاعلموا هذا وكلّ ما لكم من الحوائج نعمل فيها ما يرضيكم، والله يعمل كرامتكم بتقواه، وكُتِب في الرابع عشر لجمادى الآخرة عام ثمانين وثمانمائة. صحَّ هذا.

Adrcssc au verso:

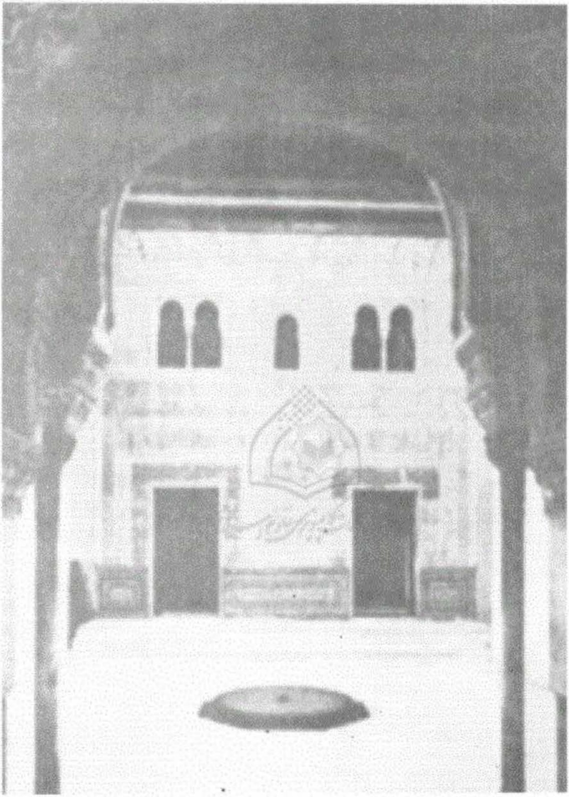
الفارسان المكرَّمان، الزعيمان دوق دياقة
هرندس المرشكال، ومرتين الهَنْشه دي
منت ميور، صاحب القبذيق أكرمهما
الله بتقواه.

فهرست المحتويات

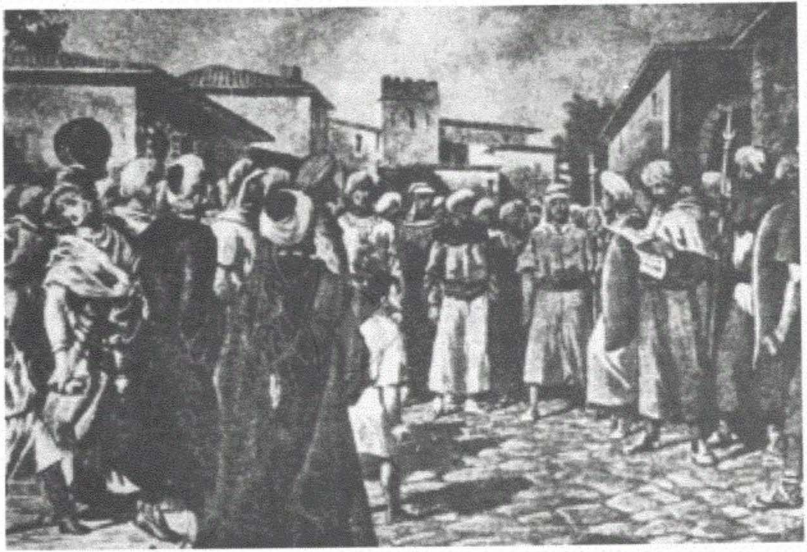
❁ ❁ ❁



صورة المؤلّف أمام مسجد قرطبة.



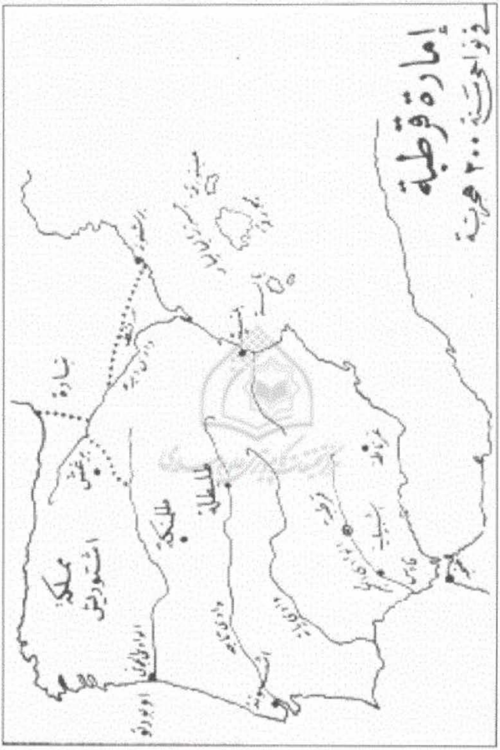
أحد قصور غرناطة

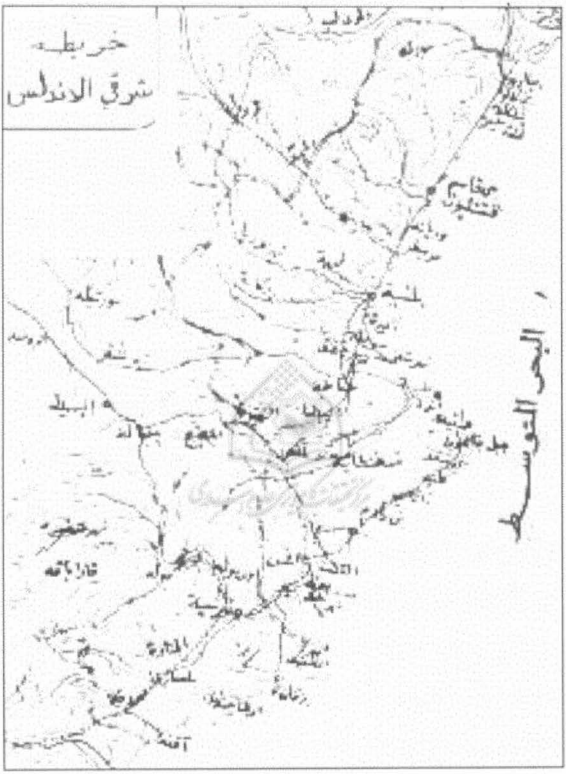


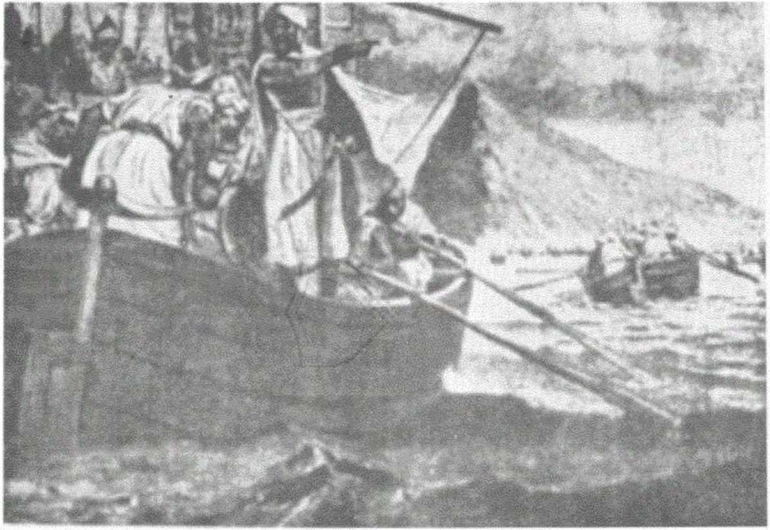
تسليم طليطلة لعبد الرحمن الثاني سنة ٨٣٨م.



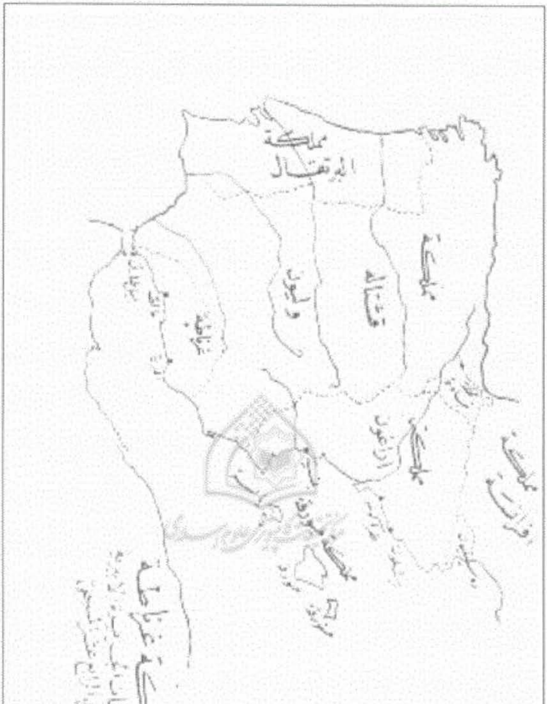
السلطان محمّد الفقيه ابن محمّد الشيخ من بني الأحمر يوم تتويجه على غرناطة سنة ١٢٧٣م.


إمارة قرطبة
في سنة ٣٠٠ هجرية


خريطة
شرق الاندلس
البحر المتوسط

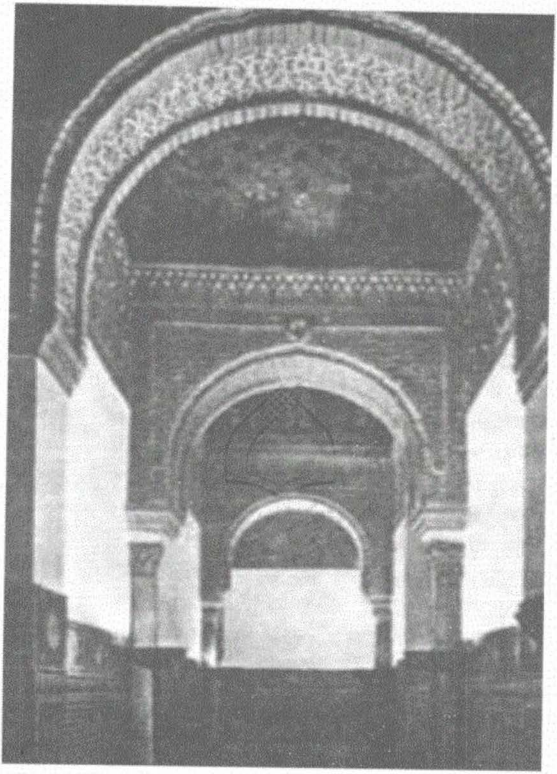


مرور العرب لأول مرّة من المغرب إلى الأندلس سنة ٧١٠ ب.م

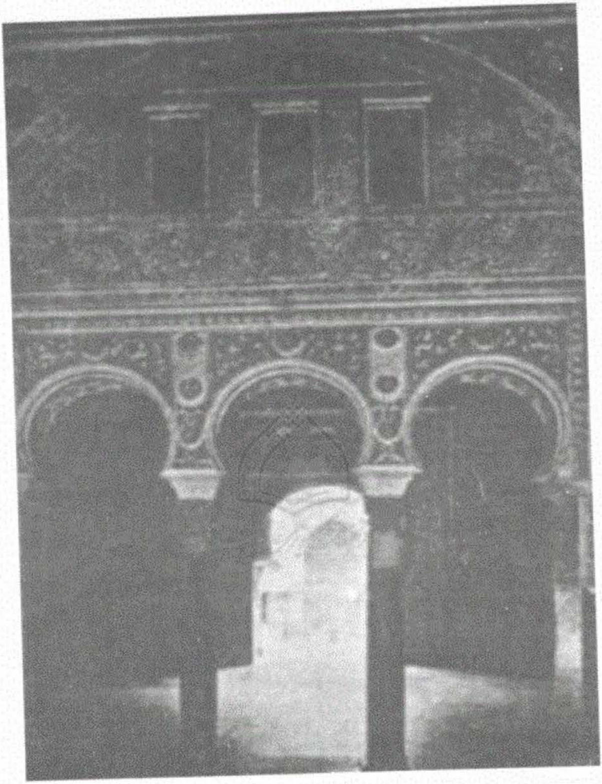

مملكة البرتغال
قشتالة
ليون
مملكة غرناطة



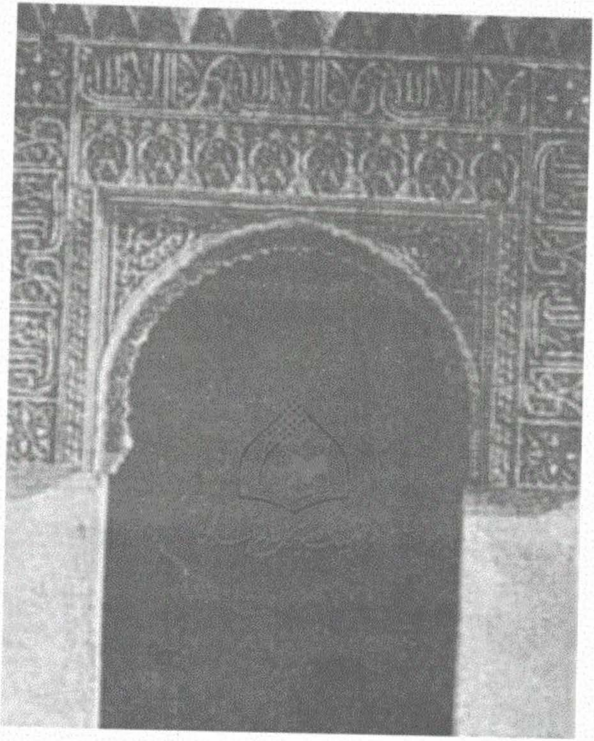
ملاقاة موسى بن نصير مع طارق بن زياد بأرض طليطلة



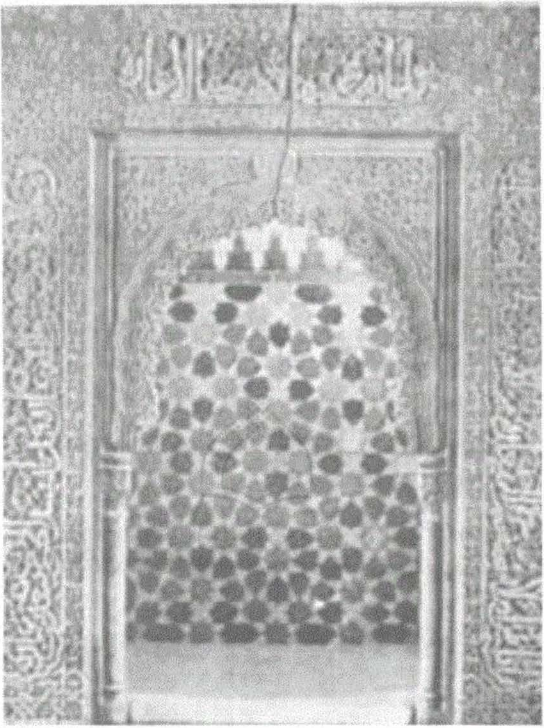
الأقواس والأعمدة داخل أحد القصور



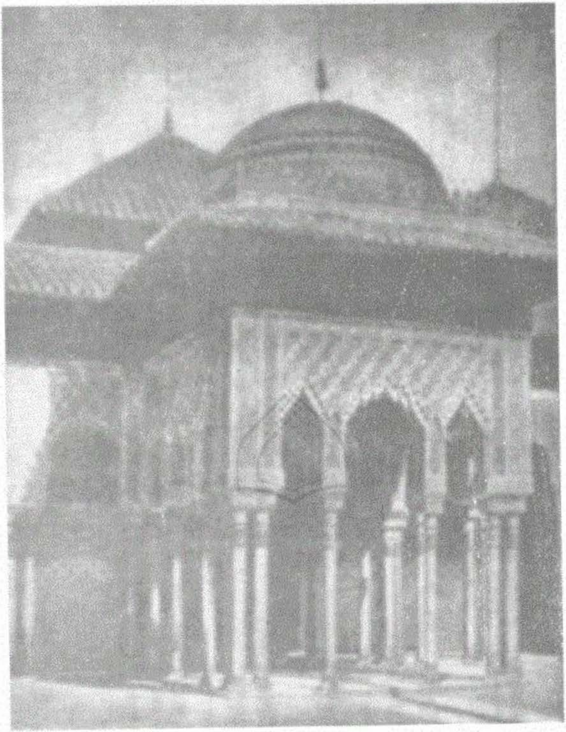
قاعة السفراء



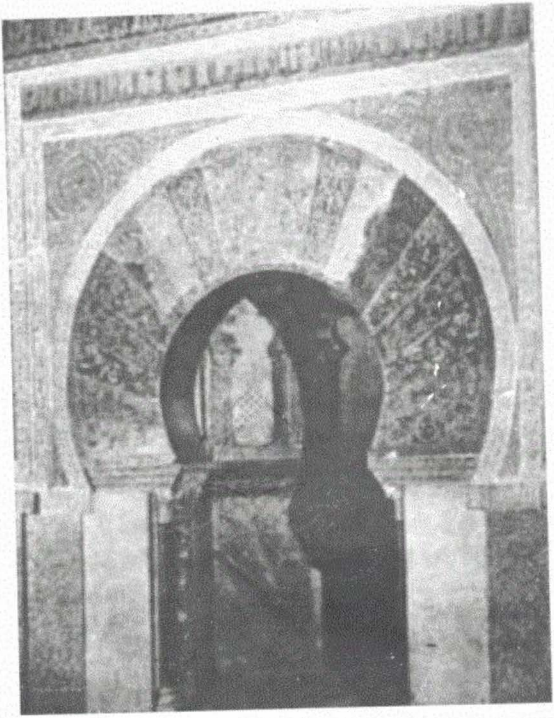
بهو السفراء قمارش



مشكاة لوضع الأباريق في قاعة البركة



قصر الحمراء في غرناطة



محراب جامع قرطبة